سمير عبد الباقي

على هامش السيرة الذاتية

كراكيب المندرة

دار الثقافة الجديدة

على هامش السيرة الذاتية

الكتاب الثاني

كراكيب الصندرة

صور ومناكفات

سمير عبد الباقي

مقدمة

الشعر وسعر السوق

لا أنا من أدباء السلطة ، ولا من شعراء الأمن العام ، ومانيش من خبراء تحقيق الخطة ولا من أزلام الحكام ، ولا خدام فى دواير نقص ورقص الملك المعبود الأوحد ، ولا صاحب عيا ، ولا صاحب دكان . علشان كدا قلقان زى الأجري الهربان ، أصبحت باشك أن الكذب مؤبد والعهر مخلد ، والقهر والفقر ضرورة والحاجة لها

أحكام والأبعد أقرب من عرْق الخسة والنجسة أحب وأبقى من ذات الأكمام . لذلك في عرف السادة الخدام نكدي وشتّام ، لا أنا عاجب أهل الذكر ولا الفكر ولا صبيان الإعلام .

أعمل إيه ؟ ..

شيخ النقاد الشايب مش شايف إلا رئيس التحرير وسكرتيره ، الشاعر مش سامع صوت غيره ، والعسكري كتر خيره سهران بيسقف على الواحدة مع الأنغام .. من بعد ما أنهى مهمة قتل الأطفال والعمال بكل بساطه وبكل نظام ..!

تعمل إيه ؟! لما تحس بأنك بعد ما آمنت لطوب الأرض ، وآمنت بأن البني آدم ملح الأرض وإنسان ، خلفت وياك الحسبة وخالفت خطاويك الأيام ، خانت أو خابت ، خانوا يا خابوا .. خنت كإنك خيبت ماهيش فارقة مع سعر السوق ولا في الأحلام ..

كتاب التاريخ رتبوا أحوالهم على كيف حلاليف المستقبل . والثوريون صناعه ، هجروا الريف للمدن الجاهزه والحرة . والفن المستعمل والأيتام إللى ربيتهم حبيتهم و حميتهم ، أول ما طلعت ضوافرهم نهشوا ف لحمك ..

ما بقاش ليك إلا الشعر تبرد فيه نارك ، وتحوط بيه على دارك . وتأمنه على أسرارك ، مع إنه أضعف من خربوش جارك ، اللى بيفتل لك من دقن قصايدك حبل الإعدام ..

سمير عبد الباقي

.. قبل أن تتورط في القراءة

ولدت فى منتصف مارس 1939، لتندلع الحرب العالمية فى سبتمبر من نفس العام . وكأن العالم وانا كنا على موعد ، يحمل وعدا بعمر من الجمر والألم والأحلام النبيلة المجهضة.

كان ميلادى فى قرية (ميت سلسيل) أو(منية بنى سلسيل) تلك التى كانت تقع فيها جنة (الأخوين) التى جاء ذكر إبادتها فى القرآن الكريم ـ على عهدة (المقريزى) وكانت القرية القديمة تقع على الساحل المواجه لمدينة (تانيس) التاريخية التى كانت وسط بحيرة المنزلة ,,

وفى رياض تلك التى كانت جنة ـ وغياضها عشت طفولة فريدة على تخوم عالم الخيال وسط واقع إنسانى صارم و حى ، فيما بين شادر نجارى السواقى المنقرضة التى تلاحقها الحداثة

، وحقول فلاحى أرض السباخ وغيطان الدومين والتلول الممتدة حتى شواطئ البحيرة الغارقة تحت طبقات التراث الدامى .

تلك المسافات والمساحات العامرة بأعشاش طيور(أبو الخضير) السرية وجحور الثعالب المتكلمة والقنافذ الساحرة وذئاب البرارى ذات الأوكار الخرافية ومواطن الجنيات التى تفتح للقلب الصبى أبواب الحلم على اتساع ذراعى العالم ، وتدله إلى دولاب كتب الخال (الشيخ) الذى عاد مشلولا بعد حصوله على عالمية الأزهر بتفوق ليقعده الشلل مستسلما لقبضة قدر قاهر يعاقبه على ذنوب خفية لسلالة من المقهورين .

ويغوص الفتى الصبى الذى كنته فى الكنز العامر بكتب التراث وأيام العرب وقصص الأنبياء والخلق وتلبيس إبليس للعصاة والسحرة . فتأسره تلك الدنيا ويحرقه الشوق ويدفعه للتسلل إليها .. فى الأوقات التى لا تسرقه فيها عبقرية الخالة (أم يوسف) مبدعة حكايات الجن والعفاريت الشريرة والغيلان الحمقاء والجنيات الطيبات ونوادر الشطار والبسطاء من المخدوعين ـ فلاحين وفلاحات وسيدات ماكرات – يتخلقن من خيالها الإنسانى الرحب المفعم بعطر ألف ليلة وليلة التى لديها قدرة فائقة على تجسيده واقعا ملموسا ، وحياة حقيقية تموج ببشر حقيقيين يعيشون فى بيوت حقيقية من لبن وبوص وغصون أشجار ..أو دنيا خيالية من قصور اللؤلؤ ومدن المرجان على مرمى البصر ..يسكنها بشر من خلق الله .. بنات ذوات نمش وشعر أكرت وعيون لها خضرة البرسيم . وشفاة فى طعم العسل ..

إلى أن تخطفه منهن حوريات جبل الأولمب اللائى ألقين إليه حبال الحلم الإغريقى الساحر من صفحات كتاب غامض أدهشنا بحكاياته مدرس الرسم الجميل ساحر العمر الأول الذى قادنا إلى بحار (بوسيدون) وغابات (ديانا) وطهر عيوننا بدموع (إيزيس) ودعانا لموائد أبطال الأساطير وأنصاف الآلهة .. نتحدى بقوة فعلها قيود واقع كبله عجز الفقراء وشقاء المتعبين .. فى ذلك الزمن الذى خلفته الحرب العالمية والرعب الذى أشاعه وباء الكوليرا وحكم الاستغلال والاحتلال وزبانية صدقى وعبد الهادى .

تلك الفترة التى غمرت سنوات الصبا وحطت بثقلها على كاهل المدرس الإلزامى الذى كان يحاول ـ دون وعى كما أظن ـ أن يحمى بيتا يريد أن يجعله (دون قصد فى أغلب الأحوال) مختلفا مستنيرًا تسوده سلطة الكلمة والتعليم والرغبة فى حياة أكرم ..

يصبح الفتى ، الوحيد بين أقرانه الأقربين الذى يفوز بفرصة تعليم فى سن مبكره فى مدرسة للبنات قبل الدراسة المنتظمة الرسمية .. فتتاح له فرصة اكتشاف العالم خارج البيت من خلال احتكاك واندماج مبكر فى عالم الباعة ، نساء الأسواق ورجال الكدح والترحال من خلال رحلات يومية لا تشبه واحدة الآخرى .. وتحمل كل واحدة احتمالات مؤكدة بمعرفة جديدة وخبرات مدهشة .. حية .. كل يوم ما بين مغريات الجرائم الطفولية الصغيرة .. والسرقات البسيطة فى الحقول و البساتين ورحلات الصباح والمساء فى القطارات البدائية مع أصدقاء لايعرفون حدودًا لفرحة الصبا الفقير ولا لروعة الطفولة التى تنمو فى حضن المعاناة مسلحة بنعمة الرضا تأخذهم الأمسيات إلى عوالم أكثر سحرا وجمالا مع جنيات الخيال أو بنات الواقع فى سهرات الشعراء الجوالين وأحزان الجنازات .. وطقوس الميلاد والموت .. لاكتشافات مدهشة عن طباع خلق الله وخداع الشياطين وساكنى الآبار المهجورة .. والسواقى المسكونة .. يشتد العود الأخضر على إيقاع مناشير النجارين وإبداع أنغام المغنيين التلقائيين وتراتيل المشايخ ورنين ورش الحدادين

واتساع الحقول .. وضجيج المقاهى وقصص الهجرة من وإلى بور سعيد والإسكندرية مختلطا بحكايات السلطة والرحيل إلى بلاد الشام .. ومغامرات المقاتلين فى فلسطين والأسرى المخطوفين من وسط الأهل إلى جزيرة الشيطان ..

بينما كانت الأرض تهتز بقوة تحت أقدام الملك والمعارك تحتدم كان الإخوان يدقون الأرض بأقدام الجوالة مشتل العنف وصوبة الجهاد المسلح لتشتد آلام المخاض وتشتعل المعارك على القنال بعد إلغاء معاهدة 36 وترتفع صيحات الحرية وضرورة أن ينال الشعب حقه فى حياة جديدة حرة .. وتحرق النار الشريرة القاهرة لتجهض انتفاضة الجماهير ، وينتهى الأمر الذى صار فوضى إلى قبضة يوليو القادرة فتدق عنق (خميس والبقرى) فى الوقت الذى تفتح الباب على مصراعية لعالم جديد يضج بالمدارس والمصانع والأناشيد وتعطى الناس أملا فى حياة جديدة وهى تحل الأحزاب وتدمر الجامعة وتقود حركة التحرر العالمية .. مشاركة فى بناء عالم ما بعد الحرب الذى ترتفع فيه صرخات الحرية والاستقلال مختلطة بآهات القهر وقسوة الاستغلال ويندفع الشاب صارخا بالشعر متوحدا مع الوطن ومع أحلام أبناء جيله .. الذى بدا مبهورا بصورة (ستالين) وأسطورة (ستالينجراد) و بالزحف الصينى الطويل وقدرة الفلاحين على تحقيق عدالتهم ..

يندفع مع حفنة من زملائه لتحرير الجمعية التعاونية لقريتهم بإدارة مستقلة فى ظاهرة فريدة تحدث لأول مرة فى مصر .. ويأتى الانتصار البسيط ليلفت أنظار المتربصين بالديموقراطية منذ أحداث مارس .. وينذرهم بخطورة وعى الفلاحين بواقعهم وإمكانياتهم .. خاصة وقد تزامن هذا مع تحول أحلامهم إلى إمكانية التحقيق بعد تأميم القنال وتجربة التصدى للعدوان واندفاع رياح الثورة لتوحد بين طموحات البشر المنتهكة حقوقهم تمتد بلا ملامح ـ فى تحالف يبدو على غير حقيقته حقيقيا ورائعا ـ من جنوب آسيا إلى غابات أفريقيا وشواطئ أمريكا اللاتينية.

يعطى كل هذا أملا فى إمكانية تحقيق الحلم عبر النضال تحت الأرض فى مواجهة التسلط والعنف والتخلف يقود الفتى إلى جب الزنزانة الانفرادية (ضمن اعتقال وسجن دام لخمس سنوات) أكثرها فى سجن المنصورة (الذى كان جمرة لتبلور وجدان أكثر عمقا وفهما لواقع المقهورين) فى رحلة امتدت عبر سجون ومعتقلات القلعة والواحات والسجن الحربى وقره ميدان والفيوم وسط لصوص وشرفاء ومجرمين عتاة وفقراء منتهكين وتجار مخدرات كبار ووشاة صغار ولصوص (سكة) من خاطفى حبال الغسيل ونشالين وهجامين وهفافين إلى كبار من سفاحى الصدفة ومهربى الممنوعات وفنانين فاشلين وغفر أميين وجنود هاربين .. وأصحاب عاهات ومجانين وأصحاب أرواح شفافة وأجساد مرهقة من نفايات البشر ، ضحايا احتدام علاقات الاستغلال . تؤكد كلها أن تاريخ القهر الإنسانى ممتد عبر العصور إلى ما لا نهاية .. ولن يكف عن استبدال شكله ومضمونه وأساليبه فى صور لاحصر لتنوعها ولاحد لانتشارها .. من سرقات التيجان والعروش بصورة دورية انقلابية إلى سرقات رغيف الخبز الحاف تدفع إليها الحاجة البشرية وضرورات سد شهوة الجنس والجوع والحرية ..

رحلة لا تتكرر ونادرا ما تحدث (لصبى قروي) يكاد أن يبلغ العشرين خاضها بكل آلامها ، تجربة غنية بالشخصيات الإنسانية من بشر بسطاء ولصوص أذكياء و سياسيين ، شرفاء وخونة .. وفرسان حالمين وثوار فلاحين وكتبة ومجانين .!

سلسلة من الأحداث الدرامية يختلط فيها الذاتى بالموضوعى والخاص بالعام والسياسى بالخديعة متحملا قسوة المعاناة الإنسانية التى تفرضها وطأة الحلم بالعدل والتوق البشرى الأبدى إلى الحرية والشوق الأزلى للتحقق الإنسانى .. بالذوبان فى أتون العذاب البشرى والامتزاج بتراب الوطن ليصبح الشعر والإبداع فرحة زاعقة طاغية أو ألما هامسا مستشرفا بشائر الحرية ..

يخرج الفتى من سجنه وسط مهرجانات بناء السد العالى وانتصارات الزحف الصاعد الذى كان أعداؤه أقوى كثيرا مما صورهم الواقع .. فأمكنهم ببساطة إفساد حصاد قمح الثورة ومحاصرة القلوب المثقلة بعذابات البشر صباح الخامس من يونيو .

تطفح على الروح إحباطات الواقع لكن القلب يندفع متعلقا ببقايا السفن المحترقة على سطح البحر الساكن الذى تمور أعماقه بوحوش التربص والخداع الساعية أبدا لدفع الثوار إلى هدم معابدهم بأيديهم كى يجتاح الأعداء الأرض مدمرين ما نجا من طوفان التسلط والقهر ومحو ما تبقى من بساتين الأزهار والقصائد .. لكن السندباد يبدأ رحلته من جديد خلف الحلم المراوغ متعلقًا بسيقان طائر الرخ الذى لا يموت .. فيهاجر فى رحلة عكسية إلى مدينة السويس ليعيش تجربة فريدة خلال الأيام الأولى بعد الهزيمة فى المقاومة الشعبية . وسط بشر جدد مختلفين من بسطاء عمال القنال العاطلين والصيادين المتعطلين أصحاب السفن المأسورة والقوارب الغرقى بين الزيتية وسيدى الغريب ومع منشدى وعازفى السمسمية وعمال البترول والسماد الذين يرفضون تصديق قسوة آلام الهزيمة إلى أن تصفى المقاومة الشعبية تحت وطأة القوى البيروقراطية التى لا تحب المشاركة الشعبية خشية من تسلل الوعى ، بضرورة الفعل المستقل ، إلى القلوب العطشى للنور ، وتقصف الزيتية فى نفس الليلة التى يستقبل فيها ابنه الوحيد القادم إلى حياة غير مستقرة لا توحى بالأمان .

يعود إلى القاهرة المهزومة وقد تكثف على رموشه دمع حجرى من قهر الإحباط الذى لا يكف عن التوالد والتجدد .

يغرق العائد نفسه فى مظاهرات 68 صارخًا ضد الهزيمة والفساد المحتمى بالتسلط ليكافئه (الاشتراكيون) بالسجن وحيدًا وسط الإخوان واليهود ونفايات الهزيمة والخراب

السياسى المصنفين بالنشاط المعادى ليتأكد مرة أخرى أنه لم يكن هناك مفر من تلك الهزيمة ، التى كانت تتويجا للعمل الدؤوب المضاد للحرية ، سوى أن تتكرر في إيقاعات مختلفة متخذة صورًا متعددة كالحرب الأهلية والصراع الطبقي ـ الصراع الحزبي في اليمن أو معارك الإبادة والقهر الدموي في سوريا أو تراجيديا العبث المسلح فى لبنان ـ والتمزيق العمدي للعراق ثأرا قديما من حضارة تمتد جذورها إلى بابل وأشور ـ الذي ينتهي بحصار الجميع بالغزو للعقل والروح والإرادة العربية تحت مسميات مختلفة .

وتحت القصف فى بيروت تتسع الرؤيا وتصبح العيون (أكثر وعيا) بما خلف الصورة المهترئة الزائفة على كل المستويات من (موسكو) حتى (الجماهيرية العظمى) ومن (جزيرة بدران) و(كريم الدولة) إلى (سينا) شراع السفينة المكسور ، فى تواز مع رحلة أكثر اتساعًا وعمقا إلى داخل النفس التى لم يكسرها تمزق سفن (السندباد) على صخور الحياة فى (القاهرة) التي تتجسد كالأولة الآخرة في الغرام ..! يعيد (الشخص نفسه) اكتشاف كل ما سبق اكتشافه

من زوايا جديدة قد لا تكون نفس زوايا الرؤية أو تكون هى ذاتها إذ يبدو الأمر (وكأن كل هذه الأشياء لم تكن أبدا كما تبدو حلم رجل واحد وإنما هى جزء من ذاكرة الجميع) تجسدت فى صورة ومسيرة إنسان مصري قروي عاش النصف الثانى من القرن العشرين فى مجمرة الأحداث المصرية وسط الملحمة كعصفور النار مشاركا فى إشعالها أحيانًا ، ومكتويًا بلسع لهيبها طول الوقت .

ومع أنه (لا شئ على وجه الأرض لا يمحوه النسيان أو تتبدله الذكرى) إلا أن المحاولة تصبح مبررًا للحياة .. وتصبح الكتابة عن الماضى هى – ردة الروح إليه ، أو إحياء للأشياء الأكثر إنسانية حتى فى غير الإنساني .

هذا هو ما يشكل محاولتي هذه لتفسير ما أنا الآن عليه وما كنته لابنى (أشرف) وابنتي (فيروز) وأحفادي منهما (لينا وليلى ويوسف وسيف) (حتى الآن) والذي قد تكون له فائدة أن يفهموا ويسامحوا أو لا تكون له أي أهمية على الإطلاق إلا أهمية ممارسة كتابته .

تلك الكتابة التى أرجو أن تتجسد خلال عدة محاور لا متوالية ولكن متقاطعة متصارعة باستخدام كل أساليب الرواية التسجيلية والتاريخ الروائى وأفاق الخيال الإبداعى الإنسانى – لرحلة (ذات) إنسانية مستوحشة معذبة بالأسئلة فى واقع موضوعى متحرك ومحتدم لكنه عاجز عن توفير الإجابات خلال بناء روائى متعدد الأبعاد والمستويات .. من خلال التسجيل والخلق والتأريخ لواقع عشته كأنى عايشته وعبر سراديب الذات أكتبه ، وقد ينطبق على كل هذا الحلم / الوهم .. قول بورخيس :

لقد أنجز هذه الملحمة فى غبشة موته ، وربما كان (هوميروس ودانتى) قد أنجزاها من قبل !!

●

تذكَرة في اتجاه واحد

أنا مش حجاب أبدًا ولا أبنودى ..
ولا عمري اتمنيت ابقى جاهين أو بيرم
مع إني كنت أشبه لهم بعض شى.. من بعض شى ..
في الجسم شي أو تاريخ الميلاد ..
من صغر سني عذبتني قيودي .. فقربتني من فؤاد حداد
زى العذارى لو أنتشى أختشى
واخجل أخوض في النم و الأعراض .
وما كانش عندي الفرصة إني اختار

حمار وما املكش حتى القدرة ع الانتظار..
الدنيا فاجئتنى أخدتنى على مشمي قبل الميعاد
للسجن أو للحرب أو للتوهة مع الأفكار ..
لجناين الثورة ـ حلم الشهدا والثوار ، وتجارة الأوغاد
اخترت أكون نفسي
ما ابقاش سواي وقد نفسي سمير – على قدي
بخيرها و بشرها ـ عارف حدود حدي
ضعفي قصاد أمسى . وقصاد العيلة والأولاد ..
ابن الظروف نفسها وابن الوطن نفسه في الهوجة
في الانكسار وفى الهزيمة اللي شاط من جمرها حسه
شبهه قوى في فقره وقدرته الإنسانية
لما يستغنى بحلال الزاد وعزة نفسه ..
وبقد ما في التاريخ خاب أمله ولا حسه
بالت واعجن تراب أحزانه في الأشعار
واكره ما أكره ليه ولغيري .. لاستغلال ولا استعباد..

○○

ما كنتش متسلسل في أحزانى ، لما عشقت الحرية
لكنى كنت مجمل بأغاني العاشقين ومكمل بأماني
الأحلام الريفية القروية ومحمل بوصايا النجارين
مكبل بحكايا الفلح وأشواق الأطفال السرية ..
بأساطير الحرمان المؤمنة وبحواديت المحرومين الوثنية ..
ما كنتش مجبر ، ولا مقهور .. ولا مغمى عليه ولا
مضروب على إيدى .. لما حسيت وف وقت مبكر جدا
بالروح المتمرد بيفك قيودي . لكن
بيسلسلنى بسلاسل التزامات العشق المستعفي
اللي ألزمنى بكل إرادة ضعفي بصفي
حسسنى بقلة حيلتي لوحدى وأقنعنى استكفى
بالورق المتساوي المستوفى
فغسلت همومي الذاتية بكل سذاجة
في ترع الناس المعكورة

رفضت عيوبي اللي زى الشمس
وتهت ف ضلمة أسواق الدنيا الشبورة
أدور في القسوة على وهلة رقة وردة أو إحساس عصفور
لحد ما وقع الفاس في الراس
وانكشف الستر عن الأسرار اللى مغمية عينيه
عن مكتوبى اللي سد عليه هروبي
شفت الورد ف عز البرد وعز أيام الشرد المكسورة
بيفتح عن فجر عجيب الطابع والملمح والطبع
طالع من طيات الطين
وعذابات الخلق المكفيين الملهيين المكروشين الأنفاس
ضاعت عن بالى لقمة عيش أطفالي
لما غنيت أشواق الفلاحين
ونسيت فضل القرش الأبيض ع الأيام السودة
لما رقصت على طبول الزحف العمالي المنصورة في
حواري أوربا الشعبية وأمريكا اللاتينية والصين
أتعمدت بعرق الأطفال المقاريض الممصوصين
في غيطان السبخاية والخمس المهجورة
وعزب التراحيل وشطوط المطرية والمطاريد المطرودين
من حضن النيل من حصص الحلم ، لورش الحسينية والتبين
وأيامها ماكنتش حاسس بيني وبيني أن أنا غيري
عمري ما كنت اثنين ولا عمري رميت مشاويري أبعد من مناخيرى
الطفل الجن المتنمرد في حواري ميت سلسيل
وسطوح دار جبر وعشة فتنات ولواحظ
هو ذات نفس التلميذ المقروض في مدرسة الشيخة بنات
والجمالية دقهلية بيتهجى حروف المسرح والحواديت والمواويل
هوه ذات نفسه الصبي في الثانوية دمياط والمنزلة والمنصورة
اللي بيعشق يغرق في أول نظرة عين البنت الهوارية
زى البنت مديحة النمر الغجرية
ونصرية بنية دعبس
أو سرية بنت الشيخ الواعظ

طير فارد ريش جناحاته الأخضر
بيبحر في كتب الأساطير الإغريقية
وكتب الشطار والقرصان بالصوت والصورة
هوبنفسه الشاب الحالم بعيون الخرسة البرسيمى
في دقادوس كشك بزفتى و بساتين دهتورة
وفى زراعة عين شمس بيتهجى في أحضان جوزفين
القبطية حكايات الجاحظ ـ بتوهوج أفكاره وبيوج
حماسة سياسة على لسانه شعارات وملافظ بتخوف
حتى أعز أصحابه وخلانه منه
أكتر ما تخوفها عليه
مؤمن أن الأكل / الشرب / الشعر/ الحلم / الرزق / الضحك / الفن / صراع طبقي
وإن الحب .. حتى الحب بكافة أشكاله ،
الضرورية والسوقية والوهمية .. سياسة و وطنية

●●●

وإن كانت زنازين سجن المنصورة الدور التانى
وسراديب القلعة وعقارب رمل المحاريق
وعذابات أيام التكديرة وعنابر ضيق وهموم عزب الفيوم
قدرت تسرق منه أعز وأحلا سنين عمره ..
إلا إنه حيرها بشدة ف أمره من صغره
لأنه خد تاره منها وبكل بساطة في العشق وفى الفن وفى الشعر
في دفا أحاسيس الصحبة وفى الحلم / الاشتراكية
اللى ما يتعادلش بأيها سعر أو أيها تضحية
واللى بيفسره دفا حنية قلب المنكسرين من أحزان يونيه
ساعة مايقوموا على حيلهم تانى يغنوا لسويس سبعة وستين المهزومة
يتحدوا الغدر الشايخ فى تمانية وستين المأزومة
وعارفين أن اللقمة السحت ما بتشبع
وإن اللى حكومة حكومة
وإن اللى يواجه الموت مابيكدبش ..
وإن اللى ابتدى بالكدبة آخرته كما أولته مشئومة..

ولذلك الشوق ، للمجهول رجع لى المسروق
وإن كان ما رجعليش الماضى المحروق
والعشق عوضنى بزهور وجمر الحرية عن طعم مرارة الزمن المخنوق
بالزوجة الطيبة الصافية وبالأولاد
بحنان الإنسانية اللى رواها بالدم والشعر الفقرا
على رصفان بيروت الشعبية وفى بحرات الحنية ف بيوت الشام اللى من غير سقف
وبيدفيها الشعر وحواديت الأجداد
ويقرب بينها الخوف م العسكر والرعب من الكتاب والمحترفين الأوغاد
فتحس ببعض الصحبة اللى بتجبر خاطر الاغراب
بأغانى شبان العالم التالت فى ميدان الأحمر
حتى لما جمد دمى فى عروقى ، وسلبنى العافية
الرعب المخفى تحت الجلد العربى
والمفضوح عريان اتفجر على صخر جبال لبنان وحوارى كريتر وجزيرة بدران

•••

الغربة اللى كانت كل ما تبعدنى كانت بتقربنى أكتر
لحوارى الضلمة على شطوط النيل
والخوف تحت هزيم رعد الطيارات الإسرائيلية
وحواجز ميلشيات الغل العربية ف بيروت الغربية ..
كان بيفتح قلبى أوسع لجل يساعى ميت سلسيل
والكدب اللى غرر بيه متخفى بتوت الصدق ومتزوق
ملسن ناطق بلسان منشوراته وقصايده العلنية والسرية
كان بيقوينى على الضعف الإنسانى المعيوب
وبيحمينى يقوّتنى يباركلى فى رغيف الرزق الضيق
ويعرفنى أن الأكفان مالهاش أي جيوب
وشعر الأخت اللى مسبسب مش حَ يزين راس القرعة
والماشطة مش ح تحلى ولا تشفى القلب الغلاوى ولا الوطن المكروب
وإن الخطوة اللى بتعلى مقام الإنسان وتشده لقدام
غير الخطوة اللى بتكسر نفسه وتحرمه من الأحلام
حتى لو كانت واخداه بالخطوة على فوق تعمل له مقام

وتبطن روحه بنعومة الرضا و الاستسلام
وتحط ف عينه حصوة ملح يوالس ع الحق المسلوب
واللي تروّضه وتعوّده يستطعم وهم السحر الدايب
فى لسان العسل المغشوش والأدب الزوق اللى كل قروشه حرام
فيشارك فى الخدمة الرسمية ع الحد الشعبى
يلم الفتافيت ولا يشبعش
ويكسر أول ما يدوق ولا يشربش ويطلع م الدنيا فاشوش

●●●

لذلك ـ وبرغم ذلك من قلبى تلاقينى با ابكى على أيام الوهم الماضى
بحسرة لكن وبكل الحرية
ما با خجلش على الإطلاق من نفسى
وباغنى لأيام جايين فى غيم بكره
وان سجنونى ف أمسى
وحتى لو مكتوب ومقدر فى سجلات العرش
إنها مش راح تيجى ما ح ازعلش
ح احكى كل اللى فى نفسى وعن نفسى
وبكل بساطة حتى اللى ما يتقالش
صعب كان أو منسى
وح اصلى بكل إيمان للحلم المسكين اللى ما اتحققش
وحتى لو كان مش راح يتحقق ،
وح ادق لها فين ما حترسى
لأن الناس راح تفضل زى ما هيه غبية ، غايبة وعايبة وملهية وما تتغيرش
ظروفها هيه اللى بتتغير
ح افضل اقول للعياب عيب وللخاين سيب
وللظالم لأ ، بدون ما اتلقلق لا اتحير ولا اقلق
مش ح أغرق فى سواد ليله
لأنى لا عرفت ولا ح أعرف أجيبه من ديله
مولانا الديب اللى ناقع مواويلنا في ديله

●●●

وان كان اتقدر لى ما يطلعليش فى الطيب أى نصيب
كفاية علىّ حمار الحق الأعرج
اللى زيه مافيش لا فى الصبر ولا التهذيب
وكفايتى عصايتى عكازتى اللى يادوبك تسندنى
وان كانت ما بتحْميش
وقصايدى أمات خرابيش اللى ما بتعجبش عشان ما بتخبيش .
وقلة أدب الشعر اللى جابت لى الكافية
ورهنتنى باللقمة المش كافية لكل مرابى وشاويش
لكنها مطرح ما بتسرى بتمرى فى الدم
حتى ولو بالهم الغم مادامت ما حتقتلنيش
وبتكفينى ولو بالتيلة شر الكذَبَة القَـتَـلة اللى نجاستهم طرطشت العالم حواليّه
لكن ببركة دعوة أمى مطالطنيش!

•••

وزى ما طفل حوارى ميت سلسيل وفتى الزنازين العاشق
ما عاش الفرحة جمايل والأحلام تناتيش
وزى الشيخ المكسور الخاطر ما اتجمل بالصدق وبالصبر وكمل مشواره بيزك
لكنه مش مكسور النفس
وعاش المتقدر له درويش وسط الحرافيش
ح افضل زيه زى ما كنت وزى ما أناح اتحمل كافة رزالات الأيام
وغباوة الناس القش أسياد الزمن الخيش
اللى من كتر ما مرمطهم شوقهم لأمان الكدب
فشرمطهم وخرطهم للوز الرعب من الخرابيش
فعلقوا رقابيهم وبكل إرادة فى حبال الخفافيش
ح اتحمل ايوه واكمل وانا مدبوح الرقصة
وح اشيل غصبن عنى أو برضايا نصيبى من خطاياهم وغلطهم
متعشم إنى حَ اتم يا بلدى قصيدتى الناقصة ـ واعيش .

•••

جمر البدايات

لا تتردد أنا شاهدك لقد كان كل هذا يمتزج داخلك فتمور روحك هادرة أحيانًا وأحيانًا أخرى تنساب هادئة فاترة لكنها لا تجف أبدا ولم تبرد لذا صنعت منك ما أعرفه عنك وما عرفته أنت عن نفسك ..

لقد كنت أنت هو نفسك وليس شخصا آخر ، طفل وصبى وكهل فى الستين . تبدأ الكلام بكل إرادتك بهجاء الحروف الأولى كأنك للوهلة الأولى تفك عقدة لسانك مخترقا غياهب حصارك الأخير. ذلك لأنك بكل بساطة وبفضل ماعلموه لك وأنا معهم أو برغم ما حاولوا به إفساد فطرتك وأنا منهم ما زلت مصرًا على مواصلة الصراخ الجميل حتى الانتحار. أو تنفيذ ذلك القرار الذى يفسد أمانك و أن ملك عليك حياتك وجعل لها معنى جديدًا يؤكد جدوى الحلم وضرورة الغناء ولو عزفا على ما نجا من أوتار الحزن ..

أغوتنى النداهة ، فشبطت فى ديلها اتسكع فوق رصفان العالم وهضاب الأفكار وأدغال الحلم فتحت لى نوافذ سرية وعلنية على المستقبل وبدورى بذلتها وعودًا وردية لعاملات تراحيل وتلميذات وسائقات عربات عامة ولعطشجية وابورات الفحم والحرث وسائقى الديزلات ونجارى السواقى ..

صاحبت معها التائهين على الطرقات الممتدة للمجهول فى بلاد تسعى للحرية وهى تبنى لأهلها سجونا ولأبنائها معسكرات تدريب على القهر ..

سايرت ركاب الدرجة التالتة فى القطارات وتحملت غلظة السائقين وإهانات الجنود العائدين من هزيمة الحرب . كنت دائما أتمنى أن ألمح طيف أمى فى زحام الناس . فى (بحرة دمشق) رقصت مع فتيات أصبن بشلل الأطفال المبكر . وعند رأس (بيروت) مسحت دموع عجائز لا أوطان لهن ، ومناضلات كسرتهن الغربة .

كنت أشم روائح أبى فى دخان الأنفاس وأناديه ليأخذ بيدى حين تجبرنى الغربة على الابتسام فى وجوه عملاء الأمن فى غرف السهر المجهزة لتسجيل الاعترافات فى غفلة من المتهمين . وتقاسمت عيش الغربة المسروق من عمرى مع فتيات لا أعرف جنسياتهن ولا أسماءهن الحركية ..

حلمت بقريتى فى صورة أخرى أكثر سعادة وتحضرا ولما تحولت إلى مدينة بكيت ..

بنيت فى صبايا بيوتًا من رمال الحلم مع الأغراب . ونمت على رصفان السكك الحديدية والطرق المصبوغة بدخان سفن البخار وغبار الطرق المسيجة بالأزهار . تبادلت مع بنات وأولاد الحواديت والتذكارات وكم كنت أود أن أسقى شجر الأحلام المجهضة دمى ـ حين شقت القلب الحرب الأهلية فى (اليمن) ويوم مزقتنى مدافع البعث تحت جدران (حلب) و(حماة) وهى تنهار على دماغ أهلها ..

لسعنى برد الغربة عندما فاتنى آخر باص متجه إلى (بوخارست) ويوم رفض شباب (ديمتروف) إقامة ندوة شعرية لى ، إرضاء لنظام الحكم فى(العراق) ..

طاردنى رجال الأمن المصريون فى نجوع الصعيد وهم يريقون الزيت مع المش فوق الدقيق والتراب انتقاما لهرب شاب له ذقن مخيفة لم يشاهد فيلما فى حياته ..

صرخت أمام السيارة الملغومة فى (كراكاس بيروت) وفى وجه البنادق على خط التماس فى (سن الفيل) وبكيت طفل(الهردبكش) الممزق على رصيف المزرعة وهو يوزع جريدة لا تنشر سوى الشعر ..

كم كان بودى الخروج من أسر الخيمة ، وجنون شيخ القبيلة العنين ورئيس مجلس إدارة شركة النفط المجنون ، وعميل المخابرات اللابد فى بدروم (بيروت ستار) يراقب فتاة (المقسم) التى زارتنى لتشكو لى وهى تبكى وحشية رئيسها الثورى ..

كم كنت أود أن أقلع ثوب عجزى ، وأمزق عن جلدى وشم العصور الوسطى والغل المطرز فى ألوان الرايات العربية الكاذبة ..

- ويا ما كان فى نفسى أطرح عن ضهرى أكاذيب الصحرا المعجونة فى دمى ، واقتل جوايا النمل الحى المتأبد فى سراديبي المخفية واللى بينخور فى مراوح صدرى ، بكل سيوف الجلادين العربية - من الفيحاء إلى البتراء الشيماء العذراء الخضراء الزرقاء العمياء الملكية الثورية الشرعية القومية العصبية . واطرد من حلقي في شهقة أسطورية كل الريحة اللى بتخنقنى ، الفايحة من الجثث المتدوبة فى أحواض أحماض أجهزة الأمن العربية من المحيط للأبد و المدفونة فى بدرونات بنايات الأمن العربى العام .

أدش بحجر العمر المحبط كل المرايات القمم العمم الهمم المتحوطة بحواجز حرس التنظيمات والحكومات الثورية .. لكني على آخر رمق العمر باشوف نفسي راجع .. وحدي لوحدي - وكإني صبارة في صحراء أبدية .. لا داقت طعم نيل ولا شربت ظل رياح البحر ..

حاسس طعم الحنظل ..اللى مشقق شهد شفايف البنت اللى عشقتها وانا لسه أخضر وصبح بينى وبينها جدار من لحم وعضم وضحايا وآيات وأسفار كابسة على نفسى وراكدة على كتافى .. ومقننة شرعا (شافعى ومالكى وشيعى وأرثوذكس ورومى وقبطى) - قلة حيلتى .. قدام المنطق والتقاليد الثورية والرجعية النفطية الحديثة اللي مخليانى مضطر أتكوم تحت جدار عمرى الباقى . وآخد الدنيا فى حضنى مع حزمة شوك حية أعيط على نفسى ، علشان صورة حبيبتى بتبهت وبيتوه منى صوتها ، يخرس ويغيب يوم بعد يوم وما فيش أى أمارة قدامى تقول لى أن اللى مشيته ورا النداهة بتاعتى كان فعلاً ورا خطوتها هيه ، ومش ورا أى حد تانى يكون خدعنى بندهتها ونبرة صوتها اللى مازلت لحد الوقتى مسحورًا بيها ومشدودًا مكبلاً ليها بكل إرادتى ومرهونًا لإرادتها غصبًا عنى - وده حقى ..!)

- أعترف - إنك تكتب لأنك مرعوب .. لم تعد تخاف الموت - صحيح - لكنك مرعوب .. تعرف أن موت الشعرا فى بلادنا يادوب يحدث وهم فى الخمسين بالكثير .. وأنت الآن تجاوزت السن القانونى لموتهم بسنوات عديدة .. أى تعيش سنوات ليست من حقك .. لذلك تكتب مرغما قبل أن يضيع الوقت الضائع .. الذى ليس من حقك..

- أناعمر الموت ماخوفنى .. ولا سيرته أو معايشته منعتنى إنى أكتب .. أنا شفت الموت بعينى فالسجن .. ودقت فيه المرض واسوأ شيء فى الدنيا أن تمرض و أنت وحدك فى السجن وفى زنزانة انفرادية ، مع ذلك كتبت وأنا مسجون وعيان .. شفت الموت فى السويس وكتبت .. لمسته فى بيروت وكتبت .. لكن ح أكتب دلوقتى وأنا متحرر منه .. لأنى مؤمن بقول أمى الله يرحمها .. (اللى جرى لا ينكتب ولا ينقرا) .. وحذرتنى ياما إنى أبص لورا .. لكن نصحتنى لازم أولادى على الأقل يعرفوا ويعذروا .. أو على الأقل يفتكروا ويفكروا ..

- تبحث عن عذر ..وتنوى تجميل صورتك وسيرتك ؟

- لا .. اللى راعبنى إنى أنسى فيبان إنى باكدب .. النسيان زى الكدب .. والحقايق اللى تتقال ناقصة .. تبقى أنصاف أكاذيب ..

- هذا لو كان الكذب أو النسيان مقصود .. كما يفعل معظم السياسيين المحترفين.. لا ضرورة أن يعرف الدهماء أوالأعداء كل شيء .. هل هذا ما تقصده..؟

ـ لاتحاول أن تضع على لسانى مالا أفكر فيه ؟..لإن اللى راعبنى أكثر ومخلى الرعب يزيد يوم بعد يوم .. أن اللى حصل حصل وعشناه .. واللى شفناه دقناه وشربناه ..ويمكن بقينا غصبًا عنا نتعايش معاه .. لكن رعبى الأكبر م اللى جاى ..رعب يسربع الواحد ويلسوعه .. ويدفعه للهوجة قد تضر بالكتابة نفسها ..الخوف أن ما تتوقعه فى الظروف دى ح تضطر تعايشه كإنه شىء عادى ..لعجزك عن تغييره .. وعجزك حتى عن الحلم بتغييره زى ما كان فى إمكانك زمان .. اللى بيحصل بيحصل .. بيخزق عينيك وبيطلع لك لسانه ويسخر منك ومن كل اللى عشته وآمنت بيه ؟..

ـ وماذا تظن أنك فاعل ؟..

غير أن تكتب ما يعن لك .. ابدأ من أى نقطة تخطر على بالك .. لكن لا تكتب إلا عن ما تعرفه .. وبصدق .. كل البدايات ستنتهى نهاية واحدة وهى تحاصرك الآن وتتجسد لك ، فلا مهرب منها واكتب وبصدق ولا شئ غير ذلك ..

النهاية أشد حدة من سن القلم على الورق ..

لكن البداية.. مختلفة .. متنوعة حية لا تختلف ابتدى من الإحباطات والهزائم من الحب الفاشل من الأحلام البسيطة ؟ الأولاد ؟ الشعر ؟ ابدأ من المظاهرات ؟ من الإحساس بالانتصار وكم كان صادقا ومغريا ومحرضا على الاستمرار ..!

ابدأ من الحماقات الصغيرة أو من التواريخ الواضحة الصريحة ، الحرب العالمية التانية ذكريات (إسكندرية) مهاجرى (بورسعيد) فى خيمة (سيدى مجاهد) والبنت ذات الشعر الذهبى المترب . من الكوليرا ؟ من حرب 48 ؟ عصر(عبد الهادى) و (الإخوان المسلمين) من (عم الشيخ على) و(الشيخ مصطفى العالم) و(حسين عبد ربه) ؟

أومن الجمعية الزراعية والنادى ؟ من السجن الانفرادى من زنزانة 39 الدور الثانى ؟ لا .. من الواحات أو من العزب وليلة (الهبهب) ؟

من السفر إلى (بيروت) . من قصة (بوخارست) ؟ أو رحلة (باريس) والقبلة على (نهر السين) ؟ من حصار(بيروت) . أو من أيام (عدن) الأولى ! والمطعم الصينى ؟

من فصول محو الأمية و (فالنتينا سندوب) ، من مجلة صوت الفلاحين والبت (مديحة النمر) الكارتة ام النمش العايشة بين ضلوعك .. مدفونه فى صدرك .. من نصرية أو (جوزفين) أو من عرائس (نجلاء) وأبوبة (أشرف) ..؟

فى بعض الأحيان يتهيألى أن الأيام راح ترجع تانى ، وإن امبارح على مد إيدى وأنا مغمض اقدر أشوف والمس حارة (الصياغ) قدامى دار (جبر) ودار (البيومى) من أول ساحة (بسيمة) وبوابة (القشلان) لحد اما تضيق للنص أمام دار (عويضة شهاب) ..

الأدوار العلوية والمقاعد تكاد تصنع سقفا من تراسينه (كوكب) لبلكونة (أم سمير) خضرة قصارى الريحان .. وعيدان اللبلاب .. تكاد تغنى : ورق العنب ضلل على البوابة . وتوز النسمة على شعر البنت (ملكة) الأكرت الشديد السواد .. الذى يقسمه فرق شديد البياض من المنتصف .. ضل عود (منيرة) الفخم يعبر متباهيا بثماره ما بين دار (ابو سيد) ودار (عبد العال) . البنت اللى أنا حبيتها وعمرى ما قلت لها تبدو لعينى واضحة كالعيان بيان . الست التى عاينتها عارية ، والولد (فتحى) الذى هاجر لأمريكا . وأولاد (عويضه) الذين كانوا جميعا أصحابى ، رغم فوارق السن ، من المعلم (محمد) حتى آخر العنقود (عبد السلام) الذى حوصر فى

الجيش الثانى وحمل مصارينه على إيديه ليومين حتى أعيدت خياطة بطنه ، وأبوه عم (عويضه) الذى اشتهر بمزاجه المفضل (صينية القراميط الصيادية) التى لا يتقنها أحد مثل امرأته . والذى كان بيته مفتوحا للجميع ساعة الأكل ، وطبليته لا تفرق بين غرب وقرب والذى لم يشفع سنه لدى زبانية جهنم أن يعتقلوه فى السجن الحربى ـ لثمانية شهور قبل الحرب ليعود مكسور النفس ، لا يأكل ولا يشرب حتى مات . وغيم الصمت على داره .. التى كانت ملعبا ومرتعا لنا فى كل وقت فانهدمت وخربت وصارت ممرا بين الحارة وساحة الصارى كل ذلك لأنه جلس إلى جوار (أمين افندى العزبى) سكرتير البغدادى السابق و صديقه محمد مسعد فسمع حديثا لا دخل له به ، عن سر العلاقة الخفية بين (عبد الناصر) و(عبد الحكيم) ..

تتجسد كلها لى فتزيح صورة الحزن الكظيم ، ألوان جلاليب (أنعام) و(أوطان) و(لولو) ومفارش (أم سمير) التى ترفرف فى سماء الشارع ، لا تتحرج من صياح خناقة (عبده الصايغ) مع أخته العاشقة التى تتحداه وتستقبل حبيبها الميكانيكى ابن (البديوى) علنا لا تهمها عيون العواجيز الملقحات على بيبان الدور يرصدن مسار التاريخ ـ الرايح جاى ـ وهم يهشون البط والوز عن الغلة ، التى يفرشونها فى الشمس تتحمص من أجل الطحين ويقاتلون الذباب والشبان الذين تجذبهم ألوان الفساتين والقرط والشيلان وأذرع بنات الشارع العريانة فى قمصان النوم . وهن يعبرن الحارة التى هى امتداد لأحواش بيوتهن دون حرج (عزيزة) أم (زغلول) و(زينب) بنت (هلالى) وامرأة ابن (القشلان) ذات الفخذين الهائلين وغمزات النسوة المجربات وتعليقاتهن ونداءات (جوهرة) على العنب الذى (فرطه للبيض والسمر للعناقيد) .

ساعتها يخيل لى أن الدكان المدفون لنصف ضُلفه فى تراب الزمن وطين الأيام مفتوح على مصراعيه يغص بالأطفال ، يحفظون القرآن فى الضحى تحت هيمنة عصا (إبراهيم فرج) الذى قرر أن يكون شيخا فى الصباح وبائع قصب وعنب فى المسا حيث يتحول الدكان إلى حلبة صراع ورهان على أكل العنب أو كسر ومص القصب خد الجميل أو الكرمى الحزمة بضربة واحدة ومن يفشل يدفع ، ومن يسدد سيف الكف فى مرة واحدة لا تانية لها يتلقى التهنئة . والكل يفوز بمص العيدان الحلوة ـ الكاسبون والضحايا . والكلوب يلقى نوره عبر ساحة (بسيمة) يسمح لنا صغارًا أن نلعب ونفرح على صدر ليالى الصيف أو تحت ضلوع الجدران عندما يرخ المطر لحظات يتجسد ذلك على جفونى للحظات يادوب ثم يعبر وتبهت الصورة فى زحام الأيام . خمسون عاما واكتر كفيلة بتغيير ملامح الصورة والشارع .. جدران بالمسلح وبنات على مودة أخرى أكثرهن ملثم . صمت غريب كاتم . الأولاد منهمكون تحت أثقال الكتب أو مبنجون أمام برامج التلفزيون ، لم تعد الحارات التى صار ليلها نهار بالمصابيح المضاءة جاذبة للعب أو لسمر ، اختفت العفاريت والجنيات وسادت ضجة الشاشات خليط من أصوات غير مفهومة ترقص الحجر ، وتشطب من الذاكرة دكان القصب وباب (فرج الله) وتسد فى الخيال امتداد الشارع إلى حارة (القصاصين) التى كانت تغص هى أيضًا رغم ضيقها بالحمير التى تجهز للحلاقة . ليتوه ويبهت فى مدى النظر لحد التلاشى دكان (الغرباوى) الفكهانى والكونتارجى الآخرس و (محمد النحاس) أستاذ الجلاليب الأفرنجى وترزى البيجامات أم ياقات وزراير صدف كبير – تلك التى ميزت تلاميذ (ميت سلسيل) بين الأمم ، ودفعتها لطلب العلم ولو فى الصين .

من اين يا مسكين تبدأ ؟ وهل ستساعدك الذاكرة التى تسبح مع (الأميريل) وتتأوه مع تعب المفاصل ، وغيامة كتراكت العيون . هل ستتسع ذاكرتك لتستطيع استحضار ذلك ودفعه فى تيار واحد وفى مجرى يتسع لقهوة (النادى) وساحة (أبو الرايات) وكازينو (هاجوج)

والساحة الحمرا .؟ كيف ستتحاور شقة (شاتيلا) مع (خن) المنطقة الصناعية وفندق (اللجنة المركزية) مع حجز(عابدين) ومعتقل (القلعة) أو المحاريق مع (زنزانة) ستة حيث (الفن فن) ؟..

لست روائيا ـ كيف ستلم شتات كل هذه القصص والحواديت عن العشق والحب والنزوات والفشل والإحباط والبشر من زعماء وخونة وأصدقاء وأطفال وعواجيز لحظات الضعف وساعات الملل والانتظار . الهجرة والهرب والاحتمالات والأحلام والتنبؤات .. يااه

نصيحتى ألا تلتفت لكل ذلك ، فقط أكتب ما يعن لك ولتتخذ من كتاب الروايات الأسبانية اللاتينية مثلا .. إنهم لا يخافون شيئا ولا يتحرجون من شئ . أكتب عما عرفته من قلبك سيصل ، ستجد الخيط الذى لا تتوقع فى أى دروب يمضى بك . لكنها ستصل بك إلى النهاية التى تبدو مرعبة تائهة بين ركام من الخطوط والمساحات والألوان والحروف والجزئيات والفرافيت والحواديت ، والبشر ..

لكنها فى النهاية ستشكل الصورة التى تسعى إليها وإن لم تتبين ملامحها بسبب الكذب والخيانة والمرارة التى تغلوش عليها .

لكنك عارف حقيقتها المبهمة الضائعة .. تعرفها أنت ولا أحد غيرك ..

ـ طيب صلوا بينا على النبى وسامحونى على كل هذه الفذلكات ـ التى أشك مثلكم تماما أو أكثر ـ أن تكون لها فائدة .

المسرح ملاذى الوحيد

تتملكنى كلما اقتربت من المسرح ، ودفعنى جنونى للكتابة المسرحية ، عدة أفكار أو قل " تخاريف " أن شئت. وتكاد تتلبسنى أو تلمسنى لمس الجن والعفاريق للبشر فى العقيدة الشعبية ، فتلون على الفور كل فكرة مسرحية تلوح لى أو تغرينى . ومن هذه " الأفكار / التخاريف " واحدة محورية أكاد أوقن يقينا جليا (حقيقتها) تقول : " أن التاريخ الإنسانى مضحك لدرجة الموت ، ومؤلم وكاذب بصورة كوميدية تثير الدهشة حتى البكاء !! " .

وفكرة أخرى أقل تمحورا تؤكد لى " أن كل ما يحدث الآن قد حدث من قبل ، فى مكان ما وبصورة ما تكاد لشدة الاختلاف أن تتشابه فتشتبه علينا نحن المساكين المضروبين بالفن وبالكتابة " !

وكلما قرأت كتابا فى التاريخ أو أبحرت فى أحد كتب التراث ، رسميا كان أو شعبيا ، يتأكد لدى هذا المعنى ، أو أجدنى أبحث فى ثنايا الأحداث والحوادث ، وفى سلوك الشخصيات وتصرفات الأقدار ، عما يؤكده لى . فالإنسان العادى الذى لا تذكره تلك الكتب إلا مجهلا أو مجموعا مكتلا فى غوغاء أو دهماء أو حرافيش ، تعرض منذ فجر التاريخ – ولا يزال – لعمليات طحن عظام دائمة ، وغسيل دماغ متواصل بالأكاذيب الباردة أو الساخنة التى يتقنها السادة . وكانت غفلته المتوارثة ، وطيبته البلهاء ، وحاجاته المحرمة دائما ، وجوعه الروحى والجسدى ، وقهره المادى والمعنوى ، هى المشهيات الدائمة على موائد السادة من أباطرة وقياصرة وكهان ومشايخ وقادة مستبدين ، أبطالا أو متبطلين .

ويخيل إلى دائما عندما أطالع سيرة إنسان فى أى زمان أو مكان ، وعلى أى أرض كان ، أن "القراءة والكتابة" كانت أكبر نقمة أصابت البشرية بقدر ما نحن نعتبرها نعمة ونورا ، وأنها كانت السلاح الأكثر تأثيرا وتدميرا فى التضليل والخداع ، وأداة للغدر والقتل أكثر مما كانت أداة للتنوير والتفسير والتطوير لكثرة ما

أبدعته من تبرير وتحوير وتزوير . ولذا ، يكاد يكون هما دائما ومقلقا لى ذلك الدور المزرى الذى ارتكبه ويرتكبه من فازوا وحازوا معرفة القراء والكتابة فامتلك رقابهم وملكهم " الجهال " وسلطوهم وسخروهم لطحن عظام وعقول البشر العاديين البسطاء .

ومع ذلك ، فأنا لا أزدرى التراث كله ، وكذلك لا أقدسه كله ، مثلما كتبت يوما على ظهر غلاف مسرحيتى المنحوسة (سهرة ضاحكة لقتل السندباد الحمال) .

ولكننى مثقل بمخلفات أجدادى المتخلفين القساة ، آكلى اللحم النيئ وصانعى الفؤوس والسفن ومبدعى تماثيل النساء العاريات وحكايات الثعالب الضاحكة .

ولذا ، لا أكتب شعرا .. ولكنى أتنفس .

ولا أكتب مسرحا " شعبيا " !! ولا أحلم ببعث لن يكون .

ولكننى أحاول الاعتذار عن الدور الذى قام به جنسى من الذين عرفوا الكتابة والقراءة ، لأننى متعب أحاول التخفيف من أحمال المتعبين ، منكود بهوايتى الفنية ، مكبل لزمر المناكيد والعبيد والحالمين ، أطمع فى ضحكة من القلب تزلزل ركام البكاء المقهور ، ودمعة من أعماق النفس تبدد ظلمة القهر المخزن ، وآهة من أعماق الروح والقلب تطفئ نيران الغل التى تزكيها رياح الغباء .

ومن هنا ، كان عشقى المسرح ورعبى منه .

كان شغفى بألاعيبه وخداعه . ووهمه وصراخته ، نبله وخسته ، قسوته وسموه ، ذلك لأن العشق الأول والهم الأكبر هو الإنسان ، العادى والبسيط . وهو ما يغرينى بمحاولة إعادة صياغة أفكار حكاياته

المعجزة وقصصه الملغزة ، لتهضمها معدة المعاصرين ممن أفسدتهم الشاشات الصغيرة والكبيرة ، وأصابتهم بالعمى " الحيثى " والغباء الآلى الحديث ، فى محاولة ساذجة – ولكن نبيلة – لإعطائها مبررا جديدا للخلود فى حب الخدعة الكبرى المتجددة أبدا ، حول الأمل والحلم بالعدالة .

كذلك أحاول فيما كتبت ، وحاولت ، أن ألبس أحداثا عصرية ثيابا تاريخية شفافة .. لا هربا من محاذير الأمن والرقابة ، أو هروبا من موبقات السياسة أو طلبا للكياسة ، ولكن لأن الواقع الحى المعيش أصبح للقريب منه عديم الإثارة بقدر ما هو مفجر للغضب والحزن ، وغير قادر على إثارة الدهشة المحركة للفن ، بقدر ما هو مثير للقلق والقرف ، ولم يكن الغضب ولا القرف إلا عوامل مساعدة ضعيفة الإلهام ، لا تنتج إلا الميلودراما . ومن هنا ، كيف كان ممكنا أن أتنأول حادث مقتل زعيم المنصة إلا من خلال تركيبة مسرحيتى (إقرا الفاتحة للسلطان !) التى قدمت أول مرة باسم (الغورى يبنى الهرم الأكبر) . ورغم تأثرى الكبير فى " الفورم " بما صنعه (ماكس فريش) فى مسرحيته الملهمة الكاسحة (سور الصين) التى تملكتنى منذ قمنا بتدريبات عليها من خلال جماعة الدراما الشهيرة صاحبة (فى حب مصر) وأسند لى مخرجها الفذ (صلاح) دور (هوانج تى) ، فإننى كنت خاضعا تماما لما يفور فى قلبى وعقلى حيال اغتيال أى " غورى " فى أى عصر وذلك بالرغم من اعتراض البعض ، لأن الغورى كان المملوك الوحيد الذى مات فى معركة ضد الغزاة ! ولكن من أدرانا .. مع بعض التدقيق فى التفاصيل والتحقيق فى كتابات تلك الفترة ، خاصة ما أورده (الشيخ الرمال / ابن زنبل) حول واقعة الغورى وسليم العثمانى ، يمكنك أن توقن أن أكاذيب الولاة واحدة , ولا يفوقها فى الصدق إلا أكاذيب الرواة ، لدرجة تطابق الصورتين لحد السخافة!

وكيف كان يكتب مثلى بكل مشاعر الإحباط والغضب وقلة الحيلة ، والحوادث تصفع الشعر على القفا ، سواء فى التقارير التى لفقت قضية " أنتفاضة الحرامية " لتلقى بالشاعر فى الزنزانة ، بينما فى أرباض " قصر المنتزة " ، على شاطئ البحر السعيد ، مربض (بوسيدن) وحمام (كليوبطرة) وحضن صندوق (

إيزوريس) الحنون .. ليلة زفاف الابنة الغالية لغورى آخر ، أو سندباد لمن يركب البحر يوما ، ويخشى مسيل الماء فى الحمام لابن المقاول أو الشهبندر أو الوالى المدلل ، إلا أن تكون تلك السهرة الضاحكة لقتل السندباد الحمال الذى خدعته حكايات سَميه البحرى ، فاعتنق قيمها السامية حتى القتل ، وآمن بصدق وسمو الرسالة الخالدة لراوى الحكايات متقن القراءة والكتابة ، ليصبح الوحيد الذى يستحق القتل !

من هنا ، أؤمن بأن التراث معاصر جدا بقدر ما هو متخلف جدا ، بالدرجة نفسها . فذلك يتوقف على همومك أنت ، أحلامك أنت ، إحباطاتك المتخلفة والمعاصرة أيضًا .

إن هذه المسألة لا تصلح لها الأحكام العامة . ولذا ، فهى تجربة فى كل مرة ، وميدان للمغامرة والتجريب على الدوام ، فعلاقة الفنان بالتراث مثل بصمة الإصبع ، لن يشاركه فيها فنان آخر ، فالهم الذى يثقل قلبه سيكون خاصا به جدا ، كلما كان هَما عاما وعلى الدرجة نفسها .

ولذلك ، أبدو كاتبا صعبا يهرب المخرجون من نصوصه ومن التعامل معه ، لأننى لا أسمح بأنتهاك مؤلفاتى ، فصدقها أو كذبها سيحطان فوق رأسى وحدى ، ولن يبرر الآخراج أى ذنب أو جريمة ارتكبتها كتابتى . ويزيدنى تمسكا بهذا العيب والإصرار عليه ، أن " الموضة " السائدة بين مخرجينا الشبان خاصة (وهو ما يطلق حتى على الذين بلغوا الخمسين) تحت وهم (تأليف) العرض المسرحى يجترئون على أحلام المؤلف وأوهامه ، ويسمحون لأنفسهم (بالتأليف) الفورى والانطباعى – أن صح هذا التعبير – بدلا

من الانشغال بشحذ أدواتهم الآخراجية ، وتوسيع أفاق إبداعهم البصرى والحركى والسمعى ، خدمة للفكرة التى وقعت فى أيديهم بعد أن عذبت المؤلف شهورا أو سنوات .

أؤمن بتعاون وتفاهم ضرورى بين الكاتب والمخرج ، عالمين يصطدمان ويصطرعان ، والصراع لا ينفى التفاهم بل يدعمه ، والخلاف لا يوهن العمل المشترك ولكن يؤكده .. هذا هو المسرح !!

لكننا الآن نسير فى حقل ألغام . فالوضوح الفكرى أصبح لعنة وذنبا لا يغتفر ، والمشى على الصراط المستقيم مغامرة "عبيطة " ، لا يقدر على تبعاتها سوى من خفت موازينه .

وكيف يمكنك اكتشاف الصدق تحت أقنعة النفاق والمداهنة والخبث والغباء ، اللزوجة أصبحت الوسط والإطار للعلاقات البشرية ، وبالتالى (بل أكثر) للعلاقات الفنية والمسرحية ، بفضل سيادة الكلمات وشلل الفعل ، وتضخم الشخصيات المزيفة غير الفاعلة ! والفعل هو صنو المسرح وعموده الفقرى !

فى سن السابعة صعدت إلى خشبة المسرح الفقيرة فى فناء مدرسة " الجمالية " الابتدائية ، وهى قرية مجاورة إذ لم يكن فى " ميت سلسيل " مدرسة ابتدائية بعد ، وسط احتفالية رائعة شاركت فيها القرية كلها ، بل كثيرون من القرى المجاورة ، حيث يسير الموكب يزينه أطفال الكشافة والقسم المخصوص ثم المداحون والغوازى ، وعربات الكارو كل منها تحمل أهل حرفة أو صنعة من نجارين وترزية ومبيضى نحاس وحدادين وبنائين ، كل يمارس صنعته فوق العربة ، وجمال تحمل عميانا يقرأون فى صحف مقلوبة، وحاو يمارس ألعابه السحرية ، وراكب حمير بالمندار ، ومسحراتية ، والناس كلهم مشاركون ضاحكون ، كان احتفالا بالمولد الشريف . ووسط البهجة العامة والأعلام والألوان والطرابيش ، أنتهى الموكب إلى فناء المدرسة ، حيث احتشد المئات فى الفناء والمئات فوق أسطح المنازل ، ألوان وعمم ورايات وزغاريد .. وكانت (قريش) على خلاف شديد حول من يحمل الحجر الأسود ليضعه فى مكانه عند إعادة بناء الكعبة ، ويشتد الخلاف وتجرد السيوف ، إلى أن يصيح أحدهم :

" – ها هو الأمين ؟ ! .... "

وأدخل أنا فى جلبابى الأبيض الجديد الذى صنعته أمى خصيصا لهذه المناسبة ، وترتفع الزغاريد من عشرات الأفواه ، وتطير بالونات وترفرف أعلام ، وأقولأنافى ثبات وثقة :

" – إيتونى بثوب !! .... " .

وأحمل الحجر لأضعه بالثوب ثم أشير إليهم :

" – ليأخذ كل منكم بطرف .. ! "

يا للروعة التى يخلقها المسرح . كانت دموع النسوة تسيل وهن يزغردن ، وأنا فى حالة من الوجد خفيفا ، أخرج مخلفا ورائى دويا من التصفيق والفرح والدموع .

هل يمكن لامرئ أن ينسى مثل هذا الموقف ، أو أن يعيش دون أن تنغص ذكراه عليه حياته ، فيحاول استعادته جاهدا .. كشف ذلك السر الخفى وراء ذلك الستار الغامض الذى يعيد صياغة العالم فى صورة أزهى وأبهى وأكثر تأثيرا .

وفى بدايات الخمسينيات قاد (حسين عبد ربه) جماعة الطلبة فى قريتنا عبر أشواك وأحلام هذا الطريق . وكنت فى العاشرة . وكان هو يقوم بكتابة مسرحيات وإخراجها فى الوقت نفسه . قريتنا التى عرفت بين القرى بأعلى نسبة لتعليم الأبناء تموج بالطلبة ، ونادينا محط أنظار الجميع ، وفريق الكرة فيه منتصر وله أنصار . ونبتت فكرة فريق التمثيل . وفى كل إجازة صيفية كنا نقدم مسرحية . (الضحية البريئة) قمت فيها بأداء صوت الضحية التى قتلت غدرا إذ تتجسد لخطيبها وابن عمها المحامى تطالبه

بتبرئة ساحتها من العار .. وتنساب دموع أبى تأثرا فيوقف معارضته للمشاركة فى هذا " الهلس " ، ويصبح اسمى على كل الألسنة (أنابريئة !!) . كان الصغار يعايروننى به .. لكننى لم أكن أغضب بل كنت أحبه وأتمنى من الجميع أن يتفوهوا به بدلا من اسمى ! .

وبعدها قدمنا (نور الإيمان !!) ثم (أرض المعركة !!) . وكنا نصنع مسرحنا من أعواد الخشب (الفلارى) التى تستخدم فى تسقيف المنازل ، مرصوصة فوق براميل الزيت ، ونصنع ستائر من ملاءات السرير ، وعلى الأرض والأسطح مكان للجميع ، فى ساحة الجرن أو ساحة " أبو الرايات " ، أو فى فناء المدرسة عندما صار لبلدتنا مدرسة ابتدائية بعد (طه حسين)!! .

أبدا لم ولن ينسى جيلى عروض المسرح العالمى فى الأوبرا والأزبكية ، والقروش الخمسة لتذكرة أعلى التياترو حيث نعايش (أنتيجونا) و (سلطان الظلام) و (زواج فيجارو) و (الصفقة) و (الناس اللى تحت) ... عالم جديد ورائع ، متنوع وغنى . كان الطموح الثقافى أكبر من الإمكانات ولكنه كان مؤثرا . وأعتقد جازما أن كل ما شهدته الحقب والعقود التالية من نجاح وإخفاقات ، من طموح وإحباط ، كان من طرح تلك المرحلة التى لم تحظ باهتمام أحد ، وطغت عليها ديماجوجية الستينيات !!

فى أواخر الستينيات لم تستطع القمم والرموز الثقافية الضخمة التى تصدرت الصورة وتربعت على "الكراسى الثقافية" أن تمنع الهزيمة المحتمة أو المقدرة . ولم يكن للسطح التقدمى البراق أن يمنع أمطار الارتداد ولا أن يوقف تحولات البنية التحتية للمجتمع المرهق لاستقبال العصر الجديد . ولا عجب حينئذ أن ينافح الأبطال القدامى ، وأن يستميتوا فى الدفاع عن مواقعهم الثقافية المتميزة التى كان مقدرًا أن يزيحها ويزيحهم عنها بالفعل طوفان السوق الكاسح ورجاله الشطار . ولا غرو أن يتعمدوا بغتاتة التقليل من قيمة أى إبداع جديد أو شاب لم يمر من خلال " مصافيهم " ، وأن يتعالوا على الذين تخلقوا بعيدا عن وصايتهم أو فى مواجهتهم فى بوتقة الصراع المحتدم ، وهم عرايا الظهور أمام سياط القاهرين ومبرريهم ، مجردين من بريق النجومية وطنطنة الشهرة وأمان السلطة . ولا مناص أن يصوروا بكل لجاجة حقبة الستينيات المسرحية

والثقافية كفردوس مفقود ، ذلك أنهم كانوا ملائكته وسدنته وحراسه . ورغم هروب الكثيرين منهم إلى خارج الوطن ، عندما أنتقل صولجان الحظوة إلى آخرين ، بحثا عن راحة البال أو المال ، أو سوء المآل ، فى أحضان رحم آخر أو أوهام أخرى .

ورغم توقف الكثيرين منهم عن الإبداع ، حتى على المستوى القديم ، ناهيك عن عجز فى القدرة على تجاوزه بسبب فقدان الرؤية أو الهوية ، أو فقدان الاتزان ، أو الشيخوخة ، ورغم صمت البعض منهم تعففا فى بعض الحالات أو تأففا فى حالات أخرى ، أو موت بعضهم غما وهما .. رغم ذلك ، فما زال الكثيرون منهم يحلمون برجعة لذلك الفردوس لن تكون ، لأنهم لا يريدون رؤية ما جرى وما كان ولا يحسون باختلاف الزمان بعد انفلات الزمام ، وانطلاق الكل من الحملان أو الذؤبان ، إذ صار الصراع على المكشوف طبقيا وفكريا ، وعليك – أن أردت يا من تريد الاحتفاظ ببقايا الجذوة فى قلبك – أن تنزل أرضه دون " تمحيك أو تلكيك " ، دون سند أو صكوك أمان .

كنت قد كتبت للعرائس وللأطفال منذ عام 1966 (حكاية سقا) ، ولكن المسرحية الأولى التى كانت تعكس موقفى المؤرق والمقلق ممن تعلموا القراءة والكتابة والموقف معهم وبهم مع السلطة ، وإيمانى بأنه لا سبيل سوى تحسس وتلمس سمات الفرجة الشعبية لإقناع جمهور لا يعتبر المسرح جزءا من تكوينه الثقافى بمعناه الغربى ولكنه مارس طقس الاجتماع المرح والحزين فى الموالد والأفراح والأحزان أيضًا .. كانت تجربتى الأولى فى مسرحية (سعدون / أو سيرة شحاتة سى اليزل) المستوحاة من رواية

سرفانتس (دون كيشوت) ، تروى فيها مجموعة من الرواة والشعراء الجوالين حكاية (شحاتة وتابعه سعدون) الفلاح وخوضهما معارك وهمية وحقيقية مع مؤسسات عصره العثمانى الحاكمة ، متوهما أنه الفارس الشعبى (سيف بن ذى يزن) ، إلى أن يجد نفسه فى مواجهة حقيقية مع الوالى العثمانى ، ويتحول هو نفسه على لسان الرواة الشعبيين إلى أسطورة تهدد أمن السلطان فيضطر لاغتياله .

وأفراد الفرقة قليلو العدد هم الذين يقومون بتمثيل كل الأدوار وبالغناء والحكى ، حسب ما يراه رئيسهم المخرج الذى عليه أن يتصرف بكل حرية حسب مقتضيات المكان ، وهذا أيضًا ما يجرى بالنسبة إلى تقديم مسرحية (الليلة فنطزية) التى تحكى حكاية فرقة مسرحية شعبية جوالة ، تحلم بالاستقرار بجوار محطة سكة حديد جديدة تقام أمام قرية مجهولة منسية ترى فى المحطة حلما لنقلها إلى القرن العشرين . ولكن الفرقة الشعبية تصدم بالسلطات المحلية المتمثلة فى المخبرين وعمدة القرية والخفراء . وتضطر الفرقة إلى تشخيص إحدى الحكايات التى تدور حول علاقة السلاطين بالفلاحين ، والسلطة بالمثقفين ، من خلال الحكاية الشعبية الساخرة عن السلطة والحشاش ، لتشفى غليلها منهم ولتحقق حلما خابيا بالحرية لليلة واحدة . وإن كانت مسرحية (الغورى يبنى الهرم الأكبر) أو (إقرا الفاتحة للسلطان) التى قمت فيها بتمثيل دور السلطان (الغورى) عندما قدمتها الفرقة المركزية للثقافة الجماهيرية منذ ثلاث سنوات ، تختلف من حيث عدم استخدامها الحكاية الشعبية والفرجة الشعبية ، إذ تستخدم التاريخ ، التاريخ فى إطاره الأسطورى لا الواقعى ، كما سبق وشرحت . فالسلطان (الغورى) هو سلطان خاص بالمسرحية ، والأحداث التاريخية ليست تماما كما وقعت فى التاريخ ، إنما هى تعكس رواية شعبية للملوك والحكام المصريين والعرب الذين يستدعيهم (الغورى) إلى قصره ليشهدوا حفل انتصاره على البرتغاليين (التاريخ يؤكد هزيمته !!) والأنتهاء من بناء الهرم الأكبر (بناه خوفو قبل ذلك بأربعة آلاف سنة) ، ولكن المؤلف مع ذلك يلجأ إلى العرض المفتوح والشكل الاحتفالى ، ولذلك لم يكن غريبا أن تقدم المسرحية فى ساحة من الساحات الأثرية (وكالة الغورى بالقاهرة القديمة – الأزهر) ..

أما (سهرة ضاحكة لقتل السندباد الحمال) ، فهى مختلفة ، فلم تقدمها فرقة شعبية من أهل السامر الشعبى أو فرقة متجولة ، وإنما تقدمها فرقة (محترمة) من فرق الدولة ، أو من فرق المسرح الرسمى ، تحاول أن تقدم سهرة ضاحكة للتخفيف من عناء الحاضرين وقسوة الحياة . وتبدأ المسرحية بالمخرج يؤكد التزامه بذلك لكن الأمور تسير على غير ما يهواه وعلى غير ما خططه ، إذ يرفض أحد رجال الفرقة ، وهو " النكدى " ، أن يخدع الجمهور بتقديم عالم ساحر غير واقعى رومانسى ، ويطلب أن تقدم قصة السندباد والحمال (الكادح) بدلا من تقديم قصة حب ابنة السندباد . ويستطيع المخرج أن يروضه بتأديبه وإبعاده عن العرض ، ثم يبدأ فى تقديم قصة زفاف ابنة السندباد لابن والى المدينة ، ويدور المنادون يبشرون أهل بغداد بالخبر وبأيام السعادة والهناء القادمة ، وبعدهم يدور المحتسب فى السوق ليستولى على الهدايا وليحرض الناس على دفع تكاليف العرس والهدايا ، فى الوقت الذى كانوا فيه يتوقعون أن يحصلوا هم على العطايا . ويحاول " النكدى " الأسراع للتدليل على ولائه لأهل السلطة ، أهل الفرح ، بتقديم دجاجة للمحتسب ، فهو يريد أن يثبت ولاءه للجميع من أهل السلطة (فى المسرح وفى الحدوتة) لكن زملاءه يمنعونه ويقهرونه . ولإزالة أثر تدخله ، يسرع الممثلون بتقديم ما يجرى داخل بيت السندباد ، فتكتشف أن الابنة لا تريد الزواج من ابن الوالى ، وتحب صعلوكا وتخطط للهرب معه فى الليلة نفسها ، ولكن خادمتها تخونها ، ويكتشف أبوها اللعبة ويمنعها من الهرب ويقتل الفتى الصعلوك انتقاما لتطاوله

على بيت السندباد وبنته وترمى مأساة قتل الحبيب بظلها على الحاضرين ، ويفشل المخرج فى تقديم أضحوكة أو تسلية مسرحية .

وفى الجزء الثانى من المسرحية ، وبعد أن عرفنا أن السندباد ما هو إلا كاذب كبير (يخشى مسيل الماء فى الحمام) ولم يركب مركبا ، ولم يذهب إلى رحلة ، وإنما هى حكايات كان يسلى بها ابنته ويحكيها للرواة الذين ينقلونها إلى الناس لتسهم فى إلهائهم عن حالهم وبؤسهم ، ويغزلون منها أحلامهم ، نصحب السندباد الحمال – إلى حى الرصافة حيث قصر السندباد وحيث الفرح – حأملا صندوقا أعطاه له أحد الأكابر فى السوق ثم هرب منه ، فتدعوه أمأنته إلى حمل الصندوق إلى حى الأغنياء لعله يعيده إلى صاحبه الذى ضاع منه . ونراه ، وهو الذى تعلم قيم الأمانة والشرف من حكايات السندباد نفسه ، يفرح إذ يلتقى بالسندباد البحرى ، ويفزع لأن السندباد البحرى يحرضه على أخذ الصندوق لنفسه ، باعتبارها فرصته للثراء . ولكن الحمال يرفض حرصا منه على عدم خيانة قيم الأمانة ، فيسخر منه السندباد ويأمر بإدخاله القصر فقد يعثر على صاحب الصندوق وليسمع حكاية السندباد الأخيرة . وفى القصر نرى ابنة السندباد وقد جنت بسبب قتل حبيبها ، وعندما ترى صندوق الحمال تظنه الصندوق الذى أرسله حبيبها للفرح ، فتصر على فتحه ، وفى داخله ترى حبيبها المذبوح . وهنا يتحول الأعزل إلى قاتل ويتهم القاتل البرئ ويجد كثيرا من الدلائل على أن الحمال ليس قاتلا فحسب بل مخالفا لأوامر السلطان التى قضت بعدم العمل طوال أيام الفرح ، فيصر على الأنتقام منه ، ولا يشفع له حفظه حكاياته أو إيمانه به بوصفه ممثلا للشرف والقيم . ويتهم بقتل الصعلوك العاشق وبمحاولته إفساد الفرح ، ويحول السندباد إيمان الرجل وقيمه إلى حبل لشنق الحمال المسكين البرئ الذى كان همه أن يكون مخلصا للقيم التى يبشر بها السندباد ، ويعترف وهو يستعطفهم محاول ا إظهار براءته عندما تتكشف له الحقائق :

"أنالم أقتل أحدا وقد تكون ضلالتى الكبرى أنى لم أملك حتى حلمى .. حلمى مشنقتى حلمى المجدول بكلماتك التى جعلتنى أشم طحالب البحر على ثوبك ..أناالذى يكبل خطوه الرزق القليل .. صدقونى يا خلق ..

أننى الذى لم تبصر البحر عيناه .. كان البحر يزورنى كل ليلة مع حكاياتك ارحمنى يا سيدى فأنا من رواتك لقد كان حلمك وعدنا وصديق فقرنا " .

ولكن دفاعه يتحول إلى حبال لشنقه وإلى أدلة ضده . وقبل تنفيذ الحكم يأتى من يخبرهم بانتحار ابنة السندباد ، وينهار التاجر الكبير ، ويصبح الأمر مأساة كأملة .

إن إعادة التشخيص لم تخفف من وطأة التراجيديا ، لأن الأحداث سارت حسب منطقها الخاص ، كان لابد أن تنتهى بمأساة ، مادامت قد بنيت كلها على كذبة .

أما المسرحية الثانية فهى مسرحية (البطاقة) وهى .. من فصل واحد ، وتختلف تماما من حيث معمارها الكلاسيكى الذى يكاد يحتفى بوحدات أرسطو الثلاث .

تدور (البطاقة) حول السلطة والقمع – السلطة عندما تتحول إلى شهوة حيوانية مستمرة تغذيها الأداة التى تظل قادرة على اقتحام حياة الإنسان ، وفصم عرى أقوى روابط العلاقات الإنسانية . والمسرحية بها شخصيتان فقط (الرجل والشاب) وهى منسوجة بشكل كلاسيكى فى فصل واحد ، على عكس المسرحيات الآخرى التى أحاول فيها دائما هدم الشكل التقليدى والخروج عليه . وهنا أحاول من خلال علاقة الأخوين كشف العلاقة بين المواطن والسلطة ، وعرض اللعبة السلطوية وطريقة ترويض المواطن واستلاب إنسانيته .

والمسرحية تحكى قصة أخوين مات والدهما وترك عبء المؤولية على عاتق الأخ الأكبر الذى يبذل جهودا مضنية لكى يستطيع أن يعول أخاه الصغير ، وأن يدفعه إلى أعلى درجات السلم الاجتماعى ، ويعلن فى الإذاعة عن توزيع البطاقات ، وهى بطاقات رهيبة يجب أن يحصل عليها كل فرد ليتمكن بها أن يعبر عالم مؤسسات السلطة ، ويمكن بها أن يحوز القبول الاجتماعى ، أو باختصار ، يستطيع بها أن يتحقق فالوجود لا يكون إلا من خلال البطاقة .

ولكن الأخ الأكبر الذى يهتم بحضور الاجتماع ، يعلم أن البطاقات لن توزع إلا على من حضروا فيرتعب ، ولكنه يطمئن نفسه بأن أخاه الحبيب لابد سيحضر له واحدة ، ثم يفاجأ بأن أخاه لم يحضر إلى البيت عقب الاجتماع ، بل لم يعرف أصلا بالبيان الذى أذيع . وينتابه القلق والتوتر البالغان لعدم حصوله على البطاقة ، ويتهم أخاه الأكبر أنه وراء عدم حصوله على البطاقة بسبب عدم اهتمامه المستمر بالاجتماعات ، وهنا تبدأ لعبة المتهم والمحقق ، والصغير يكون تارة متهما وتارة محققا ، وينتهى به الأمر وقد عرف أن أخاه لم يدع أصلا إلى الاجتماع . وهذا ما يؤكد أن الجهاز الأكبر يعرف كل شئ عنه ، ولذا قرر حرمانه وحرمان أخيه أيضًا ، ويضغط الأصغر على الأكبر حتى يعترف أنه أحيانًا ما تنتابه الشكوك .

ويأتى رسول حأملا بطاقة للأخ الأصغر الذى ما أن يتأكد أنه قد نجا ، ويطلب الكبير منه وقد حصل على بطاقة أن يحاول أن يجعل السلطة تسامحه ، لكنه يرفض هذا بل نكتشف من خلال مكالمة فى التليفون أن الأصغر قد صنع كل ذلك من أجل أن يكشف تخاذل وشكوك الرجل بناء على اتفاق مع السلطة . وهنا يطلق الرجل الرصاص على الشاب : حلمه المجهض ، ويتقدم الرجل من المتفرجين بعد قتل أخيه ، طالبا من أحدهم أن يلعب دور الشاب غدا ، إشارة إلى أن الكثيرين يلعبون الدور نفسه بوعى أو بغير وعى ، وإلى قسوة أن يتحول الإنسان إلى مجرد أداة (أو شئ) للقتل أو للخيانة فى ظل السلطة المطلقة أو الفاشية .

نعم .. فنحن الذين نصنع بكل طيبة وبلاهة توابيتنا التى ندفن فيها أحياء ، ونربى بكل إخلاص وتفان تلك الوحوش التى تنهش أجسادنا وأرواحنا . ونحن أيضًا ، الذين نقيم بكل حماس وتعصب النظم التى تقتل فينا الإنسان . والمسرح عندى كالشعر ، هو ملاذى الوحيد كى لا أرتكب هذا الجرم ، ولكى أحذر منه لا أكثر .

●

مونو دراما لحد الموت

سيداتى آنساتى سادتى .. أنا قرفان منكم ومن نفسى ورغم ذلك آليت عليها ، أى على نفسى أن أضحككم بعد أن عشت نصف قرن كامل أبكى وأنكد على كل من هم حولى .. ولقرفى هذا أسباب منطقية بعضها يتعلق بالظروف التاريخية التى أحاطت بالحركه الوطنية منذ انقسام العالم إلى معسكرين ، ومن ثم انقسام الذرة . وبعضها له صلة وثيقة بالظروف الموضوعية المتعلقه بى أنا شخصيا .. فمنذ أن دعت أمى ربها أن (يفرج عليّه خلقه) وأنا أساق رغما عن أنفى لكى أصبح مهرجا .. فى هذا المسرح الذى لا يدخله أحد سوى مرة واحدة لا يكررها إلا مرغما أو طمعا فى دور آخر .. أو لغرض خفى .. أمنى أو أممى ..

والقرف أنواع .. منه البسيط وهو الذى يسببه لك مثلا ، تعثرك فى براز إنسان على رصيف نظيف وسط المدينة لا تستطيع أن تخمن كيف تم وضعه فى مكانه ..

أو هو قرف يسببه لك مثل آخر أن تكتشف بعد ممارستك لعملية جنسية طارئة أنك مصاب بالسيلان ...

أو حين تكتشف مثلا أنك نشلت ولا أمل فى سلف أو تلف .. كل هذه أنواع من القرف البسيط !!.

أما القرف المركب .. فكلكم تعرفونه وتمارسونه طول الوقت حتى وأنتم تتظاهرون بغير ذلك .. وهو الذى أعانى منه الآن بسببكم وتعانون مثله منى . وهو الذى أتى بكم إلى هنا رغم فقر المكان والشبهة التى تحيط بكل من يتردد عليه وجعلكم تتركون التليفزيون .. أوالمقهى .. أو حتى الفسحة على شط النيل أوالتسكع فى الشوارع بلا هدف .. سوى قزقزة اللب ونفخ قشره لأطول مسافة ممكنة .. وكلها أشياء يمارسها أناس قرفانون قرفا مركبا غيركم وغيرى . ومنه أيضًا ما جعلنى أربى ذقنى هذه ليس لأنى أنضم لجماعة إسلامية من التى تملأ الحوارى والنجوع ولا لأنى شيوعى .. فالذقن كانت موضة لدى الشيوعيين فى القرن الماضى والشارب كان طراز نصف القرن العشرين . قبل أن تتعدد الطرز وتتباين بين السكسوكة والصلعة والكرش والجزمة الميرى !!

ولست أيضًا من الهيبي أوالشيعة أو فنانى العبث ، لا شئ سوى القرف المركب هذا الذى تعرفونه جيدا من قلة الماء وغلاء ثمن الأمواس ، والخوف من الالتهابات الجلدية .. والرغبة فى تنفيركم من شكلى لتندمجوا أكثر مع الدراما التى سأحكيها لكم أو أشخصها ، عملا بما جد من تطور للأشكال المسرحية بعد موت الكاتب ..

عفوا يا سادة ..

فهذه المونودراما قائمة أساسا على رغبة خبيثة - لدىّ - لقتلكم ملاً بدلاً من موتكم قرفا لسبب آخر .. ولذا مسموح فيها بكافة المخالفات المعروفة وغير المعروفة للدراما .. كالثرثرة والتكرار والسب العلنى والنقد الذاتى ووضع الملح على الجروح الظاهرة والخفية والتآمر والتكتل والوشاية .. والخبث الذى ينميه طول ممارسة السياسة دون تحقيق أى هدف والإحباط الذى يخلقه تصورك أن ممارستك للعمل السياسى بالطريقة التى تمارسه بها الآن يمكن أن تحقق أى أهداف . سوى الفرجة على بعض التمثيليات التافهة والمشاركة فى بعض ساحات

الثرثرة ودخول السجن أحيانًا لاكتساب شهرة عجزت عنها مواهبك الفنية أو النقدية أو النضالية والتباتة التى تكتسبها من طول الضرب على القفا فى الأسواق وفى الزنازين وفى الجامعات وفى مجالس العلم والفن ومجالس الأدب وأيضًا فى البيوت ..

والندالة التى يؤجج سعارها عجزك الدائم عن إجابة حاجات الذين يعتمدون عليك . فتضطر غير مضطر للهرب أوالهجرة أو التطرف أو التحول من الاشتراكية إلى الرأسمالية أو العكس أو اختصار الطريق فتربى ذقنك مثلى دون دافع أيديولوجى أو فلسفى أو دينى .. وأن تختار لنفسك سخافة أن تقف كمهرج لتؤدى هذه المونودراما السخيفة فى مثل هذا المكان السخيف معرضا نفسك لكل ردود الفعل السخيفة .. لتدون فى كتاب سخيف لن يقرأه أحد بعد عدة سنوات .. ولن يؤثر فى أى جلد أو عقل أو قلب .. إلا تحت ظروف سخيفة ..

أنت ...

أنت السيد ذو النظارة السميكة التى تدل على أنك من كبار مثقفى هذا البلد ذوى النظر الضعيف .. هل أنت متأكد أنك جئت هنا من أجل المتعة الساحرة التى يقدمها المسرح عندما يكتشف الإنسان ذاته فيما حدث للآخرين .. أمن أجل التطهر جئت ؟.. إذن فاسمح لى أن أقدمك لجمهورى الحبيب السخيف .. فقد يكتشف هو أيضًا بعض المتعة فى تلك الثقه التى دفعتك للحضور إلى هذا المسرح الذى هو ما هو عليه من الحقيقة ..

أنت رجل فيلسوف .. تحلم بتغيير العالم فالفلسفة عندك ليست مجرد تفسير للعلم كما يقول الفلاسفة المثاليون الجهلاء ، ولكنها ينبغى أن تكون فعلا من أجل التغيير ..

لم لا تصفقون يا سادة .. ألم تفهموا المعنى .. هل ينبغى على أن أطبق يدى فوق جبهتى وأن أركع على نصف ركبة لتتعمقوا فى المعنى الذى طرحته على لسان هذا الفيلسوف ذى النظارة السميكة التى تؤكد أنه من كبار مثقفى هذا البلد قصار النظر .. يا للأسف يا سيدى .. أن أحدا منهم لا يعرفك .. وهذا يجعل مهمتى صعبة ، فأنت رغم السنوات الطويلة .. فى هذا النضال من أجل التغيير لم تقنع تلميذا واحدا ..

فأنت بقدر ما ابتسمت فى وجوه الجميع تبولت فوق رؤوس الجميع تحدثت واندمجت واشرت وقسمت الهواء ترنشات باليسار واليمين فوق الكرسى وتحته .. فى المنفى وفى العواصم الساحرة ولكن ثمرة واحدة لم تنضج فوق غصونك .. وها أنت تأتى إلى مسرحنا فى صحبة عشيقة فى عمر ابنتك التى تكرهك (عما) رغم أنها تعيش معك فى بيت واحد ورغم تدلهك الأحمق فى حب ابنتها حفيدتك التى كنت تتمنى ألا تشبه زوجتك التى تكرهها كراهتك للشقة التى تضمكما معا .. والتى تجعلك تنتف فروة رأسك لتتجنب الابتسامة المنافقة التى تقابل بها الجميع

فى المسارح والمقاهى ومعارض الفنون التشكيلية والمكتبات الزاخرة بالكتب وإبداعات الآخرين وأنت بلا ثمر .. كذكر النخل النائى الذى يتآكل وحده فى الأرض المالحة ..

آسف يا سيدى فقد تصورت لحظة دخلت إلى مسرحنا هذا أنني سأحبك لدرجة أننى كنت مستعدا أن أقول فيك الشعر لو كنت شاعرا .. فقد بدوت لى كأحد الملائكه القدامى الذين منحهم الله هالة بيضاء مقدسة يخدعون بها البشر .. متواضعا .. تكاد تذوب رقة عندما تجلس على منصة أمام الآخرين مستجيبا لنداء المهرج الرابض فى أعماقك .. والذى يدفعك لكراهيتى

لأنك تتمنى بينك وبين نفسك أن تكون هنا مكانى قادرا على مخاطبة الجميع دون مقاطعة ودون اعتبار لأى اعتبارات فلسفية أو خفية أو توازنية ، تدفعك لتبرير كل المواقف وتعطيك القدرة الفائقة على إثبات تطابق المثلثات غير المتطابقة وتفسير الظواهر بعكس ما توحى بها ، ناسيا أن الموز لا ينبت من بذرة ولا الحب ينمو على جثث الآخرين . آسف يا سيدى فأنا اتبع قواعد اللعبة التى تعرضها هذه المونودراما السخيفة التى تضطرنى أن أكشف قناعى وأن أمزقه لألعب دور المهرج ...

أليس كذلك يا حضرة ..

أنت ..

أنت هناك .. يا من تخفى ابتسامتك الخبيثة المتشفية فىّ .. سعيد أنت لأن أظافرى أسالت بعض دمائه .. ياه .. سنوات طويلة وأنت تتمنى أن تراه فى مقعد المتفرجين لا يستطيع الكلام أو المقاطعة بحكم اعتبارات الفن المسرحى والاتفاق السرى بين الزبون والمسرح . ولكنك كنت ستزداد ترحيبا بذلك لو أنك استطعت أن تكون مكانى ..هنا .. لتخربشه وتخمشه أنت بدلا من خربشاتك وخمشاتك السرية طوال سنوات والتى كان يردها اليك أيضًا فى السر بحكم اعتبارات فن الفرجة فى الأقبية المظلمة المجهولة التى يعيش فيها المتفرجون طواعية أو قسرا.

لا تتظاهر . الأفضل أن تطلق ضحكة .. فقد تخفف مما أنت فيه .. وأنت ترى العالم يتطور وأولادك الذين تحكمت فى مصائرهم فى الماضى بحكم السلطة الأبوية ينفلتون أو يقاوحون فى بجاحة ويملكون أدلة وبراهين بحكم قدرتهم على الفهم وسعة إطلاعهم .. وعقليتهم المركبة .. وهى مواهب حرمت منها وكبرت رغم أنفها ماذا أنت فاعل الآن ؟.

هذه المونودراما لن تنتهى على خير .. صحيح أنها ليست فى قسوة المواجهة التى تحدث فى بولندا .. أو فى ناكورنا كرباخ .. أو حتى فى سيبريا .. ولكن كيف يمكن أن تتجنب ذلك .. لن يقبل أحد منك تلك الجملة البسيطة الدالة القاطعة التى لاتساوي شيئًا والتى كانت تكفى فى الماضى ليلقى الأولاد بانفسهم أمام جنازير الدبابات أو فى مستنقعات البلهارسيا .. الآن وجب عليك السؤال الهاملتى رغم أنك أكثر شبهًا بعطيل(تلك هى القضية ..أكون أو لا أكون ؟)

هل تبينت كيف ستكون الإجابة ..ام انك ستفضل البقاء لحين انتهاء هذه المونودراما .. لتخرج من المسرح سعيدا لأن غيرك قام بدور المهرج ...

وا أسفاه .... كان أخوك أكثر جرأة . لأن التهريج وروح الدراما كانت تملأ كيانه النحيل .. فاختطف الميكروفون من الممثلين كثيرا ، واختطف التصفيق وحاز الإعجاب فى أكثر من مسرح .. فهدد وتوعد وزعق وتألم وتلوى وانفجر باكيًا وضحك ساخرًا وتفرعن وتملعن وأمعن فى الشذوذ الذى هو صفة ملازمة للزعماء فتزعّم حتى كاد أن يصبح شهيدًا لولا ضغوط الحياة

اليومية وقلة الحيلة .. وغلاء اسعار السرادقات وانشغال رفاق دربه فى طوابير الجمعيات أو فى طوابير زيارة مقبرة الزعماء الآخرين ...

امسحى دموعك يا سيدتى .. فانا لا أتعمد إثارة اشجان أحد .. ولا أريد الوقوع فى الميلودرامية نحن هنا فى مسرح محترم ناضل و كافح من أجل هذا الشعب وثقافته وخاض معارك الشوارع .. وإضرابات السجون وقدم من الشهداء عددًا لا بأس به ..

فلا تحولى كل هذا إلى مهزلة ببكائك على شهيدك الخارجى ، وتجبرينى على كشف كل أوراقى مرة واحدة . فالدراما حتى تلك الحديثة القائمة على إزالة كل الاوهام لابد أن تتمهل فى رفع الأستار .. وأن تتكتك وتفرق بين الجوهرى والزائل .. بين المتغير والمتحول .. بين المناضل والمهرج .. بين الشهيد و القاتل ..

(تصفيق حاد) .. أشكركم .. ولكن لست بهذا أتراجع عن قرفى ولا تصفيقكم يعطيكم الحق فى التنصل من قرفكم منى فلنستمر فى اللعبة فلا مخرج منها إلا بالموت ...

•

لا تغضبي منى يا سيدتى .. فأنا عشت أقدسك وأتمنى أن ألمسك فقط لأكتسب البركة ، هاتى رأسك على صدرى.. ابتعد يا أخى !.. ألا ترى أننا أمام موقف شديد .. نعم .. هكذا ..امسحى دموعك ..فلقد طالما تمنيت أن أمسحها عن خديك بشفتي .. لاتظنى بى سوءًا ... فأنا كنت عندما أراك فى ثيابك السوداء .. التى أقسم أنك كنتى تشتعلين تحتها .. حزنًا أو رغبة أو كلاهما معا منذ مات زوجك ، صديقى ، ميتة الشرف تلك .. لم أكن أستطيع النوم .. كنت أستحضرك بلا ثياب سوداء .. بل وبلا ثياب على الإطلاق .. وأغوص في مرتفعاتك ووديانك .. مبحرا للمجد تارة وتارة للحضيض .. وأنا أتحسس مؤخرتك الهائلة التي كانت تردني دائما إلى أيام طفولتي .. كنت أغار منهم جميعا .. كل من جلست تتفرجين عليهم في المسرح .. أو تتسللين لتحصلي على توقيعاتهم على تذاكرك وأوراقك .. كنت أحس أنهم يفعلون سرا ما أعجز عنه جهرا .. فقد كنت ألاحظهم وهم يتحسسونك بنظراتهم .. ويحتضنونك بكلماتهم التي تفيض وطنية وتتفجر ثورية في احتفالاتك بذكرى شهيدك .. وكنت أتتبع كلامهم وأنا أموت غيرة وحسدا .. ترى من منهم كانت مهمته ترطيب الحجر تحت رأس زوجك الراحل .؟

كنت أكرههم جميعا لأنهم أقرب لك مني .. فما أنا سوى كومبارس في فريق زاخر بالنكرات .. وكنت أنت النجمة الأولى على الأقل حتى سقوط شهيد آخر ..

لا تنظري إلي هكذا .. فقد اتفقنا منذ البداية على طبيعة هذه المونودراما .. لا .. لاتنطقي .. ولكن أن أردت فتعالي معي .. هنا .. نعم .. وأمام الجميع .. فنحن لسنا غرباء .. أن هذا مسرحنا .. وهؤلاء متفرجونا الدائمين .. فلم نخفي عليهم أمرنا .. أنا لم أخجل من عواطفي أو شهواتي .. كما فعل زوجك .. لم تنكرين عليّ نصيبي .. لا .. لا تغضبي بسرعة .. فلن أطلب منك خلع ملابسك هنا لا .. فأنا مازلت أخجل من رغبتي حتى تفهمين دوافعي هيا .. سأكتفي بلمس الأجزاء التي ألهمتني كلماتي والتي عذبت حياتي .. لا .. لا تتمنعي فكلب حي أبرك وأجدع من سبع ميت .. كلهم قالوا لك ذلك .. وصدقتيهم .. فقدموكي على أنفسهم للحصول على إعجاب الجمهور وإدارة المسرح وجنود الإطفاء واستخدموا جبالك ووديانك في إخفاء التذاكر المزورة .. والبونات التي بلا ضرائب .. ولائحة الجزاءات .. وحتى في تهريب صفحات كاملة من النصوص التي لن

تقدم مرة أخرى .. أرأيت ؟.. أنا فقط أخاطبك بلا لف ولا خداع ..أنا أحتاج إليك .. ليس فقط لأطفئ في نهرك نيران حرماني الطويل .. ولكن لاكتساب إعجاب هؤلاء السذج الذين مازالوا جالسين هنا ينتظرون حدثا لن يكون .. !

•

أغنية أطفال

فزعت من النوم , حين وجدت نفسى أمام ذلك المبنى العجيب الذى لم أشاهده من قبل . وان كانت له بعض ملامح سجن (القلعة) وله واجهة مبنى (المجلس الأعلى للثقافة) الكائن غرب (دار الأوبرا) , مع امتداد غريب لا يحس لطرق ضيقة مظلمة النهاية , تشبه عنبر التأديب بليمان (طرة) أو حوش الدور الأول بسجن الاستئناف حيث حجرة الإعدام ..

ووجدتنى أواجه الواجهة العملاقة وأنا أصرخ ..

- أنا اللى كتبت الورقة دى !!

كانوا قد أجبرونا , أو على ما يبدو نحن الذين انطلقنا بإرادتنا خلفهم مهرولين , عندما صاحوا فى لهجة حاسمة وبلغة فصحى نادرة :

-انتهت الأزمة .. خلاص .. (الأمير) ح يتصرف .

كنا متزاحمين داخل قاعة كبيرة لها شبابيك من الحديد والزجاج , عالية لم أفهم كيف يفتحونها إذا ما أغلقت أوكيف يغلقونها إذا اقتضى الأمر ذلك .. لكنها كانت أكثر ملائمة لكى تكون قاعة للعرض السينمائى ..

كانت الكهربا قد قطعت لسبب ما .. وكان الجو متوترًا لدرجة الغليان دون أن أدرى السبب بالضبط .. وظهر (الأمير) فى لباسه الأبيض متورد الخدين له ذقن خفيفة وأنيقة على شاشة أشبه ما تكون بشاشة تليفزيون كبيرة جدًا .. وأخذ يحكى عن نفسه كلامًا لم أفهم تمامًا علاقته بأغنية للأطفال , كنت قد كتبتها لإحدى المحطات الفضائية التى يملكها مطرب يكاد يكون صورة الخالق الناطق منه أو هو نفسه الأمير صاحب المحطة , الذى يتنكر فى صور عديدة لكى يشبع هوايته فى ممارسة نزوات قد يحاسب عليها لو ارتكبها بنفسه علانية ..

فجأة نسيت أنا نفسى كلمات الأغنية عندما حاولت أن أنطق بها لتذكيره بها منغمة وموقعة وهو على المنصة .

رغم أنها كانت مكتوبة أمامى بحروف واضحة فى ورقة كنت قد طلبت من أحد الحراس أن يناولنى إياها من على الأرض , فأعطاها لى فى قرف , مع ورقة أخرى ظننت لها قيمة كنت قد التقطتها من فوق الأرض الشديدة اللمعان والنظافة عند أول الزيارة . بعد دخولنا من البوابة الرئيسية لهذا المكان , الذى أصبح فجأة يشبه قصرًا باذخًا أشبه بقصور السلاطين فى حواديت خالتى (أم يوسف) ـ أويكاد يكون إحدى السفارات الحديثة . وكان هناك بعض السقاة يدورون بصوان عليها أطايب الطعام والكؤوس على طريقة السفارات الأجنبية فى الأعياد القومية ..

وبعد جهد جهيد ولجلجة لفتت إلى الأنظار تذكرت بضع كلمات من كلمات الأغنية .. وبدأ هو نفسه فى ترديدها ورائى , بنفس الإيقاع والنغمات وهو بين المنكر والمستنكر لتصرفى

الصبيانى .. فى مثل هذه المناسبة الجليلة .. ولكنه كان يحتاج إلى من يذكره بالكلمات وباللحن فلم يعترض ..

فجأة دخل طابور من عساكر مسلحين بالهراوات الكهربية .. صاحوا بنا واستدعونا . فخرجنا متزاحمين فى هرج كبير كأطفال انتهى يومهم الدراسى فجأة .. ولم يحاول الحرس المتجهم ايذاءنا أو منعنا من الخروج .. بل كان يعمل على ألا يسقط أحدنا تحت الأقدام ..

وجدنا أنفسنا خارج البوابة الرئيسية . فى الطريق العام , ثم دخلنا مرة أخرى نتفرج على مكتبة بها كتب وقورة يحرسها عدد من الموظفين ذوى الملامح المتجهمة منعونا من لمسها أو قراءة عناوينها.

فى الزحام ، التقيت بصديقى الشاعر المشهور (أ.) الذي بدا لى ساعتها كأنه الداعى للحضور إلى هذا المكان وتلك المناسبة . فهو يعرف كثيرين من هؤلاء الأمراء والأثرياء العرب .

وفى اهتمام وجدية شديدين أخذت أشرح له سر الورقتين اللتين أخذهما منى الحارس .. وأكدت له أن الأولى تحتوى على كلمات الأغنية التى ساعدنى (الأمير) نفسه ، وهو على الشاشة ، على تذكر بقيه كلماتها وأن الورقه الثانية ما هى إلا مذكرة تفصيلية ، تحتوى على ملخص كامل لسيرة حياة وممتلكات الأمير (بندر عبد الحميد) صاحب الدعوة والمضيف ، واستغربت لأول وهلة وقع الاسم الذى نطقته على طبلة أذنى فهو اسم صديق صعلوك من صعاليك (دمشق) الخالدين الذين تفاخرت بوجودهم عبر عصور قهرها وحقب زهوها ليس اسما لأى (أمير) .

هنا اكتسى وجه صديقي الشاعر رعبًا وذعرًا لايناسبان ملامحه الوقورة ولا صلعته التليدة وأخذ يلومنى على إلقاء الورقه على الأرض وتركها ليأخذها الحرس . وأكد على ضرورة الصمت .. فالدنيا .. مقلوبة وكلامى لن (يودى ولن يجيب) إلا مصيبة .!

قلت له ضاحكا .. كنت أظن أننا جئنا لنقابل (أم الأمير) التى تزور المبنى ضمن اهتمامتها العالمية والعربية بشوؤن الأطفال والمعوقين وليس إلى لقاء مع (الأمير) نفسه .

اختفى الشاعر من أمامى ووجدتنى أندفع بفعل الزحام من القاعة .. اسأل الحراس عن حقيقة الأمر ولا أحد يلتفت إلى وكأننى اتكلم لغة غير معروفة ،

أخرجت الورقه من جيبى فتأكد لى أن الزائر الداعى هو (الأمير) نفسه كما تؤكد سيرة حياته وبرنامج زيارته وليس أمه .. فلمت نفسى على إهمالى التأكد من صحة أفكارى .

ساعتها تذكرت أننى ألقيت الورقتين بنفس الإهمال .. واستشهدت على ذلك وأنا اؤكد للحارس الفظ الذى اعترضنى ، بصديقى الكاتب (ي.أ) الذى كان بالصدفة يقف إلى جوارنا والذى اعتزل كتابة القصة من عشرين عاما . ولكن صديقى الشاعر عاد . وأخذ يؤكد لى أن الصمت أولى بى ، لإنهم الآن يحققون فى محتويات الورقة وسبب كتابتها مع الجميع بلا استثناء بعد أن التقطها أحد الحراس السريين الذين يرتدون اللباس الأفرنجى هو وزميل له .. وأن الورقة بالفعل كانت مهملة ومكعبلة ولا تثير أى اهتمام . ووجدتنى أضحك من قلبى وأنا اتصورها ملقاه تشوه الأرض التى تبدو كالمرايا الأسطورية ..

هززت كتفى مستخفا بالأمر وسألته باهتمام شديد عن مصير الورقة الآخرى التى كنت أحاول تذكر كلمات الأغنية خاصتى بقراءتها دون جدوى ، فانتابتنى رغبة شريرة أن أغنى ما

بها بصوت عال لأثبت أن صوتى أجمل كثيرا من صوت (الأمير) . لكنه أنبنى بشدة لنسيان مقاطع كاملة منها .. فهى مهما كانت مجرد أغنية أطفال .. ولن تكون موضع تحقيق أو سؤال كالورقة الآخرى التى فجرت الأزمة .

خرجنا وخرج الجميع ووجدتني أمام المبنى بالضبط مثلما كنت فى البداية أدق الأرض وأصرخ ..

بالضبط مثلما كنت ساعة فزعت مستيقظا من النوم . ثم لمحت وزير الثقافة بنفسه والذى لم أره من قبل يخرج وحوله عدد كبير من الشعراء الصعايدة منكوشى الشعر ذوى الطموحات الدنيئة والكتاب من رواد وسط البلد الذين لا يكفون عن شرب البيرة والشيشة وهم يمارسون الجنس أو الكتابة ، مستبشرين ضاحكين يتبادلون معه النكات البذيئة وأنا فى غاية الفزع لضياع كلمات الأغنية مع الورقة التى تخصنى .. وفى هذا الوقت التاريخى الذى كان (الأمير) بنفسه سيغنيها أمام كل هؤلاء من صفوة الكتاب والشعراء و المسئولين .

خرج علينا أحد رجال الأمير المقربين وأعلن بكل هدوء .. أن المشكلة انتهت تماما لأنهم عثروا على كاتب الورقة التى تحتوى تفاصيل تاريخ حياة الأمير وتفاصيل ممتلكاته وأسماء شركاته هنا وهناك .. وخط سير رحلاته وأرقام حساباته فى بنوك الأرض وعلاقته بتمويل عدد من التنظيمات الثورية والسلفية . وأن كاتبها دون أى شك أو تأويل ، واحد من أولئك العملاء أو الأرهابيين الذين يودون اغتيال الأمير راعى الفنون والثقافة .. وقد اعترف أنه كتبها فى لحظة عدم وعى ..

وجدتنى أضحك و أقول لمن حولى ..

ـ ولكن أنا الذى كتبتها وأنا أؤلف أغنيتى للأطفال وذلك لكى أعرف كل شئ عمن سيغنى كلماتى وأتأكد من حيثيات وشخصية من سأتعامل معه وهل يستحق أن ينشد كلماتى بعد تجربة غير مريحة مع مغن آخر لم أتعرف جيدًا على دوافعه نحوى .

حاول كل من كان بجانبى إسكاتى وإجبارى على خفض صوتى وابتلاع كلماتى .. ورأيت الشاعر الصديق يكتم بنفسه صوتى ..

بعدها خرج علينا الحرس ومعهم ذلك الرجل السمين الطويل العجوز الطيب الذى يكاد يكون (دهلاً) والذى شبعنا سخرية منه حين رأيناه على البوفيه ، يلغ كأنه يأكل فى آخر زاده وتذكرت ما همس به لى (هشام السلامونى) أنه يراه فى كل حفل استقبال أو افتتاح مهرجان , يتصرف بنفس الطريقة المضحكة متجاهلا كل من حوله مركزا على اللحوم .

كان الرجل هذه المرة لا يثير سوى الشفقة والرعب ، ويكاد يكون محمولا من الحرس فى إعياء منهارًا يبكى وعلى وجهه الذى تشوهت ملامحه من الضرب والتعذيب آهة ألم مكتومة لا يقوى على التصريح بها .. كان مطأطئ الرأس ، لأنه أقر بكامل إرادته أنه كاتب الورقة وصاحبها متجاهلا صرخاتى واعترافاتى وأنها تخصنى أنا ..

العجيبة .. أننى لم أجد أثرا لطفله الصغير الذى تعود أن يصحبه معه لكل الحفلات والذى كان يقفز مسرورًا وهو متعلق بذراعه لحظة دخولنا الليلة .

فجأة وجدتنى أكاد أستيقظ من النوم مختنقاً بالبكاء وأنا أعلن أننى الذى كتب الورقة وليس هو . لكن أحدا ممن كنت أستصرخهم وأتعلق بهم وبرقابهم ، وأكاد أمزق ملابسهم لم يعيرنى التفاتا .. وانفضوا فجأة من حولى ..

صرخت مستنجدا بالمحقق الذى بدا مقتنعا تماما بجرم الرجل أرجوه أن يكف عن هذا الهراء وأن يأخذنى حتى لرئيس الجمهورية لأعترف أو لأعلن فى مؤتمر صحفى رسمي لجمعيات حقوق الإنسان أن ذلك الرجل السمين مع إنه مصرى لكنه تافه ولا يعرف شيئا عن شعر الأطفال ولا يهمه معرفة الداعى لهذا الحفل ولا تلك المناسبة أو غيرها كما أنه لايعرف شيئا عن الموضوع . وأننى الذى كتبت تلك الورقة , بأمارة كذا وكذا وكذا وأخذت أستشهد بالشاعر والكاتب ورئيس الهيئة وبمعلومات هامة وسرية موجودة بالورقة حصلت عليها من مصادر كثيرة تكره (الأمير) ولا حياة لمن تنادى .

أخذوا الرجل الطيب منهارًا.. وكادت الساحة تخلو من السواح ورأيت رئيس هيئة الرقابة مقبلا على وكان منظره عجيبا .. إذ كان وجهه مشوها من الضرب المبرح الذى يتقنه مرؤسوه الذين لايحترمون خلقة ربنا , فأسرعت اليه أعترف أننى أنا الذى كتبت تلك الورقة وليس ذلك المسكين الدهل الذى ضاع ابنه فى الزحام .

نظر رئيس هيئة الرقابة على المصنفات إلى باستنكار وإشفاق .. وتركنى ومضى فى كبرياء ، وهو يتحسس جراح و جهه ويدعو الله أن يأخذنى ..

أخذت أجري هنا وهناك عبر حوارى عجيبة وقذرة وأنا أصرخ .. (أنا اللى كتبت الورقة .. يا اخوانا.. أنا اللى كتبت الورقة.. يا أولاد الكلب أنا اللى ..)

وصحوت هذه المرة بالفعل .. فوجدت نفسى أبكى فى سريرى .. وقد تمزقت حولى الأوراق التى كنت بالفعل قد بدأت أكتب فيها (أغنية الأطفال) التى ألحت على فى بداية الليلة .. والتى لا أذكر منها الآن كلمة واحدة !.

●

شجرة الشاعر

يحس الشاعر هذه الأيام عندما يدعى للحديث إحساسا قاتلا بأنه متهم وأن عليه أن يدافع عن جريمة ارتكابه للشعر فيلجأ وهو معذور لتجميل ذاته أو لتبرير إبداعه بسبب اقتناع خفى - حقيقى أو مؤقت - بأن العالم لم يعد شعريا بما فية الكفاية لغفران ذنب الشعراء .. واحتمالهم .. ولذا فلن أحاول أن أجمل ذاتى وصفاتى , أنافقط إنسان مختلف .. نعم ويجب أن يعترف الشعراء بأنهم مختلفون ويتصرفون بناء على ذلك بشرط ألا يكون هذا مبررا للتعجرف والانزواء أو

للتواضع والتلاشى ..لا.. أنامختلف وقد مكننى اختلافي هذا من تحقيق قدرتي ورغبتى فى الغناء وفي أن أكون ذا فائدة لهذا العالم وللآخرين .

جئت للحياة والعالم يتأهب بإصرار للانتحار بالحرب العالمية التانية والدخول بإرادة أبنائه المتاعيس من العلماء والمجانين من الحكام إلى عصر الذرة المدمرة .. وبأحلام ابنائه الثوار الرومانسيين إلى أفاق تحقيق الحلم المستحيل فى العدالة وبناء الفردوس المفقود على الأرض ..

عشت طفولة الحرب فى قرية مصريه اسمها (ميت سلسيل) كأى قرية مصرية ، ولكن لسانها كان طويلا ويدها أيضًا ، وكان مرتب والدى المدرس البسيط يكفل لنا بعض الحماية من الأزمة وبعض التمايز ..

وأعترف أنها كانت طفولة رائعة .. وقد عشتها تماما ، دفعوا بى إلى خالتى الكبرى كنز الحكايات الشعبية والمختلقة عفو الخاطر لإرضائنا .. أنا وأبناء وبنات أخوالى النجارين الذين استنشقت فى كنفهم رائحة الخشب الرطب .. والعرق الشريف الفقير .. واقتربت كثيرا من الإنسان فى عناصره الأولية ..

ـ عشقت الجارة القادمة من أعماق ألف ليلة بكل أساطير الظل و النور وسحرتنى بنت المدينة وأمها المهاجرتان اللاجئتان إلى ظل جدار سيدى مجاهد ..

ـ درست فى مدرسة البنات حتى قبولى فى التعليم العام بعد هروبى من الكتاب ، حيث تمردت على الفلكة ..

ـ حملنى أستاذ الرسم الجميل على جناحي درينى خشبة الساحرين عبر نافذة أساطير العشق والجمال الإغريقية لأتعلم الحلم والرسم ولأتغير ..

ـ قمت بتمثيل دور (الأمين) فى قصة بناء الكعبة ، واختلاف القوم حول من يضع الحجر الأسود فغزا المسرح وجدانى ، حتى آخر دور قمت به وهو (الغورى) فى مسرحية لى بنفس الاسم ..

ـ زاحمت كالسمكة الصغيرة وسط قسوة السمك الزفر والخضار الطازج وفلاحات اللبن واللفت فى رحلة يومية لسنوات فى عربات كافورى ودرويش والديزل الفرنساوى ..

ـ سرقت ألف ليلة وقصص الأنبياء وكتب أخرى لم أفهم معظمها ، وروايات تاريخ الإسلام وحياة محمد من مكتبة خالى (إبراهيم) طالب الأزهر المشلول فعثرت فى نفسى على

بعض من (جاهنشاه) و (حسن البصري) و حلمت (بتودد) و (أنيس الجليس) وعشقت (وردشاه) و (شمس المكان) ..

ـ حكيت حكايات (كاذبة) عن مغامرات لى فى بلاد لم أرها وحفظت أسماءها فى المدرسة لكى أتساوى مع أولاد الحارة الذين يملأون أمسيات الصيف والشتاء برحلات حقيقية مع التراحيل وخلف الغنم أو فى أسواق القرى والعزب البعيدة والمجاورة . وتعرفت إلى لصوص الليل ..وعرفت المقابر القديمة بحثا عن العفاريت ، والبساتين المسيجة المخفورة بحثا عن ثمار الفاكهة النيئة . والمسارف القديمة وراء الأسماك والبلهارسيا ..

ـ سحرتنى السينما و (نور الهدى) و (يوسف وهبى) حين شاهدتهم فى رحلة غامضة إلى الإسكندرية بعد الحرب .. عدت منها برائحة التفاح الذى كنت أشتريه من عم (أخنوخ) الكهل بجوار المستشفى العسكرى ..

ـ عرفت بساطة الحكمة الشعبية والبلاغة الفائقة من الطريقة التى كانت تعلق بها أمى على أفعال الناس بأشعار (أبى بثينة) و (بيرم) وبالأمثال ..

ـ تعلقت بالهلالية حين تعلقت بأذيال (عطا الشاعر) إلى الأفراح والموالد أغالب ورفاقى الندى والنوم حتى الصباح ، نسمع له أو (لسعد الشاعر) وحواس أو مجاهدى سيدى مجاهد حيث كان موكب الحرفيين والمنشدين والبهاليل فوق العربات الكارو والجمال يعبر صدورنا بكل ضجيجه وزخمه وجماله . ولكنه انقطع بعد غزو وباء الكوليرا لقريتنا .. فاستبدلته بمواكب الجنازات الفقيرة القليلة العدد خوف العدوى ، حتى اقتصرت على القائمين بالدفن طول النهار . وأطلت الكارثة على بيتنا وكادت تودى بأبى لولا أن انقذته لنا بضع ليمونات ..

ـ عشقت ابنة المجنون وطفلة صانع السلال وزوجة الفقى وبنت (سعدون) وقاتلت أعز أصدقائى حتى الموت من أجل حب لا مستقبل له فى حقل البرسيم تحت مطر الشتاء ..

لم يكن الفقر عيبًا ولا الثراء ميزة ، بل كان فقراء بلدتنا هم الأكثر جرأة والأعلى صوتًا والأكثر إبداعًا حتى فى القتال واللعب .. وأعطانى هذا القدرة على الدخول فى الممنوع وقتال الأغبياء والكذابين وضيقى الأفق والسفلة منذ سنواتى الباكرة لأحتفظ بقدرتى على حب البشر ولأحافظ على الشعلة التى اتقدت داخلى فأنطقتنى شعرًا .. وقادتنى إلى طريق الاشتراكية وحب الوطن ..

ـ صقلتنى سنوات الحبس الانفرادى فى سجن (المنصورة) وصلبت إرادتى وكان من الممكن أن تساهم فى بلورة موهبتى وتعميق رؤيتى ولكن الكثير منها ضاع فى مقاومة التلف والخسران وخطر الموت ولكنى لم أندم عليها فكل تأخيرة وفيها خيرة كما يقولون إذ تبين لى أن الشعر لا يجب أن يكون صراخا ، دائما .. وأن الفن استبعاد لكل ما هو غير ضرورى بقدر ما هو اختيار .. وأن التزام جانب الشعب لا يعنى تقديس كل ما ينسب إليه بل يجب التحلى بالنظرة النقدية ..

ـ العملة الرديئة فى الفن أيضًا تطرد العملة الجيدة لأنها أكثر بجاحة والتواء ونفوذا وزلاقة لسان ولكن على المدى الطويل لا يبقى إلا ما ينفع الناس ..

ـ لقد صرخت كثيرا فى الشوارع وصرخت فى الشعر أيضًا .. ولكن صراخ الطفل كما يقولون لا بد منه ليفيد رئتيه ويقدره على تحمل الهواء الفاسد طلبا للهواء النقى ولولا الصراخ هذا لما تحملت الرئتين هواء الزنازين الرطب والفاسد لمرات كثيرة . هكذا تجسد اختلافى موهبة ما متعددة الجوانب . وفى البداية كان الغناء تقليدا لأصوات أحببتها رغم جهامة وبشاعة الشعر المدرسى .. عبرت عن مشاعرى العاطفية الأولى شعرا فصيحًا .. ولكن العامية اكتسحت كل المشاعر الغضة عندما جاءتني الخمسينات بأول كتاب مختلف بالعامية ، لا شكلا فقط ولكن موسيقى ومغنى (كلمة سلام) ثم تعرفت على (فؤاد حداد) وكانت مصر تصعد درج المعركة فى سبيل تأكيد ذاتها وقدرتها الجديدة التي جعلتنا نرقص يوم تأميم القناة ونغنى للشمس الصاعدة من أتون الحلم .. وهى نفسها التى أبكتنا بشدة حزنا على الوطن والنفس . شـــــقق ملـــــح

الهزيمة لسانى ولكنه لم يقتل أزهار الثقة ولذا مازلت رغم كل شئ متفائلا .. وإلا فالحل البديل هو الانتحار .

لست مؤهلا للدفاع عن طريقة معينة فى الغناء ولا أريد ، ولا عن شكل معين له ولا أستطيع فأنا أؤمن وأتصورالشاعر شجرة لا تستطيع أن تبرر ولا أن تفسر إثمارها . وهى لا تستطيع أن تسوق ثمارها أو تمنعها من التخلق والتجدد أو السقوط , كل هذا من شأن العلماء والفقهاء واللصوص والتجار وأصحاب الأراضى كما أنه كذلك من شئون الجوعى والمتشوقين للمتعة والحالمين بالظل والأمان ..

لذلك فأى كلام سوى الشعر ـ كما أعنيه ـ عاجز عن تبرير نفسه أو تفسير ذاته لدى.. وعلى الشاعر كما أعتقد .. أن يثمر وألا يشغل باله كثيرا بتجميل ذاته وصفاته ، أو تقديم نفسه كصاحب رسالة عبقرية فهذا شأن من يكتشفونه ويتذوقونه فيكرهونه أو يؤمنون به . وهم قد يكونون من أهل هذا الزمان أو الزمان الآتى أو من أهل المجرات القادمين من المجهول . فإن لم يتح له أن يشهد ذلك فيكفيه أنه عاش مثمرًا منتجا ـ وضع على شفاه البعض ابتسامة ، أو أوحى للبعض ببعض ريح الجنة و لآخرين بنار الجحيم ، ودل البعض على موضع قدم وأتاح للبعض فرصة اكتشاف أنفسهم ، أو فرصه لاكتشاف الغناء .. أو للإحساس بأن فى الحياة شيئا يستحق أن نتحمل من أجله مواصلة التنفس ، والألم . وأنا أعتقد أن للعامية كما للفصحى .. للنثر كما للشعر .. للتشخيص كما للقراءة والكتابة قدرة ما على تحقيق ذلك . فقط ، أن تكون فى التشكيل لا خارجه ، من النسيج لا نافرة عنه .. فى الحركة وليست عبئا عليها ..

وأعترف أننى أعجز عن التعبير عن الحالة التى تنتابنى عند معايشة لحظة الإبداع ولا أستطيع تفسيرها أو تبريرها أو حتى وصفها .. وإن كنت أجد بعضا منها عندما يصلنى رد فعل صادق لغنائى عند الآخرين .. وأعتقد أن الشجرة تفرح وترقص من السعادة عندما يلوذ بظلها عابر سبيل ـ ذات يوم قائظ .

للروح رب واحد ..

○ **زى اللى خارج**
من معارج .. شبرا ..
رايح يشوف الرقص فى البالون .. بين نص عاقل
واحتمال مسجون
دماغى جيش من نمل وعناكب
حياتى نازله غصب فى مناقصة
نفسى اكمل خطوتى الناقصة
ولو على كارو
بره القاهرة الكبرى ..
....
النيل فطمنى على جمارك الشايخ ..
أيام ما كانت ميته معكره
فى بلاد بلاها الهم بالعسكر

وأكل نافوخها المشايخ
فعودوها الذل تحمد ربها ع الفول
حرموها تتعطر بماء الفل
وتخاف فتسلم وتعبد كل هام مسئول
تشوف فى كل جميل
حرام منكر ..
فى بطنها يترعرع البطيخ
يجف نبع الفرح
تلوى رقاب القول ..
من يأسهاف نفسها تنسى أن فيه بكره
وان البشر كالشجر أحوال
غضب وقبول
000
وانا قلبى مقطع من شجر جميز
خرطه من القلب جوه
خاليه م البزابيز
النجارين اخوالى خرطوها وانا تلميذ
ميات سنين
رقدوها ف مية الترعه ..
حتى اكتفيت م النيل

مواويل وبلهارسه
فهمت على قد ما اوعى
ليه شرخوها عمر بالأزاميل ..
وهبوها للفلاحين اعمأمى مع أمى على البركه
يقشروها للندى والطل
من أجل تتعلم لغات الليل
لحنها المستحيل الصمت والحركه ..
حين ينتفض بالشهوه بطن الأرض
فتصحى فى الجدر اللى مات الروح
وتبك دم الشوق فى خد الملايكه ..
ترافق المبتلى
تترفق مع المجروح ..
تعشق وتشهق معايا لو غلبنى النوح
وبين نهود الصبايا
تصلى للآلهه وتكفر
تحلفنى بكل عزيز

أشيل عنها واتحمل بدالها .. وابوح ...
000
لذا عشت قبل المكن مفعم بعطر السواقى
فهمت سرا اشتياق أرض السباخ الشراقى
حتى لصوت الغراب
حسيت بخوفها شباب
لما خذلها الزمن
حرمها م الميه حمرا بكر لون الدم
من خيل طليقه .. لم ركبها الهم
ولا دفنها لفوق ركبها العطن
قريت كتاب الوطن ..
فى عيون بنات فيهم حليب الدرة
وطهارة البرسيم فى شق الفجر
خشونة النخل عز الضهر والقياييل
ورقة العصر
ويكارة فصوص التوم
دفا المنادر فى ليالى الشتا
سطوح حصير الصيف
مميكة نايات الغاب

براح وسيع المدى مالوش صدى مخنوق
قلبى ماهوش صندوق
ولا سرفيس
تعلموه المشى على قضبان
وكتابة الشعر بالقافيه وبالأوزان ..
أنا مش قصايدى الميته ف أوراقى
ولا جسم مهدود وطالع من مواجع شبرا
من أجل يسمع موزيكا الغرب فى الأوبرا
ويدور يوزع يمك وجرايه ع المحابيس
وأهل الفن
فى صالة الأتيليه والمجلس الأعلى ...
أمى (عليه)
وابويا (عبا الباقى)
أستاذ مدرس وهيه بقد ما عندها
ماكانتش أميه
لكن ماتفهمشى بينهم إيه وبين أيزوريس
ومين ابتلاهم بحزن إيزيس – صبح دينهم

جأهلين بجبل الأوليمب
لكنهم طلعوه ..
حكوا حكايات ابن رشد
وعمرهم ما قروه ..
سقونى فى السر من خمرة إله الشعر
إمتى وفين ما أعرفش
غير لما شافوا وراه باب الجحيم لعنوه
واستهدوا بالله ...
وكافه مافرض عملوه ..
لحد يوم الطوفان
فى يونيه
عبدوا .. العجل
مع إنهم مسلمين سلسال حفيد عن جد
إستقبلو العدرا بجريد النخيل والورد
قروا آيات الرحمة بالعاميه
ودربوا المعزة تشيل القرد ..
حين نطقوا التونسى فصحى أروبه مصريه
وعلموا أسمهان ترتيل كتاب النيل

وحطوا كل الصوابع عشره جوه الشق
حين عجزوا قدام رسول الجيش
يقولم / لأ
لذا حلفونى إذا غنيت اقول ولا اخاف
الروح لها رب واحد
للضعيف آلاف ..
أنا قلت دستور يا أهل الله
يقدرنى على حبك ..
ولو بقوة شوقك الخواف .. لكلمة حق . !

●

حديث صحفى مع النفس!!

1- متى قامت العلاقة ؟.. وكيف أمسكت بطرف البداية ؟

o يصعب على المرء أن يحدد تاريخا لبدايات مثل تلك العلاقة المعقدة المركبة بين المبدع وساحات إبداعه .. إنها مساحات عريضة فى الزمان والمكان منذ الطفولة المبكرة والصبا ولكن أستطيع أن أتذكر كالحلم أشياء كان لها فعل السحر أو وسوسات الجن وصوت النداهة تدفع بالمرء إلى المصير المحتوم للإصابة بداء الفن والكتابة ..

● الأم / الذاكرة الحية للأمثال والأزجال والتى عرفت مبادئ القراءة والكتابة فتذوقت طعم المعرفة واكتشفت سحر الحروف والأوراق وأصرت على أن تصيب أولادها وبناتها كلهم بداء المعرفة وطموح الاكتشاف .

● الخال الذى يعود مشلولا بعد حصوله على شهادة العالمية فلا يجد شيئا يهتم به وقد أصبحت تفاصيل حياته محل اهتمام الجميع سوى دولاب كتبه الثمين .. من قصص الأنبياء .. إلى ألف ليلة وليلة عالم سحرنى وأسرنى رغم صعوبة فك رموزه الخفية والصعبة ..

● صرامة الأستاذ (المعاملى) أستاذ اللغة العربية في مدرسة الجمالية الابتدائية وإصراره على أن نتعلم وأن نتأدب بطريقة صحيحة مثلما كان المعلمون أو غالبيتهم يفعلون فى ذلك الزمن القديم وكان جميلا أن نكتشف معه موسيقى النطق السليم وجمال الخط وروعة القراءة همسا أو جهرا..

● سحر أستاذ الرسم (العشى) وغموضه المتسم بكبرياء الفنان التشكيلى الموهوب الذى يجد نفسه منفيا فى شمال الدلتا لكنه لا يكف عن الإبداع .. يقرأ لنا من كتاب أساطير السحر والجمال الإغريقية لنرسم ما نتخيله وما نحلم به ، عرائس البحر وآلهة الأوليمب والبشر الأبطال والمخلوقات الغريبة عوالم ـ لا تطلق من يقع فى أسرها أبدا ..

● مواكب وليالى مولد النبى ومولد (سيدى مجاهد) عندما كان الناس يحتفلون بأنفسهم بهذه المناسبات فيرتبون مواكب الحرفيين وليالى شعراء السيرة وموائد الطعام والكرم .. والمداحين والغوازى والمسحراتية العميان والطفل والصبى والشاب يتنقل حرًا فيما بينها يرصد ويحفظ ويتأمل وهو لا يدرى المقدر له فى الغيب من شرها ..

● الخالة مبدعة الحواديت القادرة دوما على ربط الخرافى بالواقعى وتحويل أماكن وشخصيات الحكايات القديمة إلى أماكن وشخصيات ملموسة وواقعية حية فيرتدى مؤذن الجامع ملابس (معروف الإسكافى) ويطير الخياط والحلاق متعلقين بجناحى وأرجل الرخ لا إلى بلاد الواق واق ولكن إلى المنصورة والمنزلة وعزبة (بزْلة) والقرى المجاورة .. ليلتقى الفتى بالجنيات فى بيت راعى الغنم المجاور ، أو الشيخ الفقى على راس الحارة أو(السيد نعمة) خادم الجامع ..

● السماحة ورحابة الفكر التى سمحت أن أقوم بدور(الأمين) على المسرح المدرسى فى مدرسة (الجمالية) الابتدائية . حيث يهتف أهل (مكة) وقد اختلفوا على من يضع الحجر

الأسود فى مكانه ها هو (الأمين) فيقول : ايتونى بثوب . ويرفع الحجر الأسود ـ ليأخذ كل طرف منهم بطرف .. وتنطلق الزغاريد فوق سطوح البيوت المطلة من كل الجوانب على حوش

المدرسة وأظل أحتفظ بالثوب الأبيض الذى خاطتة أمى لأرتديه فى تلك المناسبة حتى يبلى ولكن ذكراه تظل حية فاعلة لا تموت ..

● سهرات رمضان وليالى الأفراح مع (عطا الشاعر) حافظ السير الشعبية الوحيد فى المنطقة وسهرات وداع رمضان فوق المأذنة فى العشرة الأخيرة من رمضان .

كان لابد لكل هذا أن يخلق شيئا ما .. غامضًا حميمًا وأن يخلق للمرء عالمًا موازيًا أو معادلا للعالم الواقعى .. إنها بيئة يجد المرء نفسه محاصرا فيها بكل هذه المثيرات التى تنبش فى قلبه وتأسر وجدانه ، وتحرضه على الطيران إلى المستقبل أو إلى عوالم السحر الخفية التى يحققها يعيشها حية ملموسة وكأنها الأرض والشجر والماء والهواء والبشر ويجسدها فى حروف أوكلمات أوصور .. فيكون الشعر والفن .

● ومن هنا .. وجدتنى سعيدًا بتلقى الإعجاب عندما أحدث أقرانى عما أتلقاه فى المدرسة من معارف (كان التعليم مايزال عزيزا , إلا أننى من قرية اشتهرت بإصرار فقرائها على اكتساب العلم حتى قبل أن يجعله (طه حسين) زادا ميسرا للجميع) فخورا بإطراء مدرسى اللغة العربية على موضوعات الإنشاء التى أكتبها أو حزينا لسخريتهم بها عندما أتخطى الحد وأبدأ فى التخريف أو التقليد .

● وأذكر أنه فى نهايات المرحلة الثانوية بدأت فى التعبير عن علاقات حب مبكرة متأثرا بما كان ينشر فى مجلة الهلال وقتها من شعر (ناجى وعلى محمود طه ومحمود حسن إسماعيل) وكانت الهلال وروايات الهلال (لجورج زيدان خاصة عن تاريخ الإسلام) من ضروريات الحياة لخالى ، وقتها وجدتنى أعبر عن علاقات حب الصبا هذه .. فيما يشبه الشعر عن الساقية والرابية والحقول الزاهرة الحانية ..... الخ

● وقبيل سنة خمسين كان لدينا ناد يضم طلبة قريتنا المنقسمة إلى علو البلد وواطى البلد أعطانى (حسين عبد ربه) كتاب المعذبون فى الأرض فحدثت لى أزمة روحية فأنا أعيش وسط المعذبين فى الأرض ولكنى لم أبك بسببهم بنفس الحرقة التى بكيت بها على مخلوقات (طه حسين) وكانت بلدنا المنقسمة تضج وتغلى مع كل أحداث العقد الرابع ..

كان علو البلد يضم العائلات الفقيرة والمتوسطة والتجار والموظفين وعمال التراحيل وحرافيش السوق وبالتالى كان منحازا للوفد ولأفكار التحرر...(ذهب بعض أبنائه وشبابه للحرب فى القناة مدفوعين بوطنية رومانسية لمحاربة الانجليز!) بينما كان واطى البلد يضم العائلات الغنية (عاشور وقداح ومقبل) وغيرها ..ولذا كانو سعديين أو إخوانا وكان لكلٍ نادى (علو البلد نادى اتحاد الطلبة .. وواطى البلد نادى فاروق !!) وفى كل عام كان كل منهما ينتج مسرحية يؤلفها ويخرجها .. وكان يؤلف لنا (حسين عبد ربه) وكنا نمثلها جميعا ونبيع تذاكرها فرضا على الجميع فى القرية كلّ حسب أملاكه . ونصنع مسرحا من خشب الشادر وبراميل البترول الفارغة .. وستائر من ملاءات السرير .. وأذكر أنى قمت فى أول مسرحية (الضحية البريئة) بدور (روح) الفتاة التى قتلت غدرا . تحدث حبيبها المحامى وتدفعه لإظهار

براءتها .. وكنت تحت المسرح أقول (أنا بريئة يا عادل .. متصدقش كلام الناس ..) والنساء يبكين ويذغردن فوق الأسطح المحاطة هذه المرة بساحة (الشيخ أبو الرايات) .. وظللت حتى موعد المسرحية التالية فى العام التالى (نور الإيمان) مشهورا باسم (أنا بريئة) وبعدها قامت

ثورة يوليو . ووصل إلينا فى القريه ديوان .. (كلمة سلام) لصلاح جاهين .. ورحلنا للقاهرة وتغيرت الأحوال فكانت المعمعة كبيرة مستمرة حتى الآن مع النفس ومع الآخرين ومع الفن والأدب ..

2- ما هو المناخ الذى عشته وتخلق فيه إبداعك ؟

o أنا / وأعوذ بالله من قولة أنا / رجل بيتى . أحب أن أفى بما ألزم نفسى به أو بما الزمتنيه الحياة .. التحقت بالعمل السياسى المباشر منذ صباى وأثر هذا كثيرا على موقفى من العالم ومن المجتمع وصرت أعتقد أن شرف الإنسان متوقف على مدى التزامه بما يؤمن به حاولت جهدى أن أكون مثلما حلمت (بالشاعر) الذى يضع نفسه فى خدمة قضيته وشعبه ..

قد أكون قد اخطأت فى مواقف كثيرة أو تماديت فى أخرى ولكنى لم أقصر ... وبالتأكيد حكم هذا سلوكى .. وكثيرا ما وقفت ضد نفسى .. ألزمها بما يجب ولأننى ارتبطت بالعمل السياسى والحزبى وجدت نفسى منذ البداية فى المواجهة .. وهذا حرمنى كثيرا حتى من حقى الطبيعى .. بعض الناس يعتقدون أننى ظلمت كثيرا وعوقبت بالتجاهل ، والتجنى حتى من زملائى .. وهذا لا أعيره التفاتا رغم أنه يحز فى نفسى أحيانا ... ولكن إيمانى بأننى مثل الجميع أدفع ثمن اختياراتى وقناعاتى ... هو الذى يساندنى ..

لم يقرضنى أحد كما يظن الكثيرون .. (أنا) أكثر من حارب (سمير عبد الباقى) ... وقبيلتى هى الآخرى لم تردنى إلا بوقا أو زهرة للمباهاة .. أو أذنًا صاغية .. وهو ما حكم علاقتى معها .. والسبب أن التسلط هو التسلط فى الدولة وفى الحزب .. والبيروقراطية ليست حكرًا على الموظفين ولكنها أيضًا يمكن أن تكون نتاجًا لانعدام الديمقراطية .. واستبعاد الآخر وعدم التأهل للاختلاف .. وهو للأسف ما يحكم حياتنا السياسية ويعكس نفسه بقسوة على الحياة الأدبية ..

ومع ذلك فأنا غير نادم .. وكثيرًا ما يسألنى البعض عن موقفى بين شعراء جيلى أوشعراء الوطن عمومًا وخاصة شعراء العامية .. وأنا مقتنع أننى - (صلاح جاهين) بدون صباح الخير والأهرام ... و (سيد حجاب) دون (شادية) و (عفاف راضى) وأحلام أو أوهام الحكمة التى لدى العرب وأنا (الأبنودى) بلا إذاعة أو أجهزة إعلام . ولست نادمًا على اختيارى .. فقدعلمتنى (أمى) التى كانت تهدهدنى صغيرًا وهى حافظة أزجال (بيرم) و (أبو بثينة) وطبعًا تتمنى لابنها أن يكون (لبقًا و فصيحا) مثلهما (ياسمير .. ياسمير .. يا أمير الزجالين !!) هكذا كانت تحلم ولكن أين أنا من حلمها .. هذا ما سيقوله الزمن ، لو جئت على خاطره .. ولم يلفنى النسيان كالعشرات ممن كانوا أكثر منى بريقا .. ولذا أتمنى أن أكون أكثر نفعًا لا أكثر شهرة .. وعلاقتى بزملائى لا يحكمها التنافس لا على الشهرة ولا المال ولا المكانة .. فأنا خارج هذه المنافسة .. وكنت أتمنى أن يطاوعنى (صلاح جاهين) ويتبنى فكرة اقترحتها عليه بإنشاء ناد أو جمعية أو رابطة لشعراء العامية ، وكانت له المكانة التى تؤهله لفعلها ، ولكن الرعب من شبهات التنظيمات (!!) حكمت ألا يفعل ..

فؤاد حداد كان (أبى وتاج راسى) وقد تعرفت عليه فى نفس الوقت الذى تعرفت فيه على (صلاح جاهين) أى فى منتصف الخمسينات . ولم تنقطع صلتنا إلا فى الأوقات التى فرقت بيننا فيها السجون . وقد عانيت طويلا حتى لا أتأثر به .. وأعتقد أننى أفلحت لحد ما .. و(صلاح) كانت علاقتى به حميمة حتى دخلت السجن فى (59) . علاقتنا بعدها أصبحت شبه رسمية .

تطورت لقطيعة نظرا لتعقيدات سياسية وفكرية ، حتى مات . الآخرون ظهروا فى فترة غيابى فى المعتقل لخمس سنوات .. وقد حكم هذا الالتزام السياسى علاقتى بالأجهزة الثقافية والرسمية والإعلامية .. فلها شروطها التى لم أتوافق معها كموظف فى جهاز ثقافى ، أحاول قدر الإمكان أن ألعب دورى حيال الأجيال الجديدة فى المسرح أو فى الشعر .. وأعتقد أننى خلال ثلاثين عاما أو ما يقرب منها ، صنعت علاقات حميمة مع الكثيرين من (مطروح) حتى (أسوان) و (العريش) ... وذلك من خلال فرق الأقاليم المسرحية أو نوادى الأدب أو من خلال علاقاتى الشخصية والفنية .. وهذا يكفى .. كما قال (نيرودا) - يكفينى أن يقول عنى الناس البسطاء لقد كان (سمير عبد الباقى) واحدا منا .. أو على الأقل كان معنا ...

وقد استطاعت علاقاتى الشخصية وأيضـًا ما صنعته جهودى فى مجالى الإبداعى سواء للأطفال أو فى مجال الشعر والمسرح .. أن تساعدنى على التواجد (على دراعى) كما يقولون وأن تذلل بعض العقبات لكى أجد لكتبى متنفسا قى المؤسسات الفنية والثقافية ... فطبعت لى كتب كثيرة من خلال علاقة تاريخية (مع دار الهلال) وعلاقات شخصية أساسها الاحترام المتبادل رغم الاختلاف الفكرى والسياسى مع أفراد فى مؤسسات مثل (الهيئة العامة للكتاب) أو (دار المعارف) أو (الأهرام) وأعتقد أن مصر بزخم تركيبها الإنسانى والتاريخى ، ونضال حركتها الوطنية خلقت مساحة واسعة للالتقاء الديموقراطى على أسس وطنية واختلافية أرحب كثيرا من بلاد أخرى ، تحكم العمل الثقافى فيها شروط الحزبية الصارمة أو الأيديولوجية الحدية - قومية كانت أو فكرية .. بحيث ترفض أو تقبل الآخر !..

على كل حال ..

هذه هى مصر صاحبة أول برلمان فى المنطقة وأقدم فنون أبدعتها وحافظة تراث المنطقة الدينى والقيمى والأدبى .. خاصة فى فترات الانحطاط القومى .. والتفسخ الاجتماعى .. ولا أنسى أن (صلاح جاهين) كتب عن أول مسرحية عرائس لى عام 66 وكان هو فارس العرائس الأول : (مسرح العرائس أترقى وقدم حكاية سقا!) وأعتقد أن القافية لم تكن وحدها التي أملت عليه هذا العنوان .. أن الموهوبين مهما كبلت أيديهم النظم وشروطها ، والأجهزة وقسوتها .. قادرون على إتاحة بعض الفرصة للمختلفين معهم على التنفس .. الكارثة هى فى أنصاف الموهوبين .. والجهلة .. لأن تحكمهم فى أجهزة العمل الثقافى .. يقتل المواهب الحقيقية .. لأنهم يستمتعون بنفيهم بل ويحرصون عليه لأن فى وجود الموهوبين وإطلاق حريتهم قضاء على الغباء والبيروقراطية والنهم والجشع والبلادة .. التى يتمتع بها البيروقراطيون وعديمو الموهبة .. ولكن قدرة مصر على تحطيم الدوائر المغلقة هى التى كثيرا ما تسمح بلمعان الكواكب الحقيقية ولو كالشهب مثلما حدث مع (يحيى الطاهر) و (ابراهيم فهمى) و (أمل دنقل) وغيرهم كثيرون ...

•

3- <u>العلاقة بينك وبين المجال الذى تعمل فيه أخذت مسارات عديدة ، ماذا كان تاثير تعقد وتنوع تلك المسارات على مسيرتك أنت ؟</u>

o فالمجال الوظيفى اتسمت علاقتى بالوظيفة وبالموظفين بالود المفقود .. وانعدام الألفة وعدم الرضا والتذمر الدائم ..

فالمطلوب من الموظف ألا يبتكر أو يبدع لأنه لو فعل فسيثير حفيظة رئيسه وسيكون موضع شكه وعدم ثقته لأن ذلك يعنى طموحا فى الوثوب على كرسيه أو فضح غبائه أو كشفه ، والأفضل للموظف ألا يعمل بجد أو بإخلاص زائد لأن ذلك سيخلق جوًا من الكراهية لدى زملائه الذين سيرون فيه منافسا أو مقلقا لهدوء وخمول وسلام الموظفين ..

أنا لا أبالغ ولكن الموظف المجتهد المبتكر عرضة دائما للتآمر فإذا ما أضفنا لذلك أننى ممن بلاهم الزمان فأصبحوا ضمن (رعايا أو مرصودى) الأجهزة الأمنية لشغب سابق أو سجن متكرر فهذا سيعطى فرصه أكبر لكثيرين لإظهار الولاء لتلك الأجهزه بالمضايقة المستمرة والعزل والتضييق على الحركة .. وخاصة وأن الدوسية الوظيفى وهذا أمر غريب جدًا ـ ظل محملا بمظروف ضخم مكتوب عليه سرى جدًا .. رفض الموظف المختص بشدة فى مختلف الفترات أن يطلعنى عليه واكتفى أكرمهم بأن قال لى : (ما انت عارف دا إيه ؟) فعرفت ..

ولذا لم أتعجب أننى لم أحصل طوال حياتى الوظيفة ـ وأعتقد أننى كنت مثلا للمندمج فى العمل المقلق لراحة الكسالى ـ على أية علاوة استثنائية ، مع أنها علاوة متاحة للجميع .. ولم أحصل على مكافأة تشجيعية سوى مرة واحدة على ما أتذكر .. ولذا فهمت لماذا يجب على أن أبذل باستمرار جهودا سخيفة ومضنية في كل مرة تكون لى (ورقة) أو مصلحة عاديه كى أنجزها .. ولكى أنقلها من مكتب لمكتب أو كى أحصل على توقيع أو موافقة على نقل أو انتداب أو إجازة ...الخ

طبعا هذا لا ينفى أن هناك بعض المخلصين العادلين بين الموظفين . ولكن فى الغالب الأعم فإنهم يكونون من المظاليم أيضـًا .. إلا إذا امتلكوا سلطة القرار .. فقد كان المرء ساعتها يحس بفترات هدنة فى هذا الصراع أو السباق الذى أسميه سباق البغال ..

ولا يعنى هذا أننى كنت موظفـًا غير كفء .. على العكس .. فمنذ تركت المؤسسة التعاونية الزراعية .. التى لم يكن لى فيها مكتب خاص لأجلس عليه ـ وهذا كان أفضل ـ قدمت للعمل الثقافى عدة مشروعات وقد أنجزت بعضها لأنها تتعلق بى .. فى الغالب الأعم ..

- لقد أنشأت مسرح العرائس المركزى فى الثقافة الجماهيرية وأخرجت له مسرحيتين هما (حسن قرن الفول) و (مملكة القرود) ودربت عددًا كبيرًا من الشباب والفتيات على فن العرائس ومنهم كثيرون مازالوا حتى الآن يقومون بدورهم ..
- قدمت كثيرًا من المشروعات ولكن مصيرها كان دائمًا الإهمال والتجاهل :

ـ مشروع لإحياء فن خيال الظل بأبسط التكاليف ..

ـ مشروع مسرح عرائس متنقل بالخامات المحلية ..

ـ مشروع لرعاية المواهب ، وآخر لطبع إبداعات التفرغ .

ـ مشروع لإنشاء مجلة لفقراء الأطفال وأطفال الريف ..

ـ مشروع لتحويل مؤتمر أدباء الأقاليم إلى مؤسسة أهلية مستقلة .

ـ مشروع لتحرير نوادى الأدب من سيطرة الموظفين ومقرطة إدارته .. وغيرها كثير ...

بعض هذه المشاريع نفذ على الفور بعد تركى للموقع الوظيفى الذى قدمته وأنا فيه .

الفترة الوحيدة التى استطعت خلالها.. أن أفعل شيئًا مؤتمرًا بالوظيفة عندما عملت مديرا للمركز الثقافى السوفيتى .. خلال الثلاث سنوات ونصف الأخيرة من حياة الاتحاد السوفيتى .. فاستطعت أن أقدم أكثر من عشرين ليلة ثقافية خلال الشهر الواحد وبانتظام لدرجة أثارت حفيظة الكثيرين ولكن المركز أصبح أهم مركز ثقافى فى القاهرة خلال تلك الفترة ..

بل وكان فى الغالب مركزًا ثقافيا مصريا ووطنيا أكثر من كونه أجنبى... بشهادة الجميع وذلك لأننى كنت حر التصرف وصاحب القرار .. إذ كان السوفييت فى الغالب مشغولين بهمومهم وكان الموظفون منهم مشغولين بالقلق على مستقبلهم أو بتأمين هذا المستقبل بطرق كثيرة فانشغلوا عني وعن الثقافة .. وكان هذا خيرا كبيرا .. هذه علاقتي بالوظيفة ...

أما بالمجال الفنى فلا أستطيع أن أقول أن علاقتى به كانت سيئة ، لأنه فى مختلف المجالات الفنية وفى مؤسسات الفن والأدب غالبًا ما نجد أناسا من جنسنا أقصد من الموهوبين والمهمومين بالإبداع والحريصين على إنسانيتهم .. وكان وجود هؤلاء دائما .. ملاذا أو حماية من سيادة قانون الموظفين أو تخطى معوقاته وكراهيته ..

أما المجال السياسى والحزبى .. فهو أمر يطول شرحه ولكنى أوجز أكثر من اربعين سنة سياسة .. أننى غير نادم عليها .. واستطعت أن أعبرها رغم كل شئ لأظل محتفظا لنفسى باستقلالية تفكيرى رغم اتهامى بضيق الأفق أحيانًا أو التعصب أحيانًا ممن هم خارج المجال .. أو اتهامى بالانفلات وعدم الالتزام ممن هم داخله .. ولكنى وبكل بساطة أرجع احتفاظى بقدرتى على الفصل بين ما هو فنى وغير فنى ، والاحتفاظ بالمدى الإنسانى الذى كان الدافع لانشغالى بالسياسة إلى أننى لم أكن فى أى يوم قائدا مهما . وإنما كنت باستمرار (قاعدة) أو عضو قاعدى إلا فيما ندر ولأيام قليلة أو فترات قصيرة جدا .. لم تكف أبدا لتجريدى من حريتى أو من استقلالية وجموح قرارتى وقناعاتى .. وأيضًا لأننى دخلت عالم السياسة من باب الأدب .. ولم أدخل الأدب من باب السياسة كما يتهمنى البعض أو كما كان يظن من يبسطون الأمور .. لقد عرقلنى السياسيون وجرحتنى السياسة . ولكن لم أندم على اختياراتى أبدا حتى الآن .!!!

4- الموقف من الأجيال / قضية يطرحها الكثيرون ولا يخفون بإثارتها اتهام ضمنى لكم ؟

تلخص عبقرية شعبنا العلاقة الصحيحة فى هذا المجال ..

فى : - ياعم ياللى بلا خال تعالى اما اعملك خالي .. و

- من فات قديمه .. تاه .. و

- اللى مالوش قديم مالوش جديد ..

هذا باختصار ما يحكم علاقتى بمن سبقونى .. وليس معنى هذا أننى لا أقف منهم موقفا نقديا .. على العكس أن ارتباطى بما مضى يثبته ويؤكده نقدى الدائم له ولكن بحب ومحاولة للفهم والاكتشاف وقد كتبت على غلاف مسرحيتى سهرة ضاحكة لقتل السندباد والحمال ما يغنى عن الخوض كثيرا فى هذا المجال .. كتبت اقول :

أنا لا أقدس التراث كله ولا أزدريه كله ، لكنى مثقل بمخلفات أجدادى المتخلفين القساة ، آكلى اللحم النيء وصانعى الفؤوس والسفن ومبدعى تماثيل النساء العاريات وحكايات الثعالب

الضاحكة . أنا لا أكتب مسرحا شعبيا ولا أحلم ببعث لن يكون ، ولكنى متعب أحاول التخفيف من أحمال المتعبين منكود ـ مكبل لزمر المناكيد والعبيد والحالمين ..

أطمع فى ضحكة من القلب تزلزل ركام البكاء المقهور ، ودمعة من القلب تبدد ظلمة القهر والحزن ، وآهة من القلب تطفئ نيران الغل التى تزكيها رياح الغباء ولذا عشقت المسرح بكل ألاعيبه وخداعه بكل وهمه وصراحته بكل لؤمه ونبله وقسوته وسموّه ,, لأننى أعشق الإنسان .

والإنسان تاريخ وامتداد وعلاقات مع الأرض الوطن والبشر / الأهل اجدادًا واحفادًا وأحلاما أيضـًا ..

5 ـ ما هى المؤثرات الاجتماعية والفكرية والـ..... قول ؟

لا أظن أننى بقادر على إجابه شافية عن هذا السؤال لأننى أعتقد أن هذا عمل المحللين والنقاد ..

ولأن كثيرا من هذه الأمور أجابت عنها كلماتى السابقة ..

ولكنى أستطيع أن أوجز عدة ملامح .. أن كان لابد من ختام لهذا الحديث الطويل الثقيل ، لأنه حديث عن (الأنا) .

فأنا شاعر مهموم .. بهموم الناس و الوطن .. وأنا أعرف أن هذا الكلام قد يدعو للسخرية الآن . فالكثيرون يعتقدون أننا بلغنا نهاية التاريخ .. أو أن قضايا العدل قد حسمت لصالح الرأسمالية التى صار البعض يعتقدون أنها طبيعة بشرية .. لا .. أنا فى هذه الأمور رجعى . فأنا مازلت أومن أن الاستغلال والتسلط والظلم والقهر والعنصرية والتخلف ، أمور يمكن هزيمتها بشرط أن يهزمها الإنسان الداعى للنضال ضدها ـ أن يهزمها فى نفسه أولا .

أنا لم أحلم بخلاص فردى , قد يكون ذلك غباءً ، ولكنى رغم ثقتى فى موهبتى وقدراتى فأننى لا أظن أن لها قيمة فى الفراغ . أو قيمة دون مجال من علاقات وقيم وبشر أعيش

وسطهم .. وهذا يجب أن يظنه الآخرون أيضـًا .. فالفن وجد ونشأ ضمن محاولات الإنسان للتحقق والتواصل .. التحقق قى بيئته ووسط ناسه .. و التواصل مع بشر آخرين ..

ولذا فانا أعجب من استسلام الكثيرين لجو الهزيمة والإحباط السائد من سنوات .. بل وتمجيدهم له والتغنى به أحيانـًا ، لا أحبذ تعذيب النفس ولا الاستعلاء الذى يخفى دونية ملحوظة عند البعض ...

أكره الصراع مع زملائى وأعتقد أن لغة الحوار المتدنية بين الشعراء والكتاب في كثير من الأحيان الآن .. إنما تعكس عجزًا فاضحًا عن تجاوز الذات وهموم اللحظة واستشراف القدرة الإنسانية الغائبة تحت ركام من التخلف ..

الشاعر نبي .. ومبشر .. ونذير ..

وإن فقد الشاعر (وظيفته) هذه .. فلا قيمة له . لا الآن ولا فى المستقبل .. قد يصبح نجما .. وهناك من يريده كذلك ويساعده (وينجمه) ولكن لحتفه المحتوم لأنه يصبح وسيلة لا أكثر في

يد من يريدون لنا الفناء ، أو فقدان دورنا الحضارى التاريخى والمستقبلى فى المنطقة وفى العالم ..

● لقد وهبت عمرى الفقير لقضية التغيير الاجتماعى والاستقلال الوطنى ولن أسحب ما وهبته الآن تحت أى ظرف ، ولا أستطيع لأن قناعاتى (الفنية) ما زالت تحلم بالعدل وبعالم أفضل .

وأخيرا .. كل هموم الدنيا همومى .. رغم ضيق الوقت وقلة الحيلة والعجز أحيانًا عن الفهم . والهلاك فى سبيل تدبير القوت اليومى .. لكن إيمانى بأن الآتى فى علم الغيب ممكن ـ بل ومن المؤكد ـ أن يكون مختلفًا عن السائد الآن لأننى لم أفقد بعد الإيمان بالإنسان .

●

مشروع إجابة عن سؤال لا أتذكره !!
ولا أذكر مناسبة محددة له ولا لتاريخه !!

لأن العرق دساس كما يقولون ، فلم ندجن ولم نسكن ، ولم نؤجر ، أو نؤمر أو نولف أو ننظف ولذا سرعان ما انقطعت الوشائج . ولما جاءت السبعينات كان باطنا والريح زى ما بيقولوا .. سوى من إبداعاتنا المضيئة وأحلامنا التى لن تموت ، وفى الشارع ..

كنا قد غادرنا الستينيات بعد سجن آخر قصير بسبب شرف المشاركة فى أول بادرة للاحتجاج الشعبى على ما كان ، وأول صرخه شوارعية من أجل الديموقراطية فى أوائل ثمانية وستين . ثم ثلاث سنوات لدراسة المسرح دراسة أكاديمية مكثفة ، والقصيدة والأغنية وقصص الأطفال لم تعد تكفى مبررًا للوجود . والمعارك القادمة أكثر حدة وأشد ضراوة وتحتاج لأسلحة تكتيكية موثوق بها والعصر الجديد لن يكتفى بالكذب والتضليل بعد موت عبد الناصر . ولا بأكل البشر فى أوغندا والفلبين أو بقطع الأيدى فى شيلى .. أو دفن الأطفال الأحياء على امتداد العالم الثالث مرورًا بقريتنا الصغيرة (ميت سلسيل) . ليس ليهرسها ويشوّة إطارها الخارجى الرومانسى فقط ولكن ليبول فى طعامها وليفرخ ديدانه فى رئتيها ووجدانها .. وكان الاعتصام بحبل الشعوب هو الملاذ والمخرج .. وخط الدفاع الذى يبدأ منه الهجوم إذا ما حل حينه (برصاص بنادق الشعوب يكتب تاريخ الشغالين) و (الكلمة اللى ما تبقى رصاصة ملعونة وخاينة) .. و(زى ابتسامة الطفل فى القلب اليساري)..شعارات نعم ولكنها كانت ضرورية وحاسمة .. وفنية أيضًا.. وكانت بديلاً عن مضغ لحم اليأس البشرى .. وتمزيق النفس عمدا كنوع من التكفير عن جريمة ارتكبها الآخرون ..

وكانت قصيدة (أحزان ناصرية من عام الردة) أول منشور فنى يطبع فى القاهرة بطريقة (الماستر) وهذا لهواه التأريخ (!!)

وبالرغم من أن دموعًا كثيرة أريقت حزنًا على القطاع العام الثقافى الذى (وجّه مع نفس الأسس) وجهة أخرى مضادة وأزيح ملائكة جنة الستينات ليحل محلهم أخوان لهم ـ أو يمكن بمعظم الناس أنفسهم ـ يصنعون جنتهم الخاصة . وتباكى كثيرون على سقوط القناع عن الواجهة الإعلامية ، وبشروا بانهيار ثقافى وجدب وقحط ، بسبب إغلاق المحلات وسيطرة غيرهم من الأشباح على المؤسسات الثقافية .. ولكن المبدعين الحقيقيين الذين لا يهمهم حين تتلبسهم حالة الإبداع أين يكونوا ، فى الصدارة أم خلف الحمارة ، كانوا وما يزالون على حالهم مضطرين للاستجابة الحتمية يبدعون ويثمرون . نعم كان انهيارا ثقافيا وجدبًا وقحطا .. ولكن فى حقول

من ؟! .. حقول طبقة أفلست وهزمت واستنفدت إمكانياتها .. حتى ولو تصدرت منافذ الاتصال وملكت القدرة على العطاء والنبع ..

وحين تنهزم طبقه وتفلس يفلس معها مثقفوها .. لست أستاذ فلسفة ولا دكتورا فى الاجتماع السياسى .. ولكن كان البديهى أن يكون للهزيمة حصادها ، وأن يسفر الصراع عن ضحاياه ، وعن مزاياه أيضًا . فالثقافة فى الحقيقة وأعنى هنا الإبداع البشرى يزدهر حقيقة عندما يحتدم الصراع وتسقط الأقنعة وينكشف الزيف !.

وتعالوا نحتكم لحقائق بسيطة . فالقطاع العام الثقافى ظل موجودا فى الستينات وفى السبعينات ولكنه لم يكن نفس الشئ فى أى منها . النشر ، الإنتاج المسرحى والسينمائى ، وكذلك الثقافة الجماهيرية وغيرها ، لقد استبدلت شعارات بشعارات وسياسات بسياسات وشكل بشكل وشكلها كما تشاء . قد تسد المنافذ ، قد يغيب النقاد أو بحوث الأساتذة ، ولكن ألم يبتكر المبدعون ..

أدواتهم المستقلة : مجلات ونشرات وندوات وجماعات مسرحية وثقافية ؟. وكان هذا أجدى .. وإن كان أضعف بحكم توازن القوى ، وتضخم الجهاز الحكومى فى سنوات سابقة وتفرده بالمساحة الأكبر اتساعا من الساحة ..

ولنرصد معًا .. إبداعات الرواية .. ألم تكتب (بصرف النظر عن النشر) فى هذه الفترة عشرات من الروايات المصرية / العلامات .. وآلاف القصص لعشرات من المبدعين الجدد والقدامى و مئات القصائد لشعراء مجهولين أو يكادوا وكلها فى انتظار من يقيّمها يوما ما .. ليعيد الميزان .. وينظف المنظار.. مما علق به من غرض وانحياز ..

وفى رأيى أن أعداءنا أكثر حذقا فى رصد الظاهرة ، ولذلك ينفذون إلى الحركة الفنية والأدبية المبدعة ، كما هم ينفذون إلى الحركة الثورية ليفجروها من الداخل ، وليحولوا الأنظار عن الأحلام الحقيقية للمبدعين . وليشوهوا المفاهيم والقيم الثابتة الإنسانية وليخربوا الحركة الصاعدة المنحازة للحق وللجمال وللشعب والوطن ..

وكما أصبحت الاشتراكية كريهة وأصبح الاشتراكيون ممقوتين وكما صارت الإمبريالية نكتة والتبعية طرفة .. والديموقراطية مسخا مشوها ..والثقافة الجادة والإنسانية تهمة .. وحرية الصحافة ملعبًا للهزار والنقار والسعار .. وكما استوردت لنا نظم وأفكار وفلسفات من مخازن نفايات الفكر الرأسمالية أو الرجعية ونفض عنها غبار النسيان والإهمال والعجز .. لتلمع وتزيت وتبرق وتتصدر موائد اجتماعاتنا وفترينات مؤسساتنا السياسية من الديمقراطية الاشتراكية .. إلى الرأسمالية الشعبية إلى البنوك الإسلامية .. للديمقراطية ذات المخالب ..... فكان لابد أن يصل هذا ... أيضًا إلى الفن .. والثقافة ، بل إنه يصيبها أولاً ... كتمهيد للغزو الاقتصادي والسياسي ...

فيتنكر للواقعية الاشتراكية أبناؤها .. ويتنصل من الالتزام مريدوه وجنوده .. ويصبح الفن للشعب شعارًا ثقيل الظل لا يجرؤ على ذكره عاقل .. وتختلق معارك بين الأصالة والمعاصرة .. وبين الشكل والمضمون .. ولا يخلو الأمر من إبداع .. فيصك الأساتذة المهيمنون أو المندسون أو المخترقون .. أو المتوظفون أو الموعودون بالحظوة لدى الدوائر العليا العالمية أو المحلية . يصكون في هذا المجال ألاعيب جديدة ... كالحساسية الجديدة والتحرر من الالتزام لأنه يقتل الفن .. لأن الفنان مؤسسة مستقلة وحزب بذاته ... ورحمة الله على من قال (أنا سيف وحدي !.) .

وبالله عليكم ... من الذي جعلها نارًا تسري في الهشيم وماذا تعني في الحقيقة ؟.. هذه الحساسية الجديدة وما ملامحها ..! وقولوا لنا يا دارسي الفن متى كانت الحساسية قديمة ومتى تصبح جديدة .. وكم سنة أو حقبة .. أو دهرًا تظل جديدة !!

ومتى يكون لتوصيف فني أو فلسفي قيمة وما شروط ذلك . لعلي جاهل !
ولكني أشك !!

فأنا اشتراكي واقعي ثوري وبالفم المليان ملتزم بأحلام شعبى ... وطبقاته الكادحة وإن اتهمت بالجمود والتخلف وبالجهالة .. خير لي من أن أتلكأ على أبواب مسلوبي الإرادة .. وأن أتوكأ على عصا صنعها آخرون لتصك شعبي .. هكذا أنا ببساطة (نكدي) وهذا هو إطاري الفكري العام ونبعي الذي أشرب منه ورايتي التي أدافع عنها . وأحاول قدر ما أستطيع ...

وبقدر ما أتيح لي وبقدر ما أتيحه لنفسي أن أتقن عملي في سبيلها وأن أحتشد لفكرتي .. لتكون أبسط مما يتصور المتحذلقون وأن أعايشها معايشة الفنان الإنسان ملتزمًا قدر استطاعتي بما استطعت فهمه من قواعد وقوانين الفن وما استطعت قدر استطاعتي تحصيله من اطلاع وفهم لإبداع سادة الإبداع فى كل فن أجدني مدفوعًا لخوض بحاره .. من شعر أو مسرح أو أدب للأطفال باحثًا بإلحاح ولهفة عن كل ما يحيط موهبتي بما يكفل لها النمو ، ملهوفًا على وطني مستشعرًا مأساة أهلي بصدق غائصًا في تاريخهم بلهفة العاشق لكل ما أنجزوه بكل ما فيه من جلافة ورهافة ... من هزائم وجرائم .. من انتكاسات وانتصارات .. من زيف وإجحاف وجهل وإنصاف وماذا يمكن أن يكون الفنان غير هذا .. ومنكم نستفيد !! وهل يمكن تجزئة لحظة الإبداع أو تشريحها أو فصل أعضاء العمل المبدع أو تنميطه..!

يا سادتي الأجلاء .. فليسأل كل منا نفسه .. مع من أنت ؟ .... وإلى أي أرض تنتمي ؟ .. وبأي لسان تنطق ؟ .. ولأي حلم تسير ؟! وقبلها تأكد أنك ستقترب من الحقيقة كلما تعرفت أكثر على حقيقة نفسك ومدى تطابق ما تدعيه مع ما تمارسه .. ما تكتبه مع ما تعيشه .. ما تسره مع ما تعلنه ... أو اخجل وابلع لسانك .! هنا ... سنجرؤ على أن نقول : ـ دعوا الحساسية فهي من اختصاص وزارة الصحة .. أو الداخلية .. أو البنك الدولي (والحس ميزة .. وقد فقدنا ميزة الأحاسيس)

ولكن الفنان له اختياره الحقيقي وإن نبع من ذاته إلا أنه من المؤكد ينتمي لأرض من لحم ودم ومشاعر . ولا أقول حساسية حتى لا يقع الحافر على الحافر .!

فانتبهوا يا إخوتي وعودوا للأصول فما زالت البشرية تكافح على طول الأرض وعرضها ضد الاستبداد والتسلط والتخلف ومن أجل حياة سعيدة وحرة للكادحين .! وهزيمة واحدة قد لا تكفي ليكون الانتصار الأخير .

يبقى بعد هذا أن أشهد أنني غير نادم على ما قدمت وما كتبت في السبعينات بل وأقرر (أنا سمير عبد الباقي) بكامل قواي العقلية والفنية أنني فخور بما أنجزت في تلك الحقبة .. ولا أنتظر إنصافًا من قضاة تلوثوا بسلبياتها .. ذلك إذا كنت سأقدم للمحاكمة أصلاً ... ولكني سأنتظر القادم لعل شيئًا مما أبدعت يلفت نظره .. فيقول .. أن هذا (الولد) كان واحدًا منا .!

أومن أن كل فن هو سياسة بقدر أو بشكل ما ... وأتوقع من الفنان أن يكون مع أو ضد بالتأكيد .. أما إبداعه فإما أن يكون فنًا أو لا ...

ولا أعتقد أن الالتزام يمكن أن ينتقص من العمل الفني ، أن لم يكن هو ناقص بشكل أو بآخر لسبب أو لآخر .. بل إنه مادام ممتزجًا باللاوعي صادقًا لا يطمح للتظاهر .. فإنه يثريه . وأعتقد أن كل تمزق أو انهيار أو تخبط يصيب الحياة السياسية وخاصة جبهة التقدم والديمقراطية .. لا بد أن ينعكس على أهل الفن فتزداد حالات السقوط أو الهروب أو الانعزال ولكن احتدام الصراع وتبلور الاتجاهات الفكرية يبشر بغنى الفن وبثراء الثقافة ويدفع الإبداع إلى الأمام .. ويقلل من ضياع الفنانين وتخبطهم .. ويحصنهم ضد وقوعهم فريسة المفاهيم المضللة البراقة

الجوفاء ... والتي قد تعطي راحة نفسية للمذنبين أو تبريرًا للعاجزين أو الخائفين أو رضًا كاذبًا للمتعالين الجوف .!

في بداية السبعينيات صدر ديواني (في حب مصر) صغيرًا متواريًا ولكنه انفجر على خشبة المسرح يوم 22 أكتوبر عام 1973 ليصبح علامة وصرخة ترفض ما سيكون وتحتج على ما كان ولتجد صدى جارفًا عند الكافة من القدماء والجدد .. وفجرت داخلي جذوة

المسرح .. (ولا زي نيران الحرب تطهر قلب وعقل الناس ولا زيه صوت الشعب يخلي الجند توج حماس) وأطلعتني بنجاحها على الخشبة وفي قلب الجمهور المتنوع الممتد على لمحة من إمكانيات المسرح الجبارة .. ودفعتني إليه دفعًا فقدمت بعدها (كانت وعاشت مصر) التي طبعتها فيما بعد ، ثم (ليلة أمريكية) و(غنوة للحرب غنوة للسلام !!) ويغلق المسرح وتتشتت (جماعة الدراما) واستوديو الدراما بالإسكندرية وغيرهما كثير ... ولكنها كانت حافزًا لإصدار (النشيد الفقير) عن بابلونيرودا ... حين احترقت كشاعر مريد بعشقه على نيران الفاشية التي اجتاحت بلاده ، والتي أصابت شواظها قلبي وشطآن بلادي ، وانتشرت كسحابة معتمة تخيم زاحفة على كل أحلام العالم الثالث والمقهورين من شعراء أو فلاحين ... ثم كان (نشيد الأناشيد المصري) في منتصف السبعينات . وفيه .. عصرت روحي التي انكسرت في (الخامس والستين) لتكون قطرات من دم قلبي لتروي شجيرة مصرية أنبتها (أوزوريس) في الخامس والسبعين !!. ولم يتح للعملين الأخيرين الظهور على المسرح وهما في الأصل قصيدتان دراميتان مكتوبتان للعرض أساسًا ... فقد أحكمت القبضة على القاعات والساحات واحترقت وفق خطة مقصودة مدبرة أغلب مسارح الدولة أو فقدت قيمتها .

وفي بداية السبعينات كان العزل السياسي المشهور الذي كان له فضل إتاحة فرصة التفرغ لكتابة رواية (هكذا تكلمت الأحجار) التي اعتبرها بلا أي تجاوز عملاً متفردًا مكثفًا وجادًا وشاعريًا سيذكر باهتمام عندما يقرأ دون تحيز ...

وفي السجن في أوائل عام1977 كتبت ديوان شعر كامل هو (ليالي من سجن 1977) لم يطبع بعد .. وكذلك أنجزت جزءًا من مسرحية (سهرة ضاحكة لقتل السندباد الحمال) والتي ظلت تتطور وتعاد كتابتها لخمس سنوات بعدها لتصدر في منتصف الثمانينات ...

وفي العام الدولي للطفل عام 1979/ ويوم صرفت الدولة مليونًا من الجنيهات تم تسريبها إلى جيوب (ثعالب حديقة الأطفال) علنًا وبكل بجاحة دون أن يصدر أو ينتج كتاب واحد أو فيلم أو مسرحية للأطفال الذين صرفت على شرفهم أموال الشعب .. أصدرت أنا روايتى (ملاعيب تعاليبو) على لسان الحيوانات لتحكي حكاية (ثعلب) يصل إلى قمة السلطة في الغابة بحذق ومهارة لا يحسده عليها إلا ثعالب بني الإنسان .. وكتابًا آخر هو(رسالة إلى الشمس) 25 قصة للأطفال رسمتها ابنتي الحبيبة فيروز ... وأعتقد أن هديتي وصلت لأطفال بلدي في موعدها رغم أنف الحصار ..

أما في المسرح فقد قدمت بعد القصائد الدرامية السابقة ... مسرحيتين (سيرة شحاتة سى اليزل) وهي محاولة في الشكل الشعبي .. تحمل هم المثقفين عندما تعميهم أحلامهم أو يتضبب أمامهم الطريق فيتعاملون مع الواقع كما يتصورونه هم فيهزمهم . ولكن حتى ضرباتهم العشوائية هذه تصنع شيئًا فيه ، شيئًا يبشّر ، لأنهم تعاملوا مع (بشر) لهم أحلامهم هم أيضًا .. وكذلك كتبت مسرحية (البطاقة) .

وهي مسرحية من فصل واحد تضرب مباشرة في جسد النظم التي تسلب الإنسان حريته وتفقده إنسانيته وتحوله إلى وحش مستعد أن يقتل أخاه في سبيل وصوله الانتهازي .. المرعب ...

ناهيك عن عشرات القصائد التي كانت أحيانًا حيثيات اتهام في قضايا كثيرة لي ... ولغيري ممن استمتعوا بحيازتها .. وهكذا لم تكن السبعينيات .. حقلاً ثقافيًا مجدبًا . وأشهد .. لو نظرنا إليها من نافذة المبدعين الحقيقيين . وليشهد غيري مكملاً شهادتي أو مختلفًا معها .

ولذا فلست بحاجة لما يصكه المتفلسفون من مذاهب ستذهب جفاء لأنه لا يبقى في الأرض إلا ما ينفع الناس .. عندما يصل إلى الناس .. وهو يصل ... وإن طال الطريق وضاقت المسالك !.

طفل فى الستين

إن كان (بديع) رمى بذرتها بدمى رويتــها
خمرنى (بيرم) فى طينتــها وغنى لى(فؤاد)

رضعتها فصحى وعامــى من بز امـــى
وعمر ما قلت يا عمـــى لواد من الأوغاد

بنيت هرم من دواوينـــى وفيّت دينـــى
لذا حاف حلالها بيكفينـى وباخـاف لو زاد

توبى ما هوش فضلة غيرى ولا مناخيـرى
كسرها حد ولا الميـــرى ومماليش أسـياد

خيرها حِشا قلبى وعينى عشــقى ودينى
مصر الوجود اللى مالينى عزة وعـــناد

هى اللى عملت من شـعرى النكدى الفقـرى
شمروخ فى إيد أراجوز مصرى بيدق اوتـــاد

يفتح نافـوخ كل مزبلح ينغـز يجـرح
ويداوى بالفن ويفضـــح أس الإفســـاد

عمرى على السقفة ما نطيت ولا يـوم وطّيت

ولا خلطت الغيط فى البيت بحجـج لاولاد

ستين سنة هَمّ شايلـــها وباغنى لـــها
أمين على كتاب مواويلــها من كل جـراد
وتقولوا(سين) لأ (زفت الطين) للحق عينيــن
أنا اللى طفلها فى الســتين بامشـى لها بلاد

وإن كان (بديع) رمى بذرتـها بدمى رويتهـا
خمرنى (بيرم) فى طينتــها وغنى لى (فؤاد)

•

هموم ثقافية ومشاغبات فى أمور تغيظ وأخرى تفرح

(العمر قضية)

ونجح المسرح ليلة فشل فيها الشعر !!

لست ناقدا مسرحيا ولن أكون .. ولكننى أحاول أن يشاركنى عشاق المسرح وأهله على اختلاف مشاربهم ومواهبهم فرحتى بهذا العرض المسرحى " العمر قضية " وليغفر لى البعض حماستى فمازال للشباب وللهواية – فى القلب – بقية . تدفع به أحيانًا إلى شطآن الانفعال فى مواقع أعمال الفكر والتأمل وتلقى به إلى بحار الاندفاع فى أوقات تحتاج إلى الروية والتأنى ..

ولقد وقعت ذات ليلة فى أسر بعض من ذلك .. وكانت ليلة غريبة .. دفعتنى فيها الصدفة إلى المسرح القومى حيث علمت أن ثمة أمسية شعرية واحتفالا بذكرى عميد الأدب العربى تقيمه كلية الآداب جامعة القاهرة وفرحت .. ثم قرأت خارطة المشاركين فوجمت .. ثم اقترب الموعد وبدأت طقوس الاحتفال فاكتأبت .. وأجلست نفسى فى أحد المقاعد مقارعا كآبتى الحجة بالحجة .. وانهال فوق رأسى سيل من النظم والشعر قليله النادر يلمس القلب وكثيره منفر متضائل . وكان إلى جوارى – بالصدفة البريئة – عائلة دبلوماسية أسيوية واضحة الملامح أخذ ربها يسألنى عمن يصعد إلى المنصة من الشعراء ليطابق بين الاسم والجسم ولما اكتشف عدم تعرفى على أكثرهم قال مستنكرا جهلى :

- ألا تعرف شعراء مصر ؟ !

ولم تستطع النكتة أن تزيل كآبتى .. فقمت هاربا بها عميقة فوق وجهى أحملها مقررا الانصراف تطاردنى قولة الشاعر محمد أبو دومه (هذا زمن معوج !!) وكادت ليلة فى العمر أن تمضى بلا ذكرى .. وهى ليلة ذكرى عظيمة على النفس حبيبة للقلب والعقل معا .. لولا أن استبقانى بعض الأصدقاء ملحين أن أشهد العرض الذى يقدمه شباب أحبه وأعتز به ..

وعدت إلى مقعدى تحت إلحاح الحرج وأنا أستثير مشاعر حب الاستطلاع .. فما الذى يمكن أن يقدم بعد ما قدم الينا منتحلا اسم أعرق وأسمى الفنون (الشعر) – هل سنشهد (مسرحية) أخرى مفتعلة تتسلق جدران المناسبة العظيمة ؟ ! أم عرضا آخر من تلك (العروض الكبيرة) الكثيرة التى احترفها بعض أنصاف المخرجين معلقين جرائم التفاهة على شماعة السطحية النابعة من الجهل أو ادعاء الوطنية القائم على التعصب ؟ !! لا بأس .. فما أكثر ما لا ينفع الحذر مع القدر .. ! وأينما تكونوا يدرككم المسرح (المفتعل) كالموت !! وخيب الله سوء ظنى مما أسعدنى .. فما أن بدأ العرض حتى انقلبت مشاعرى .. وتوترت حواسى وشغلت عن كل ما يبعث الكآبة ويثيرها حولى .. ووجدتنى أستغرق فى متعة عقلية وفكرية وفنية راقية وتحولت إلى طفل مبتهج منتعش مبهور .. وأنا أتابع وأفكر وأتأمل وأعايش أنبل ما وهب (طه حسين) نفسه له ، بعد مصر . تحرير العقل والفكر وحرية الإنسان وكرامة الأديب والفنان .. تسابقنى إلى هذه الأفكار وتحملنى إليها متعة فنية راقية تضافرت على خلقها كل وسائل ذلك الفن العظيم من كلمة تقول فتجسد الأفكار والمشاعر فى صدق .. ووسائل عرض تشكل وتلون فى بساطة . وإنسان يخلق ويؤثر فى نبل وثقة خلقتهما الهواية والوعى والتفانى .. كل ذلك فى تناغم وتضافر استطاع بهما المخرج أن يجعل لليلة معنى .. وأن يعوضنى . ولا أعتقد أن ذلك كان يخصنى وحدى . ولكن أن يعوضنى والجمهور معى وأن ينيرنا كثيرا ..

قد يبدو ما أقول كلاما عاطفيا شديد التعاطف الذى قد يرى فيه البعض تحيزا .. لا تبرره النظرة الموضوعية بل تمليه مشاعر ذاتية فجرها الانقلاب الذى أحدثه العرض فى الليلة .. ولست أنكر ذلك لكنى

لا أعتذر عنه .. بل أدافع .. لأنه بالرغم من الكثير من الملاحظات السلبية على العرض نصا وإخراجا وأداء .. إلا أن ذلك يصبح من قبيل الاجتهاد فى الرؤية والاختلاف فى الخبرة .. وتفاوت الإمكانيات البشرية والمادية ..

وتعالوا بنا من هذا المنطلق نناقش الملاحظات التالية :

- فى مثل حياة (طه حسين) العريضة المليئة بصور من الكفاح الذاتى والمعارك العامة على مختلف الجبهات فكرية وفلسفية واجتماعية ، لا يمكن بأى حال من الأحوال الوصول إلى صيغة واحدة شاملة لتقديمها من خلال عرض مسرحى واحد ولذلك يكون الاختيار لا مجرد انتقاء تحتمه النظرة الجمالية ولكن أيضًا تحتمه طبيعة الموضوع وضرورة الواقع ..

ومن هنا كان اختيار المعدين (د. سمير سرحان , ود . محمد عنانى) للمادة التى تخدم هدفهما وهو تقديم ما يؤكد نضال (طه حسين) المستمر من أجل تحرير العقل والفكر ، وما يستتبع ذلك من تحرير المرأة والثقافة والتعليم من الاستبداد والتعصب والجهل والتخلف – أقول أنه كان اختيارا موفقا .. ينم عن حساسية فنية للاختيار الصحيح للمادة التى تخدم الفكرة .. ثم كانت صياغة هذه المادة وتتابع مشاهدها فيما بين الرواة والمشخصين صياغة تتسم بالذكاء تعمل على خلق (بناء درامى) ذى طبيعة خاصة ، لعرض غير درامى يعتمد على إثارة تفكير المتفرجين ومشاركتهم والتصاعد باحاسيسهم وعقولهم نحو بلورة الفكرة الأساسية .

ولكن حياة (طه حسين) وكفاحه لم تكن معركة فى الفراغ ..

ولذلك فإن غياب التأكيد على أن (طه حسسين) إنما كان رافدا من روافد كثيرة خاضت نفس المعارك على مستويات عديدة فى فترة صعود البرجوازية الوطنية المصرية وما صاحب ذلك من حركة التنوير الثقافى الذى صاحب بناء صناعة ونقابات وبنوك وطنية وتواكب حركة نضال ضد الاستعمار البريطانى من أجل

الاستقلال والدستور ، كل هذا كان من الممكن أن يعطى لمعارك (طه حسين) بعدها العام بدلا من ظهورها كبطولة فردية خاصة . وأن بها الكثير مما يغرى بتبنى ذلك المفهوم وفى اعتقادى أن هذا هو ما جعل المشهد النقدى لما صار إليه التعليم الجامعى بعد طه حسين يبدو (كنكتة) ميتافيزيقية الأسباب بسبب عزلها عن الظروف التى أدت بالتعليم وبغيره إلى هذا المصير !!

ولكن ذلك لا يقلل على الإطلاق من النجاح الفنى فى إبراز السمات الخاصة لتلك المعركة المتصلة التى خاضها بشرف وصمود ذلك الرجل من أجل تحرير العقل والفكر والإنسان .

يأتى بعد ذلك الجهد الفنى الحقيقى الذى بذله (فهمى الخولى) فى استعمال كافة الأدوات الفنية المتاحة والعزف عليها بمهارة ليقدم عرضا يتسم بالبساطة البليغة والسهولة المعجزة لقد دفعنا للانفعال والاندماج عندما احتاج الأمر لذلك .. واستثار عقولنا لنفكر عندما كان ذلك ضروريا ... وانتزع منا التصفيق حماسة عندما خاطب عواطفنا ومس مشاكل حية فى حياتنا .. وببراعة خاصة استخدم الديكور والاكسسوارات .. وأجساد الممثلين وحركتهم وأصواتهم ليجسد فى تلخيص عظيم السمات الأساسية لتلك الحياة العريضة والمعارك الخالدة متنقلا بنا بين مختلف الأزمان والأماكن والانفعالات والصراعات والمواقف بقدرة وتمكن ..

ولقد يلاحظ البعض شذوذ هذه القطعة من الاكسسوارات أو تلك .. وقد يثور سؤال حول استخدامه هذا الأسلوب فى الأداء بدلا من ذلك .. وقد يعيب البعض المبالغة فى هذا الموقف الهزلى أو القصور فى

إبراز ذلك الصراع العابر ، ولكن كل ذلك يظل فى إطار ختلاف وجهات النظر وتباين الاجتهادات ما بين رؤية ورؤية .....

ولا يسعنى فى النهاية إلا أن أشيد بالجهد الجماعى الخلاق لتلك المجموعة من عشاق المسرح وهواته فى إعادة ترتيب عناصر العرض أو إغنائه بإضافة أو بحذف ما .. وجهدهم المتضافر المتناغم السلس .. حركة وأداء وتفانيا .. ليقدموا لنا عرضا فنيا رائعا .. يليق بالمناسبة العظيمة ..

وهذا هو ما يجعلنا نوجه هذا التساؤل الأخير إليهم وإلى غيرهم من الجماعات العاشقة للمسرح والمتفانية فى سبيله .. هل يجب أن ننتظر مناسبة وطنية حقيقية أخرى لنشهد مثل هذا العرض الفنى الحقيقى .. أم ستبقى مناسباتنا الوطنية فريسة لتلك العروض الزائفة التى تحركها أسباب لا علاقة لها بالفن ولا بالوطنية !

يا أصحاب (العمر قضية) أننى أحس نحوكم جميعا بالعرفان .. لأنكم استطعتم أن تملأوا قلبى أحاسيسا نبيلة ومتعة راقية ، ذات ليلة فشل الشعر فيها أن يمس قلبى واستطاع المسرح ذلك بفضلكم رغم كل شئ !! ...

●

مذبحة المسارح بين الفاعل المجهول والفعل الفاضح

○

انتابتنى مشاعر غضب شديدة ، دفعتنى لكتابة هذا البلاغ ولكننى احترت لمن أتقدم به ! وضد من ؟ فالفاعل المجهول يزداد نفوذا وقوة .. ويسلب الجميع كل همة ومروة .. فها هو (مسرح الطليعة) يتداعى .. و (مسرح محمد فريد) مغلق بعد أن صرف عليه ما صرف تحت مظلة من كلام كتير كتير عن توفير وتدبير أيام كان رئيس الهيئة هو المدير .. وها هو مسرح (متروبول) يسقط على رأس الأطفال بالرغم من مرور عدة أعياد للأطفال و (مسرح الجمهورية) (الأوبرا البديلة أيام السادات) مغلق للتحسينات التى ليس لها آت .. و (المسرح القومى) يمشى على حافة مستنقع المجارى الشهير بالبير رغم صرف وضياع الملايين على يد بعض الموظفين الذين عادوا إلى مواقعهم بعد التحقيقات الهزلية مجبورين الخاطر ليلهفوا نقود مهرجان التجريب اللى فات .. وحتى (مسرح الطفل) اليتيم بجاردن ستى يسده كوم دبش رهيب دون خجل من وقوع نظر السادة الأمريكان الذين بنوا قلعة سفارتهم فى أسابيع بينما نحن من سنوات نشد الحبل ولا نستطيع أن نرمم البدروم الذى يمكن إصلاحه فى يوم ..

وأخيرا يلحق بالجميع المرحوم (مسرح السامر) . فبسرعة صاروخية تصدر أوامر الإخلاء والهدم حتى دون مراجعة دفاتر العهدة من بروجيكتورات وملابس وديكورات وقصارى ومجارى (تكلفت الشىء الفلانى يوم افتتحه السادات) ...

وإذا أضفنا إلى كل هذا الطابور الطويل من المسارح المهدمة أو المعدمة ، سوء حال قاعة خالد الذكر (سيد درويش) وضيق صدر قاعة مسرح الشباب .. وكتم نفس قاعة (منف) ببوتيك السلع المعمرة لصاحبه الشاب (المجهول) (هيثم) الذى استطاع أن يغير سيارته بعد شهر واحد ليركب تويوتا آخر موديل ب (120 ألف) فى عين العدو ... تاركا الأرامل من الموظفات ينعون مرتباتهن التى تبتلعها فوائد البنك لسنوات ..

قائمة طويلة .. أضف إليها بيوت وقصور ثقافة فى الفيوم والواحات وفى سينا والبجلات تبنى من سنين وتلتهم سنويا بند الإنشاءات السمين .. بفضل خبرة بعض الموظفين الضالعين والمسنودين ما بين إمبابة وقصر العينى الذين يتقنون فن المناقصات والاستمارات والفواتير .. ويعرفون جيدا كيف يقنعون الوزير قبل المدير .. ويجهزون فى كل (يونيو) كشوف الحساب لتدفن فى الأضابير ليكبر وينفش ريشه علينا الفاعل المجهول الذى تدرب على أكل لحم العقول منذ ما قبل (مليون) مدام ماركوس بسنوات طوال إلى ما بعد (فوّة) ومتقال ...

يا رب منك وعليك العوض .. واغفر لى أننى شاركت بحماس فى قافلة التنوير بحسن النية تلك التى أجهضت بالاشاعات قبل أنينتج عنها سوى بضع عروض وحفلات .. يا أصحاب العقول دلونى ... إلى من أتوجه ببلاغى هذا وضد أى مجهول منهم وهم كتر .. سأتوجه به إلى رب الكون وصاحب الأمر فهو وحده القادر على كشف هذه الغمة عن عقل هذه الأمة .

●

بيان هام لأهل مصر المحروسة

الغورى يبنى الهرم الأكبر !

وشجرة الدر ترقص الفالس مع ابن القارح بطل رسالة الغفران !!

وكليوبطرة تصيد للغورى (السمك المشوى) فى بانيو الحمام والحجاج بن يوسف يدرب المثقفين على أصول الحكم حتى لا يفلت الزمام .. بينما لا يكف ابن العاص وأبو العباس السفاح عن الشجار والنقار من أجل (أمة واحدة ذات رسالة خالدة) على الدوام .. !

وسليم العثمانى يبارك بنفسه (انتصار الغورى على البرتغاليين) الذى خلده عنترة بن شداد بحد الحسام على خد عبلة شعرا ونثرا .. رغم أنف التاريخ . وابنة الغورى تبحث عن عريس يشكمها لتحبه ! وتعاطيه الغرام .. والأم المصرية تشهد مقتل (ابنها الوحيد) يا حرام . بينما السلطان تنفقع مرارته من إشعاعات يطلقها (شاعر أخرس) ومهرج (بتاع كلام) والشعب المصر يتفرج على الجميع (فى وكالة الغورى بالحسين كل ليلة طوال شهر يوليو 1986 م) .. والدعوة مفتوحة لحضور العشاء السلطانى ...

فى المسرحية التى كتبها ولفقها الشاعر (سمير عبد الباقى) .. ولحن أغانيها ونمقها (أحمد الشابورى) ولونها وزوقها (حسين العزبى) وهندسها ووفقها (محمد سمير حسنى) .. وبيلعبها وياكم من جوق الفن المرسحى بالثقافة الجماهيرية محمد أحمد وفؤاد فرغلى وكريمة الحفناوى ولبنى ونس ومحمود بشير ومحمد عبد الرازق ونادية رزق وعواطف عبد الفتاح وسمير زاهر وهدى مهدى وهدى محمود وأحمد برعى و مصطفى شعبان وعلى سلام وكثير غيرهم ، منهم المؤلف بنفسه . فيا أهل مصر المحروسة ياكرام .... لا يجب أن يفوتكم هذا الحفل العجيب الغريب ... الذى يجتمع فيه أبطال التاريخ معكم على سفرة واحدة من هنا لبولاق وعلى هم واحد تعصره الأشواق المصرية وضحكة م القلب تجمع لمّة العشاق فى سهرة عصرية ...

دااللى بنى مصر كان ناوى يضحكها .. خلط المرار بالعسل والسم بالترياق ...
فاضحك وإياك تموت يا طويل العمر !*

●

---

*صيغة إعلان عن مسرحية (اقرا الفاتحة للسلطان) التى قدمت فى حينها باسم (الغورى يبنى الهرم الأكبر) والذى جر علينا هجومًا شرسًا من المغفور له (إبراهيم الوردانى) سامحه الله .

مقدمة للذبح

عندما هاجمت الجماعات الإسلامية احدى فرق الثقافة الجماهيرية المسرحية بالجنازير والعصى ولعنات التجريم فى إحدى قرى أسيوط ، اهتز قلب مصر .. وارتعدت روح آلهة الفن التى جعلت من شطئان النيل ملاذا ومعبدا ومزارا لها منذ فجر التاريخ .. وانتهز العديد من صبيان سوق الفن ودلالى الفنون وكهان الهلس من مازجى السم بالعسل ومروجى الأحاسيس المغشوشة وبائعى الحشيشة والأفيون الفنى تلك الكارثة .. فمنهم من غير جلده فارتدى جبة والصق بوجهه ذقنا مستعارة وأمسك شومة واستهبل .. ومنهم من زايد

طمعا فى ربح الحسنيين والفوز بنعيم الدارين وكأن القاضى أهبل ومنهم من شد الرحال ببضاعته المغشوشة إلى حيث دارت المعركة فكسب مالا ومجدا وسجل مواقفا تزيد من منافذ إفساده الفنى وتدعم مواقفه الراسخة على قلب المسرح حتى يختنق ويموت ...

الوحيدون الذين لم تتحرك لهم شعرة ولم تحترق لهم بعرة .. هم أهل القضية وأصحاب البلية الذين يقال عنهم دائما (جيش الثقافة المنتشر) أو جرادها عبر كل مواقع مصر وكل شبر فيها يقال أنه أكثر من مائة وثلاثون فرقة (فى عين العدو) .. تضمها حقيبة جلدية مشهورة يحملها مدير الإدارة المأمورة بسياسة وقيادة تلك الفرق المزعومة .. ممثلة ببضع أوارق كتبت بالرموز والأحاجى أو بالحبر السرى تشمل الخطة الوهمية والأعداد الليمونية والميزانيات السبهللية الفقيرة والغفيرة .. يشهرها صاحبها فى وجه الجميع مؤكدا على وجه الدوام .. أن جيشه الفتى العرمرم على خير ما يرام .. هذا الجيش الذى لم نسمع له نفيرا .. ولم نشاهد بعيرا يعلن رأيا فى الأمر . أمر تلك الكارثة الاسيوطية ، أو يقرر على الأقل دراسة هذا الخطر أو الحذر منه .. أو اتخاذ الأسباب التى تدفعه فى المستقبل إلى الأمام .. أو على الأقل القليل دراسة واقعه المتدنى .. وتنقيه حقوله البائرة من الدنيبة والجعضيض والحسك والحندقوق .. وقلة الزوق .. أو على أكثر الأقل .. الاستفادة من الظرف لتجديد شبابه ونفض تراب الخديعة والوجيعة عن كأهله .. فهاهم الأعداء الألداء للفن المسرحى يضعونه فى مقدمة الصورة وفى بؤرة الاهتمام شعبيا وحكوميا ودوليا .. ولكنه كالعادة وبحكم ما يحكمه من رجال وعقول وما رسخ فى قلبه من بلادة وغباء وهشاشة يضيع الفرصة .. ويهدر المناسبة التى كان يمكن أن تغير من المصائر وأن تجلى البصائر .. ولكن ما بنى على باطل لا يصنع حقيقة .. ومن كان زاده الأكذوبة فكيف يمكن أن يقتات على جهود الصادقين .. أو حتى يتصبر بخبز المخلصين . وهذه هى الحقيقة !

أعرف أن كلامى هذا سوف يثير علىّ الجميع لأننى واحد من القبيلة .. وستشهر فى وجهى كل السيوف والخناجر .. علانية وجهرا .. وخفية وسرا .. فانتقادى جريمة .. وصراحتى لن تغتفر لى .. وقد تفتل كلماتى حبالا لشنقى .. بيد الأعداء والأصدقاء على السواء ..

ولكنى سأفعلها وأجرى على الله .. فقد أن الأوان لفضح الأكاذيب .. ونفض الغبار والعناكب .. وتنقية الصفوف .. وغسل الأوساخ .. وتنظيف العقول .. وتوضيح الحقائق .. ورش المبيدات لقتل الطفيليات والجراثيم التى أثخنت وأدمت وأهلكت ما يسمى بمسرح الثقافة الجماهيرية ..

ومهما كان الدواء مرا والجراحة مؤلمة .. فإنه لا خلاص ولا مناص من أن نتسلح بكثير من الشجاعة لمواجهة النفس إذا كنا من أهل الثقافة أو عاشقى المسرح حقا .. أو حتى إذا كنا كما ندعى صدقا من محبى هذا البلد وغيورين على مستقبله المهدد من كل النواحى ، المحاط والمحاصر بكل الأفاعى الخارجية والداخلية ,,

فيا أيها الناس ..

أنا واحد ممن ضيعوا زهرة شبابهم فى سبيل أن يظل هناك دائما قبس من نور العلم والفن فى هذا الجهاز المثقل بالجهل وبالبيروقراطية .

وتعرف معظم فرق الثقافة الجماهيرية وأهلها .. صراحتى النكدية وحرصى على أن نتقدم ونتعلم ونخرج من ظلمات الكسل والبلادة وأوهام العادة إلى رحابة الفن الجميل .

ولا يستطيع كائن من كان أن يتهمنى (طوال مدة خدمتى) بأننى صرفت مكافأة لا أستحقها أو نلت علاوة قبل موعدها .. أو أجرا بلا عمل بل على العكس – يعرف المطلعون على بواطن الأمور أننى حرمت

دائما من معظم المكافآت .. حتى تلك التى كانت تصرف لكل المواطنين كمنحة أول مايو نلت شرف حرمانى منها (دون أى وجه حق) فى سنوات عديدة !!

ولا يستطيع أحد من أهل الجهاز إلا أن يشهد لى أننى كنت دائما (نكديا) أنكد على اللصوص والكذابين والمدعين والسراق .. ومنهم من كانوا رغم مناصبهم يرتعدون ظرفا ومداهنة عندما أدخل عليهم مكاتبهم ثم يلعنون أيامى بعد أن أغور .. ولا ينكر إلا الجاحدون أننى بذلت كل وقتى وطاقتى لتعليم من يريد أن يتعلم ومن لا يطيق أن يتعلم .. ومساعدة من يحتاج ومن يخجل من طلب المساعدة الفنية أو العلمية ..

وأننى لم أتول منصبا إداريا لا أستحقه ولم أركن للاستفادة من أى موقع ارتقيته ولم استثمر مكانا وجدت فيه إلا فى سبيل الحلم الذى عشنا نبغى تحقيقه فى مثالية سقيمة وضعيفة وعزلاء وسط ذئاب وثعالب ومخالب وأنياب .. تنتظر موسم توزيع الأسلاب .. لتنهش أو تهبش أو تنتش .. بأسباب وبغير أسباب .

وأن امتعض البعض من صراحتى هذه ولوى بوزه اعتراضا على الأسلوب فلن يجدوا بدا إلا أن يقولوا : (قد نختلف قليلا ولكن هذا صحيح إلى حد كبير) فباسم هذا وبكل ما يرتبه لى من حقوق عليكم يا أهل مسرح الثقافة الجماهيرية أساسا ويا محبى المسرح المصرى ومريديه عموما استمعوا لشهادتى هذه .. قبل أن يفوت الأوان .. أن لم يكن قد فات فعلا .. وهذا بالتحديد ما أخشاه أشد خشية .. لأنه سيجعل من كلامى صرخة فى واد .. وصيحة بعد فوات الميعاد .. فيقتلى ويقتلكم الندم على غفلتى وغفلتكم وتضييعى وتضييعكم حسرتى وحسرتكم على السنوات والعرق والزمن الذى فات وضاع منا جميعا .. ونحن نضرب على غير هدى فى متاهات العصبية القبلية والمداهنة المتبادلة .. والمداورة والمداراة .. والتآمر واللا مبالاة .. التى أفرخت كل ما نراه .. من مأساة تتنكر تحت قناع الملهاة ..

●

أزمة هوية أم أزمة مصير
(مدخل للمناقشة)

انحسرت أو كادت تلك الحمى التى اجتاحت سماء الحياة المسرحية المصرية والعربية بحثا عن شكل وهوية للمسرح المصرى والعربى .. والتى بدأت إرهاصاتها الأولى ، بتنظيرة الكاتب الكبير (يوسف إدريس) حول شكل (السامر) واعتماده شكلا أصيلا للمسرح المصرى والتى قدم تدليلا عليها مسرحية الفرافير التى كانت رغم كل التنظير مثقلة بالكثير من مسرح اللا معقول محملة بكثير من القضايا الفلسفية والذهنية التى لم تكن أبدا من اهتمامات المسرح الشعبى فى أى مكان ..

وتبعه الكاتب الراحل (محمود دياب) بمسرحية ليالى الحصاد والتى صاغها فى إطار شكل السامر المقترح وإن جاءت فى محصلتها النهائية صدى لفكرة المسرح داخل المسرح الأوروبية فى شكلها واجتهاداتها البراندياللية بالذات ..

وسودت صفحات كثيرة وأقيمت ندوات محلية وعالمية وإقليمية , وإلفت كتب عديدة وصدرت بيانات وإعلانات لا حصر لها .. شهدنا أفكارا بعضها قائم عن وعى وصادر عن رغبة حقيقية فى الوصول إلى حقائق أو نتائج مؤثرة وذات قيمة .. وأغلبها قائم على نزوات وشطحات لا أساس ثقافى لها .. فرأينا ..

مسرح القهوة .. ومسرح السرادق والاستفهام والسامر والحلقة والحكواتى والغرفة بأشكاله ومنطلقاته المختلفة .. والجرن والسطوح والعربة (ما بين كارو ومقطورة !!) إلى غير ذلك من أشكال .. وصاحب ذلك تكوين العديد من الفرق على المستوى الإقليمى والقطرى والمحلى ..

وتسابق العديد من الشباب بعضهم اتخذ من هذه الموجة وسيلة للمزاحمة والصعود إلى سطح الحلبة المسرحية المصابة بالكثير من الأمراض والتشوهات والمحاصرة بكافة أشكال الخوف وعدم الثقة والتخبط والجهل والأوهام والعداء الأزلى الأبدى من كل السلطات دنيوية كانت أو دينية ! بخلاف مظاهر القصور التى شابت بدايات الموجة المسرحية الحديثة التى بدأت فى حوالى منتصف القرن الماضى .. تلك المظاهر التى صاحبت تطورها ولم تفارقها حتى الآن .. وصنعت تطورها وحملته بكل أمراض النشأة من سوقية وعشوائية وتبعية فكرية وفهلوة .. وانحطاط وكراهية للعقل وعجز عن التجاوز وفقر فى الخيال والتى مازالت تعانى منها حتى الآن – والتى هى فى جوهرها انعكاس لما تعانى منه الحياة الثقافية عموما والحركة السياسية والوطنية أيضًا ..

وبداية أود أن أقرر أن كل هذا لا ينفى أنه كانت لتلك الحمى آثار إيجابية على مجمل الحركة المسرحية .. وأنه قد قدمت باسمها وتحت رايتها أعمال جادة وجيدة بل وممتعة أيضًا وأنها حركت الراكد الفكرى والفنى وأثارت الكثير من الحماس خاصة فى أقاليم مصر وفى فرق الهواة مما كان له أثر كبير فى الكشف عن كل ما يمكن الوصول إليه من سمات أو مظاهر أو ملامح حقيقية أو متوهمة .. للنشاط المسرحى أو إن صح التعبير لمظاهر الفرجة والاحتفال والمشاركة وكل ما يمكن أن يسمى تجاوزا بجنينيات مسرح مصرى أو عربى شعبى يوحى للبعض فيظنون المسرح فنا أصيلا له فى الوجدان الشعبى أصول وتاريخ يستحق البعث والإحياء .. ويؤكد للآخرين .. أنه لم يكن ثمة مسرح بأى شكل من الأشكال فى حياة آبائنا وأجدادنا .. وأنه فن دخيل ووافد ولا مبرر للجرى وراء سراب .. خادع وعلينا أن نتعامل مع الظاهرة فى هذا الإطار حتى لا نبدد طاقاتنا فى وهم لا فائدة منه ولن يؤدى لشفاء الأمراض التى تعانى

منها الحركة المسرحية المعاصرة والتى هى نتاج ظروف وواقع معين ومستوى ثقافى وحضارى سائد وعلينا أن ننظر إلى ما تحت أقدامنا لنعرف بالضبط على أى أرض نقف لنستطيع التقدم إلى الأمام ..

ولقد اتسمت هذه الموجة من الهرج الفكرى والمرج النظرى التنظيرى بسمات تصاحب دائما ما يتفجر من وقت لآخر من هرج ومرج فكرى وتنظيرى حول قضايا ثقافية أو فنية تلتهب وتخبو بشكل يكاد يكون دوريا على سطح حياتنا الثقافية والفنية ومن هذه السمات :

- <u>التطرف الشديد</u> فى البحث عن شواهد تؤكد معرفة العرب للمسرح دائما لدرجة اعتبار مواكب السلاطين واحتفالات الولاة والملوك واستقبالاتهم للمنتصرين مظاهر مسرحية للفرجة ولإمتاع الجماهير وشواهد على معرفتنا الأصيلة لفن المسرح يقول على الراعى (هذه العروض التمثيلية) لم تتوقف منذ أيام العباسيين وفى مصر الفاطمية والمملوكية ظل تيار من (العروض) مستمرا وظلت المواكب السلطانية والشعبية قائمة لتسلية الناس وإمتاعهم بأبهة الحكم !! <u>الأقواس والتعجب من عندى !</u>

بل إنه يبالغ لا فى تسمية ذلك (بالعرض) وإنما يصفه (بالمسرحية الصغيرة) موضوعها : كيف تستقبل سفراء دولة مغلوبة ؟ .. وكيف تعرض عليهم غناك وبأسك حتى يسلموا لك تسليما ! .. .. والحق – يستمر الدكتور الراعى قائلا – (أن أى فنان مسرحى معاصر لا يتردد أبدا فى أن ينظر إلى هذا العرض على أنه شئ جدير بالإعجاب والتسجيل فى باب العرض المسرحى الناجح !!)

ويستمر الدكتور الراعى إلى القول ..

(وفى الشوارع وفى حفلات الزواج والختان يمثل الممثلون الشعبيون ما بين حواة وقرادين ومدربى حيوانات ولاعبى الأراجوز وفنانى خيال الظل والممثلين الشحاذين والممثلين الجوالة ويقدم الجميع "حياة تمثيلية متصلة" حفرت فى وجدان الشعب مجارى عميقة !!)

" كتاب العربى /18 – المسرح العربى بين النقل والتأصيل "

- **الغرض السياسى .. لقد تصاعدت هذه الموجة التنظيرية مع الصعود الحاد والحماسى لفكرة القومية العربية وارتبطت باحتدام المواجهة مع الغرب الاستعمارى .. واتخذت أبعادا سياسية وقومية ورفعت شعارات تجعل من عدم الأخذ بها والإيمان بحقيقتها نوعا من التفريط فى الاستقلال الوطنى .. لأنه إهدار لاستحقاق (الشعب العربى) ودوره فى إبداع هذا النوع من الفن الذى وفد علينا مع الحملات الاستعمارية الغربية إذا سلمنا بانعدام جذوره لدينا .. فيصبح شيئا دخيلا وغريبا وغير قومى ووطنى وهذا عار وشنار على المسرح وعلينا نحن الذين علمنا العالم كل الفنون والعلوم والديانات .. ولنا لابد فى المسرح نصيب !!**
- **الالتفاف والدوران حول الأسباب الحقيقية لانعدام أو على الأقل لانقطاع الظاهرة المسرحية حتى وإن سلمنا بالجذور الفرعونية لها – كل هذه القرون .. والتى تتلخص وتتمحور بالتأكيد حول عداء السلطة المطلقة الدائمة لكل مظاهر التعبير وخاصة فى فن جماعى واجتماعى وناقد كالمسرح وموقف السلطة الدينية الطاغية من الفنون عموما .. والذى يصل إلى حد التحريم والتجريم واعتبار من يمارسونها من أعداء الدين والمدلسين والكذبة .. وهذا الموقف لم يكن قاصرا على المسرح وإنما على غيره من الفنون التشخيصية والحركية والموسيقية باعتبار ما يصاحبها من خلاعة ومجون .. ومطاردة ممارسيها بكل قسوة وحسم ..**

- **عدم الافصاح عن حقيقة وجوهر الفكر الدينى السائد الذى يحرم كل صراع أو اجتهاد أو تفسير غير معتمد للعلاقة بين العابد والمعبود .. إذ هى فقط علاقة تسليم وعبودية وخضوع .. لا صراع فيها ولا حتى اعتراض .. وهى أولوية من أولويات الصراع الدرامى فى مراحله المبكرة والتى أبدع فى بيئات أخرى تراجيديات وكوميديات خالدة وإن كانت الكنيسة الأوروبية قد سمحت باستخدام العروض المسرحية فى الترويج للمبادئ والمعتقدات المقدسة فلا أحد تطرق لانعدام ذلك سواء فى موقف الكنيسة الشرقية أو المؤسسة الدينية الإسلامية !**
- **شجعت الدولة والسلطة القائمة هذه الاتجاهات بل وتبنتها فى أحيان كثيرة لأنها تحقق هدفا عاما يتفق مع اتجاهاتها الوطنية المعلنة ووسائل لتأكيد انحيازها لكل ما هو شعبى ! فهى تبنى مساكن شعبية وتحدد أسعار المواد الغذائية الشعبية وتتبنى أيضًا إحياء الفنون الشعبية فليكن لنا أيضًا مسرح شعبى .. فهذا سيؤكد ملامحها الشعبية ، فى فترات اتسمت بعداء (واضح وصريح) .. لحرية الشعب (فكرا وقولا وممارسة) ناهيك عما تحمله هذه اللعبة من تأكيد لشرعية الأبطال الشعبيين الأفراد الذين يخول لهم دورهم التاريخى الدفاع عن حقوق الجماهير والتحدث باسمها وإعلاء شرف الوطن والجماعة .. والقبيلة أيضًا ..**
- **تجاهل كل الذين قادوا حملات التنظير هذه أن كل ما ذكروه من مظاهر مسرحية أو إرهاصات درامية فى الاحتفالات والمواكب وألعاب التسلية .. ومواكب السلطان أو موالد القديسين والأولياء .. والوعاظ الحمقى أو المجانين .. والمقلدين المضحكين ومظاهر الفرح والحزن وحتى الزار والسحر والشعوذة . والتى قيل**

بطقسيتها ودراميتها .. وحرارة الفرجة أو التقاليد الشعبية والمشاركة فيها . أنها لا تقتصر على التاريخ العربى ولا الحياة الشعبية المصرية أو العربية .. وإنما لها مثيل مستمر ومتنوع وقد يكون أغنى عند شعوب أخرى لم تقلقها عقدة النقص لأنها لم تعرف المسرح مثلنا .. كما أنها وجدت أيضاً إلى جانب التطورات والمظاهر الواضحة للظاهرة المسرحية فى البلاد التى تطورت فيها هذه الظاهرة واتخذت شكلها المسرحى المعروف .....

- على كل حال .. كانت هذه السمات وغيرها مما صعب على الجميع مناقشة الأمر فى حدود طبيعته .. وصرف النظر عن الأسباب الحقيقية التى دعت لمثل هذه الدعوة باعتبارها إحدى السبل لتطوير المسرح أو لجعله أكثر ارتباطا وحميمية بالجماهير .. أو لحل أزماته المتلاحقة والتى كان لها أسباب أخرى .. لا علاقة لها بالجذور والأصول التاريخية الموغلة فى القدم ولكن علاقتها المباشرة بالواقع المعاش والمستوى الاجتماعى والثقافى والحضارى .. والأوضاع السياسية والوطنية التى نشأت فى أحضانها الموجة الحديثة للمسرح المصرى .. والتى ليس من الصعب وضع يدنا على أسباب أزمتنا المسرحية الراهنة .. فقط بالخروج من أسر التخلف والتعصب والتسلط .. ولكن هذا موضوع آخر ..
- <u>الأشكال والمظاهر المختلفة التى اتخذتها هذه الموجة</u> كثيرة ومتعددة وستظل طالما بقى مؤلفون مسرحيون يحلمون بمسرح جديد ومبتكر ...
  - فلم يكن جديدا إعادة إنتاج تيمة أو موضوعا قديما .. تاريخيا كان أو مأخوذا عن حكاية أو أسطورة فعلى طول التاريخ المسرحى العالمى والعربى ، ظل المؤلفون يأخذون قصصا من التاريخ (تاريخهم الحقيقى) أو تاريخهم الافتراضى أو الشعبى .. كما أن الأساطير والحكايات الشعبية كانت ميدانا صال فيه المؤلفون وجالوا ولذا لم يكن بدعة أن التفت المؤلفون فى الستينيات والسبعينيات وحتى الآن فى مصر إلى ذلك .. دون أن يتخذ ذلك بالضرورة شعار البحث عن مسرح شعبى .. أو قومى ..

  - كذلك تداول المسرحيون فكرة (الاستلهام) واعتبروا التراث الشعبى من الحكايات والسير والملاحم وكتب التراث وما ورد فيها من حكايات العشاق والمحبين والأبطال .. والشطار مجالا ومعينا لا ينضب للاستلهام والاستنباط والاقتباس .. وهو أمر متاح لجميع المؤلفين من أصحاب الخيال والذين يعشقون الإبحار فى بحار الإبداع البكر الذى يعبق بكل عطر الماضى ..
  - كذلك لم يكن بدعة اللجوء إلى مفردات الفرجة الشعبية والعروض الاحتفالية والطقوس سواء ألهمت المخرجين أفكارا للخروج من أزمات العصر وانحسار شعبية المسرح وتراجع جماهيريته فى محاولة لكسر جمود الخشبة الإيطالية .. وتقاليد طرق التمثيل التقليدية فليس فيما لجأ إليه بريخت من آليات العروض الشعبية الكوميدية والممثلين الجوالين وتراث المسرح الشعبى .. إلا خروجا من أسر رتابة التقاليد المحكمة وثورة على نمط الإنتاج المسرحى المقولب .. وتوسيعا لدائرة المشاركة فى الإبداع المسرحى إلى محيط أوسع من المحترفين .
  - وعلى مدى التاريخ المسرحى كان الخروج على المعمار المسرحى الإيطالى .. وبرودة جمهور الياقات البيضاء والعودة إلى الأحضان الدافئة للجماهير الشعبية إلا سلسلة متصلة من الابتكارات لكسر الحائط الرابع ولمشاركة الجمهور فى العملية الإبداعية .. وخضوعا لمتطلبات الهواة وإمكانيات البشر العاديين سواء على مقاعد المتفرجين جالسين أو على خشبة المسرح لاعبين !!

- وأحيطت كل هذه المحاولات والتجارب بغمامة كثيفة من التنظير والجدل والمثقف اللا مجدى .. وحولت محاولات التجديد والخروج من الأزمة الخانقة وما تفرضه ضرورة العودة إلى أحضان الجماهير .. إلى قضايا وطنية وقومية بدلا من النظر إلى كل هذه الأمور من منظور الضرورات الفنية .. والفكرية .. والتى تفرضها الأزمة الخانقة التى يعيشها المسرح فى إطار الظروف الوطنية والاجتماعية وحتى السياسية . المتغيرة . أو المتطورة !! بصرف النظر عن كون هذا التطور إلى الأفضل أم كان تدهورا قيميا أو اخلاقيا أو فى طبيعة العلاقات الاجتماعية عبر العقود الأخيرة ... !

.....

ومن هنا يثير الموضوع الخاص بهوية عربية أو البحث عن شكل مصرى أو عربى للمسرح كثيرا من التساؤلات ويطرح العديد من القضايا والمشاكل وينبغى لنا على ضوء ما سبق لكى نفهم ونتصدى لمعالجتها بوضوح وصراحة بعيدا عن كل ابتزاز سياسى أو قومى أو دينى وكذلك بعيدا عن كل مشاعر البغض والحب أو الخوف والدونية ! ولندخل للموضوع مدخلا مسرحيا وفنيا .. وليست هذه دعوة لفصل السياسى والاجتماعى عن الثقافى والفنى ولكن على العكس بإصرار على ارتباط وصلة كل منهما بالآخر ارتباطا مصيريا .

وأود أن أطرح بعض الأسئلة التى قد تبدو ساذجة أو شائكة .....

× ماذا نعنى حقيقة بالهوية العربية ومن أى منظور نتفهم مضمونها .. وعلى أى ضوء نتفحص مفاهيمنا حولها ؟ فهل هناك جماعتان من جماعات العرب أو قبيلتان من القبائل العديدة سياسية كانت أو عرقية أو دينية متفقتان على مفهوم واحد لهذه الهوية وأصولها وروافدها .. لنقنع بالاتفاق عليه رأى القبائل والفصائل الآخرى .

× هل هناك إطار مرجعى للمصطلحات والشعارات والمفاهيم التى قد ترد والتى لا بد أن ترد حولها مثيرات الاختلاف والخلاف كلما اقتربنا من الاتفاق حول تعريف أو حاولنا استخدام قياس أو تعاملنا مع فكرة مطروحة أو مبتكرة ..

شعب أم شعوب ..

ثقافة أم ثقافات ..

أصول أم أصوليات ..

مسرح شعبى عربى ؟ ... أم مصرى .. أم شامى .. أو عراقى ..

أم هو مسرح للشعب العربى ؟ ...

مسرح للمصريين .. أم مسرح للمغاربة ! ؟ ..

أتوقع أن يثير هذا الحديث العديد من الاعتراضات .. خوفا من الدخول إلى هذه المناطق المحرمة التى طال التستر على مشاكلها .. وكأن هناك اتفاق مستتر على عدم نبشها وتحريم الاقتراب منها .. والتعامل معها كالتابوهات وكأن المسرح فى بلادنا (ناقص) تابوهات !!

وهذا الأمر يعكس تجاهلا مريضا لأمور ينبغى أن نعالجها بالشجاعة الكافية ..

إننا بصدد ظاهرة فنية وثقافية تدل على أزمة ثقافية أعمق هى نتاج أزمة مجتمعية وتاريخية .. هو أمر يتعلق بالإبداع علينا أن نناقشه بحرية تامة رغم أنف المصالح البنكية

والنفطية العملاقة .. ورغم الابتزاز القومى أو الدينى المريض والنابع من كارثة (تهميش المواطن وتغريب المثقف والمبدع تحت وطأة أنظمة شمولية قاهرة أو قهرية جاهلة .. أو بيروقراطية فاسدة أو عسكرية غاشمة !!) وكلها تتحدث عن ديمقراطية مشوهة وغائبة بكل الألسن الفصيحة ! .

ولما كانت الحركة المسرحية المصرية الحديثة هى أهم وأكبر حركة مسرحية حقيقية فى العالم العربى .. وليس هذا تجنيا على أحد ولا نابعا من نظرة شوفينية ومحاولة قاصرة .. ولكنها بالفعل الأكثر عمقا تاريخيا والأكبر اتساعا وشمولا ، هى أكثرها احتشادا بالفنانين وبالفنيين والكتاب والشعراء والممثلين الموهوبين .. إنها الحركة الأطول عمرا والأكثر امتدادا زمنيا وتأثيرها جماهيريا تخطى حدودها الإقليمية .. بل إنها حتى فى ظل كل الظروف الاستثنائية كانت أكثرها ديمقراطية وحرية واستطاعت أن تتجاوز ظروفها السلبية باستمرار ..

- وهى كذلك بل وبحكم هذا الزخم البشرى والعمق الفكرى والتنوع الفنى كانت أكثرها أمراضا وأكسبها هذا قدرة على احتمال كل الظواهر المرضية والظروف المريضة ..

وكانت أسرعها تأثرا بما يصيب الجسد العربى العام من إحباط أو هزيمة . وأكثرها حساسية لذلك ..

ولابد أن نناقش هذا بايجابياته وسلبياته لا بمنطق اقليمى أيها القوميون .. ولا بمنطق ايديولوجى أيها التقدميون ، ولا بمنطق إعلامى أيها المسيطرون ولكن بمنطق علمى وعصرى أيها المبدعون والمثقفون .

والحركة المسرحية المصرية الحديثة .. (تجنبا للخوض ثانية فى الامتداد التاريخى الشعبى المزعوم للظواهر المسرحية أو للخلاف حول قيمة هذه الظواهر أو حول موقف المجتمع والدين والمؤسسة الرسمية منذ الفراعنة أو منذ الفتح العربى من أولئك الممسوسين بالفن والمضروبين بالإبداع ..) هذه الحركة منذ بداياتها واحتضانها للقبانى والنقاش وإرهاصات صنوع .... أعطت اهتماما حقيقيا

للتراث العربى كله ... حكايات وقصص تاريخية أو شعبية – وتفننت فى مسرحته أو استلهامه أو إعادة إنتاجه وتفننت فى ذلك واعتبرته رافدا أساسيا من روافد تكوينها ووجدت فيه قبل الاقتباس نبعا ثريا لإثرائها فنيا وفكريا ..

وسارت منذ البداية لا على (عكازين) فقط ولكنها (تعكزت) على عدة محاور من التأليف والاقتباس والتمصير أو التعريب إلى جانب العودة إلى الأصول .. فلعبت الظواهر المسرحية للعرض الشعبى التلقائى (أيا كان الرأى فيه امتدادا أو انقطاعا .. أصيلا أم وافدا) فهذه الظواهر حفرت لنفسها بصمات وملامح واضحة على وجه الحركة المسرحية المصرية .. ولنرصد :

- قيمة الممثل الفرد فى العرض ودوره ودور عنصر التمثيل عموما بالنسبة للعناصر الأخرى . (وما يتبع ذلك من قيمة الحوار والكلمة والحدوتة فى العرض) ...
- العلاقة المباشرة مع الجمهور .. والتى تتراوح ببساطة ما بين الاندماج أو المواجهة وكسر حوائط الوهم مثلما فعلت دعوى (التغريب والملحمية) فى المسرح الغربى .. دون تنظير .. (القافية / الروح / المزاملة / الارتجال ..) .
- استخدام الرقص والغناء والراوى والمقدم .. وتخلق عناصر التهريج والارتجال على كافة المستويات وخضوع العرض بشكل دائم لظرف المكان وطبيعة الجمهور والظروف العامة المحيطة به ..

.....

أمرا طبيعيا وعاديا قبل (موجة التنظير المرتبطة بدعوة القومية العربية الأخيرة) وذلك لكثير من العوامل .

- فمصر (بلد زراعى) .. نشأت فيه منذ فجر التاريخ تلك الأساطير التى تخلق من رحمها المسرح (الخصب .. التضحية .. البعث) .. وهى التى احتضنت وحافظت على الملاحم الكبرى فى عصر الملاحم كما حفظت المعتقدات المقدسة (دور الأزهر خاصة فى عصور الانحطاط ودور الكنيسة فى عصور الاضطهاد) واعطت لتلك المعتقدات المتعددة بعدها الشعبى والطقسى والاحتفالى (أكثر من غيرها) ولذا كان من الطبيعى أن يولد (ولو ولادة متعسرة) الشاعر المسرحى متعدد الأدوار (راوى السيرة) (الشاعر الشعبى) (الحكواتى) و (القصاص) ومرتجل المواويل والمراثى والمربعات والأمثال .. وأيضًا الممثل المخرج المؤلف الحديث باختلاف مستوياته وأن يكون أكثر من غيره مهموما (دون لجاجة كبيرة) بالهموم العربية ....
- فمصطفى كامل صاحب شعار (مصر للمصريين) هو نفسه مؤلف نص (فتح الأندلس) دون أن تقلقه الهوية العربية ... والحركة المسرحية المصرية الحديثة بكل تنويعاتها وإيجابياتها وسلبياتها وأمراضها .. هى التى أعادت الحياة للعديد من شخصيات التاريخ القومى والتراث الشعبى فى صور درامية مهما كان الرأى فى مستواها .. فقد أحتيها فى وجدان الأجيال المعاصرة .. حتى قبل أن تستخدمها الدواعى القومية فتفرغها من مضمونها الإنسانى وسماتها البشرية .. والتى لولا الفقر الفكرى أحيانًا والفقر المادى فى أغلب الأحوال لناطحت أوديب وهاملت وارليكانو .. لكنه النفط طغى على الطمى فأعقمه .. ومنطق المال والتجارة سيطر على الفن والإبداع فألجمه ..

ومن هنا يصبح البحث فى هموم الهوية بحثا فى شئون المصير .. وهذا ما يجعلنا أمام اختيار صعب .. فلنتخلص من أوهام النعرة المتعصبة للقومية العنصرية والتى تدفعنا إلى اختراع قضايا والدوران فى

حلقاتها المفرغة .. نبشا فى ماض لن يعود .. واهدارا لإمكانيات مرهقة فعلا ولكنها يمكن أن تكون فاعلة .. لو أننا واجهنا أنفسنا .. بالصدق .. لائذين بحماية الإبداع الحقيقى والأمل والثقة فى قدراتنا المبعثرة ..

فما هى حقيقة أزمتنا المسرحية .. هل هى أزمة هوية حقا .. أم أننا نريد أن ننشغل بهذا عن مواجهة الأزمة الحقيقية .. المتمثلة فى ذلك الانفصال الحاد القائم والذى يزداد عمقا بين المسرح والناس بسبب وسائل الاتصال الحديثة .. وطغيان الاستهلاك وسيادة منطق الربح وصعوبات الحياة المختلفة .. أليس المخرج الحقيقى هو فى البحث عن إعادة أو خلق علاقة حقيقية ووشائج صلة عضوية بين المسرح والجمهور .. وهل نحن فى حاجة أمام ذلك .. لمسرح شعبى مصرى .. أم لمسرح للشعب المصرى .. ؟ قريب من وجدانه ، ضالع ومهموم بهمومه المصيرية ومرتبطا بقضاياه وأحلامه فى الحرية والديمقراطية والعدالة وكرامة الإنسان ؟ .... يجمع بين الارتباط بالجذور والأصول .. والتطلع إلى العصر بكل تقنياته وتقدمه العلمى !!

هذا هو السؤال .. إنها ليست قضية هوية وإنما هى قضية كينونة ومصير .. ! وهو أمر تحيط به الكثير من موجبات القلق والمخاوف ... !

لماذا ؟ .. لنبحث معا عن إجابة حتى وإن لم تكن مرضية فلتكن واقعية وحقيقية .. فى عصر لن يحترم بعد أوهاما عفى عليها الزمن أو أفكارا تخلفت عن روح وأفاق التقدم ... !

●

ورقة عمل مقدمة إلى المؤتمر الأول للمسرحيين المصريين من فنانى المسرح بالثقافة الجماهيرية

(كان لى شرف صياغة هذه الوثيقة التى كانت حصيلة مناقشات عميقة وجادة ولكن الأستاذ / سعد الدين وهبه وجد فيها شيئا ما لم يوافق عليه ولذا كلف الفنان (عبد الرحمن الشافعى) بإلقاء كلمة أخرى باسم مسرح الثقافة الجماهيرية) 1977

****

من الضرورى عندما نتعرض للظروف التى يمر بها المسرح المصرى أن نعترف بأنها أزمة حقيقية تتمثل فى عدد من الظواهر والمظاهر ، مثل تقلص دور فرق الدولة ، وهجرة عدد كبير من الفنانين إلى القطاع الخاص أو إلى الخارج ، وانعدام وجود حركة نقدية أو فكرية جادة لتقييم الأعمال المسرحية ، والمصاعب التى تواجهها فرق الأقاليم المسرحية فى ظل عدم إيمان بعض المسئولين في المحليات . أو غالبيتهم . بدور المسرح خاصة والثقافة عموما ، وجدواها ، وغير ذلك من المظاهر التى تشكل النتائج المباشرة أو غير المباشرة لحقيقة تلك الأزمة التى لا تنفصل ، بل هى جزء من الأزمة الثقافية العامة التى هى بدورها وليدة ظروف اقتصادية واجتماعية بعينها .

إن ازدياد الطابع الاستهلاكى الترفى لفئات من المجتمع وسيادة مفهوم الربح تمشيا مع فلسفة تشجيع نمو نشاط القطاع الخاص لابد أن ينعكس على الأنماط الثقافية ، لتجد الأشكال الفنية الهابطة والترفيهية المبتذلة سوقا رائجة بحكم توفر المستهلك الذى لا يريد سوى أن يتمتع بأوقات لهو جميلة لا تربطه بقضايا لا تهمه .

وازدياد نفوذ الفئات التى لا تؤمن إيمانا حقيقيا بالشعب أو بالعدل الاجتماعى يجعلها تدفع بكوادرها المعروفة بعدائها الأصيل للفن المسئول والمهموم بهموم الجماهير إلى قيادة الحركة المسرحية ، فنجد تلك الأعمال المظهرية التى تلتهم مبالغ هائلة من قوت الشعب دون أن تكون لها فائدة حقيقية لأحد سوى أصحابها .

كما أن العداء التقليدى لهذه الفئات تجاه كلمة الثقافة وتجاه كل ما يمت لها بصلة وخاصة المسرح ، بحكم تقدمية منابعه الإنسانية والفكرية وطبيعته الجماعية فى الخلق ، والاجتماعية فى التأثير – يُلجئ هذه الفئات إلى التقليص المستمر للخدمات الثقافية وتحويل الفن إلى سلعة ، وسلعة استهلاكية بالطبع ، فتغرق السوق بكل هذا الركام من الأعمال الهابطة فكريا والمبتذلة فنيا لإحساسها الحقيقى أن فى نمائها يكون الخطر الحقيقى على أفكارها وفنونها بل وعلى وجودها نفسه ولذلك فهى تسعى سعيا دائما ودائبا وبكل الطرق والأساليب الخفية والصريحة إلى تفريغ العمل الثقافى بوجه عام والمسرحى بشكل خاص من مضمونه الاجتماعى والإنسانى وتبذل كافة الجهود لخنقه ماديا واقتصاديا ومحاصرته فكريا واعتباره باستمرار عملا لا مكان له إلا قفص اتهام دائم أو باعتباره عملا مشتبها فى شرعيته على الدوام وغير مرغوب فى وجوده .

ولسنا نرجح أن الأزمة المسرحية برمتها تعود إلى ذلك فقط فهذا تعسف لا يقبله المنطق . ولكننا نضرب بهذه الظاهرة مثلا نشير به إلى ارتباط الثقافة وأزمتها بالمجتمع وأزمته العامة .

ونحن إذا ما نظرنا إلى أزمة المسرح المصرى بوجه عام فإننا لا يجب أن نتجاهل حقيقتها أو أبعادها فهى لا تكمن فقط فى أزمة النصوص والخلق وحدها ولا فى نوعية المهيمنين على حركة المسرح

أو إداراته فقط ولا هى أزمة معمار مسرحى أو حرية وحيرة فى البحث عن شكل فنى أو غير ذلك من المظاهر المتعددة للأزمة . والتى يكون كل واحد منها ملمحا من ملامحها ، ولكنه لا يعد جوهر المشكلة أو لب الموضوع .

فعندنا كتاب موهوبون حقيقة ، ولدينا خبرات عظيمة فى الآخراج ونملك عددًا من المسارح وقاعات العرض ومئات من الساحات الشعبية والآلاف من الأجران . وعطاء مصر فى مجال الفن دائم ومستمر ، وكم تغيرت القيادات المسرحية وبدلت ومع ذلك كله ظلت الأزمة كما هى . وأيضًا ارتفعت واتسعت الرقعة التى تقدم عليها فرق الأقاليم إنتاجها . وجمعت حولها عشرات من الفنانين واستنبتت من الكتاب والخريجين عددا كبيرا ومع ذلك ظلت الأزمة تتفاقم .

ومن هنا فإن أى تجاهل لسرها المكنون إنما هو نوع من دفن الرؤوس فى الرمال ، وأى حلول تتجاهل ذلك السر سوف تظل نوع من المسكنات الموسمية والحلول الجزئية التى لا تؤدى إلا إلى تسكين آهات الألم وإخفاء مظاهر الاحتضار ، ومما لا شك فيه أن الظروف تعطى الآن للمصريين العاملين بفنون المسرح المخلصين لقضيته وقضية الوطن فرصة مواتية لبداية صحيحة للعلاج الجذرى ولميلاد جديد لهم جميعا على اختلاف اجتهادهم الفنى وانتمائهم الفكرى . فجماهير شعبنا تنتزع بعد طول حرمان حقها فى التعبير عن نفسها وحقها فى تقديم نفسها بعد كفاح طويل قدمت خلاله تضحيات مريرة وجسيمة وأصبحت مطالب مثل حرية التعبير وحق إصدار الصحف وقيام الأحزاب السياسية شعارات تتمناها جماهير الشعب ولا مفر من تحقيقها أن آجلا أو عاجلا , فلا أقل من أن نقود نحن المسرحيين المصريين ونحن نمثل فئة حيوية من طلائع هذا الشعب المثقفة معركة حاسمة من أجل مسرح مصرى جديد ونظيف وإنسانى يستند إلى حرية الفنان فى التعبير وحق كافة المدارس الفكرية والفنية فى التعبير عن نفسها ومسئولية الفنان حيال شعبه ومجتمعه كذلك حق الجماهير المحرومة فى مسرح مستنير يعبر عنها ويلهمها ويفجر طاقاتها الإبداعية ويقود مسيرتها الثقافية إلى أفاق إنسانية رحيبة .

وعليه فإننا . فنانى المسرح بالثقافة الجماهيرية من كتاب ومخرجين وممثلين وفنيين و نحن الذين نتوجه إلى أعرض الجماهير وأكثرها حرمانًا لا من الخدمات الثقافية وحدها ولكن أكثرها معاناة من وطأة

الظروف الاقتصادية كذلك – نتوجه إليهم بحكم تواجدنا على اتساع رقعة الوطن فى (54) فرقة مسرحية فى المدن والقرى حيث ظروف العمل الفنى بالغة القسوة والفقر ، نحن الذين لم تمنعنا هذه الظروف أن نقدم خلال عام 1976 أكثر من ألف ليلة عرض وفى ميزانية مضحكة للغاية وصلت مع الكرم الشديد إلى عشرة آلاف جنيه فى نفس السنة وهى كما ترون ميزانية لا تصلح كلها لإخراج ثُمن عرض أكاديمى أو لإنتاج فزورة تليفزيونية واحدة !!..... ومع ذلك فإننا لم نتوقف يوما بقدر ما أتيح لنا عن القيام بما نؤمن به – ونحن لا ندعى أننا نقدم كل ما يصبو إليه الشعب أو غاية ما يطمح إليه الفنان ولكننا إذ نطرح عليكم تصورنا هذا لطبيعة أزمة المسرح المصرى فإننا نأمل أن نصل معا إلى تصور مشترك للخروج من هذه الأزمة إذ أننا نعتبر انعقاد (المؤتمر الأول للمسرحيين المصريين) فرصة لا ينبغى أن يقف شئ فى سبيل أن يخرج منها المسرح المصرى بوجه عام ومسرح الأقاليم بصفته القوة الضاربة الأولى بحكم تواجده وطبيعة مهمته . بتصور حقيقى لطبيعة أزمة ، وبخطوات جادة نحو الخروج منها . بما يتلاءم مع تصورنا للدور الحضارى الذى لعبه الإنسان المصرى والعربى فى تاريخ الإنسانية وما يجب أن يقوم به وأن يقدمه إليها من عطاء نظيف وصحى وأن ننتهى من هذا المؤتمر بوحدة عمل كل المسرحيين الشرفاء والجادين والخلاقين المهمومين حقيقة بمعاناة هذا الشعب ممثلا فى جماهيره العريضة . وحدة عمل تقوم

فى مواجهة الزحف المتخلف الذى يحاول أن يسيد أتفه القيم وأن يدعم العلاقات البدائية وأن يروج للمفاهيم الثقافية المتخلفة وإلا فإننا موتا نموت وعارا سوف نحظى ونكلل أمام أجيالنا القادمة .

ومن هنا فإننا نقدم هذا التصور الذى نعتقد أنه يصلح أساسا لمناقشة ديمقراطية واسعة بين كل فنانى المسرح المصرى للوصول إلى بداية جادة تليق بمؤتمر للمسرحيين المصريين ينعقد على أعتاب الربع الأخير من القرن العشرين .

****

<u>حرية وتحرير طاقات الفنان المصرى وحمايته هى الأساس والمنطلق :</u>

إن الفنون عامة والمسرح على وجه التخصيص سيظل من أشرف الإنجازات الإنسانية والميدان الذى تتبارى فيه الشعوب لتقدم إلى الحضارة الإنسانية أنبل القيم وأعظمها تعبيرا عن طموح الإنسان ونضاله من أجل حياة أفضل وأرقى وأنبل .. وأن هذا الإبداع البشرى لم يزدهر إلا فى الفترات التى تسود فيها القيم الديمقراطية والإيمان بالإنسان وقدراته وقدرته على امتلاك مصيره ومن هنا كان للفن الحقيقى دائما طبيعة تقدمية وثورية ينير طريق نضال الشعوب وكفاح البشر من أجل الحرية والعدالة وأنه كان يختنق عندما تمد النظرة الضيقة والمحدودة الأفق يدها الباطشة لتخنق حرية الفنان فى الإبداع أو لتسلبه حقه الشرعى والطبيعى فى التعبير وفى حمله لمسئوليته التاريخية حيال النوع البشرى .

هذه قضية لا تقبل أنصاف الحلول . ولا تحتمل النظرة الجزئية .

الفن المسرحى يزدهر ويعطى عندما يصبح الفنان مسئولا مسئولية كاملة عن إبداعه ويذوى ويضمحل عندما نسلب الفنان حقه الكامل فى التعبير وفى تحمل مسئولية ذلك الحق .

ولقد قدمت البشرية دائمًا وعلى طول التاريخ ، وستظل تقدم فنانين عظماء تحملوا هذه المسئولية بكل مخاطرها حتى النهاية وبقوا على الدوام منارات تضئ وخلودا لا تستطيع قوة ما أن تطمس بريقه .

والفن والمسرح بالذات يذوى أيضًا ويضمحل عندما تحاول قوة ما أن تفرض رؤيتها مهما كانت على إبداع جماهير الفنانين بأى حجة كانت وتحت أى اعتبار كان . ولقد جربنا طوال سنوات عديدة محاولات

البعض لفرض الرأى الواحد فى مجال السياسة ولكن ها هى جماهير شعبنا تنتزع حقها فى التعبير المتمايز عن نفسها وحقها فى تنظيم حقوقها للدفاع عن مصالحها المختلفة ، ثم ماذا كانت نتيجة محاولات فرض الرأى الواحد فى مجال الثقافة سوى هذا التخلف وتلك الأزمة والمعاناة التى يحسها كل الفنانين المسرحيين الوطنيين والتى يعتبر انعقاد هذا المؤتمر تعبيرًا عنها ومحاولة للخروج منها وفرصة لا يجب أن تمر دون رد الأمور إلى حقائقها الأساسية ومن هنا فإننا نطالب أن يقر المؤتمر بإصرار وحسم وأن يدافع بقوة عن حرية الفنان المسرحى إبداعًا وخلقا وعدم التدخل بأى درجة من أى جهة كانت إدارية أو سياسية فى تلك الحرية مع التأكيد على ارتباط هذه الحرية بمسئولية الفنان الكاملة عن عمله الفنى بحكم مسئوليته الإنسانية كمواطن وفنان .

إن حرية التعبير هذه ليست وهمًا أو صيحة فى الفراغ ولكنها ترتبط فى رأينا ارتباطا مؤكدا بمسئولية الفنان المصرى حيال مجتمعه الذى يعانى من وطأة التخلف والأمية ومن أشباح الفقر والخوف والاستغلال ويخوض معركة مصيرية تجاه أعدائه الداخليين والخارجيين وإن كنا نؤكد ، حتى لا يساء تفسير أو فهم رؤيتنا لهذه المسئولية .. ونعلن أن الفنان الحقيقى مؤهل لأن يكون أكثر فهما لمسئوليته هذه وتقديرا لها من أى جهة إدارية حتى ولو بدت . هنا أو هناك . بعض التجاوزات التى يفرضها

أحيانًا أن الفنان مقدر عليه أن يخوض البحار الفكرية المجهولة ، وأن يقتحم فى شجاعة كافة مغامرات الفكر وصولا إلى الحقيقة عبر معاناة التجريب والاكتشاف .

إن هذه الحرية وتلك المسئولية إنما ترتبطان أساسا بتحرير الفنان المسرحى من قسوة الظروف المادية والاقتصادية التى تعطل إمكانياته الإبداعية وتجعل الكثيرين يقعون فريسة قوى الاستغلال التى تريد أن تحوله إما إلى وسيلة لخدمة أغراضها أو تحول فنّه إلى سلعة تباع وتشترى وتصدر تحت ضغط الحاجة الاقتصادية لتضمه إلى معية المتعة الترفية لدى ذوى الدخول الطفيلية وملوك المال المصريين وغيرهم .

إن هذه الحرية ترتبط أيضًا . حتى يعطى الفنان عطاءه للمجتمع من أعمق أعماقه وبكل قدراته . بأن يحيط المجتمع الفنان بسياج قوى من الحماية ليس فقط فى مواجهة قوى التخلف الفكرى بل أيضًا فى مواجهة تخلف الفنان نفسه عن الارتواء من مناهل الفكر والخبرة العالمية وذلك بتسهيل حصوله عليها وتمهيد طريقه إليها حسب جدارته وقدراته الحقيقية فى الاستفادة منها والإفادة بها وليس حسب اعتبارات متحيزة تحكمها قوى متخلفة إدارية كانت أو سياسية .

واستنادا إلى هذا الفهم لحرية التعبير فإننا نطالب جماهير المسرحيين ممثلة فى هذا المؤتمر أن تتبنى وأن تدعو وأن تناضل من أجل :

(1) رفع الرقابة المفروضة على المسرح أسوة بما حدث بالنسبة للكتاب . إن كانت هناك رغبة حقيقية فى إتاحة الفرص المتكافئة لكل القوى والأفكار للتعبير عن نفسها . لأن رفعها عن المسرح هو المحك الحقيقى لجدية مثل هذه القرارات فى ظروف الأمية السائدة فى مجتمعنا باعتبار أن حق التعبير ليس فقط فى إتاحة الحرية لعملية الخلق ولكنها أساسا حرية وصول الفنان إلى جمهوره دون وصاية إلا من ضميره الوطنى وحسه الفنى والاجتماعى .

(2) تأكيدا لمسئولية الفنان الكاملة عن خلقه الفنى فإن على المؤتمر أن يؤكد وأن يطالب بأن يكون الاحتكام الوحيد إنما يجب أن يكون للقانون العام والدستور أو للجنة تمثل خلاصة الفكر المصرى الوطنى فى تنوعه وليس لجهة إدارية أيا كانت .

(3) إن طبيعة العمل المسرحى إنما تحتم ضرورة المسئولية الجماعية لأصحابه ومبدعيه وهذا لا يتأتى إلا بسيادة الروح الديمقراطية فى إدارة الأجهزة المسرحية سواء كانت بيوتًا مسرحية أو إدارات تشرف على العمل المسرحى لتكوين مكاتب فنية مؤهلة لإدارتها .

(4) وتتأكد حماية الفنان المسرحى والعمل المسرحى أيضًا بتأكيد حق المسرحيين المصريين فى تشكيل تنظيمهم النقابى على أسس ديمقراطية ليضع الخطوط العريضة لدستور العمل المسرحى ولقوانين حمايته والتصدى لحماية الفنانين المسرحيين من ضغوط الظروف الاقتصادية وحماية حقهم فى العيش الكريم وصيانة كرامتهم الإنسانية والدفاع عنهم ضد كل القوى المعادية للفن ولحرية التعبير وأن يكفل لهم وينظم حقهم فى تكوين الفرق والجماعات المسرحية وأن يرعى الهواة وأن يحمى حق الجميع فى العلم والخبرة ـ داخليا وخارجيا .

(5) بإشرافه على الإنتاج المسرحى وعلى إصدار المجلات المسرحية المتخصصة وجعلها ميادين صراع فكرى وحقيقى وديمقراطى بين كافة الاتجاهات الفنية والاجتهادات الفكرية وأن يكون له رأى فى تنظيم إرسال الوفود الفنية وإقامة المهرجانات المحلية والدولية .

(6) إن طبيعة عمل الفنانين المسرحيين تتطلب تأكيد حقها فى كادر خاص يكفل لهم الحياة الكريمة أثناء مزاولة العمل وبعد الاعتزال وأن يعمم هذا الكادر ويطبق على كافة العاملين فى مجال المسرح دون تفرقة أو تمييز وأن تصدر التشريعات اللازمة بذلك على الفور سواء فى هيئة المسرح أو فى الثقافة الجماهيرية أو غيرهما من الهيئات التى تمارس أو تشرف أو تنتج العمل المسرحى بشكل مستمر .

(7) تتأكد العدالة فى توزيع الخدمة الثقافية المسرحية بين العاصمة والأقاليم وبين المدن والقرى وبين المناطق العمالية المحرومة والمناطق المتخمة بضرورة إعادة النظر بشكل عاجل وحاسم لأجل زيادة الميزانية المخصصة للخدمات الثقافية بما يتناسب مع أهميتها وأيضًا فى توزيع هذه الميزانية بما يتناسب مع الجماهير وحاجتها الحقيقية إليها ولا يتأتى هذا إلا بتدعيم فرق الأقاليم بالجهد والخبرة والتمويل والتنظيم وإتاحة حرية الحركة لها بإلزام المحليات بنسبة من ميزانيتها وإقرار حقها فى تقييم أعمالها بالمتابعة الفنية نقدا وإعلاما بشكل يتلاءم مع مكانة المسرح بين الفنون وطموحنا حيال الإنسان المصرى ودوره الحضارى .

(8) ضرورة إعادة النظر بشكل حاسم فى نظام إدارة وفى مناهج معهد الفنون المسرحية الذى وصل الحال به إلى درجة متدهورة والعمل بسرعة على إعادة الأساتذة الأجلاء الفنانين المحترمين إليه باعتباره معمل تفريخ كبير يرعى براعم الحركة المسرحية ويقوم اعتمادها فى المستقبل .

(9) تخليص الهيئات المسرحية من المعوقات الإدارية والتأكيد على ضرورة العمل بسرعة لتكوين البيوت المسرحية واستقلالها . وتحويل الثقافة الجماهيرية إلى هيئة عامة ليتخلص العمل المسرحى فيها من المعوقات الإدارية باعتبار مسارحها ومسارح القطاع العام هما واجهة العمل المسرحى القومى . وإعدادها لتصبح حقا مدرسة فنية ومركز إشعاع وميدان بحث وتجريب ونافذة على التيارات

المسرحية العالمية . حتى لا تزداد الهوة اتساعا بيننا وبين ما يموج به العالم من تيارات إبداعية وحتى لا ننسى إنجازات البشرية العظيمة فى المسرح .

(10) إن مستقبل الأمة مرتبط بأسلوبنا فى تربية أطفالنا ولا يعقل ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين أن نظل نعتبر مسرح الطفل شيئا كماليا أو حلية عاطلة من الفائدة وإنما يجب أن ننظر إليه كوسيلة لإثارة خيال أطفالنا وتربية قدراتهم الذاتية والعقلية وأيضًا وسيلة حقيقية لتربية جمهور مسرحى حقيقى يمارس حرية مشاهدة المسرحية منذ الصغر وهذا يتطلب العمل على تحويل مسرح الطفل ومسرح العرائس إلى مراكز إشعاع وقيادة لشبكة واسعة لمسارح تنتشر فى أنحاء مصر وهى مهمة قومية فى الأساس تتطلب تدعيمهما فنيا وماديا مع إلزام الفرق والبيوت المسرحية لتقديم نسبة لائقة من عروض الأطفال .

(11) ويتأتى بعد هذا كله وقبل ذلك كله التأكيد على قيمة المسرح كمنارة ثقافية بكل ما تعنيه الثقافة من أصالة وشمول وتنوع وليس جهازا من أجهزة الإعلام يسير فى ركب السياسة العملية للحكومة التى تعبر فى ظل الظروف الحالية والمستقبلة عن وجهة نظر فئة معينة من الشعب أو حزبا بعينه قد يكون هذا أو ذاك من الأحزاب القائمة أو التى ستنشأ ، ولهذا فإن التأكيد على قومية أجهزة المسرح وفصلها واستقلالها قوميا عن أجهزة الإعلام ووضع الضمانات لمنع تدخل الأجهزة الإدارية فى طبيعة أو نوع أو اتجاه العمل الفنى يعتبر مطلبا أساسيا وملحا للحفاظ على القيم الثقافية التى لا يجب أن تكبل باتجاه تكتيكى أو مرحلى إنما يجب أن تنتمى للإنسان وللقيم الإنسانية فى شمولها وتنوعها الخلاق .

وأخيرا :

إن مؤتمرنا هذا أمامه اختيارين لا ثالث لهما :

- إما أن يصبح مثل العديد من المؤتمرات سواء فى مجال الثقافة أو فى غيرها ، مجرد (مكلمة) يتبارى فيها المتكلمون ويتنافس فيها الخطباء ثم يجمع كل واحد منهم أدواته ويشغل نفسه بحساب خسائره أو مكاسبه .
- أو أن يكون بداية جديدة للعمل المسرحى الخلاق والمتحرر والمسئول . الخلاق : بقدر ما تؤمل جماهير شعبنا فى مثقفيها المبدعين على مر التاريخ .. والمتحرر : بقدر ما يحرص أعضاؤه على التمسك بحقوقهم الدستورية والإنسانية .. والمسئول : بقدر إيمان أعضائه بقدراتهم الفنية والعقلية وتمسكهم بالانتماء لوطنهم وشعوبهم واهتمامهم بهمومه وتطلعهم لتحقيق أحلامهم فى تحقيق أحلامه.

ولذلك لابد أن يبدأ العمل منذ الآن حتى لا نتخلف عن حركة شعبنا المتطلعة إلى التحرير والحرية والعدالة .

●

لذا نطالب أن تنشأ الآن وفورا لجنة لمتابعة أعمال المؤتمر ، أو سكرتارية دائمة له من عناصر قادرة على تحمل المسئولية ومنتخبة انتخابا حرا لتمثل كافة الهيئات المسرحية المشاركة فى المؤتمر بحيث لا تكون امتدادا إداريا للمؤتمر ولكنها لجنة عمل دؤوب ودائم لمتابعة تنفيذ مقرراته ، لجنة تعتبر ميدان عملها شاملا لكل الرقعة الثقافية وممتدا من مقر مجلس الشعب حتى آخر موقع مسرحى فى جمهوريتنا وأن يكون لها حق العودة إلى المؤتمر ودعوته أن تطلّب الأمر ذلك . حتى يمكن أن نحقق خطوة على الطريق الصحيح لنصبح جديرين بالانتماء لهذا الفن المقدس ـ المسرح .. وإلى هذا الشعب المصرى العظيم .

فنانو المسرح بالثقافة الجماهيرية

يناير 1977

●

مقدمة لكلام في الاستلهام

لا أرتاح كثيرا لكلمة " استلهام " فيما يتعلق بعلاقة المبدع بذلك الجزء القليل من التراث الشعبى الذى أتيح له التعرف عليه أو تصادف أن عاشه أو تمكن من التأثر به .. ناهيك بالجزء الأقل الذى تمثله فوقر فى قلبه . وامتزج بروحه إلى درجة يمكن أن يبدو معها حاضرا فى إبداعه دون افتضاح سافر ممتزجا به أو مشكلا دون فجاجة أو لجاجة أحد ملامحه ..

كلمة " استلهام " توحى بأن هناك بعضا من شبهة التعمد فى خلق العلاقة التى لا يمكن " صناعتها " أو " افتعالها " .. فالتراث الشعبى فى رأيى فاعل أصيل فى تلك العلاقة وليس مفعولا به وتلك الكلمة توحى بعكس الحقيقة .

التراث الشعبى فى رأيى لابد أن يكون أحد المنابع الأساسية فى إبداع المبدع دون إرادة أو وعى كامل منه .. أو أقل هو بعض جينات موهبته ..

تلك الجينات التى تظل كامنة عند البعض ، ساكنة سكون الموت أو تتفجر بالحياة لدى البعض الآخر لأسباب بعضها معلوم وأغلبها مجهول ، فتفعل فعلها فى إبداعه دون إمكانية عزل عن تأثيرات أو مثيرات غيرها من الملامح التى تشكل سمات موهبة المبدع وهويتها والتى تدعمها خبرته الإنسانية ومهاراته الحرفية وعلاقاته الاجتماعية وموقفه من الحياة مسايرا كان أو نقديا أو متمردا من خلال تفاعل كل ذلك تفاعلا حيا واتحاده وامتزاجه بنبض وجزيئات قلبه وذرات عقله ونويات روحه المبدعة ..

ليس بنفس الدرجة عند كل الناس ..

ليس على نفس الطريقة عند جميع المبدعين .

ليس على نفس الوتيرة عند كل البشر من فنانين وصناع ومنتجين .

إذ لكل شجرة طريقتها فى ممارسة الإثمار .

ولكل إنسان سبيله لممارسة الحياة .

ولكل شجرة وسائلها فى التعامل مع مفردات بيئتها من تربة وماء ومواد كيماوية وأخرى عضوية ، ومن هواء سواء كان يحيطها بحنان النسيم أو بشدة الريح أو بقسوة هوج العواصف .. وأيضًا من ضوء واضح كضوء الشمس أو باهت بارد كالنيون .. طبيعى هو أو صناعى .. بالصدفة كان انغماره أو عن قصد .. غصبا أو اختيارا ..

إن المياه التى تمتصها الجذور الممتدة المتشعبة فى أعماق التربة .. والتى تشكل السائل الحيوى للنسغ الذى يتخلل عروق الشجرة من خلال عمليات معقدة تساهم فيها عوامل طبيعية كثيرة وأخرى كيماوية وثالثة بيولوجية .. تختلف عن المياه التى تنتجها الأوراق فى البكور أو عندما يحين الليل .

وتلك الحبة " البذرة " التى يتاح لها أن تمارس وتعيش معجزة الإنبات / الإبداع خلال سلسلة طويلة ومعقدة مركبة من التفاعلات لتكون تلك البادرة التى تسمو كى تصبح شجرة تشتاق للإثمار وتصبح قادرة عليه .. ليست هى تماما – ولا يمكن أن تكون هى نفسها – واحدة من تلك البذور أو الحبوب التى تمخضت عنها تلك التجربة الرائعة التى عاشتها تلك الشجرة والتى لا تشبه غيرها .. والتى تعجز عن تتبع تفاصيل تطوراتها ومنعرجاتها وتفجراتها .

تلك البذور والحبات التى تحمل كل صفات البذور الأم وإن كانت لا تلوح فيها ولا تظهر .. إذ تتحد فيها كل العناصر الأولى التى كونت نسيج وروح البذرة الأم .. وإن لم نلمس أحيانًا أو نلمح أيا منها .. ولا نراها رأى العين .. أو نلمسها بشكل مادى واضح أو بالعين المجردة .

- ليس من التربة بكل عجائب مكوناتها ذلك العصير الحامض الذى يميز الليمونة .. وقد أتى بالتأكيد منها ..
- وليس فى الماء ذلك الطعم المر الذى تحوزه الحنظلة التى عانت الجفاف فى صحرائها .. والتى فى مواجهته بذلت كل المحاولات والأساليب الملتوية الصعبة لتحصل على ما يروى عطشها من براثن حبات الرمل ومن أنفاس القيظ وقسوة الهجير .. وإن كان لا يمكن لتلك المرارة الشافية أن تتكون أو تتخلق إلا منه وعنه – الماء .. ندى أو ضبابا أو مطرا ..

وكذلك ليس من المواد العضوية والكيماوية – طبيعية أو صناعية المختلطة بالتراب – ليس منها ذلك العصير الشهد المسكر المكرر الذى تكتظ به حبات العنب الناضج .. وإن كان كامنا فيها .. نابعا منها .. ولا يمكن أن يكون بدونها ..

هكذا أرى الموضوع الذى نحن بصدد مناقشته أو اللف والدوران حوله بكل ألاعيب المفكرين والمثقفين وكل ملاعيب المحللين والنقاد ..

كلمة – استلهام – كلمة مضللة ، لا تعبر عن ديناميكية وديالكتيكية هذه العلاقة .. بل تشوهها .. إذ توحى بخلط بين الأدوار وتزييف للأهمية النسبية لكل طرف ..

ولست أجد لها بديلا ..

كثيرا ما تعجز اللغة تماما عن التعبير .

وغالبا ما نلجأ لألفاظ تريحنا .. نتفق على مضض بيننا على اعتبارها كافية للتعبير عما يصعب التعبير عنه أو يستحيل .

إن تلك الثمرة التى تبعث فى قلوبنا عاصفة الفرح عندما نبصرها ناضجة فى الصباح على غصون الشجرة .. هى بذاتها لحظة انتصار .. لحظة فرح .. نهم .. بهجة شوق .. رغبة .. عطش .. ارتواء .. جوع .. اكتفاء .. وجود .. إنها هى الحياة ذاتها ..

وتظل فى حد ذاتها تعبيرا عن عمليات معقدة غامضة .. وساحرة ودائما تبقى غير مفهومة مهما تقدم العلم .. لأن سحرها يكمن فى عدم قدرتنا على تفسير وجودها وكينونتها ..

وستظل لا يمكن التأكد من حقيقتها ..

بالضبط كالإبداع ..

إنها خلاصة ونتيجة , وفى الوقت نفسه سبب ومصدر ومنبع .. معجزة .. دائمة لا تنقطع ولا تنتهى ولا تخضع لقانون سواه قانونها هى .. قانون الحياة نفسه ..

لم يخطئ الشاعر حينما سألوه عن الحياة .. فقال بكل بساطة – الحياة برتقالة !!

إنها مزيج مركب لا يكف عن التجسد والتحول فى كل لحظة من خلال ملايين من العمليات المعقدة تشترك فيها ملايين من الذرات والنيترونات والإلكترونيات والجزيئيات لعناصر لا حصر لها ولاحد ، يتكون منها وفيها الماء والمواد والضوء والقيظ والبرد والحب والعشق والجنس والموسيقى والكراهية والملح واليود والهواء .. إلى مالا نهاية , أيضاً التراث الشعبى وغير الشعبى بلاشك هو من أهمها أن لم يكن بالنسبة للشاعر أكثرها أهمية وللمبدع عامة .. بشرط توفر ذلك الملموس المحسوس المجهول الهارب

المعجزة الذى يلون الحياة بلون الشجرة ذلك " الأخضر الجميل " الذى يدعونه فى المعامل " كلوروفيل " ويتصورون أنهم عرفوه بذلك .. ونسميه نحن بنفس البساطة والتجريد – الموهبة .. وكأننا بذلك عرفنا الإبداع وسره ومعجزته الخلاقة غير القابلة للتجريد أو التبسيط أو الفهم .

تلك المعجزة التى تعطى لكل شعب تراثه شعبيا أم غير شعبى .. وللشجرة ثمارها – مرّة كانت أو حلوة .. وللإنسان العادى وللإنسان الفنان بذور وثمار إبداعه .. على اختلاف اشكاله وأنواعه ..

●

نحو كادر أدبى واجتماعى شرعى لمهنة المخبرين الثقافيين !!

مهنة المخبر الصحفى مهنة محترمة ومعترف بها فى كل بلاد الله ويتمتع كثير من المخبرين الصحفيين بنفوذ اجتماعى كبير فى بلدانهم وإذا كانت هذه البلدان متقدمة وديمقراطية فيمكن للمخبر الصحفى أن يكسب الملايين من خبطة صحفية واحدة وأن يتمتع بشهرة كبيرة واحترام أكبر ...

فلماذا لا نجد نفس الشئ مع مهنة المخبر الثقافى ! ؟

سؤال يلح على منذ سنوات منذ ألقت بى الأقدار لأكون بحكم العمر والسلم الوظيفى من (كبار صغار الموظفين) فى وزارة الثقافة فأتاح لى هذا أن ألمس عن قرب ما يتمتع به أصحاب هذه المهنة مهنة

(المخبر الثقافى) من نفوذ إدارى وسياسى كبير .. ومع ذلك فهم ينكرون جميعا إمتهانهم لهذه المهنة فليس لها مكانة اجتماعية تليق بأثرها الكبير فى تسيير دفة الحياة الثقافية فى مصر .. لدرجة أصبح احترافك لهذه المهنة ضرورة بل مسوغ من مسوغات ترقيتك المريبة ، دون شك أو ريبة . لأنك تجد نفسك إن لم تكن مدرجا ضمن (الكادر) محاصرا مسلوب القدرة على الفعل وأحياناً على الكلام – إلا بجهد يومى يفوق طاقة البشر العاديين . لا يقدر عليه إلا بعض (النكدية) ذوى الدم البارد جدا أو الحامى جدا .. وهم فى الغالب ما يموتون ناقصى – عمر بسبب زيادة الحساسية أو نقصها على السواء !!

ما علينا أو قل علينا (على رأى شاعر صديق صعيدى !!) أن المطالبة بالاعتراف بهذه المهنة ووضعها فى موضعها الاجتماعى اللائق بنفوذها الإدارى والمالى والتخطيطى والتنفيذى هدف ثقافى قومى لتحرير العمل الثقافى ودفعه إلى الأمام ..

وأعتقد أن أول معوقات ذلك يتلخص فى أن الفرق بين المهنتين (المخبر الصحفى والمخبر الثقافى !) أن الأول قادر على نشر ما يعرفه وما يصل إليه من أخبار ومعلومات بل ويسعى إلى ذلك ويحزن إذا ما فشل فى إذاعتها على أكبر عدد من الناس .

أما المخبر الثقافى فهو حريص على العكس . فهو يضع ما يعرفه أو ما يجمعه من معلومات أمام جهة بعينها أو شخص بعينه – هو وحده الذى يستطيع أن يدفع له وأن يدفعه ويحميه !! وهو حريص على ألا تذاع تلك المعلومات إلا حيث وكيف يريد رؤساؤه أو آمروه .. وكلما نجح فى ذلك (على عكس المخبر الصحفى) زادت مكافآته وعطاياه .. وضمن استمرار الحال وتعمقت ثقة رؤساءه فيه !

وأعتقد أن مهنة المخبر الثقافى ازدهرت بعد قيام ثورة 23 يوليو خاصة بعد أن ازداد إتجاه الثورة نحو ثقافة أعم ، وتعليم أوسع نطاقا . فتعلم الأميون القراءة وزاد عدد الكتاب والأدباء .. (والحكاية زاطت) وأصبحت أكبر من قدرات المخبرين العاديين فالألسنة طولت والأفكار تنوعت ، فظهرت مهنة المخبرين الثقافيين فى البداية لخدمة أغراض بعض المثقفين (الثوريين) الكبار ذوى النفوذ ثم رأت الدولة أنها الوسيلة المأمونة لتصبح لها عين ترى كل ما يجرى ، وأنف يشم كل ما يحدث خاصة وسط التيارات المعادية والمقلقة للراحة وأغلبها له صلة بالحمى الثقافية والفكرية .

فاعتمدت تلك المهنة ووجدت فيمن دربوا فى حظائر بعض المثقفين الرسميين الكبار خميره يمكن عن طريق مساندتها وتسمينها وتفريخها أن تكفى للتغلغل فى كل التجمعات الثقافية إدارية أو أكاديمية أو جماهيرية !!

وجاءت فترة كان المخبر الثقافى يخجل من مهنته ويخفى كل علاقة بها ولكن الذين استطاعوا التغلب على هذا الخجل تخلصوا من الارتباك وأسفروا بل وتفاخروا بذلك ..

فقد تجذرت ، صارت مهنة مربحة جالبة للنفوذ وللترقى وللبعثات الدراسية والسفريات والبدلات بل وأصبحت مستندا للمشاركة فى اللجان الصورية الكثيرة التى تدين بالولاء إما لجهاز غير ثقافى فى الغالب الأعم أو لرئيس العمل الذى يكون غير مثقف فى الأعم الغالب !.

وهكذا وصلنا إلى ما وصلنا إليه من هم ضارب !!

وصار من الضرورى أن نعترف بضرورة رفع المهانة عن هذه المهنة .. وعمل كادر خاص بها والتسوية بين مكانتها الاجتماعية والثقافية والخلقية وبين نفوذها المالى والادارى .. وإلا فإن الوضع سيبقى على ما هو عليه بل وسوف يزداد عدد المهرجانات المزيفة والمجلات المجففة والسياسات الحلزونية وقلة الحساب على الخطط التى لا تنفد .. والرغبة الدائمة لضمان هدوء المستقبل بإهدار كل إمكانيات الحاضر الثقافية .. ورفض كل تطوير خوفا من التغيير !! لأن العادة جرت على اختيار المخبرين الثقافيين من بين أنصاف الموهوبين أو عديمى الموهبة فى أكثر الأحيان .

ولذا فهم يحسون أنهم يتمتعون بنفوذ ليسوا مؤهلين له .. وأن مواقعهم أكبر منهم فيحيطون أنفسهم بمن هم أقل موهبة منهم ، ليمارسوا عليهم بعض الإمكانية والمصداقية ولأنهم يحسون إحساسا أليما فاجعا كإحساس من يبنى مكانته على رمال متحركة . فيعمدون دائما لإبعاد الموهوبين دفاعا عن نفوذ ثقافى يستند إلى كل شئ سوى الثقافة فى مجال لا مبرر للوجود فيه إلا أن تكون مثقفا بالفعل ومبدعا بالضرورة!

- قال لى أحدهم مرة فى لحظة غفلة أو صفاء ..
- لا تسأل لماذا ؟ (وكنا نتحدث عن المكافآت التى يتمتع بها من لا يستحقها) أن البعض يكافأ على أشياء لا تعرفها من خلال أشياء تعرفها !!

فعرفت ساعتها السر فى كثرة المهرجانات والاحتفالات والمؤتمرات التى لا قيمة لها .. والتى تهدر فيها الأموال دون محاسبة أو اهتمام بالنتائج ..

وتأكدت أنه قد آن الأوان لعمل كادر خاص وممتاز لمهنة المخبر الثقافى حتى نعطى لكل ذى حق حقه .. وحتى لا يخجل أحد ولا يتخفى وتصبح الأمور طبيعية فى عصر لا سرية فيه وحتى ترفع أيديهم عن العمل الثقافى أكاديميا كان أو جماهيريا .. كلاسيكيا كان أو معاصرا .. إداريا وماليا كان أو نقابيا .. فهم أيضًا أبناء لهذا الشعب ولهم الحق فى الاحترام كمخبرى الإعلام ..

وعلى الله قصد السبيل !!

●

الثعالب فى حديقة الأطفال

الكتابة للأطفال فى مصر هى إحدى العجائب والمصائب .. التى تتفاقم يوما بعد يوم .. ويتدنى مستواها عاما بعد عام .. لان ما يبنى على الباطل يظل باطلا .. وما شيد على الرمال .. مصيره وإن طال الزمان إلى زوال ...

وحديقة الأطفال فى مصر مليئة بالثعالب المهندمين والذئاب المبتسمين والبنات الرقيقات من الصبايا أو العجائز المتصابيات .. غابة وإن بدت زهورها ملونة وساحرة إلا أنها سامة وقاتلة .. وكل من يعمل فى هذه الحديقة يعرف كل الحقائق عن نفسه وعن الآخرين . الكل يعرف المصادر التى ينتهب منها النهابون .. والزوايا والخفايا التى تعقد فيها الصفقات المريبة والاتفاقات والمساومات والأكاذيب .. فى مأمن من العيون!

ومصيبة الكتابة للأطفال فى مصر أنها أكثر أنواع الكتابة أمنا وسلاما .. يستطيع أن يباشرها دون رادع أو وازع كل من يعرف القراءة بلغة أجنبية أو محلية . وكل من يمتطى منصبا يمكنه من عقد الاتفاقات مع أصحاب الشأن من الموظفين أو الناشرين داخل أو خارج الحدود فى الحلال ، أو يعرف كيف يروج لمعاناته وتضحياته بسبب إصراره على خوض الصعب لخدمة أبناء ومستقبل الشعب . ويا حبذا لو كان قد جرب أن يكون كاتبا ولو فاشلا للكبار .. لأنه بذلك سيتمتع بحصانة ساقط الابتدائية القديمة ..

المجال الأدبى والفنى الوحيد الذى تسمع فيه (كتابا) يتساءلون (ماذا تريدون منا أن نكتب ؟) بل وأكثر من ذلك .. إنهم دائما يطلبون من غيرهم أن يعلمهم كيف يكتبون وهم يتمسحون كالقطط وكأن الكتابة مثل صناعة (الطبالى) و (القباقيب) كله على ذوق الزبون ..

بعضهم يظن أن المسرحية هى زيادة (جرعة) الحوار بين الشخصيات وبعضهم يتصور أن الخيال ضرب من الكذب .. ومعظمهم يتصور الفكاهة والروح المرحة نوعا من تخفيف الدم بالماء أو بالبلاهة ومنهم من يعتبر أن الكثرة تغلب الشجاعة أو يمطر إنتاجا أسبوعيا على طريقة إغراق الأسواق بالبضاعة أو على سبيل أن الكثرة خير من الندرة حتى فى الفن الذى هو أخطر مجالات التاثير على وجدان وعقل الأمة القادمة .. وكل ذلك يتم فى الظلام بلا نقد حقيقى يلقى الضوء على جماليات اللغة المكتوبة للأطفال لا على شكلياتها .. أو ينير الظلمة حول من يحلقون على أجنحة الخيال المبدع وروح المرح وذكاء القلب وعمق البصيرة وبراءة الطفولة وطزاجة الأفكار وإعجاز الرؤيا التى يجب أن تتوفر فى أدب الأطفال الحقيقى والنادر وسط ركام الفجاجة والافتعال ..

أعتقد أنه قد آن الأوان لكى ترحل الثعالب وبنات آوى .. عن حديقة الأطفال .. ولن يحدث هذا إلا بمواجهة حاسمة بكثير من الصدق وقليل من الضوء .

فى ظل الكذب تأمن الثعالب وفى النور لا تعيش الخفافيش .

●

تعليق على هامش البلاغ

نشرت الأخبار يوم الخميس الماضى (بلاغا) للسيدة (سميرة عبد العزيز) ضد الفنان (حمدى أحمد) وجهته إلى نقيب المهن التمثيلية و (ليس للمباحث العامة أو غيرها من جهات الأمن أو الرقابة أو الضبطية القضائية !!) .. تطالبه بالتحقيق فى أقوال وآراء نسبتها للفنان القدير قالها فى حفل أقامه الحزب الناصرى الوحدوى (باليمن) تكريما لزوجها كاتب فيلم (ناصر 56) تقديرا من الحزب للفيلم وللكاتب وللزعيم .. واعتبرت السيدة / سميرة ما قاله الفنان حمدى من آراء فى نظم التعليم والعلاج بعد (ناصر) تجاوزا يمس وطنيتها وتشويها لسمعة بلدها التى هى على حد علمى وطن وبلد حمدى أحمد أيضاً – وإن كانت لم تقترح فى بلاغها العقاب الذى يمكن أن يوقعه السيد النقيب ضد حمدى إذا ما أثبت التحقيق خيانته الفادحة للأمانة وللوطن .. !!

والذى أعرفه ويعرفه الجميع أكثر منى أن الفنان حمدى أحمد شجاع ويستطيع أن يعلن آراءه داخل الوطن بنفس الشجاعة التى أعلنها بها خارج الحدود . فهو مواطن مسئول حملته جماهير دائرته يوما ما إلى مجلس الشعب . وهو عضو قيادى فى حزب معارض يقول ما يعتقده بنفس الشجاعة مادام يعتقد أنه الصواب وقد دفع ثمنا لشجاعته ومواقفه الكثير من العنت والمحاصرة والتجاهل الإعلامى .. بل ومن فرص العمل إلا فى إطار الحدود الدنيا والتى هى أقل بكثير مما تؤهله له موهبته وإلتزامه الفنى والفكرى ورفضه للابتزاز والإسفاف وعدم قابليته للانحراف .. منذ تألقه فى تجسيد شخصية (محجوب عبد الدايم) جعل الله كلامنا خفيفا عليه وعلى أمثاله وأبناء قبيلته وأهل بيته اللهم آمين !

ولست هنا أتعرض لما قاله الفنان القدير فى مجال تبرير حبه (لعبد الناصر) واعتبار نفسه واحدا من جيل مجانية التعليم .. أو افتقاده بعد (عبد الناصر) لمجانية العلاج فهو حر فيما يعتقد وقد نختلف أو نتفق معه ولكن هذا ليس مربط الفرس كما يقولون . إنما الكارثة الحقيقية تكمن فى الدوافع التى زينت للسيدة الفاضلة (سميرة عبد العزيز) أن تقيم من نفسها وصية على الآخرين ووقفت توزع صكوك الوطنية والغفران وجعلت من نفسها مبعوثة الوطنية المصرية للحفاظ على سمعة مصر من غدر أبنائها وقد كنت هناك فى صنعاء وسط حشد من أبناء هذا الوطن سياسيين ومفكرين وفنانين وشعراء .. وبصرف النظر عن الدوافع التى جمعتهم فى صعيد واحد وعن النتائج التى تمخض عنها تجمعهم وقيمتها ..

يبقى لى أن أتساءل ، ومن حقى أن أعرف ، إلى أى جهة تقدمت السيدة حارسة الوطنية المصرية ببلاغها ضد قصائدى التى ألقيتها هناك . وهل سأحظى بشرف النشر العلنى أم أنها ستقدم تقريرها سرا إلى اتحاد الكتاب أم وزارة الثقافة أم لجهات أخرى كى يطمئن قلبى! .. وكذلك لأسأل لم لم تتقدم ببلاغ مماثل ضد الحزب الذى استضافها فى ذلك المهرجان وشرفها بتمثيله باعتبارها ناصرية وقد حمل معه إلى أرض اليمن مئات النسخ من (جريدته العربى) وهى جريدة حافلة بالآراء المطابقة لآراء الفنان (حمدى أحمد) وبالانتقادات التى تتجاوز شجاعتها شجاعته وإخلاصها ووطنيتها إخلاصه ووطنيته المشكوك فيها .. أم أن السيدة (سميرة عبد العزيز) (حتعمل حساب العيش والملح مكتفية بحمدى أحمد ككبش فداء) .

ما هذا يا حضرات الفنانين المحترمين .. ونحن لم ننس بعد سعى البعض منكم لاستعداء وزارة الداخلية يوم ذهبوا يرجون الوزير أن يفرض رقابة على الكتب والكتاب . بل وتطوع البعض ليزين له رفع السيف مرة أخرى لقطع رأس حرية الفكر تحت ستار الحفاظ على سمعة الفن والفنانين التى فرط فيها أصحابها كما نشاهد كل يوم فى مسلسلات الفضائح .. وأبطالها من الجاى والرايح !!

لماذا يظن البعض أنهم من أولياء الأمور ومن الحراس الذين من حقهم رفع سيوف التجريم والتحريم باسم مصر .. لأن آراء غيرهم تتجاوز فهمهم للديمقراطية وتفوق قدراتهم على تحمل مسئولية الوطنية والحرية .. ما الفرق بين هذا البعض وبين أولئك الذين يدعون أنهم وحدهم هم أصحاب الدين الحق وأنهم وحدهم حزب الله .. وما الآخرين إلا كفار وملاحدة ! ما الفرق ؟ ! .. سوى صيغة الشعار الذى ترفعه محاكم تفتيشهم وما إليه يتصدون !!

إن ما أقدمت عليه السيدة الفنانة لا يمس فنانا قديرا نعتز به فقط . وإنما هو يمس بشدة حريتنا وقدرتنا على تحمل مسئولية آرائنا .. ويمس وطنيتنا أيضاً التى مضى العهد الذى كان البعض يظن أنه

يملكها ويوزعها كيفما شاء .. لم يعد من حق أحد حتى وإن كان مدللا من الدولة أن يقيم حدودا للحرية وللوطنية تجاوزناها وتجاوزها الوطن بعد تضحيات جسيمة بذلنا فيها من الدم والدموع ومن سنوات العمر لكى يصبح من حقنا تحمل مسئولية انتمائنا لهذا الوطن برحابة أفق وفهم حقيقى للوطنية وللحرية .. أما التشهير واستعداء الدولة والجماهير ضد من نختلف معهم فهو أمر من تراث الماضى .. ولله الحمد .. أن أصبحت التقارير توجه إلى (النقباء) المنتخبين لا إلى (نقباء) البوليس علنيين أو سريين ..

وقانا الله وإياكم شر كل التقارير علنية أو غير علنية .. وخاصة تلك التى تزعق رافعة سيف الوطنية كى تطعن الحرية !!*

*أرسلت هذا الرد إلى السيد رئيس تحرير الأخبار فى حينه ولكنه لم ينشره . عادى !!

التفرغ من الشمولية إلى التنوع*

التفرغ فى حقيقته (منحة) تهبها الدولة .. أى دولة .. لعدد من المبدعين من أبنائها وفق شروط معينة تقننها لينتجوا أعمالا فنية ، ترضى عنها أو تحتاج إليها ، وفق فلسفة الحكم . وتقوم بتقدير ذلك عن طريق الأجهزة أو اللجان التى تفحص وتمنح وفق ذلك أو تمنع .

وهو نظام من ابتكار الانظمة الشمولية ، سواء كانت شمولية معادية للشعب أو تؤكد انحيازها لمصالح الجماهير .

وعادة ما استخدم نظام المنح فى تلك النظم لإرضاء البعض أو حشد الطاقات المبدعة خلف نظام الحكم والترويج لمنطلقاته وأهدافه .

وكانت نظم الحكم تلك على اختلاف درجات انفرادها بالسلطة تمارس فى غالب الأحيان تناقضا بين منح بعض من أبنائها مميزات التفرغ للإنتاج الأدبى أو الفنى ، وبين قهر زملائهم أو سجنهم أو حتى اغتيالهم . لأن الحرية كل الحرية للشعب !! أو للطبقة أو للحزب ولا حرية لأعداء الشعب ..

وقد ظل هذا النظام معمولا به فى بعض الدول رغم تغير الانظمة وتبدل اللافتات .. والأمر الذى لا شك فيه أن من المظاهر الحضارية أن يهيئ المجتمع المعاصر للموهوبين من أبنائه فرصا للإبداع فى حرية دون قهر أو ضيم أو ضيق فى الرزق أو الفكر ! .

ومن هنا يبقى أن ننظر لفكرة التفرغ الآن وعلى ضوء المتغيرات الداخلية والخارجية نظرة إيجابية وأن نتمسك بحق الأدباء والفنانين فيها .. لأنه فى ظل سياسة الخصخصة التى أصبحت (مودة) العصر حتى لوسائل الإنتاج الثقافى .. وتسييد قوانين السوق حتى على الفكر والثقافة يصبح التمسك بهذا الحق الباقى فضيلة ومكسبا لكل أنصار الفن والإبداع فى مواجهة ظروف يزداد ضغطها على قدرات الفنانين والمبدعين ، فى مواجهة صغائر الحياة اليومية ، وانفلات أسباب الرزق واتساع أفاقه وعائداته من كل السبل الحلال والحرام ما عدا سبل الإبداع الفنى والأدبى الحر والشريف .

وأعتقد أن الدفاع عن فكرة التفرغ فى حد ذاتها أمر واجب ومشروع ، على كل من ينتمى للثقافة والمثقفين .. ولذلك كان الذين انتقدوا سياسة التفرغ خالطين بين بعض الأخطاء أو الملاحظات وبين فلسفة التفرغ وعازفين على نفس اللحن المعادى للأدب والفن الذى يدعو لإجهاض الفكرة من أساسها ويعاملونها

على نفس المستوى الذى تعامل به وزارة المالية الأمر من أساسه كدعوة للبطالة وأكل ومرعى وأهداف وهمية وغير ذلك من نغمات نشاز تتخفى تحت دعوى الإصلاح والحرص على المال العام (!!) .

ولذلك أدعو المبدعين أنفسهم للتمسك بالفكرة وتغيير نظرتهم إليها وفق معايير جديدة .. من أهمها الحرص على حرية الفنان المبدع المتفرغ وعدم إلزامه بحدود فنية أو فكرية تفرضها أى سلطة وأن يحرص هو بنفسه على ألا يقع فى هذا المأزق وهو وحده القادر على السيطرة الحرة على مساحات إبداعه وهو القادر على امتلاك حريته لتجاوز السائد من الإبداع حتى من إبداعه هو الفكرى والفنى

إن الحرص على كرامة الفنان ينبغى أن يكون واجبا على كل الأطراف سواء كان الجانب المانح الذى يجب ألا يتخذ من المنحة ذريعة للمن أو للسيطرة أو حتى وسيلة للاحتواء والمجاملة قدر الإمكان !!

وعلى المبدع أيضًا الذى يجب أن يتقدم لها مرفوع الرأس واثقا من موهبته فقط باعتبار أن ـــ

- هذا المقال كتبته وأنا مدير عام إدارة التفرغ ونشره الأهرام فى حينه وكان دافعى م وصلنى من خطابات (التسول) التى يرسلها البعض إلى الوزير لتخطى لجنة التفرغ

رعايته واجب على المجتمع لا على السلطة ولا الحكومة . وأنها حق له ولذا وفى هذا الإطار عليه أن يتجاوز ذاتيته ومصلحته الضيقة والأنانية فى حالة عدم حصوله عليها . فيتجنب إهانة نفسه أو إهانة من حصلوا عليها أو النيل منهم قبولا بأبسط مبادئ الديمقراطية وحقوق الاختلاف .

خاصة وأن الأمر الآن يحاول تجاوز النظرة السياسية الضيقة ، إلى نظرة أكثر شمولا نظرة مجتمعية مدنية ، حلم بالتعددية التى ما زالت وليدة إلا أن السعى لترسيخ قيمها وممارساتها واجب على كل المبدعين لأنهم الأكثر حاجة للتنوع والاختلاف بل وللصراع الفكرى الصحى بين الأفكار والأشكال الفنية ، دون قهر أو تسلط أو أنانية . لأن ذلك وحده هو بذرة التحول الديمقراطى ووسيلة الأكثر حاجة للرعاية لأنها وحدها المتاحة !.

●

طفل القرية المصرية

- هل تتفق احتياجاته الحقيقية في مراحل نموه مع ما تقره الكتب والبحوث النفسية الحديثة
- الظروف التاريخية التي مرت بالفلاح المصري مسئولة عن الواقع الثقافي في القرية
- ثقافة الفلاحين تشكل تيار الثقافة الأساسي الذي يفيض على شطآن النيل
- طبيعة العلاقة بين المثقف والفلاح .. والمسافة بين القرية والمدينة

*****

ماذا تعرف عن ذلك المخلوق (الغريب) الذي في لون التراب .. الذي يجري في حواري القرية ليل نهار كالأرانب البرية ويقفز فوق جسورها كالضفادع - ويتسلق كالسحالي جدرانها الطينية - ويحفر كالحفار أكوام ترابها - ويغوص - كالأسماك السوداء مياه ترعها - ويتسلل كالفئران إلى حجراتها السرية ومخازن طعامها المغلقة - ويقتحم مع الليل أو في هدوء الأمسيات أسوار حدائقها كالثعالب والذئاب - ويصعد قمم أشجارها طول الوقت كالغربان ويسهر في خرائبها وقبورها كالضباع ... معفرًا بترابها المندي أمسياتها القمرية - مقيمًا أوده بلقيمات من خبز الحلبة أو الذرة المخلوطة والمش الفقير - مستشهدًا في النهاية وقبل أن يحقق حلمًا ما بين براثن وحوش البلهارسيا الأزلية والفقر المزمن .

ذلك الطفل الذي يصبح رجلاً صغيرًا في ظرف سنوات قليلة يحمل هموم الأرض ويعاني من غباء حمير السباخ وتسلخ جلده لوزات القطن الجافة وهجير شمس أغسطس وتتفتح عيونه البكر منذ الشهور الأولى على الضرب والحاجة والقذارة والمرض ... ويتلقى مبكرًا دروسه الأولى في الجنس على أيدي الحيوانات .. وما أن تتفتح بصعوبة أمامه أبواب المعرفة الحديثة المنظمة والعلمية حتى يتاح له أن يجد مكانًا في المدرسة وتقف أمامه حجر عثرة عنت المدرسين وزهقهم وقلة صبرهم وإرهاقهم الدائم وقلة ذات اليد عن أهله وحاجتهم الماسة لجهده الجسدي في سبيل قروش يمكن أن يضيفها عرقه لدخل الأسرة المحدود .. هل تعرف هذا الطفل حقًا ؟ .

مع ما يفترضه التعامل معه من ضرورة معرفة سبل التفاهم معه وهذه لا يمكن أن تتأتي لنا بدون معرفته هو شخصيًا - احتياجاته - تكوينه النفسي - مؤثرات نشأته -الاجتماعية والاقتصادية ... إلخ .

هل تنطبق على صديقنا هذا معطيات كتب ونظريات علم النفس وقواعد علوم التربية - واللغة والنمو.

وهل تتفق احتياجاته الحقيقية في مراحل نموه المختلفة مع ما تقرره الكتب والاجتهادات والبحوث النفسية الحديثة.

إن الإجابة على هذه الأسئلة بصدق تؤكد لنا ضرورة السعي إلى معرفة حقيقية بطفل القرية .. إننا قد نهتدي بنتائج أبحاث الأوروبيين والأمريكيين .. ولكن الواجب إلا نتجمد عندها وأن نكون على استعداد

دائم لاكتشاف أبعاد الصورة الخاصة جدًا وأن نكون أيضًا مستعدين للتخلص من مفاهيم أصبحت لكثرة تكرارها مسلمات لا تقبل الجدل .

الطفل والبيئة :

أكد الأب هنري عيروط اليسوعي .. صاحب أروع دراسة واقعية عن الفلاحين المصريين في دراسة قام بها أن الفلاح المصري الصغير منذ سن التمييز (ست سنوات) حتى سن البلوغ (الرابعة عشرة) يتمتع ببديهة حاضرة ويبدو موهوبًا أكثر من غيره في دول كثيرة ثم تبدأ هذه المواهب في التثاقل في سن الخامسة عشرة - ثم يشمله ركود وتجمد نتيجة للظروف الاجتماعية والبيئية التي تفرض نفسها عليه - فحين يصبح الفلاح الصغير مسئولاً يتحمل الأعباء القاسية الملقاة على عاتقه تحاصر قدراته العقلية ويبدأ يتعلم الصمت

ويكبت رغباته الحقيقية في سخط وحزن وألم دفين ويلجأ إلى الحيلة والمهانة في مواجهة تراث طويل من المظالم .

فإنه بالرغم من التراث الحضاري للفلاح المصري المتمثل في هذا القدر الكبير من الحكمة المتمثلة في أمثاله الشعبية وحكاياته وأزجاله ونوادره وطقوسه ومظاهر معرفته بالكون وتراثه العلمي والفكري والفني - فإن الظروف التاريخية التي مرت به كانت مسئولة بالدرجة الأولى عن الأوضاع المتردية التي نلمسها في الواقع الثقافي في القرية المصرية .. هذه الظروف التي عمّقها ابتداء من النصف الثاني من القرن الماضي .... كبار الملاك الذين نشأوا مع قوانين الملكية وقاموا بتعاون وثيق مع قوى الاحتلال بمحاصرة أي جهد من أجل تطوير القرية المصرية ثقافيًا ... لقد ظل شعار عباس الأول " الأمة الجاهلة أسلس قيادة من الأمة المتعلمة " هو الشعار الذي تمسك به كبار الملاك والقيادات السياسية الرجعية طوال تلك الفترة وذلك كي تظل الأوضاع المتردية والجهل يتراكم ليصنع ستارًا من الظلمة يخفي استغلالهم البشع للفلاح المصري .

فإذا كنا بصدد محاولة معرفة طفل القرية ، فهل يمكن أن يكون هذا سهلاً أو علميًا دون معرفة البيئة التي يتشكل من خلالها وعيه بالحياة وموقفه منها والتي يتربى خلالها عقله ووجدانه .

وكذلك مناقشة عدد من المسلمات الخاطئة التي تشكل أساس نظرتنا ومفهومنا عن الفلاح وبالتالي عن الطفل الفلاح .

فبالنسبة للأمر الأول فإن معرفتنا بالبيئة أساس لفهم ومعرفة الإنسان باعتبار وحدة الإنسان وعالمه وبمفهوم أن الصفة التي تميز الإنسان عن الحيوان هي دوره الإيجابي حيال العالم المحيط به واكتشافه لقوانينه وبذله جهده من أجل تغييره وإعادة خلقه عن طريق العمل الاجتماعي ... ولأن التغيير والتحول هما السمة الأساسية التي تميز علاقة الإنسان ببيئته وبذلك التأثير والتأثير المتبادل - وهذا يعني بالنسبة للإنسان - التاريخ - لأنه هو الإطار الذي يحكي قصة هذه العلاقة بالبيئة ودرجة التأثير والتأثر على مر الزمن ... ولذا ففهم الإنسان ومعرفته لا تكون إلا بوصفه ظاهرة تاريخية اجتماعية فهو لا ينفصل عن مجتمعه ذلك الذي لا يكف لحظة عن التغير والتحول .

والوسط الذي يحيط بالإنسان هو الوسط المادي والبشري أي أنه عالم يتكون من وجهين لعملة واحدة هما الطبيعة والمجتمع ... ولذا فإننا لا يمكن أن ننظر إلا على أساس كونه كائنًا اجتماعيًا ، وهذه النظرة لابد وأن تقودنا إلى رفض وجهة النظر السائدة والتي للإنسان وبالتالي إلى الطفل بوصفه ، كيانًا بيولوجيًا تحكمه مجموعة من الغرائز الأولية أو المطالب و الحاجات البيولوجية والتي تعتبر أن دور المجتمع بالنسبة للطفل قاصر على عملية التطبع أو التنشئة الاجتماعية نفرضها عليه من الخارج ... وعلى الطفل أن يستسلم لها مضطرًا تحت ظروف حاجاته البيولوجية التي تضطره باستمرار للخضوع والتواؤم مع المجتمع - وتصور أن مهمة التربية والتثقيف هي كمهمة السياج الواقي حول حيوان يمكن أن تجمح به غرائزه باستمرار - وعليه أن يضعنا نحن الكبار أمامه كمثل عليا يحتذيها بكل أخطائنا وجهامتنا ومع اعترافنا بخطأ وعدم سلامة ظروف تربيتنا نحن أنفسنا .

وهذه النظرة وهذا التصور هما في الحقيقة ما تستند إليه معظم الدراسات والمفاهيم السائدة عن الشخصية والحاجات ومراحل النمو .. إلخ . وهو في الحقيقة تصور خاطئ فحاجة الإنسان للإنسان .. أصبحت تراثا يرقى إلى مستوى الإرث البيولوجي .. بل ويعتمد على قدم المساواة بالنسبة للطفل مع المطالب البيولوجية ... وأكثر من هذا فإنه يمكن أن يتحكم فيها إذا ما توفر لها الحد الأدنى من الأشياء.

إن التطور يبدأ من علاقة الإنسان بالعالم المادي المحيط به ثم ينعكس من خلال هذه العلاقة على علاقة الإنسان بالإنسان أي على العلاقات الاجتماعية- وبالتالي على البيئة أو الوسط الذي تتكون من خلاله الشخصية الإنسانية .

فإلى أي مدى ينطبق هذا على صديقنا طفل الريف باعتباره إنسانًا ينشأ في بيئة ووسط له سمات وتاريخ وتحكمه علاقات اجتماعية - من اعتبار تلك العلاقة الجديدة بين الإنسان وبيئته.

إنسان البيئة الزراعية:

يمكننا تلمس السمات التي تسعى وراءها من خلال تعرفنا على تاريخ وطبيعة وتطور البيئة الزراعية التي يترعرع فيها طفلنا ويتشكل وتنبع أهمية هذه الدراسة من أن الفلاحين يمثلون الأغلبية الساحقة من سكان مصر ، فالقرى تضم أكثر من 60% من أبناء مصر فإذا أضفنا إليهم أولئك القاطنين في المراكز والبنادر والذين تصل نسبتهم إلى أكثر من 18% لأمكننا القول دون خشية الوقوع في خطأ كبير أن بين أبناء مصر هناك نسبة تصل إلى الثمانين % تعيش في بيئة حضارية ريفية – وهذا بالإضافة إلى عدد كبير من القاطنين في الحضور ينتمون إلى أصول فلاحية مباشرة تنعكس على قيمهم وتصرفاتهم واتجاهاتهم النفسية.

أضف إلى ذلك أن الزراعة مازالت حتى الآن وبرغم التطور الصناعي تشكل الجزء الأكبر من مصادر الدخل القومي وأن حجم العمالة في القطاع الزراعي يقترب من الأربعة ملايين من ضمن 5 ملايين هي حجم العمالة في مصر.

بالإضافة إلى أن الزراعة المصرية والمجتمع الزراعي المصري من أقدم المجتمعات الزراعية في العالم إن لم يكن أقدمها على الإطلاق - وحضارة الفلاح المصري هي أكثر الحضارات إيغالا في التاريخ ... وتنعكس أيضًا في تكوين أهلها كل الصفات الملازمة للإنسان الزراعي (إن صح هذا القول) .

ومن كل ما سبق يتبين لنا أهمية دراسة بيئة طفل القرية وإن كان علينا أن ننبه إلى خطأ كثيرًا ما يقع فيه المثقفون عندما يتعرضون للحديث عن أو دراسة المجتمع الريفي وهو خطأ النظر إلى الريف من الخارج أو بعبارة أخرى النظر إلى القرية من موقع حضري بعيد - أن هذا يجعل خطر وقوعنا في خطأ تجزئة الظواهر وفصلها بعضها عن البعض الآخر دون اهتمام بتقصي الأسباب الموضوعية لهذه الظواهر والبحث عن علاقة كل منها بالأخرى وتأثيراتها المتبادلة والمختلفة بعضها عن البعض الآخر وانعكاس الواقع المادي المكون لها في مساره وتطوره على مسارها وتطورها ونضرب هنا مثالاً ظاهرة تشغيل الصغار وانعكاس ذلك على نسبة التسرب من المدارس وتفضيل الآباء لتشغيلهم في الحقل وإصرار الكثيرين على زيادة النسل وزيادة

غير محدودة وعلاقة هذه الظاهرة بنمط الإنتاج الزراعي المتخلف والاعتماد على العمل اليدوي ووجود كثير من العمليات التي لا تحتاج إلا لجهد الصغار لإتمامها بطريقة اقتصادية كذلك علاقة ذلك بانخفاض الدخل وسعي الأسرة لزيادة دخلها اعتمادًا على أجور الصغار.

كذلك يمكن أن يوقعنا النظر إلى القرية من الخارج إلى خطأ آخر وهو المبالغة في تعميم النتائج الجزئية وكأنها حقائق تقبل التعميم كأن ينظر للفلاح وكأن له صفات وسمات اجتماعية ونفسية مطلقة وثابتة لا تتغير من مجتمع لآخر وفي هذا إنكار لفعل القاعدة العلمية التي لا يمكن إلا أن يكون نتيجة ومحصلة لظروف بيئته المادية - وعليه فإن عاداته وتقاليده ونظمه كانت باستمرار مختلفة من مجتمع لآخر حسب ظروف المجتمع المادية .

وإن كان هذا لا ينفي أن هناك بعض السمات المشتركة تجمع بين المجتمعات الريفية .. فأهل الريف يشتغلون بالزراعة في كل مكان وهناك بعض السمات تتعلق بنمط الإنتاج الزراعي قد تصلح مدخلاً لفهم بعض ظواهر المجتمع الريفي مع عدم إغفال الاختلاف ما بين مجتمع وآخر لأن أسلوب الإنتاج الزراعي نفسه يختلف من مجتمع لآخر حسب درجة تقدم هذا المجتمع ماديًا ... وحسب طرق الري والاعتماد على النهر أو المطر أو طبيعة الأرض ودرجة خصوبتها ونوعية العلاقات الإنتاجية السائدة ودرجة التطور تكنولوجيًا .

وقد أدى أسلوب الزراعة في الريف المصري بالفعل إلى عدد من الآثار الاجتماعية - زيادة تماسك الأسرة لسيادة نظام الإنتاج الأسري ... والتمسك بالتقاليد نتيجة لطبيعة الحياة في القرية ودرجة نموها الحضاري - وزيادة الخصوبة وعلاقة هذا بما سبق أن قلناه حول الدخل وضرورة تشغيل الأطفال ... وبدائية وسائل الإنتاج ولدت عددًا من المفاهيم القدرية وإيقاع الحياة خلف عدم الإحساس بالوقت ... والثبات الظاهري أمام المتغيرات وسرعة إيقاع العصر.

وهذه الظواهر هي ما تجعل البعض من المثقفين وأبناء المدن يتبنون كثيرًا من المفاهيم المشوهة والخاطئة عن إنسان الريف وكثير من المشتغلين بثقافة الطفل يحملون هذه الأفكار الخاطئة التي تنعكس بالطبع على أسلوب تعاملهم مع الريفيين ... وعلينا أن نتخلص منها إذا ما أردنا أن نؤثر في الفلاح الصغير بالتعامل معه من منطلق صحيح وبفكرة سليمة عنه.

فكثير منا يتصور أن المثقفين وأهل الحضر أرقى ثقافة من أهل الريف وأكثر تقدمًا من الناحية الثقافية - ولا يحتاج هذا القول لمجهود كبير لدحضه فإن ثقافة الفلاحين هي التي تشكل تيار الثقافة الأساسي الذي يفيض على شطآن نهر النيل ويغمر حتى الياقات البيضاء ... ولا تحتاج حقيقة أن خبرة الفلاح ببيئته وقوانينها تقييمًا سليمًا يفوق معرفة الكثيرين من أبناء الحضر للقوانين التي تحكم بيئتهم مما يوقعهم كثيرًا في الشعور بالغربة وفقدان التوازن ... الخ التي تدل في روحها العامة على فهم عميق للإنسان وللحياة.

وأكثر من ذلك فإننا حين نقارن خبرة طفل في السادسة يعيش في القرية بخبرة طفل في نفس السن يعيش في المدينة في بيئة متوسطة فإننا سنكتشف بسرعة أن طفل القرية يحمل خبرة رجل صغير بسبب معرفته بالكثير مما يدور حوله وما يراه من ظواهر طبيعية أو اجتماعية أو عمليات زراعية أو حيوانات أو معرفة بالجنس والعلاقات بين البشر ومختلف جوانب ومظاهر بيئته .

بالإضافة إلى قدرته على استعمال يديه في كثير من الأعمال ... وإذا كنا نؤمن بدور اليد في تطوير مخ الإنسان ودور العمل الإنساني في تطويره فسنعرف مدى تأثير استعمال اليدين بمهارة في كثير من الأمور التي تواجه طفل القرية على مهاراته وذكائه ونموه العقلي مقارنًا برفيقه ابن البيئة الحضرية.

إن أي طفل قروي يصنع لعبة بنفسه وما يصاحب هذا من تدريب يدوي وقدرة على التخيل انه يصنع آلات ري من البوص ... ويشكل عربات من الحطب الجاف ويستخدم لبن الجميز كوسيلة لزيادة تماسك عجلات عرباته الطينية وإلى جوار ذلك يقوم بالكثير من العمليات الزراعية المساعدة في الحقل فيسوق حمير السباخ ويسقي الماشية ويقودها إلى حظائرها أو إلى الرعي ... ويعلفها ويجمع القطن أو الدودة ويراقب الساقية - ويشاهد الحيوانات وهي تمارس الجنس فلا يفزعه هذا ويشترك في السخرية من كثير من الظواهر والأحداث مع الكبار بحكم مشاركته اليومية لهم .. المهم أنه داخل إطار بيئته ومعطياتها يعيش حياة (عريضة) مع وضعنا في الاعتبار كافة معوقات النمو الجسماني والعقلي من أمراض وسوء تغذية وأمية وفقر بالإضافة إلى الإشارة الشديدة الذكاء والتي لها من الصحة جانب عظيم تلك التي أوردناها عن الأب هنري عيروط اليسوعي في البداية .

وهناك مقولات أخرى يطلقها الكثيرون من المشتغلين بأمور تتعلق بالفلاحين .. فالعاملون في تنظيم الأسرة يؤكدون أن الفلاح لا يقبل تغيير عقيدة آمن بها ... ورجال الإرشاد الزراعي يؤكدون كراهيته للعلوم الحديثة .. ورجال الشئون الاجتماعية يؤكدون رجعيته .. والعاملون بالفن والثقافة واثقون من عدم

تحرره وجموده ورفضه لأي جديد ويسدل الكثيرون بظواهر كثيرة لإثبات حصيلة خبراتهم ... وليس أكثر دلالة في رأيهم على رجعيته هو الموقف من المرأة ... ونحن نقول العكس ...

فليس أكثر دلالة على خطأ مفهومهم عن الفلاح وقصور رأيهم فيه من الموقف من المرأة ... فإنه فيما عدا بعض الحقوق (الرجالي) التي هي في المدينة كما في القرية متوارثة منذ ظهور الملكية والانقسام الطبقي فإننا نجد أن الموقف من المرأة والبنت أكثر تحررًا منه في البداية - فالمرأة تعمل منذ آلاف السنين إلى جوار زوجها وهي أيضًا تشتغل في كافة الأعمال المتاحة ... وهي أيضًا أكثر استقلالية بحكم استقلالها الاقتصادي ... وصديقنا الصغير - لا يجد غضاضة طوال عمره في التعامل مع البنت على قدم المساواة خلال اشتراكهما سويًا في العمل منذ نعومة أظفارهما و اشتراكهما أيضا في كثير من احتفالات البيئة أو ألعابها .. إنها تسوق الحمير مثله وتتجرد من ملابسها في الترعة أمامه تتسلق الأشجار وتسهر معه عند زوايا الحارات تستمع إلى

الحكايات أو تقصها ويظل الأمر بينهما كذلك .. فيما عدا عند متوسطي الفلاحين وأغنيائهم عندما تتحول البنت إلى جارية وسلعة تبدأ رحلة تجهيزها وتسمينها وتحليتها حتى يحين أوان البيع.

أما بالنسبة لحكاية الجمود وعدم تقبل الجديد أو عدم قبول الفلاح للعلوم الحديثة ونتائجها .. فإنه يدحضها كثير من الظواهر التي نراها في انتشار ماكينات الري النقالي والثابتة وابتكارات الكثيرين من أهل الريف لتطويرها واستغلالها بشكل أمثل .. وترحيب أهل الريف بالكهرباء بل وسرقتهم للتيار باعتباره حقًا من حقوقهم . إن تجاهلتهم شبكات الكهرباء أثناء مرورها بهم.

أضف إلى ذلك ما تثبته نتائج امتحانات الثانوية العامة عامًا بعد عام ففي العام الماضي مثلاً انتزعت ثلاث مدارس ريفية نائية المراكز الأولى من أرقى مدارس القاهرة.

فهل بعد ذلك يمكن أن نتمسك بقول يريحنا عندما يعرض عنا الفلاح كبيرًا أو صغيرًا .. لأننا لم نعرف الطريق الصحيح إلى قلبه وعقله .. أم أن نعترف معًا بأننا في حاجة لمراجعة مفاهيم كثيرة تمنعنا من الاقتراب منه والتأثير فيه . متخلصين من كثير من الرواسب انغلاقًا من رؤية إنسانية واقعية واعية - لأسباب هذه الرواسب التي هي تتاح لمجتمع منقسم طبقيًا .. استنزفه اقتصاديًا وفكريًا وسياسيًا - الاستعمار العالمي والاستغلال .

وإننا لا يمكن أن نخطو خطوة صحيحة في هذا الطريق دون أن نبذل جهدًا حقيقيًا تدفعنا نية صادقة وإخلاص ورغبة في تحمل المخاطرة لاكتساب حب الفلاح والفلاح الصغير انطلاقًا من إيمان حقيقي بحقه في حياة آدمية .. وأنه بحكم الطبيعة والعدد والمستقبل إنما سيشكل مستقبل ثقافتنا اليومية.

المثقف والفلاح والمسافة بين القرية والمدينة :

هناك نقطة في الاتفاق عليها اختصار لكثير من الوقت والجهد وهي خاصة بإيجاد تعريف بطبيعة تلك العلاقة المفترض قيامها بين (المثقف) والفلاح - أو بين حامل (مشعل الثقافة) بحكم وظيفته أو

أحلامه .. وبين الفلاح .. ويستوي هنا أن يكون فلاحًا بالغًا أو طفلاً قرويًا نسعى إليه محاولين المساهمة في صياغة مستقبله .

إننا نطلق لفظ المثقف بشكل عام على كل من تلقى قدرًا من التعليم ويتسم سلوكه في الحياة بقدر من المدنية (هذا إذا ما تغاضينا عن القول بأن المثقف هو من يتخذ موقفًا من الحياة بشكل عام) .. على كل لسنا هنا في موقف من يبحث في تعريف المثقفين كما أننا اختصارًا للمناقشة أو تفاديًا للدخول في الاختلافات حول تعريف الفلاح أيضًا سنكتفي باعتبار الفلاح هو من يشتغل بالزراعة ويعيش في الريف – وهذا يجرنا إلى كثير من الظواهر التي نشاهدها ونلمسها من خلال عملنا اليومي مع الفلاحين ومنها - عدم الثقة والشك الذي يملأ قلب الفلاح حيال المثقف (الموظف) استنادًا إلى تراث سحيق من القهر والاستغلال والإفقار.

ومن ناحية أخرى نلاحظ الانفصال الذي سرعان ما يحدث بين الفلاحين وأبنائهم (المثقفين) الذين سرعان ما ينفصلون ويرحلون إلى المدينة أو يرحلون إلى طبقات أعلى ... أضف إلى ذلك احتقار الكثيرين من أهل المدن لنمط المعيشة القروية واعتبار العمل في الريف عقوبة وأمرًا عارضًا لابد من إنهائه بأسرع وقت ... وإن كانوا من أبناء المدينة الأصلاء فإنهم سيسلكون سلوك أحدهم وهو مستشار كتب في جريدة الجمهورية منذ عدة أسابيع يطالب بإنشاء عاصمة جديدة بدلاً من القاهرة كي يحتمي فيها أبناء العاصمة الأصلاء من زحف القرويين الأجلاف لقيمهم وأسلوب حياتهم - (وقذارتهم) .. وهذا القول على شذوذه فإنه يدل على مدى الجفوة التي تفصل بين المثقفين والفلاحين .. أو بعبارة أخرى أصدق الهوة بين القرية والمدينة . وبالنسبة لنا بيننا وبين طفل القرية ونحن هنا للقيام بمحاولة لتخطي هذه الهوة .. وعلينا أن نتنبه ونحن بصدد ذلك إلى أن مهمتنا ليست تعلم الأطفال ونقل المعارف والعلوم كما أنها ليست كذلك بالنسبة لطفل المدينة أيضًا وإن كان عملنا الثقافي يعتمد كثيرًا على هذه المعارف والعلوم كمادة له - إن هذه المهمة هي مهمة أجهزة التعليم بالدرجة الأولى . وعليها أن تستفيد بمعطيات الفنون والثقافة وتعليم الطفل جناحي عملية واحدة ، ومن ناحية أخرى - لا يجب أن نقع في خطأ أننا سنقرب المسافة بين القرية والمدينة أو بيننا وبين طفل القرية إذا ظننا أن عملنا الثقافي سيقتصر على إزجاء أوقات فراغهم أو تسليتهم .. وإن كان علينا أن نجعل المتعة والتسلية واللعب بعض وسائلنا إليهم فهدفنا هو في الحقيقة سيتحقق عبر عملية مزج بين كل تلك المهام فنحن سنستخدم أساليب ومعلومات العلوم الحديثة ونستفيد بأثر المتعة والتسلية واللعب للوصول إلى الهدف الأصلي وهو المشاركة في صياغة وجدان وشخصية طفل القرية .. والتأثير فيه باكتساب ثقته وهي مهمة صعبة باعتبار أننا فشلنا طويلاً في إكساب ثقة الفلاح الكبير فما بالك وهو يقف في منتصف المسافة بيننا وبين ابنه وعلينا أن نبذل الجهد في سبيل الهدفين معًا .. إن أريد لنا أن ننجح أو على الأقل أن نسعى للنجاح على أسس سليمة بإثارة اهتمامهم بعلمنا شيئًا فشيئًا لنصل إلى مرحلة مشاركتهم لنا في صياغة شكل هذا العمل نفسه .. وهذا لن يحدث ببساطة ولكن أول أسلحتنا فيه هو فهمنا لعالمهم وبيئتهم دون حدلقة أو تعال متسلخين بالفهم العلمي الذي يؤمن أن شخصية

ووجدان الطفل القروي إنما هي انعكاس للواقع المادي الاجتماعي والاقتصادي الذي ينشأ ويتربى في إطاره وأن يتغير بدون تطوير هذا الواقع نفسه وتغييره وأنه لابد أن تواكب محاولاتنا لتنمية وتطوير ثقافة وسلوك الطفل القروي محاولات تطوير الواقع الاجتماعي المادي القروي نفسه .. وأي محاولة في غير هذا الإطار وبدون هذا الفهم مقضي عليها بالفشل أو على الأقل ستظل مجرد محاولة محددة الأثر غير قادرة على تحقيق نتائج ذات قيمة وهذا هو السبب الحقيق نفسه في أن محاولات كثيرة تبذل وجهودًا عديدة تقوم ولكنها تبقى محددة الأثر لأنها لا تواكب بشكل عضوي جهودًا فعالة لتغيير الواقع الاجتماعي والمادي لأطفال القرية المصرية .

الملامح الأساسية لواقع القرية المصرية :

يقول موريس هندس في كتابه (في البحث عن المستقبل) : " إن مصر عشية إصلاحها الزراعي سنة 1952 كانت اجتماعيًا أكثر تخلفًا من فرنسا عشية ثورتها في أواخر القرن الثامن عشر " فإذا جاء برنامج العمل الوطني ليقرر " إن أسلوب الحياة اليومية لفلاحينا الذين يكونون غالبية الشعب لم يلحقه تغيير حقيقي لا في وسائل وأساليب الإنتاج ولا في السكن والغذاء والصحة ولا في تحصيل العلم والثقافة ".

فإننا مع بعد الفارق الزمني بين الحالتين والذي يبلغ العشرين عامًا يمكن أن نتصور مدى فداحة المشكلة التي تواجهنا وتعقدها ويمكن أن نتصور – وقد نفشل- الجهود اللازمة لتخطي حاجز الزمن .. هذا الذي تراكم عبر قرنين من الزمان "

ولتجنب الدخول في كثير من التفاصيل سنورد عددًا من الملاحظات التي أوردها كتاب أو باحثون لهم ثقلهم في مجال دراسة الريف المصري مستندين إلى إحصائيات رسمية لنرسم ملامح الصورة الواقعية للبيئة التي ينشأ وينمو في رحابها طفلنا الفلاح .. لتكون عونًا لنا للوصول إلى ما طلبناه في البداية من معرفة البيئة وصولاً للإنسان ومعرفة بقوانين العلم وصولاً لبداية التغيير . ومعرفة بالواقع والحقيقة وصولاً للحلم...

يقدر عدد عمال الزراعة الذين يعتمدون على بيع قوة عملهم بحوالي ملايين عامل زراعي وهؤلاء يعملون حسب قوانين العرض والطلب وقد يتعطلون عددًا من الأيام يتراوح حسب المواسم الزراعية وكثرة الأعمال وإذا ما عرفنا أن قرار وزير الزراعة بجعل الحد الأدنى لأجر العامل الزراعي في اليوم 18 قرشًا للرجال ، 10 للأولاد وللنساء على أن تكون ساعات العمل في اليوم 8 ساعات (فتحي عبد الفتاح – القرية المعاصرة 249) فإن هذا يدل على المستوى الاقتصادي المتدني الذي يعيش فيه هذا العدد الضخم مع اعتبار أن متوسط أيام العمل لا يزيد بحال عن 180 يومًا – ذلك مع تغربهم عن أسرهم لفترات طويلة وما يسببه هذا من آثار نفسية واجتماعية بالنسبة لأسرهم .

تشير الإحصائيات الرسمية إلى أن 95.4 % من الملاك يمتلكون 5 أفدنة فأقل من بينهم 89% يملكون فدانًا فأقل بل إن النسبة بينهم تبلغ في بعض القرى حوالي 93-95% من مالكي أقل من 5 أفدنة .

وإذا عرفنا أن عددًا منهم يضطر لبيع قوة عمله بالعمل كأجراء عند الآخرين فإن هذا يعطي مؤشرًا للمستوى الاقتصادي الذي يعيش فيه هؤلاء .

(يعتبر المهندس سيد مرعي أن 3 أفدنة هي الحد الأدنى لما يجب أن تكون عليه حيازة أسرة مصرية متوسطة العدد)

سيادة نمط متخلف من الزراعة محاولات تجنبه حتى الآن مع ما يصاحب الأسلوب البدائي في الزراعة من موقف متخلف من الحياة نتيجة تعذر استخدام الأساليب العلمية والميكنة وما يصاحبها من تطوير .

بالرغم من قوانين تحديد الملكية إلا أن سيطرة العائلات نتيجة لروابطها العائلية وقدرتها على الاحتفاظ بمساحات شائعة حفظت لها السيطرة على الجمعيات والتنظيمات السياسية مما يغلق الباب أمام أي تطوير حقيقي لحياة الطبقات الدنيا من الفلاحين .

ظلت السلطة منذ أيام الفراعنة سلطة مركزية وظلت محافظة على هذا الطابع لأطول فترة مستمرة عرفها التاريخ بالنسبة للحكم المركزي في بلد من البلاد وهذا عمل على خلق تراث طويل من البيروقراطية يعتبر هو الآخر أكبر تراث من هذا النوع تحتاج لجيش من الموظفين المرتبطين بسلسلة هرمية وفي مصر بالذات علا شأن الموظفين .. انعكس في الأمثال الشعبية والحكايات (مثل حكاية أولاد الحرام وأولاد الحلال) وأمثلة إن فاتك الميري – ولما أنت أمير وأنا أمير. الخ

وقد حدث هذا لأن الحكومة كانت تملك وسائل الإنتاج الرئيسية وتتحكم فيها (الأرض – مصادر المياه) وأصبح هؤلاء الموظفين طبقة متناقضة المصالح تناقضًا جذريًا وحاسمًا مع طبقة الفلاحين .. وفي نصائح بتاح حتب لابنه (لا تكن كاهنًا أو فلاحًا أو جنديًا بل كن موظفًا يحترمك الجميع ويمتلئ بيتك بالخدم والحشم) .

فبينما نجد الملكية هي طريق السلطة في أي مجتمع فإن الوظيفة في مصر هي طريق الملكية والسلطة معًا .. وقد ظل الجهاز الإداري معاديًا للشعب وغريبًا عليه وأفرخ هذا التراث من البيروقراطية المستبدة والأجنبية في غالب الأحوال كراهية وخوفًا شديدًا من السلطة .

كما أن محدودية المساحة المعمورة وعدم وجود أي ملجأ لهارب أو ثائر على السلطان أورث الفلاح الهدوء والسكون والخضوع والصبر وروح السخرية المرة ، ونحن نلقي الضوء على هذا لما للعلاقة بين الموظف والفلاح من أهمية لأنها الوسيلة الوحيدة للتعامل بيننا وبينه ولذا لزم التنبيه للميراث السحيق من عدم الثقة هذا .. لنبني جسورًا للثقة على أسس جديدة .

التناقض الشديد وبعد المسافة الزمنية والحضارية الفاصلة بين القرية والمدينة التي يهمنا أن نشير كمراكز إدارية أو دينية فالمدن تحظى بالمركز الممتاز دائمًا لأنها مركز السلطة والموظفين والحكام وهذا خلق على امتداد التاريخ مجتمعين منفصلين تمامًا .. والعلاقة هي علاقة تسلط واستغلال من جانب المدينة .. ولفترة طويلة ظلت المدن مراكز إدارية طفيلية ليس لها دور في الإنتاج وإن كانت تحصل باستمرار على الجانب الأكبر منه في صورة ضرائب مادية وعينية .

وطبعًا لم تعد الصورة هكذا زيادة دور المدن في العملية الإنتاجية بظهور الصناعة وارتباطها بالمدينة وإن كان احتكار المدينة للمناطق الصناعية يعكس بشكل آخر أنانية خفية في الاستحواذ على رفاهية المدينة

الحديثة التي تصاحب الصناعة .. وما يصاحبها من خدمات تستحوذ المدينة منها على الجزء الأكبر فبالرغم من أن قانون الحكم المحلي يعتبر تقدمًا كبيرًا من حيث محاولته إشراك الأقاليم في حكم نفسها بنفسها إلا أننا نجد أن ميزانية مجلس المحافظة والمجالس المحلية الأخرى .. أتى من ضريبة الأطيان التي يدفعها الفلاحون أساسًا ومن الضرائب الإضافية التي غالبًا ما تفرض على المحاصيل ومع ذلك يسوء توزيع ميزانية المجالس المحلية بعكس استئثار المدن والمراكز وعاصمة المحافظة أي محافظة بأكثر من 95 % من الميزانية

المعتمدة .. وغالبًا ما تذهب غالبيتها على أعمال مظهرية كتجميل المدن أو بناء مقار فخمة والأمثلة عديدة .

الجانب الآخر للصورة :

ومع كل ما سبق فإننا لا يمكن أن نهمل تغيرات هامة طرأت خلال العشرين عامًا الماضية على حياة الفلاح المصري وعلى بيئته .. فالتوسع في المساحة المنزرعة – وقوانين الإصلاح الزراعي التي قضت في مجملها على كبار الملاك – وإن لم تقض على نفوذهم – وأتاحت الفرصة لتوسيع قاعدة الملاك الصغار ونمو الرأسمالية الزراعية وكذلك نمت الجمعيات التعاونية وتغير كثير من قوانين الأرض وتغيرت خريطة المحاصيل بازدياد المحاصيل الرأسمالية والتجارية .. وقد أثر هذا على الإنتاج الزراعي وعلى علاقات الإنتاج الزراعي وعلى علاقات الإنتاج ودفعت بالبيئة القروية دفعات كبيرة إلى الأمام .

إلا أن وسائل الإنتاج المختلفة وما يصاحبها من علاقات إنتاج متخلفة إنما تحاصر كل جهد حقيقي لتطوير هذه البيئة المادية وإحداث تغيير جوهري بها سعيًا إلى إحداث التغير المطلوب في تكوين ومستقبل الطفل القروي.

وهناك بالطبع أساليب لا شك أن تطبيقها يمكن أن يغير الصورة تمامًا بإدخال الأساليب الحديثة الزراعية والميكنة ووقفت التفتت وعلاجه وتصنيع الريف والعمل على تغيير علاقات الإنتاج القائمة على الاستغلال إلى علاقات قائمة على التعاون والمشاركة وإلى جوار ذلك وعلى نفس القدر من الأهمية رفع المستوى الثقافي ونشر الخدمات الثقافية ومحو الأمية .

وهذا يأتي بنا إلى جوهر المشكلة الكبرى التي تواجه العمل الثقافي لا للأطفال فحسب بل وبالنسبة للريف كله .

يقول برنامج العمل الوطني : " إن جانبًا كبيرًا من فلاحينا على الرغم من المجهودات الكبيرة التي بذلت في سنوات الثورة لا يزال يعاني من البطالة وانخفاض مستوى الدخل والأمية وسوء التغذية والصحة والقلق على الحاضر والمستقبل "

اتشكل الأمية أحد الملامح المشوهة للصورة بشكل يصعب المرور عليها مر الكرام ونحن بصدد الحديث عن جوانب ملامح البيئة التي تنبت الفلاح المصري الصغير .

الأمية والتخلف الثقافي :

فإذا صح القول أن التخلف الثقافي والحضاري المفروض على القرية المصرية إنما هو انعكاس لتخلف علاقات ووسائل الإنتاج الزراعي .. إلا أنه من ناحية أخرى يقوم بالدور الأكبر في تعطيل أي جهد لتطوير علاقات الإنتاج ووسائله .

و الأمية بنسبتها العالية والمتزايدة يومًا بعد يوم إنما تعكس الحالة البائسة التي يعيشها الفلاح المصري وتشكل قيدًا مانعًا من كل جهد إصلاحيًا كان أو ثوريًا ، والثابت أن مصر تقع ضمن مجموعة من الدول تعاني

من ارتفاع نسبة الأمية بين مواطنيها الذين تساوي أعمارهم أو تزيد عن 15 سنة وحسب دراسات قسم تخطيط القوى العاملة لمعهد التخطيط القومي وكما تشير إحصائيات الجهاز المركزي للتعبئة عام 70 فإنه من الممكن أن يطلق عليهم لفظ أميين تصل نسبتهم إلى حوالي 70.5% .. ولكن الصورة ليست بهذه البساطة ، فإن توزيع الأمية الجغرافي يعكس صورة أبشع بالنسبة للقرية فبالنسبة في عواصم المحافظات تصل إلى 39.2 % ونحو 56.8 في الحضر وحوالي 76.7 % في الريف وترتفع نسبة الأمية بين الإناث بصفة خاصة لتصل في الريف إلى 89 % .

(حامد عمار – في بناء البشر سرس الليان 1964).

ولابد أن تصدمنا نحن العاملين في المجال الثقافي هذه الحقيقة الرهيبة أن وسيلة الاتصال الأساسية لا يعرفها سوى 3 من كل عشرة في بلادنا .. بينما تصل النسبة إلى واحد من كل عشرة .

ويمكننا تصور مدى الخلل الموجود بسبب الأمية .. وخاصة تلك المرتفعة في القرية التي تعني أن الغالبية تفتقد إلى أهم وسائل الاتصال بالمجتمع وبين أحد الأسباب الرئيسية للعجز الذي نلمسه في تنفيذ الإصلاحات بالريف .. فما بالنا وهذا يمس عملنا مباشرة ، فإذا ما اعترفنا بنتيجة ذلك أنها مشكلة قومية يجب أن تواجه على هذا المستوى . يفاجئنا أن كل الجهود التي بذلت للحد من زيادة نسبتها لم تستطع أن توقف معدل زيادتها وهذا يرجع لأسباب أ:ثر صلة أو ذات صلة مباشرة وعضوية بأوضاع طفل القرية يوردها معتمدًا على إحصائيات وتقارير رسمية .

ومن هنا يتضح أن قضية التخلف الثقافي إنما هي قضية قومية وبالتالي فمشاكل الثقافة في القرية لا يمكن النظر إليها إلا على هذا المستوى وفي الدرجة الأولى ثقافة طفل القرية .. لأن كل الجهود ستظل قطرة ماء في بحر من الرمال في ظل كل الظروف التي سبق أن أشرنا إليها خلال الصفحات الماضية .

وعلى هذا .. فالحاجة ماسة إلى :

1. خطة مركزية شاملة ولتكن في إطار ذلك الشعار المطروح من مدة عن مصر سنة 2000 .. وعلى هذه الخطة أن توضع في اعتبارها كافة الظروف السابقة التي يعيشها طفل القرية الذي يمثل الأغلبية الساحقة لسكان مصر المستقبل والظروف التي تتحكم في تشكيل ملامح ثقافتهم وتكوينهم .
2. إن انتشار فورًا جهاز على النطاق المركزي يدعم بأعداد كافية من الباحثين الدراسة هذه الظروف ورسم

3. تزويد الجهاز المركزي لثقافة الطفل بالسلطات والصلاحيات التي تساعده على وقف أو الحد من الآثار السلبية والضارة بما يسود حياة أطفالنا الثقافية إلى حين وضع الخطة موضع التنفيذ .
4. إعداد كادر من الفنانين والتربيون القادرين على استخدام الوسائل البسيطة والأدوات الفنية لإنجاز مهمة ذات جانبين :
   - جمع وتصنيف وإعداد التراث الثقافي الشعبي من حواديت وحكايات الفلاحين .

- إعداد ما يصلح من إنتاج الشعوب الأخرى شعبيًا كان أو مؤلفًا للأطفال وصياغته وفقًا للأساليب الفنية المختلفة في تقديمه ليكون تحت أيدي القائمين على تقديمه.

وأخيرًا ...

إنه لا قصور وبيوت الثقافة وحدها ... ولا مراكز الشباب ولا المدارس تستطيع مع سياسة التشتت والتضارب القائمة حاليًا بقادرة على تغيير ملامح الصورة مع كل الظروف السابق شرحها والتي يعيش ويتربى في إطار طفل القرية .

وإنه لا يمكن أن نتصور أن طفل القرية يمكن أن يثقف عن طريق التليفزيون الملون إذا كان لم يشاهد فيلمًا في حياته .. ولا يمكن للسينما أن تلعب دورًا في تكوينه أو في صياغة عقله دون أن يرى مسرحًا للأراجوز في حياته ولن يستطيع مسرح الأراجوز البسيط أن يلعب دورًا في حياة طفل القرية ، الذي لم يقرأ ... أو لم ير كتابًا في حياته ولن يكون للكتب قيمة في تربية طفل لا يعرف القراءة ولا الكتابة أن تكون القراءة والكتابة ولا يمكن أن تكون القراءة والكتابة وسيلة لتثقيف طفل جائع أو شقي منذ نعومة أظفاره في الحقول والورش الصغيرة والتراحيل تلتهم جذوة ذكائه البلهارسيا والمرض والحياة الجافة .

إن تغيير الظروف الاجتماعية والاقتصادية والحضارية للقرية المصرية هو وحده السبيل لثقافة مؤثرة وذات قيمة لطفل القرية أو قل أنه وحده يعني ثقافة يجد نفسه فيها وتصور مستقبله ... ذلك الإنسان الذي يلون التراب الذي ينمو عليه ويمد جذوره في طينه بحثًا عن الشمس .

****

مجلة لأطفال الفقراء في مصر

0 لاشك أن صدور مجلة أطفال جديدة في مصر حدث كبير في حد ذاته يستحق كل جهد وعناء.

وطبعا صدور هذه المجلة التي تخاطب الأطفال المحرومين من القدرة أو ترف شراء المجلات يعتبر عملا كبيرا في حد ذاته وبشكل خاص إذا تحقق الوعي بمعنى صدورها لهذا الهدف .. وإذا ما وضح لنا لأى جمهور تصدر هذه المجلة ؟ وفى أي عصر وبأية إمكانيات !!

ولنسأل أنفسنا من البداية لماذا تعثر حتى الآن صدور هذه المجلة وقد كانت فكرة ملحة وضرورية منذ المؤتمر الأول لثقافة الأطفال .. أول ما يتبادر للذهن تلك الإجابة التقليدية – ضعف الإمكانيات وأنا أعتقد أنها إجابة لا يراد بها إلا تبرير وأد الفكرة من البداية والركون إلى راحة البال.

فإذا كان المثل المريح يقول :

- اطبخي يا جارية – كلف يا سيدي

فإن المثل المرهق والمتعب هو الذي يؤكد :

- على قد لحافك مد رجليك .

فلكل إمكانيات متاحة الشكل الفني والعمل المناسب إذا توخينا قيم الجمال والبساطة والحقيقة الإنسانية والموضوعية .

فلم يكن الفن ولا الثقافة ولا الجمال مرهون على طول تاريخ البشرية بالإمكانيات .

- لقد صنعت الأم الفقيرة عرائس ودمى لأطفالها بأقل الخامات قيمة .

وحكت لهم حكاياتها التي تمثلت فيها حكمة الشعب عبر العصور وابتكرت النساء وانشدن أروع بكائيات في العالم دون أن يتعلمن أو يفكرن إلا في الاستجابة للإحساس الفطري .. ومن خلال تلك الروافد البسيطة كان لنا أروع تراث شعري وقيمي بل وغنائي وملحمي .

فلننح جانبا حكاية الإمكانيات هذه .. لأنه في ظل الإمكانيات المتاحة يمكن خلق الجمال والقيمة حين تتوفر الرغبة الصادقة بلا عراقيل إدارية أو صراعات شخصية أو طموحات عشوائية !!

إنني أجيب إجابة أخرى عن ذلك السؤال الذي طرحته لماذا تعثر إصدار هذه المجلة من قبل؟ وأقول :

- إن كل شخص يطرح هذه الفكرة أو تطرح عليه هذه الفكرة سرعان ما يفكر في مجلته هو أو في المجلة التي تحقق تصوراته هو وأحلامه حول مجلة أطفال تنسب إليه .. هذا يريدها فاخرة تضع نفسها إلى جوار ما يصدر من مجلات وذاك يريدها مثل ما رآه في بلاد أخرى .. وثالث يخضعها لإمكانياته هو فنية كانت أو أدبية ورابع يتصورها وسيلة لتحقيق أهداف أخرى دون أن يضع في

اعتباره أن تكون الإجابة نابعة من متطلبات الواقع نفسه .. ودون أن نقدم الهدف الكلى العام على الأهداف الجزئية والشخصية والفردية .

ينبغي أولا وقد نحينا جانب الإمكانيات الكبيرة جانبا أن نتفق على بعض البديهيات والتي لا يجب أن نختلف حولها ..

أولا : مصر في حاجة إلى عشرات المجلات الموجهة للأطفال في مختلف المجالات ولمختلف مراحل السن ..

ثانيا : إن عددا ضئيلا للغاية يكاد يكون مخجلا إذا أحصينا عدد الأطفال الذين يتعاملون مع مجلة الأطفال .. أي مجلة أطفال بالنسبة لإحصاء أعداد الأطفال المصريين بما فيهم من يقرأون بلغات أخرى أو يعرفون طريق المجلات العربية .

ثالثا : إن جمهورا غفيرا من أطفال مصر لا يكاد يتعامل مع الأعمال المطبوعة خلاف كتب المدرسة .. بل وعلى الإطلاق .

رابعا : الهيئة العامة لقصور الثقافة لها أهدافها المعروفة من العمل الثقافي .. ولها جمهورها الذي تسعى للوصول إليه وتنويره وتطوير أساليب تربيته وتعليمه ! ولكنها تفضل المنافسة على نفس الشرائح من الأطفال القادرين .

خامسا : لن نستهدف الربح بالدرجة الأولى وإن كنا سنسعى على الأقل لعدم الخسارة الكبيرة باعتبار أن في مقدمة أهدافنا هو الخدمة الثقافية على اختلاف أشكالها وتوجهاتها ومن هنا ومن اتفاقنا على هذه البديهيات بالإضافة إلى الحكمة التي صكها شعبنا قائلا وموصيا أن نعطى العيش لخبازه .. أستطيع أن أقترح بعض الملامح لهذه المجلة :

1- **نحن لن ننافس مجلات أخرى ولن نقلد ولن نكون موضع مقارنة مع أي من المجلات القائمة .**
2- **إن جمهورا عريضا من البسطاء يتشوق أن يجد بين يديه مطبوعا يحقق له المتعة دون إبهار ويقدم له الحقيقة دون تزييف أو تغييب .. وينمى حسه الجمالي والقيمي والمعرفي دون تعقيد وعلينا أن نتوجه له مباشرة .**
3- **إننا في مصر بكل ما تعنيه الكلمة من ماض وحاضر وموقع وما يحيط بثقافتنا من رياح وعواصف وخطط تسعى لقطع جذورنا ومسخ شخصيتنا وتأخيرنا عن مواكبة العصر .**
4- **التأكيد على العلاقة الحميمة بين المصري والأرض وبين الحاضر والماضي وبين العقل والمستقبل .**
5- **الجمال يصبح أبهى بالبساطة والحقيقة تصبح أوضح بالصدق .**
6- **أصبحنا في القرن الواحد والعشرين ولم يعد هناك مفر من اجتياز أبوابه والانفتاح بكل العقل والقلب على متطلباته دون أن ننزع أقدامنا من طمى وادينا وروحه .**
7- **القيم الإنسانية والروحية والدينية واحدة عند كل أبناء هذا الوطن دون تفرقة أو تمييز رغم اشتداد رياح العنصرية والتعصب لأن لنا في جوهر أديانا وتاريخنا منذ ابتكر المصري الفأس وزرع هنا الحضارة الإنسانية ليزدهر التسامح والفن والجمال – لنا في ذلك ملاذ وحماية .**

ومن هنا أقترح أن تهتم المجلة بالمحاور الآتية وأن تعتمد عليها وتعتمدها سواء في المادة المقروءة أو المرسومة .

- **البساطة التي هي قرين الجمال في الشكل والطباعة ومن هنا يمكن أن يكون الغلاف في أربعة ألوان بينما المتن على ورق أبيض ولون واحد أو على ورق ملون كالبرشمان مثلا .**
- **الحجم حجم المجلة العادية وفى 16 صفحة + 4 غلاف في البداية حتى يمكن تحقيق المبادئ التي سبق الاتفاق أو الإشارة إليها .**
- **البدء بالتركيز أولا على المحاور الأساسية الآتية :**
  - **القصة والحدوتة الشعبية المصرية والعربية .**
  - **الجوانب المشرقة والمثيرة في التاريخ المصري عبر حقبه المتوالية منذ شق النيل مجراه حتى الآن والتأكيد على وحدة هذا التاريخ واستمراره .**
  - **اكتشاف الجوانب المضيئة في تراث الفن والدين والفلسفة والتاريخ والملاحم والأساطير.**

- **استشراف المستقبل من خلال أعمال فنية خيالية علمية تبتعد عن الخرافة وتقدم تصورا مصريا !! للمستقبل الإنساني والعربي .**
- **الاعتماد على أقلام الموهوبين من الأطفال وريشاتهم واكتشافهم وتقديمهم والاحتفاء بهم في جزء من المجلة يمكن أن يزيد بالتدريج .**
- **تقديم الحقائق العلمية والموسوعية في ارتباط بمفردات البيئة وكائناتها وأحداثها لتشجيع قارئنا على الاستطلاع والاستنتاج والوصول بنفسه لاكتشاف أسرار الطبيعة والمجتمع والحياة .**
- **التواصل مع العصر من خلال تقديم ما يتعامل معه أطفال العالم من آداب وفنون وعلوم وأحداث .**
- **المتعة الفنية الراقية هي السبيل الوحيد لإثارة فضول الطفل لاكتشاف العالم وترقية وجدانه واستيعاب حقائقه .**

- **لسنا مدرسين في فصل ولا وعاظ ولا قادة سياسيين نريد تشكيل الأطفال على هيئتنا .. نحن نتعامل مع الفن والأدب والخيال بكل ما يعنيه ذلك من تقاليد وأحلام وأفكار إنسانية.**

ماذا بعد الخمسين ؟

أود من أعماق قلبي أن أشكر القائمين على أمر هذه (المطبوعة) الصبية المصرية الفنية (قطر الندى) على دعوتهم لي كي أشارك في هذه الاحتفالية الاحتفائية بها ..

وهو أمر يشكل لي شرفًا وفرحًا على المستويين العام والشخصي ليسعدني أن أذكر أسبابه وأبوح ببواعثه ..

فعلى المستوى الشخصي أحس بمسئولية تكاد تكون شخصية تدفعني للمساهمة بكل حب وإخلاص في تقديم كل عون معنوي ومادي لتلك الطفلة المصرية لمساعدتها على أن تتقدم وتنمو وتتعلم الكلام والحركة وتمارس حياة تليق بها لتصبح قرة العين التي حلم بها أهلها ، وهم بالمناسبة يعدون بالملايين ، من مثقفين وكتاب وفنانين ، وأطفال فلاحين ، وأبناء وبنات أحياء شعبية ، وتلاميذ مدارس حكومية ، حلموا منذ سنوات أن تكون لهم ساحة خاصة بهم تتسع لتحقيق حقهم في الممارسة أجمل ما يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات ألا وهو ممارسة التفكير والحلم والاستمتاع بالإبداع ، وبالاطلاع ، لاكتشاف الذات والآخر من خلال اكتشاف أسرار العلاقات والتناقضات ، والانسجام والتطور الذي يحكم الحياة ، على مستوى الطبيعة بكل روعتها وجلالها ، وفي المجتمع بكل مشكلاته وحيوية ما يربط أفراده بالأرض والتاريخ ، وما يشكل صلتهم المقدسة بالوطن ..

وما يسمح لهم بالنمو العقلي والفكري كبشر أسوياء أصحاء الروح والعقل ، غير متعصبين ولا منغلقين ولا أغبياء ، وإنما يتمتعون بروح الإبداع والتسامح والعدالة والحرية وهي الروح التي تشيعها المعرفة والثقافة ، وتلعب دورًا هامًا في إذكائها وتنميتها مجلة صبية فتية مصرية مثل قطر الندى .!

أما لماذا أعتبر هذا الأمر أمرًا شخصيًا فلأنني شاركت منذ أكثر من ثلاثين عامًا ، في كل الجهود التي حلمت بوجود مجلة مصرية العقل والروح ، لقد ساهمت بتواضع في تشكيل هذا الحلم ... في (كروان) التي لم يطل بها الزمان ... وفي (سمير) خصوصًا في تلك المحاولة الجادة المخلصة التي حولتها من مجلة تعتمد اعتمادًا أساسيًا بل وكليًا على المادة الأجنبية ، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من سمات وما تثيره من مشكلات ، إلى مجلة عربية مصرية ، تلعب دورًا وطنيًا في خلق وعي ، وإشاعة تنوير ومعرفة بمصر المستقلة ، الحالمة والمندفعة لمستقبل متقدم ، قائم على تحقيق أحلام الاستقلال والعدالة الاجتماعية والحرية ... والتي بدأت في منتصف الستينات واستمرت حتى أوائل السبعينات وجعلت من مجلة (سمير) مدرسة تخرج منها العشرات من الكتاب والقراء والفنانين .. هم الذين يملأون ساعة الإبداع للأطفال الآن إبداعًا على كل المستويات وكثيرًا منهم حاضرون هنا ليشاركوا في رعاية (آخر عنقود) هذه السلالة الشريفة ، من (سندباد) (لكروان) (لسمير) (وعلاء الدين) إلى(قطر الندى)..

وأيضًا لأنني أحد الذين طالبوا وبإلحاح منذ عملت في (المكتب الاستشاري لثقافة الأطفال) أسسه الدكتور (ثروت عكاشة) عام 1967 كأول محاولة لتقديم وخلق ورعاية وإشاعة مناخ ثقافي يتصدى للهزيمة ، ويعيد صياغة الوجدان المصري بعد يونية ، وفي مواجهة صدمته التاريخية .. واكتشاف أن ساحة الأطفال الروحية والوجدانية والعقلية هي ساحة القتال بين مصر وأعدائها .. على المصير والمستقبل .!

ولقد تعددت المحاولات منذ ذلك الوقت لإصدار مجلة للأطفال من خلال وزارة الثقافة .. و قدمت مشاريع وشكلت لجان وتمت دراسات ميدانية أكثر من مرة من خلال جهات عديدة في الوزارة .. وبعضها من خلال مركز ثقافة الطفل والتي كان بها جزء من (الثقافة الجماهيرية) قبل أن يصبح (المركز القومي لثقافة الأطفال) ، تحقيقًا لمطلب التنسيق بين الجهات المتقدمة

العاملة في مجال ثقافة الطفل .. وكانت أولى هذه المحاولات عندما تولت الدكتورة (لطيفة الزيات) مسئولية المركز وشرفتني بالمشاركة فيها .. ولكن تغير الظروف حال دون إتمامها وقتئذ ..

ثم أعيدت المحاولة أثناء تولي الدكتور (فوزي فهمي) قيادة المركز إثر عودته من الخارج ولكن الميزانية لم تسعفه خاصة وقت كانت له طموحات عديدة مكلفة استهلكت طاقة المركز المالية كلإنتاج شرائط للأطفال ومسرحيات وغيرها ..

ثم كانت المحاولة مرة أخرى أثناء تولي الدكتور (سمير سرحان) مسئولية جهاز الثقافة الجماهيرية ..

وكذلك عندما تولى هذه المسئولية الدكتور الفنان (محمد طه حسين) .. ثم كانت هناك محاولة أخرى قام بها (المركز القومي لثقافة الطفل) يوم تولي مسئوليته المرحوم الدكتور (علاء حمروش) ..

وهناك محاولات أخرى لم يكن لي شرف المشاركة فيها ...

ولكني لم أذكر ما ساهمت في الدعوة إليه بجهدي المتواضع لمحاولة الانتقال به من جهد التفكير والحلم إلى فرحة التحقيق !.

وكان الأمر أحيانًا يكلل بالنجاح عندما يصل إلى درجة إصرار أو تنفيذ العدد النموذج (العدد صفر) في محاولات كثيرة كان فشلها يدفعنا إلى اللجوء لتحقيقه عبر منافذ أخرى في أجزاء من صفحات الصحف كالمساء مثلاً أو للمساهمة الفردية في تحرير الصحف العربية للأطفال مثل (ماجد) و (أسامة) و (سامر) و(أحمد) وغيرها ..

وعندما استطاعت السيدة (سوزان مبارك) أن تشيع في المجتمع جوًّا من الاهتمام بثقافة الأطفال .. من خلال مهرجان القراء للجميع وغيره من الأنشطة الإيجابية والمؤثرة في مجال ثقافة الطفل .. وصار مطلبًا ملحًا وحاجة ماسة وبدأ الاستعداد لصدور (علاء الدين) بالفعل في إطار هذه الرغبة عن مؤسسة الأهرام ..

طلب مني الأستاذ (حسين مهران) مشروعًا لمجلة الطفل تصدرها هيئة قصور الثقافة ..

وكم كانت فرحتي وأنا أقدم له المشروع الذي توقعت أن يكون قد طلبه من آخرين غيري بلا شك وناقشت معه المشروع الذي كان يحمل وجهة نظري في أمر مجلة الأطفال المصرية التي تصدرها وزارة الثقافة (بأموال الناس ولأطفالهم) ومن خلال هيئة تضع أمام عينيها أو هكذا ينبغي عليها خدمة أولئك الأطفال المحرومين من الخدمات الثقافية في المدن والريف والمناطق النائية قبل غيرهم .

وكانت وجهة نظري تتلخص في عدة نقاط مازلت أعتبرها صحيحة وضرورية ، لتلعب مثل هذه المجلة دورها في الحياة الثقافية وفي تشكيل وجدان وإثارة تفكير هؤلاء وإمتاعهم وإعطائهم صورة حقيقية عن الوطن والتاريخ والحياة .. وتفتح أمامهم السبل العلمية للتعامل مع المستقبل .. بكل تعقيداته ..

وهذه النقاط هي :

- ❖ أن هذه المجلة لا يجب أن تكون مجرد صدى أو رد فعل لرغبة شخص أيًا كان موقعه أو تجسيدًا لفكرته هو الخاصة عن مجلة الأطفال سواء التي حلم بها طفلاً أو تطلع إليها ناضجًا وأبًا أو تأثر بها في مجتمعات أخرى ..

- ولكنها يجب أن تكون استجابة لحاجات فعلية لجمهور من الأطفال محروم من منابع الثقافة العلمية و العصرية .. محققة وميسرة لخدمة طموحه وطموحنا الوطني في هذا المجال سواء على مستوى المادة وعمقها أو الشكل وبساطته .
- أن هذه المجلة ليست مجرد ملء فراغ أو سد خانة وليست كذلك مجلة نشرة أي لا يجب أن تخضع للشروط الإعلامية التي كثيرًا ما تجبرنا أن نتحول بأنشطتنا الثقافية إلى تكريسها كسلاح في معركة إعلامية لا ناقة للأطفال فيها ولا جمل ...
- أن هذه المجلة لا يجب أن تخضع لشروط الصراع البيروقراطي أو ضغط الآلة الإدارية الخرافية التي تحول كل جهد ثقافي وإبداعي إلى ترس في عجلتها أو ضحية لنهمها الفج للسيطرة وعدائها التاريخي للإبداع والتطور . وضرورة البحث عن استقلالية مالية وإدارية (ما) لتحقيق بعض حرية الحركة سواء في التمويل والتنفيذ أو في التوزيع لضمان مستوى عال من الكفاءة والانتشار عبر مساحات الوطن إلى أقصى مدى ..
- أن هذه المجلة خدمة راقية تليق بجهاز كانت فلسفته خدمة أولئك المحرومين بأن يعاملهم ببعض من حنانه وعطفه وأنها سلاح هام ضد التخلف والتعصب .. من أجل خلق انتماء حر لهذا الوطن قائم على الاقتناع به كما هو بكل متاعبه ومشكلاته .. وعشقه وحبه ليس فقط لارتباطنا العاطفي الجياش به ولكن باكتشاف امتداده التاريخي فينا وتغلغله العضوي ترابًا وماءً وهواءً في عروقنا جميعًا دون تفرقة جنسية أو لونية أو جغرافية إقليمية أو دينية عقيدية .. وهو أمر لا يحققه إلا التزامنا بالإبداع الجيد والحرية في ممارسة هذا الإبداع ، في ساحة تتطلب أكبر قدرمن الالتزام الوطني والنفسي والاجتماعي ، نحو المستقبل .. الذي تهدده أخطار رهيبة وعواصف تقتلع الأشجار التي لا جذور لها ... والتي لا تحرص على تقوية وتأكيد وتدعيم تلك الجذور بالعقل والعلم والروح الإنسانية الخلاقة والمبدعة ..
- أن هذه المجلة .. هي حقل ومعمل وساحة لتخريج ولخلق أجيال جديدة من الكتاب والفنانين الذين يجدون في الإبداع للأطفال رسالة لا تقل أهمية ولا قدسية عن رسالة ودور أي إبداع آخر . متحررين من المفهوم التقليدي المقتبس (التعليمي المباشر الأبوي الناقل المقلد) السائد في مجال ثقافة وفنون وأدب الأطفال ... ولكن لإشاعة مفهوم جديد علمي عقلاني تنويري .. (طفلي) ممتع مستجيبًا لأهم ما يحققه أدب وثقافة وفنون الأطفال الراقية من روح إنسانية تخلق أطفالاً سعداء وأحرارًا ، وتطلق طاقاتهم الإبداعية ، ويتيح لهم مساحة فسيحة من الوطن لممارسة متعة اللعب والمرح والسعادة .
- أن هذه المجلة يجب أن تضع نصب (أعينها وبين أيديها) ـ والتي يجب أن تكون (أعينًا وأياد) تليق بمهمتها ورسالتها ــ أن إحياء الذاكرة الشعبية المصرية والمتمثلة في مجمل الإبداع المصري على المستوى التاريخي والفني .. والأدبي ــ وفي كل المراحل منذ بدء الحياة على أرض هذا الوطن ومنذ (أول ضربة فأس) مهدت أن يكون هذا

الوادي موطنًا للحضارة الإنسانية الأولى .. وعبر مراحل لا حدود لتنوعها وثرائها من فرعونية وقبطية وإفريقية متوسطية عربية إسلامية علمية معاصرة !!

- ❖ أن هذه المجلة ينبغي أن تكون لأطفالنا بمثابة صندوق الدنيا العصري يضع عينًا على التاريخ الممتد إلى عصور ما قبل تدوينه ..
- ❖ وأن الحكايات الشعبية والملاحم وقصص الأبطال والبسطاء أحد الروافد الهامة للمادة التي تقدمها ..
- ❖ وكذلك إبداعات هذا الشعب الفنية والمعمارية .. والحرفية في أدق تفاصيلها ، من إقامة المعابد وكتابة سير الملوك والفراعين إلى الأدوات البسيطة للاستعمال اليومي في الحقل والدكان والمنزل ... والتي تعتبر قاموسًا شاملاً للإبداع اليومي لهذا الإنسان العجيب الغريب (المصري) !!. والذي أبدع الدين والفلسفة والفنون بكل روعتها وقدسيتها وأيضًا بكل واقعيتها وماديتها وعمليتها إن صح التعبير وصلاحيتها للاستعمال اليومي !!
- ❖ وإذا كانت الظروف لم تسمح لي عمليًا لأسباب شخصية أو بسبب انتقالي للعمل في موقع آخر ـ في المشاركة الفعالة في تحقيق هذا الحلم متمثلاً في هذا الكائن الجميل النبيل قطر الندى ..

وإذا كان الكثير مما تخيلته شروطًا لكينونتها وضرورات لتطورها وسمات لشكلها وحركتها لما حلمت بها لم يتحقق .. إلا أنني بدراسة متأنية لما أتيح لي الاطلاع عليه من أعداد أستطيع بكل ارتياح أن أقرر أن الرحلة قد بدأت وأن تمهيد ساعة الإبداع للأطفال الذين عنيتهم قد تم بل وإن بادرات كثيرة قد أينعت ... متمثلة في توجهات المجلة وروحها وأسلوبها ومادتها اللغوية والتشكيلية .. تبشر بتحقيق العديد من الطموحات التي ظل الكثيرون يسعون في إطارها لتحقيق حلم التواصل مع أطفالنا ومنهم شخصي الضعيف بكل اعتزاز !!. ويتمثل ذلك في تنوع المادة وثرائها من خلال إبداعات هذا الحشد الرائع من الكتاب والفنانين القدامى والمخضرمين والشباب !.

- ❖ وأعترف بأنني رقصت فرحًا .. وأنا أقرأ وأتأمل وأبصر وأحلم مع فريد معوض وطارق إمام ومنال عزام وعزة سلطان وأمل فرح وفاطمة مصطفى ونجوى عبد الرحيم وهيام المسيري ووفاء أبو زيد ونجوى السيد وأسماء عبد الهادي .. ورشا منير وتاد وسهير ميرة وشهر زاد العربي ومحسن جابر وجلال مهدي وعصام حنفي وتامر يوسف وحسن نور ونعمات البحيري وأحمد الشيخ وعبد العال وممدوح طلعت وسامي أمين ومحسن رفعت وعزة أحمد نور ومحمد صالح فرح وشهاب سلطان وخالد الرطيل وفريد أبو سعدة ويوسف أبو رية ومحسن يوسف وجابر سركيس ومحمد رجب وعبده الزراع وأحمد زرزور وعبد الرحمن نور الدين .. وأحمد عز العرب ورجب سعد السيد وطاهر البرمبالي . والرائع شاكر المعداوي ومحمد كشيك وزينب العسال ومحسن رفعت وغيرهم عشرات يشكلون مدرسة ـ كتيبة ـ وصدقوني أنا الذي أعمل في هذا المجال منذ العام الرابع والستين ومنذ ظهرت للوجود مجلة (كروان) وحتى الآن ومازلت أعمل مع شقيقات (قطر الندى) وأشقاء لها ـ ما فرحت قدر فرحي بهؤلاء المبدعين الذين أكثرهم من الشباب .. وذلك لأنهم يدعمون وجهة نظري المضادة لأولئك الذين يحولون الكتابة للأطفال والرسم لهم ومعهم .. إلى نوع من الكهانة ويحيطونها بأوهام تسمح لهم بحرية العبث والنقل والفذلكة . بإدعاء ضرورة امتلاك ممارسها

لصكوك ترسيم مقدسة مزعومة ومأطرة وتقليدية .. وتسعى لإنكار الموهبة .. كحجر أساس لا غنى عنه !.

- ❖ الموهبة النابعة من قدرة اللعب والمرح والحلم مع الطفل الكامن في روح وجسد كاتب ورسام الأطفال المبدع في الأساس والذي يستطيع إيقاظه والتراضي معه في أي وقت .
- ❖ الموهبة التي يستطيع صاحبها أن يرود أفاق لا حدود لها للاكتشاف والابتكار وهي متمثلة بحق في غالبية من ذكرتهم من كتيبة فرسان قطر الندى وخدامها ...
- ❖ ولا يسعني بعد إلا أن أتمنى عليهم وعلى الفنان المصري القدير الذي أنيط به الآن قيادتهم ومشاركتهم شرف المساهمة في تكوين وإثراء وجدان أطفالنا ... بل وكبارنا عبر مساحات وساحات وأبعاد مصر ...

بعض ما أحلم أن تضعه قطر الندى أمام كشافات مسيرتها القادمة وما يجب أن نتحلى به من سمات وصفات .

- ❖ أن تتمسك بتوازن لا زم بين المادة المقروءة ومادة التشكيل بما يضمن الرؤية البصرية والذهنية المطلوبة .. لإثراء الوجدان تشكيليًا وتحريك العقل فكريًا .
- ❖ أن يزيد الاهتمام بالمادة الشعبية وإحيائها وفق خطة ورؤية عصرية لا فلكلورية . تؤكد على الإيجابي والقادر على الاستمرار والبقاء مستقبلاً .
- ❖ زيادة الاهتمام بالعلم .. لا كمعلومات ولكن كرؤية كطريقة ومنهج في التفكير كقدرة على استخدام المعلومات ، ومواجهة الواقع ، وفهم علاقاته ، ومواجهة الطبيعة والتنبؤ القائم على معرفة ووعي علمي بالمستقبل والتواؤم مع متطلباته ..
- ❖ الحرص على أن يكون الأسلوب في المادة المنثورة والشعرية مقتربًا أكثر من العالم الذي تتعامل معه أي أن تكون الصورة والملموس المحسوس والمتجسد والتشكيل واللعب المرح هو الأساس والبعد عن التجريد اللغوي الذي يصل أحيانًا إلى حد الحذلقة في الجمل وفي الصور أيضًا ..
- ❖ تجنب لعب دور الأب والمعلم والمدرس ، والكاهن ، وممارسة الإبداع كأطفال .. فأطفالنا يرزحون تحت وطأة ضغوط تقليدية قبلية متخلفة ذكورية وكهنوتية لا طاقة لطفل في العالم بها ..

فارحموهم .. وارحموا أنفسكم وارحمونا !

- ❖ أن يحررها الفنان صاحب القرار الآن .. من وطأة الهم القاتل المتمثل في عجز اللوايح والشرائع والقوانين والأوهام الإدارية والمالية عن مجاراة جنون الإبداع أو طموحاته والتي تمثل الزاد الدائم لتجاوزه للآني والجامد والثابت وحلمه الدائم إلى التحرر والانطلاق وهي معادلة صعبة .. ولكن لها حلول سهلة تستخدم في مجالات كثيرة لها حضور ونفوذ أكبر من نفوذ وحضور الأطفال خاصة !.

ماذا أقول بعد

بلادنا في حاجة إلى عشرات مثل (قطر الندى) والساحة الآن تمتلئ بأخوة وأخوات غير أشقاء وأحيانًا غير شرعيين يروجون للتخلف والجمود وللتعصب ولا أمل لمصر المستقبل إلا أن تملأ الساحة بالتنوير وبالإبداع للخروج من المأزق التاريخي الحالي ..

للانطلاق بأجنحة الحرية والإبداع والعلم والديمقراطية .. فهل نحافظ على ما تحقق حتى الآن .. ونفتح الأبواب للحياة (أم على قلوب أقفالها) والعياذ بالله ..

أحلم معكم .. فلا تخذلوني . وكم أتمنى أن يتم :

- تغيير البنط إلى بنط أكبر فى (الموضوعات) وتوسيع مساحة الصور وهو يقتضي تقليل المادة المكتوبة ..
- الاكتفاء بقصيدة شعرية واحدة ـ يمكن قصة أو سيناريو أيضا إن وجد !.
- والتحفظ على كتابة الحوارات وضرورة الانتباه إلى سهولة قراءتها ..
- والاهتمام بمرحلة مفقودة بين ما قبل المدرسة والقدرة على القراءة الحرة !.

●

موقع كتب كامل كيلانى من أدب الأطفال المصرى والعربى

من الوهلة الأولى تبهرنا قائمة الكتب التي أصدرها كامل كيلانى للأطفال والتى تبلغ مائة وتسع وتسعون كتابا صدرت في حوالى 27 سلسلة متنوعة :

- أساطير الحيوان (8 كتب) – أساطير العالم (6 كتب) – أشهر القصص (5 كتب) – جحا قال يا أولاد (كتاب واحد) – حكايات جحا (4 كتب) – حكايات للأطفال (4 كتب) – رياض الأطفال (كتابان) – عجائب القصص (3 كتب) – عجائب القصص للأطفال (كتابان) – قالت شهر زاد (15 كتابا) – قصص ألف ليلة (كتابان) – قصص تمثيلية (كتاب واحد) – قصص جح (7 كتب) – قصص جغرافية وأساطير افريقية (كتابان) – قصص شكسبير (4 كتب) – قصص عربية (كتاب واح) – قصص عربية للأطفال (كتاب واحد) – قصص علمية (11 كتابا) – قصص فكاهية (6 كتب) – قصص مختارة للأطفال (كتابان) – قصص من ألف ليلة " وهى غير قصص ألف ليلة " (8 كتب) – قصص هندية (7) – مكتبة الجيب (كتاب واحد) – مكتبة الكيلانى للأطفال (كتابان) – مكتبة الكيلانى للجيب (كتابان) – من حياة الرسول (36 كتابا) .

وهناك كتب عديدة صدرت دون أن تكون ضمن سلاسل معينة وان كان بعضها صدر في إطار سلاسل .. مع تغيير العنوان .. أو مع إضافات وحواشى .. مختلفة .

وهذه الكمية الكبيرة من السلاسل والتى تحتوى أحيانا على عنوان واحد .. ومنها ما يشمل أكثر من ثلاثين عنوانا .. توحى أن الصدفة أو ظروف النشر أو أغراضه .. كانت متعددة أو طارئة . إذ لم يكن التبويب قائما على فكرة مسبقة وإلا كان أكثر تناسقا .. ومحكوما بمنطق ما .

ولكن يبدو أن لكل كتاب ولكل عنوان .. ولكل طبعة ظروفها الخاصة التي كانت تفرض أحيانا أدراجها ضمن سلسلة معينة أو عدم إدراجها في سلسلة على الإطلاق .

إذن لم تكن هناك خطة ما تحكم هذه الإصدارات ولا تضع أسماء السلاسل في سياق معقول .

- **هناك سلاسل صدر منها 36 كتابا مثل سلسلة من حياة الرسول .**
- **بينما هناك سلاسل لم يصدر منها سوى كتاب واحد مثل سلسلة (قصص تمثيلية) أو سلسلة قصص عربية .. أو مكتبة الجيب .**

- **ومن سلسلة مشابهة مكتبة الجيب للأطفال كتابان .**

وحتى نفس العناوين أحيانا ما تصدر ضمن سلسلة .. أو تصدر دون ذلك – مثل قصة – الإكذوبة (17) التي تصدر ضمن سلسلة قالت شهر زاد بينما تصدر دون الارتباط بالسلسلة باسم اكذوبة ريحان (18) ثم باسم ريحان الكذاب (90) بينما يصدر كتاب يحمل عنوانا واحدا هو : أرنب في القمر (10) ضمن سلسلة عجائب القصص للأطفال ويتضمن داخله قصة واحدة .

بينما يصدر مرة أخرى ضمن نفس السلسلة في اصدار آخر .. بنفس العنوان (11) ويتضمن جزئين هما :

(1) ساكن القمر ، (2) سفيرة القمر (الأرنب الذكى " 8 " ليس ضمن سلسلة . ويبدو أنها نفس القصة) .

- **ويصدر حكاية بدر البدور (34) دون الانتظام في سلسلة مرة .**
- **ثم تصدر باسم بدر البدور وحكايات اخرى (35) في حكايات للأطفال والتى تضمنت (4 عناوين أخرى) .**
- **كما ان حكايات كثيرة تتشابه وتكاد تكون نفس القصة .. ولكنها تصدر بعناوين مختلفة مثل شهر ذات بنت الوزير (113) .**

وشهر زاد وشهريار (114) وأيضا (بنت الوزير (41) حين سلسلة (قالت شهر زاد) .

- **ومثل شمشون الجبار (109) .**

وشمشون ودليلة .. (110)

- **وهناك الأميرة وردة (27) والأميرة وردة البحر (28) .**
- **وهناك الآمين سفروت (29) وسفروت الحطاب (95) .**
- **مغامرات صغير (176) مغامرات نونو (177) .**
- **الديك الظريف (84) وديك النهار (85) .**
- **اللحية الزرقاء (163) الملك أبو لحية (180) .**

وهو ما يخلق أحيانا إشكاليات حول طبيعة الإصدار والغرض منه .. أو الظروف المحيطة بإعادة الطبع .

لقد كان البحث عن المعلومات البيلوجرافية الأولية والأساسية هو الأول لجمع هذا الخضم الهائل من الكتب والإحاطة به خاصة وقد صدرت الكتب عن دور نشر مختلفة قامت بالدور الأكبر فيها – دار مكتبة الأطفال (الكيلانى) التي يملكها المؤلف والتى أصبحت تحمل اسم كتبة ودار الكيلانى ويديرها ابنه الأكبر رشاد كيلانى وعددها حوالى (137) عنوانا وكذلك دار المعارف وهى طبعات مختلفة وعديدة وقد صدر خلالها (57) عنوانا والباقى صدر عن دور أو جهات نشر أخرى مختلفة منها المطبعة العصرية ودار إحياء الكتب

العربية (عيسى البالى الحلبى وشركاه) ومطبعة حجاز .. وايضا عن طريق وزارة التربية والتعليم (طبعات حديثة) .

وقد سبب هذا عددا من المشكلات أضعها تحت أيدى الباحثين المهتمين بمتابعة دراسة تراث هذا الكاتب الكبير منها :

أولا : هذه الكتب طبعت طبعات كثيرة وكثيرا من هذه الطبعات بلا تواريخ مثبتة وأحيانا تحدث إضافات كمقدمات أو معانى كلمات أو شروح أو ترجمات للغات أخرى كالإنجليزية .

ثانيا : هناك العديد من الكتب نفدت طبعاتها أو لم تطبع سوى طبعات أولى .. ولا يوجد منها نسخ .. ولذا استقينا المعلومات المثبتة إما من ذكر هذه الكتب في كتب أخرى أو دراسات ولذلك سنلاحظ أن بعض أرقام هذه السلاسل مفقودة .. وهو ما يطرح سؤالا حول عدم اكتمال القائمة رغم كل ذلك .

ثالثا : لم تكن إعادة الطبع تلتزم بنفس الحجم أو عدد الصفحات أو الغلاف في كثير من هذه الطبعات التي كان يتغير معها مقاس الكتاب كان وعدد الصفحات يتغير تبعا لذلك أو بسبب إضافات – كدراسة أو ترجمة أو معلومات .. وهو ما يستلزم دراسة أخرى .

لقد اعتمدت في رحلة البحث المضنية على كثير من المصادر وحصلت على بعضها من مصادر متعددة .. من دار الكتب وبعض مكتبات قصور الثقافة أو التربية والتعليم وبعض المكتبات الخاصة ومن مكتبة الكيلانى نفسها .

وقد أتاح لى الحاج رشاد عند بداية البحث النزول الى مخزن قديم في أحد البدرومات حيث عثرت على بعض النسخ القديمة لطبعات بدون أغلة واحتاج الأمر لكثير من البحث لاستكمال توصيتها والوصول الى المعلومات الأساسية البيلوجرافية عنها .

ولقد حاولت قدر الامكان أن أورد ملخصا للقصة أو الحكاية وكذلك توصيفا للكتاب ومحتوياته .. لأننى كنت أطمع في دراسة أخرى مكملة للمحتوى أو دراسة المضمون .. وأيضا دراسة للمصادر التي أعتمدها كامل الكيلانى .

وحاولت أن يكون الملخص موحيا بالمصدر التي أخذت عنه .. لأنه يقودنا الى جوهر القضية التي أدعو الباحثين لدراستها .. لما لها من أهمية في إلقاء الضوء على واقع ومسار الكتابة للأطفال في مصر .

لقد كانت دوافع كامل كيلانى كمثقف وصاحب دار للنشر لتقديم كتب مصرية للأطفال في تلك الفترة التي كانت الشخصية المصرية تتبلور باحثة عن ذاتها القومية في مواجهة الثقافة الانجليزية ثقافة المحتلين .. أو الثقافة الفرنسية ثقافة الصفوة المتمردة على الاحتلال .

ولقد واكب هذه الصحوة التي أعقبت ثورة 19 وفشلها .. صحوة ثقافية هامة ويكفى ان نورد أسماء كوكبة من المفكرين والمثقفين والأدباء المصريين الذين قامت على أفكارهم وجهودهم تلك المحاولة الفذة التي استمرت لعدة عقود لتشكل جوهر الشخصية الوطنية المصرية والتى استندت الى ما فجرته حركة

مصطفى كامل ومحمد فريد وتأسس الحزب الوطنى وثورة 19 من وعى قومى ووطنى يؤكد على الجوانب التنويرية والوحدة الوطنية .. والثقافة العلمية بكل طموحها وجموحها في الفلسفة بل والدين احيانا .. في مواجهة الالحاق .. وتأكيد شعار مصر للمصريين .. وأيضا تأكيد سمات الوحدة الوطنية وان

الدين لله والوطن للجميع .. وكذلك التمسك بالدستور وبالديمقراطية البرلمانية والتى تجسدت في تلك الفترة في العديد من المواقف والتجليات للمثقفين .. على اختلاف مشاربهم وتنوعهم الفكرى وانتماءاتهم من لطفى السيد وحسين هيكل .. والعقاد والحكيم وطه حسين .. ويعقوب صروف وحفنى ناصف .. وسلامة موسى وعشرات غيرهم وما صاحب هذا من تفجر عدة قضايا هامة وعامة حول حرية الرأى والنهضة .. والتقدم .. والأخذ بأسباب الرقى .. لتشكيل ملامح الشخصية القومية المصرية .. في مواجهة تحديات الانكفاء والاكتفاء بالماضى وبالتفاعل والتبادل والدخول الى العصر والأخذ بأسباب التمدن .. في هذه المرحلة .. كانت جهود كامل كيلانى من أجل تقديم أدب جديد للأطفال مهما كانت وضوح النبرة التعليمية العالية . والتوجيهية الاخلاقية .. وغلبة الاهتمام بالفصاحة اللغوية على حساب المتعة الفنية وإطلاق الخيال وحرية التفكير تعتبر جهودا هامة في سبيل تطوير أفكار السابقين منذ محاولات رفاعة الطهطاوى وتحيذه لتعليم البنات والاهتمام بالأجيال وبالتربية كخطوات أولى نحو إذكاء الوعى مثلما تمثل في جهود النديه خلال مجلة الأستاذ وما صحابه ذلك من محاولات في المسرح وفى الترويج للثقافة العلمية وللحياة العصرية ومن هنا يكون النظر الى جهود وريادة كامل كيلانى في هذا المجال وذلك الإطار وضع لجهود ذلك الرائد الكبير في مكانها الصحيح .. ويضع دراسة ذلك وتاثيره مرتبطة بهذا الوجه الحضارى الصاعد والذى يدعم ملامح الشخصية الوطنية في مواجهة محاولات السيطرة والهيئة الثقافية .. غريبة كانت مرتبطة بالاستعمار وسياساته .. أو مرتبطة بالنظرة الماضوية السلفية .. بكل ما تعيبه سياسيا وقوميا لتصبح دراسة ذلك واجبا ومهمة ضرورية لدراسة تطور مفهوم أدب الأطفال في مصر وعلاقته بالثقافة والتربية .

لذا ينبغى أن نشير الى المصادر التي لجأ إليها الكيلانى لتقديم هذا العدد الكبير من كتب الأطفال وصياغة لغة قد نختلف على ملاءمتها لجمهور كتاب الطفل الآن .. ولكن يجب الانتباه إلى مستوى المدارس في تلك الحقبة وأهمية ومكانة اللغة العربية ومستوى تدريسها .. والاهتمام بها آنذاك بل وضرورتها في الصراع الثقافى والفكرى .. في وقت كان فيه أدب الطفل بشكل عام ما يزال وليدا لا في مصر وحدها ولكن في العالم كله .. ولم تكن الدراسات العصرية النفسية واللغوية والاجتماعية بل والتربوية قد نضجت كما نراها الآن .

ومن هنا يصبح ذلك التقدير للريادة أمرا لا محل للشك فيه أو النيل منه .. ولكن .. علينا كما قلت أن نلقى نظرة على مصادر مؤلفات الكيلانى وهو أمر يقدم إشكالية كبيرة تستحق البحث حول مدى استفادة

الكيلانى من تلك المصادر أو مدى اعتماده عليها . أو خضوعه لمنطلقاتها وما هى درجة تدخله سواء بالصياغة أو التبسيط أو التحوير او التحويل أو إعادة الإنتاج ومدى الإضافة التي قدمها الكيلانى في كل قصة أو في الكتابات المختلفة لنفس القصة أو في ارتباط ذلك بالعصر وفى المفاهيم التي يروج لها ويتبناها ويريد لأجيال المصريين تبنيها معه ..

ومصادر الكيلانى متعددة وليس من الصعب الإشارة إلى مصدر كل القصص أو الكتب التي قدمها كامل الكيلانى ولكننا سنلتقى ببعض الأمثلة .

هناك عدد كبير من الكتب ضمن سلسلة (من حياة الرسول) تعتمد اعتمادا كبيرا على قصة حياة سيدنا محمد .. وهى محاولة لتقديم سيرة الرسول وغزواته وما تعرض له في سبيل الرسالة من خلال حوار بين أصدقاء ثلاثة تقدم من خلاله المعلومات والأحداث . وتبلغ حوالى (36 كتابا) منها .. حيرة الأعداء (73) وخاتمة أحد (75) وحارس النار (61) حسم الشر (66) تفرق الأحزاب (48) بعد عام (39) وغيرها وكلها تشى بما تتضمنه من أحداث .. تعتمد على تاريخ الرسول والرسالة ..

تعتبر ألف ليلة وليلة مصدرا لعديد من الكتب بل والسلاسل سواء اشير الى مصدرها في عنوان السلسلة مثل قصص ألف ليلة ، قالت شهر زاد وقصص من ألف ليلة ويبلغ عددها حوالى ثلاثون كتابا أو أكثر ... منها : أبو صير وأبو فير (5) أمين العفاريت (21) الكذوبة (17) اكذوبة ريحان (18) الامير الحادى والخمسون (22) بابا عبد الله والدرويش (31) بساط الريح (37) بنت الوزير (41) تاجر بغداد (46) خسرو شاه (76) علاء الدين (132) أو قدمت من خلال سلاسل لا تذكر منها المصدر صراحة ممثلا ... وتعتمد سلسلة قصص فكاهية أيضًا على بعض من حكايات ألف ليلة .. أو من النوادر العربية مثل : ابو الحسن (2) حذاء الطنبورى (65) عماره (136) العر تدس (130) مدينة النحاس (172) وغيرها كثير ..

اعتمد كامل كيلانى على العديد من كتب الأطفال العلمية .. وقدمها بعد تعريب اسماء ابطالها .. مثل : فاطمة الصغيرة (146) سلسلة حكايات الأطفال ، وكذلك العلبة المسحورة (133) قصة لا تنتهى (156) كوكو كيكى (160) اللحية الزرقاء (163) وغيرها .. غول النساء (145) وهى ذى اللحية الزرقاء نفسها .

قدم الكيلانى عدد من قصص الرحالة والمغامرين مثل : لفنجستون (164) ولفنجستون وستانلى (165) .

قدم الكيلانى عددا من القصص العالمى الشهير سواء المؤلفة او المستقاه من الأساطير القديمة الغربية ويحتاج هذا لدراسة مستقلة .. وهل كان الكيلانى مترجما أم مقتبسا أم معيدا لإنتاج هذه الأعمال بإضافات جوهرية سواء في الشكل أو في المغزى العام ... ومنها ... من قصص شكسبير الملك لير (183)

الملك ميداس (184) الأسد الطائر (13) حلفر (55-56-57-58) بطل اثينا ومن الأساطير الشرقية أيضًا كسلسلة – أساطير أفريقية وقصص هندية ..

ان البحث في مصادر كامل الكيلانى أمر متشعب وصعب ولكنه هام جدا .. وجدير بالبحث لأنه يضع أمامنا سؤالا لابد من الإجابة عليه بالنسبة لتطور أدب الأطفال في مصر وبالنسبة لواقعه الحالى ولمفهومه الحائر بين الإبداع وكونه أدبا وفرعا من الأدب كإبداع وخلق كالشعر والرواية ..الخ ويحكمه ما يحكمها من تلقائية وموهبة تستند الى نفسها وعلى طبيعتها الإبداعية .. أم أنه وسيلة للتثقيف والتعليم يقوم بها الكاتب بطريقة مختلفة قليلا عن وسيلة المدرس أو المثقف بكسر القاف المشددة ؟ بها الكثير من عنصر القصدية والتعمد أو بصيغة أخرى هل أديب الأطفال مبدع وخلاق ومبتكر يخوض غمار تجربة وجدانية خلاقة ذات سمات خاصة .. ولها خصوصيتها بعيدا عن كل افتراضات علم النفس والتربية والتوجيه ..أم بل وسابقة عليها وعلى النقد أنه كاتب يقوم بدور الناقل أو المترجم او المثقف والمعلم على أحسن الفروض مستخدما بعض المهارات اللغوية أو التكتيكية .

ولذا فلها شروط وقواعد وخبرات يمكن اكتسابها مسبقا حتى لو انعدمت الموهبة .

من أى الفريقين كان كامل كيلانى إذن ... إنه السؤال الملح الذى ينتظر الإجابة عليه وهى إجابة هامة .. وضرورية لمستقبل أدب الأطفال في مصر ! تبدأ من دراسة متأنية ومتأملة بدون سابق وجهة نظر لكتب كامل كيلانى ومصادرها !!

●

كامل الكيلاني وشعر الأطفال

في مجال شعر الأطفال هناك محاولة دائمة لطرح الأسئلة ، ليس بحثًا عن إجابات .. وإنما لأنني لا أعتقد أنه قد أتى زمان التنظير والفتوى .. وإنما المدى مازال مفتوحًا لطرح الأسئلة .. وذلك لأسباب كثيرة ومتعددة ...

منها ما يتعلق بالواقع الثقافي والإبداعي والشعري .. ومنها ما يتعلق بالتاريخ والتراث .

أو ما يتصل بمكانة أدب الأطفال في مساحة الإبداع الأدبي المصري والعربي .

ومن ثم مكانة الشعر للأطفال .. وعند الأطفال ..

ومنها ما له علاقة وثيقة بمفهوم الشعر عمومًا .. ومفهوم شعر الأطفال - سواء لهم .. أو بهم .. ودور العملية التربوية .. أو حتى شيوع الخبرة . ومدى اتساع ورحابة الموقف من الإبداع عمومًا ..

وطبعًا .. لذلك علاقة حميمة بالحرية .. وبإعمال العقل أيضًا ..

وبالعجز أمام المنظورات والمحاذير ..

وفي مناسبة مثل مناسبة الاحتفال (بكامل الكيلاني) يمكن طرح تساؤل مشروع :

_ هل كان كامل كيلاني شاعرًا ؟

ومن ثم هل كان شاعرًا للأطفال ؟

ما موقفنا من ظاهرة النظم التي هي قرين المفهوم الضيق للشعر باعتباره الكلام الموزون المقفى ؟

ما علاقة هذا المفهوم للشعر – وبالتالي - للشعر للأطفال – بمفهوم إمكانية إتقان صنعة الكتابة للأطفال – شعرًا ونثرًا (بالمرة) !!

هل للشعر مفهوم آخر ؟

هل يمكن اعتبار الشعر للأطفال ..

لعبة مثيرة من ألعاب الحياة

وكيف تستخدم الكلمات : لتكوين الصور العجائبية المثيرة للدهشة ؟ أو للعواطف الجياشة ؟ أو للانفعال أمام دهشة الاكتشاف للنفس وللعالم ؟

دهشة الابتكار والمفاجأة ؟

دهشة إثارة المشاعر والاستجابة لها .؟

أو حتى مجرد دهشة اللعب والرقص القائم على الإيقاعات ؟!

أو دهشة محاكاة إيقاعات الحياة والطبيعة باستخدام الصور والرتم والحروف وأيضًا المعاني ؟

دهشة التأكد من المكتشف المعروف والإحساس بالمحسوس وبالملموس .. وتجسيد تفاصيل الواقع بطريقة غير متوقعة ؟

أو تفسير الحلم بطرق ملتوية ، ولكن شديدة الصدق والواقعية ، من خلال الكلمات وتتابعها المثير للدهشة وللعجب حتى لو صعب على التفسير ؟

ما علاقة تخلف شعر الأطفال عندنا بطرق تدريس الشعر في المدارس ؟

وبمفهوم الشعر لدى المدرسين ولدى الآباء بل لدى الشعراء (النجوم) ؟

وعلاقة تدريس الشعر في المدارس بأساليب التلقين والحفظ وأساليب التدريس والتعليم عمومًا القائمة على الاستظهار – والشعر أسهل المواد قابلية لذلك وأكثرها ملائمة لاستخدامه وإمكانيات صياغته حتى لحفظ المواد الأخرى ؟

هل هناك عداء دفين للشعر . باعتبار الشعراء هم أكذب الفصحاء . وأنهم يتبعهم الغاوون ؟!
ما حكاية الموقف من العامية (لغة التفكير وخاصة عند الطفل الصغير !) وكيفية تداعياتها وتجلياتها في اللعب والمرح ، واكتساب الخبرة الحياتية عمدًا ، بحجة خطرها الداهم على الفصحى ؟..
هل للشعر عمومًا – وللأطفال خاصة – شروطًا أبسطها أن تتحرر من الطربوش والعمامة والكرافتة . عندما نلعب .. وعندما تقتضي مواقف الحياة منا أن نضحك من القلب منها أو عليها ، وألا نخجل من رغباتنا الصغيرة – رغم السن والمكانة – في أن نشوط كرة أو طوبة . أو ننط الحبل ونحن بصدد اللعب بالكلمات على صفحات الورق ؟.
هل هناك وسيلة لتشجيع الصغار على خوض تجربة الشعر .. دون أن نرعبهم بحكاية (فعل) ولوازمها واستبدالها بنبعها الأصلي الأول – بإيقاعات الساكن والمتحرك وتباديلها وتوافيقها وتواقيعها التي لا حدود ولا نهاية لها – إلى أن يحين حين الخوض للركب في بحور الخليل المتلاطمة الصعبة ؟
هل يمكن البدء من نقطة أبسط وأجمل وأحلى وأكثر شقاوة وطفولة وبراءة أيضًا .. وهو أن الشعر عند الأطفال لعب مرح من ألعاب ومغامرات الخيال لاختراق قوانين الواقع أو للتعامل معه وتجاوزه وللسيطرة عليه بالكلمات والحروف والإيقاعات التي تثير الدهشة .. والوقوع في أسر سحر الانفعال لاكتشاف جمال العالم بممارسة الحرية ؟..

<u>هذه أسئلتي حول هذا الأمر الصعب :</u>

واعتقد أن محاولة إيجاد إجابات لها .. حتى ولو كانت مختلفة أو متناقضة .. هي في حد ذاتها الإجابة الحقيقية عليها – والوحيدة .. فالشعر للكبار - وللصغار بصورة أكثر – هو ممارسة الغناء للحياة وخوض التجربة ذاتها .. في أكثر جوانبها ثراء وجمالاً ومرحًا .. واندماجًا حرًا في معايشة الواقع بقوانين وقيم ومفاهيم من صنع الخيال ... باستخدام القدرات السحرية للكلمات وللحروف !..

●

<u>حول مسرح الطفل :</u>

[فى مهرجان مسرح الطفل الذى أقامته جمعية هواة المسرح على مسرح القاهرة للعرائس عام 1995 كنت أحد ثلاثة من خبراء مسرح الطفل أعضاء لجنة التحكيم وقد قمت بكتابة التقرير النهائى الذى طلبته اللجنة كمقدمة لإعلان الجوائز التي اتفق عليها .]

تقرير لجنة التحكيم

تؤكد لجنة التحكيم على أن هذا المهرجان كان فرصة طيبة للتعرف على حال مسرح الطفل المصرى وواقعه بإيجابياته وسلبياته بقدر ما كان فرصة للاحتكاك بين المشاركين والتعرف على مشاكل العمل المسرحى مع وللأطفال كما أنه الفرصة الوحيدة لقياس حجم مشكلات هذا العمل ونجاحاته أو طموحاته وكذلك إخفاقاته ومتاعبه .

وهذا الاحتكاك يتيح لنا اختبار مفاهيمنا ومدى صحتها أو جدتها أو تخلفها وعقمها .. إن مسرح الأطفال بكل أشكاله ورغم كل هذا الاهتمام النظرى والنظيرى الذى يمارسه العديد من الجهات والأفراد ما زال يعانى من مشكلات جوهرية تتعلق بالمفاهيم والرؤى والأهداف بقدر ما تتعلق أيضًا بالممارسة والفعل والإمكانات .

ولذلك فتجاوز وتحاور هذا العدد من العروض والتجارب لا يجب أن يمر دون تسجيل بعض ما أكدته التجربة التي نشيد بإنجازها وندعو لتكرارها والإصرار على استمرارها ولذا نحيى قرار الجمعية المصرية لهواة المسرح بعقده سنويا .

ففى ظل ندرة وصعوبة الإطلاع على ما يجرى في الخارج من تجارب عدم توفر نصوص مسرحية كافية لمسرح الأطفال كما حدث ويحدث بالنسبة لمسرح الكبار .. فإن الطريق الوحيد لتطور أدواتنا وتعديل مفاهيمنا واختيار تصوراتنا هو دراسة ما نصنعه بالفعل والتعامل مع ما يجرى عندنا وبيننا من محاولات لإبداع مسرح للطفل المصرى .. بجدية وحب ودون مجاملة أو تعال .

وهى دعوة للخروج من هذا الاحتفال المفيد والجميل والمتنوع بما يفيد ويطور حلمنا بمسرح مصرى للأطفال .

ونود قبل أن نعلق نتيجة التحكيم التي كلفنا بها من قبل إدارة المهرجان والتى نرجو أن تكون انعكاسا لهذه الروح التي سبق الإشارة إليها .. من تشجيع لكل جهد ايجابى والتنبيه للسلبيات .. حتى يمكن تجنبها أو على الأقل طرحها للمناقشة الجادة التي تستهدف تحقيق حلمتا جميعا الذى بذلنا في سبيله ونبذل الوقت والجهد .. من أجل مسرح جميل ومفيد وراق يليق بأطفالنا ومستقبل بلادنا .

تشيد لجنة التحكيم بكل التجارب وتقدر كل جهد مبذول في سبيل خروجها إلى النور حتى تلك التي لم تكن في المستوى المأمول .. لم تخل على الإطلاق من مزايا المحاولة الجادة وجمال التجربة البكر وطزاجتها .

تحيى لجنة التحكيم كل الذين شاركوا في تحقيق هذه العروض وسط ظروف نعرفها جميعا وإمكانات غير كافية وبيروقراطية ونظرة سائدة لمفهوم مسرح الأطفال وظرف ثقافى في عام لا يضع المسرح في أولوياته وبالتالى فالإقدام على اقتحام مجال الكتابة أو الإخراج أو الانشغال بتحقيق رؤى جمالية سمعية أو بصرية حتى الاهتمام بمسرح الأطفال يصبح فدائية تستحق الإشادة والتشجيع.

تعتذر لجنة التحكيم لأن الجوائز أو الشهادات أو أيا كانت المسميات بطبيعتها محدودة وقاصرة عن تغطية كل العناصر الجديدة التي تستحق الإشادة والتقدير وتؤكد على نسبية هذه التقديرات وهذه طبيعة المسابقات في كل مكان وقد كانت المشاركة في حد ذاتها تقدير أولى لكل المشاركين حسب ما نراه من واقع مسرح الطفل في مصر كما أوضحنا .. وقد راعينا في كل ما توصلنا إليه من نتائج بعد مناقشات مستفيضة لكل ما سبق التنويه به من ملاحظات .. محاولة الوصول إلى نتيجة تؤكد على الايجابيات التي نطمح إليها بحيدة كاملة .. وتوخ للعدالة يليق بل ويجب أن يتحلى به كل من يتصدى للعمل مع الأطفال أو لهم .

تلاحظ اللجنة سيادة بعض المفاهيم الخاطئة لمسرح الأطفال في مجالات الكتابة والإخراج وحتى في اختيار وسائل التوصيل السمعية والبصرية والأدائية تحت تأثير ما يسود الساحة من ظروف مسرحية .. أو بسبب سيطرة مفاهيم أبوية وتربوية مدرسية عن مسرح الطفل وأهدافه .. ومن ذلك مثلا :

- معظم العروض تنتهى بالموعظة الحسنة والتأكيد الفج أحيانا على الدرس الأخلاقى الذى يكون غالبا قد تم استيعابه من خلال العمل مما يخل بالمتعة الفنية وبالتجربة الروحية والعقلية للمتفرج .
- البعض يظن أن العمل المسرحى يستهدف فقط توصيل المعلومات ويصرون على اختزال وظيفة المسرح ليكون فصلا دراسيا أو وسيلة تعليمية بالمعنى المدرس أو الاخلاقى .. وينسون أن المعلومات ليست العلم .. والنصيحة ليست الأخلاق .. وهناك نوع من المسرح يختص بهذه المهمة – وهو مسرحة المناهج – وتلك لها شروطها ومكانها وأساليب تحقيقها وهى غير المسرح كمسرح يختفى فيه الدرس إذا صح التعبير وراء المتعة والإحساس الجمالى وتجربة فهم العالم والنفس التي يحملها فن المسرح .
- استخدم البعض الأطفال الصغار والذين هم موهوبون بالفعل كدمى في تقديم أعمال لا تناسب سنهم أو قدراتهم .. فبددوا موهبتهم الواضحة في الغناء والأداء فيما لا طائل ورائه سوى تحقيق رغباتهم هم

-

ككبار .. ولم يتنبهوا لآثار ذلك الفعل السلبية على من هم في تلك السن المبكرة .. وكان الأجدى استخدام هذه المواهب الجميلة فيما يؤكد طاقاتها ويحترمها وينميها .

- بعض المؤلفين يثقلون عالم الصغار بمفاهيمهم هم الكبار للعالم والقضايا الكبيرة .. صحيح أن أطفالنا يجب أن يعايشوا هذا وهم بالفعل غارقين فيه ولكن من منظورهم ومن خلال قصص وأحداث ورؤى تخصهم وتتوافق مع نظرتهم هم للعالم تلك النظرة الكلية والتى لا تقف أمام التفاصيل .. النظرة الإنسانية التي لا تكبلها المصالح والرؤية التجسيدية لا التجريدية للعالم .
- بعض المؤلفين يصرون على قتل الخيال بالاعتداء على الأسطورة أو الحدوتة وإفراغها من حلمها بالمستحيل والخارق وغير العادى .. والذى عاشت به لآلاف السنين تحت وطأة الرغبة في التأكيد على نظرة خاطئة للعلم وللواقع وللفن .

اتركوا الأطفال يحلمون .. وابحثوا عن حلم الأجيال الجديدة بدلا من حرمانهم من أحلامهم أو أحلام من سبقوهم .

- **البعض ينسى أن أقرب السبل لتحقيق الجمال هو البساطة .. وأن الإبهار في مسرح الطفل لا يكون بالديكور الضخم ولا الحركة المعقدة أو استخدام الوسائل الفنية مجانا .. وبلا هدف حقيقى .. وإنما الإبهار يكون في ابتكار الوسائل والحلول الأبسط لتحل المشاكل الأكثر تعقيدا .. يكون بإثارة الدهشة واستثارة الذكاء وإشباع التوقعات بما هو غير متوقع دون مبالغة .**

وترى لجنة التحكيم أن وجود بعض الملاحظات لا تقلل بحال من الأحوال مما تم إنجازه بالفعل في كل العروض وإنما هى تضمها أمام الفنانين الهواة والمحترفين الذين يحلمون بمسرح جميل للطفل ليناقشوها مع أنفسهم .. بالصدق والصراحة المطلوبة للعمل مع الأطفال .

بين الحقد والنقد

السيد/رئيس مجلس إدارة صوت القاهرة

للصوتيات والمرئيات

تحية من القلب

لا أريد أن أتدخل في الأسباب التي تجعل مخرج العرائس – صلاح السقا حكما لتقييم الأعمال المقدمة للأطفال .. ولكن لأن الأمر يخص مسلسلا كتبته للشركة وهو مسلسل (حكايات بطعم القرنفل) ولأننى قرأت التقرير الذى رفض به عشر حلقات من المسلسل وهى الحلقات من (13-22) فإننى أجد نفسى مضطرا لتوضيح الآتى :

أولا : لم أكتب المسلسل ليقدم بالعرائس أصلا .. ولكن العرائس قد تلعب دورا في بعض أجزائه حسب ما يراه المخرج لأنه مكتوب لإحياء الروح الإنسانية والمفتقدة وإعادة الألفة الحانية لجلسات الحواديت ، والعلاقة الحميمة بين الجدات (ذوات الشعر الأبيض وعطر البخور والقرنفل) وبين الأجيال الجديدة بإعادة إحياء تقاليد توريث القيم والعواطف الإنسانية بين الأجيال من خلال البشر أنفسهم (وإذا استخدمنا وسائط أخرى تكون بقدر ما تحتاجه الضرورة الفنية !) .

ولذلك لا ارى أية علاقة بين (مخرج عرائس) وبين إمكانية التقاط هذه الخيوط الرهيفة في العلاقات الإنسانية والإبداع .

ثانيا : توحى طريقة كتابة التقرير بعدوانية شديدة ورغبة في إيذاء مشاعر الكاتب ، الذى أضناه التعب والسهر لا من أجل كتابة هذه الحلقات ولكن عبر سنوات طويلة تمخضت عن أكثر من مائة كتاب للأطفال أخرجتها المطابع وقدمتها الإذاعات ومحطات التلفزيون المصرية والعربية .. وأيضا

عشرات من المسرحيات .. وغيرها لتصنع منه في النهاية ما هو عليه الآن وما بناه بالتعب والجهد ليكون لاسمه مذاقه الخاص في عالم الكتابة للأطفال .

ولذا أجدنى مضطرا دون الدخول في مهاترات او جدل مع صاحب التقرير فألفت نظر سيادتكم الى بعض النقاط التي لا تليق بتقرير فنى لمن يعتبر عند البعض خبيرا فنيا في مجاله .

1. ذلك التلخيص المخل للحلقات والذى يصل إلى حد ذكر عنوان الحلقة وكأنه كاف للتدليل على قراءتها واستيعابها .
2. اتهامه المباشر لى بقوله (شاورته الشكوك) و (الشين من عنده وليست من عندى) فهو يقصد ساورته الشكوك أننى لست كاتب هذه الحلقات .. ويكرر ذلك مرة أخرى .. وهو أمر قد يدفعنى لحماقة مقاضاته .. فعبر خمسين عاما في الكتابة للأطفال لا ينبغى لأى من كان أن يلقى باتهاماته بهذه الطريقة الفجة – حتى لو كان يقصد أن يربأ بى !!

3. لأول مرة في تاريخ النقد الفنى يستعمل ناقد تعبيرا لم اسمعه إلا في سوق الغلال أو على المقاهى وهو يتوج مقاله الفذ وحكمة الإبرام بقوله (خيرها في غيرها !) ، أو في قوله (خانه الحظ وحرفته الكتابة) وكأننا في مجال صفقة أو شروة لقطة في سوق العتبة !

من هنا يا سيدى

أجد نفسى مضطرا للقول بأن هذا (الحكم الفذ العادل الخبير) لم يقرأ هذه الحكايات أو قد تكون قد قرأت عليه ولم يفهمها كما يجب وقرر رفضها بإصرار وترض لغرض ما ..

أن معلوماتى المؤكدة تقول أن الأطباء قد منعوه منذ أعوام لأسباب صحية بعدم القراءة وهذا ليس عيبا فأستاذنا نجيب محفوظ ممنوع من القراءة أيضًا ولكنه يعترف بذلك ولا يجد غضاضة فيه أما لإصرار على التصدى لمسئولية قراءة أعمال مكتوبة بخط اليد فهو أمر في هذه الحالة يصبح موضع تساؤل .

الأستاذ المحترم

لم يجد السيد الناقد القارئ في تلك الحلقات اى (بناء درامى) واى هدف او تشويق او تثقيف – فانا في رأيه لم اكتب تلك الحلقات وإنما كتبها باسمى من يريد الإيقاع بى ! بعد فوزى أو قل فوز مسلسلين أخيرين لى من إنتاج صوت القاهرة هما :

- عندما تضحك الشعوب من إخراج محمود إبراهيم .
- حكايات شعرية من إخراج حسن عبد الغنى

بجوائز مرموقة في مهرجان التلفزيون الماضى .

وبعد رحلة امتدت لخمسين عاما في الكتابة للأطفال في مصر والعالم العربى لمسرح العرائس وللإذاعة وللتلفزيون وللسينما وأيضا لكتب الأطفال – اذا بى اكتب (هراء) لا يجد فيه (خبيركم الفنان القدير) شيئا يستحق الذكر !

ألا يثير هذا بعض التساؤل .. والشك ؟ لذا ودون الدخول في مهاترات تاريخية مع سيادة (القاضى) الفاضل العادل الذى اخترتموه للحكم في قضيتى ، أطالبكم برده – أليس هذا حقا دستوريا لى ؟

واتمنى أن يتدخل (قاض) آخر يتمتع بروح العدالة ! كى يعيد قراءة الموضوع والحكم فيه بروح الحكم العدل أو فلنفعل كما كان يحدث من مدة ونقوم بترتيب مواجهة بين السادة (خبراء القراءة) والسادة (المهتمين بالكتابة) للدفاع عن إبداعهم ضد التعسف المفرط والافتراء المبنى على عدم الجدية ..

يونيو 2004

ملاحظات أولية

حول تبسيط الأعمال الأدبية

للأطفال أو للشباب

عملية تبسيط الأعمال الأدبية لكبار الكتاب عملية محدودة وضيقة النطاق لدرجة يمكن حصر ما تم منها (بالواحدة) كما يقولون في التعبير الشعبى في مختلف لغات البشر وآدابهم . نتوقف على الفرض المستهدف منها .. وهو في الغالب غرض تعليمى يتعلق باللغة وتدريسها في المدارس .

ليست كل الأعمال الأدبية قابلة للتبسيط الممكن ان تفق أعمال بعينها قيمتها الأدبية وروحها وسحرها إذا ما تعرضت لذلك ...

- **ليست كل الأعمال صالحة لتفي بالغرض المطلوب إما لطبيعة موضوعها الذي تحيط به كثير من المحاذير والمحظورات المتعلق بثقافة وتربية الأطفال ... وفق تقاليد المجتمع الدينية أو الخلقية .**
- **افتقار الساحة في فترة معينة لوجود إعمال أدبية راقية لتثقيف الأطفال وإشباع رغباتهم قد ليستدعى اللجوء إلى هذه العملية واختيار ما يسد النقص في ميدان الكتابة للأطفال .**
- **الأطفال عموما لا يهتمون كثيرا باسم المؤلف إنما ينصب اهتمامهم أساسا على العمل نفسه وما يقدمه من متعة وإثارة ... وهم غير مهتمين بشهرة الكاتب ولا مكانته الأدبية في مجتمعه أو واجب هذا المجتمع حياله .. إلا بالقدر الذي تفرضه عليهم رغبات الكبار وأهدافهم .. ونادرا ما تجد أطفالا يعرفون اسم المؤلف لاشهر وامتع القصص التي اسعدتهم .. فما بالك بتلك التي فرضت عليهم كواجب دراسى ... إذ أن معرفتهم به تأتى قسرا وترتبط في أذهانهم بكل ما يفرضه (الواجب المدرسى والسقوط والنجاح وكل ما يفقد عليه القراءة الاختيارية المتعة والحرية ..**

- **بدأت عملية التبسيط هذه في الغرب عموما وعلينا أن نتذكر أن عمر الرواية الحديثة كشكل أدبى يمتد في اللغات الغربية إلى حوالي ثلاثمائة عام تقريبا .. في الوقت نفسه كانت الكتابة للأطفال متخلفة أو بدائية ولم تصنع تقاليدها ولم تظهر إنجازاتها الكبيرة والمؤثرة إلا في وقت متأخر وبشكل أقل .**
- **ولتلاحظ أن اشهر عمليات التبسيط لأعمال الكبار وهى قصص (شكسبير) تشارل لام .. لم تجر على المسرحيات كمسرحيات .. فلم تكن تحويلا للمسرحيات الشكسبيرية إلى مسرحيات صالحة للتقديم للأطفال .. وإنما تم سردها كقصص .. أي ما حدث هو تحويل للنوع الأدبي لنوع آخر وبالتالي لم يكن هناك أى التزام حيال أسلوب شكسبير أو طريقة حواره وسماته أو حتى الالتزام بكل شخصياته ..**

وإنما جرى سرد للوقائع والأحداث وهو أمر يختلف بالطبع لو جرى الأمر في إطار نفس النوع الأدبي – كمسرحيات – ذات طابع خاص ومنفرد في الأسلوب وفى إدارة الحوار .. وترتيب الأحداث وفق التطور الدرامي المسرحي وفنياته الدقيقة ...

يلاحظ أن ما تم تبسيطه بخلاف هذا من أعمال أخرى حدث بالنسبة لكتاب بعينهم .ولروايات بعينها من أعمالهم ..

مثل بعض أعمال تشارلز ديكنز ورويرت لويس ستفنسون .. والكسندر ديماس ... وغيرهم كما تم التعامل مع بعض الروايات ذات الشهرة الخاصة .. وذات المكانة في تاريخ أدب اللغات الغربية .. والتي لها شهرة فائقة وتمثل علاقات فارقة في هذا الميدان .. قبل / روينسون كروزو .. ورحلات جاليفر
ممثلا في صياغات مبسطة ...

- **سد الحاجة في فترات محددة – لتزويد الأطفال والشباب بأعمال أدبية معتمدة .. في فترات عجز أو قصور الإبداع للأطفال عن ذلك ..**
- **الحاجة لربط الأطفال المحدثين بتراث معين من إبداع لغتهم في الماضي ..**

<u>ملامح معينة للأعمال التي جرى التعامل معها</u>

يلاحظ أن الأعمال أو الروايات التي تم تبسيطها لها ملامح وشروط معينة ..

- **تقوم الرواية على أحداث كبيرة – مغايرة مثيرة سر غامض ينبغي كشفه – مواجهة أخطار – مؤامرات كبرى – حروب ضارية – بطولات فذة – قصة حب رومانسية تتسم بالإثارة أو مواجهة الخطوب – أحداث تاريخية هامة مثل (دون كسيوف – ذو القناع الحديدي – سجين زندا – الزبنقة السوداء – الفرسان الثلاثة ... متر بكويك – قصة مدينيين – القرصان بلود – كنوز الملك سليمان – دراكيولا – جزيرة الكنز – جزيرة المرجان – دافيد كوبر فيلد – بنسحسن كروزو ... وغيرهم ..**
- **تظل أحداث الرواية وتطورها أكبر كثيرا وأهم من الأسلوب الذي كتبت به .. وأكبر من الشخصيات الفرعية والتفاصيل التي يمكن إهمالها دون أن تؤثر في مسارها ..**

- يكون حضور الأطفال بأشخاصهم وأحلامهم وأمالهم وظروفهم المثيرة للشفقة والعطف مؤثرا وفاعلا في العمل الأدبي أو يكون البطل طفلا أو شابا – مثل جزيرة الكنز – اوليفرتويست وغيرهما ..
- أن يكون عالم الأطفال الغنى بالخيال والإثارة .. أو بالبراءة والطزاجة واضحا في الرواية بحيث يغنى التمسك به وإبرازه خلال عملية الاستبعاد والتبسيط عن أجزاء أو تفاصيل أخرى .
- أن تكون الرواية أو العمل الأدبي ذا حضور طاغ في تاريخ آداب اللغة المعينة .. بحيث يصبح تأخير تعرف الأطفال عليه مضرا أو مؤخرا لزراعة قيم أو أفكار أو طموحات معينة لدى الأجيال الجديدة أو تكون الخسارة فادحة . مثل – دون كيشوت مثلا أو أعمال شكسبير أو بوكاشيو وتشوسر .

- <u>هل نحن في حاجة لتبسيط أعمال أدبية عربية لأطفالنا ؟</u>

أو لنقل : هل هناك أعمال عربية تلح علينا أن نبسطها لأطفالنا أو تقتضى حاجاتنا إليها أن نفعل؟

- قبل أن نخوض في إجابة لهذا السؤال قد لا يوافق عليها الكثيرون نو أن أعيد إلى الأذهان بعض ما تم في إطار تقديم عيون الأدب العربي ونماذج من الإبداعات العربية عبر العصور المختلفة إلى تلميذ القرن العشرين خلال النصف الأول منه وهى التجربة التي قدمها مجموعة من أساتذتنا الكبار على رأسهم الدكتور طه حسين .. من خلال سلسلة (المنتخب من أدب العرب) وفيها تم تقديم نماذج من حكايات أيام العرب وحروبهم وكذلك الخطب والخطابات والقصائد .. والنوادر ، والطرائف .. محتفظين بأسلوبها المتفرد كنموذج للصياغة والسبك في عصرها ، مع توضيح معاني الكلمات والألفاظ التي لم تعد عصرية وكنا نجد في هذه الكتب ما يشبع رغبتنا في الإطلاع على عيون الأدب العربي ورموزه .. وفى نفس الوقت ساهمت في الرقى بقدراتنا الإنشائية والصياغية ، وكان لحسن الاختيار وتنوعه وشرحه فضلا كبيرا في ربطنا بالتراث وتذوقه ، وكان هذا متوافقا مع الاهتمام العام والجاد بدراسة اللغة العربية وقواعدها وشحن الذاكرة بالألفاظ الجميلة والتعبيرات النادرة والصياغات الجيدة ... ولم تكون هناك حاجة للتبسيط ... ولم تكون هناك ضرورة لذلك التبسيط .

<u>وعلينا أن نضع في الاعتبار بضع ملاحظات هامة :</u>

- الطفل فيما قبل سن القراءة ليس في حاجة ملحة للتعرف على أسماء الأدباء الكبار أو حفظها لأنه أصلا لا يهتم بأسماء مؤلفي الأطفال الذين يحررون له القصص والصفحات الملونة والمجلات ونادرا ما يعرف اسم أديب أو شاعر منهم .. عن طريق قراءات إبداعه مهما كان منتشرا .. إن لم تقدمه وبإلحاح وسائل الإعلام الأخرى .
- عندما يجيد الطفل العربي القراءة ويكون هذا عادة عندما يبلغ سن الثانية عشر .. أقصد القراءة القادرة على استيعاب ما هو خارج إطار ضغوط الواجبات المدرسية وهموم التحصيل والامتحان .. فإنه .. يستطيع قراءة كل الكتب والأعمال المرشحة للتبسيط نفسها ولا أعتقد أن هناك عملا يحتاجه وتستعصي عليه قراءته .

- في أواخر الستينات وأوائل السبعينات بدأت نغمة تبسيط أعمال الكبار والإلحاح على ضرورتها ولم نر عملا واحدا تم تبسيطه .. لكى نحاول دراسته والحكم عليه .. ولكن كانت هناك تجربة من خلال (مجلسة سمير) حين قدمت عملين هما (عودة الروح) لكاتبنا الكبير (توفيق الحكيم) قام بتنفيذها الأستاذ(وليم الميرى) الأمريكي الإقامة والجنسية الآن والعمل الآخر كان (في سبيل الحرية) التي كان يقال أنها من تأليف الزعيم (جمال عبد الناصر) وقام بإكمالها (عبد الرحمن فهمي) وهو أمر لم تعرف حدوده تماما !! ولكن العمل الثاني قدم بعد تحويله إلى شريط مصور كان كاتب السيناريو بسبب ذلك

حرا في الحذف والإضافة والتغيير حسب مقتضيات الوسيلة المختلفة وشروطها ، أما (عودة الروح) فلم تكن في الحقيقة سوى دليل قاطع على عدم جدوى أو فائدة مثل هذا التبسيط .. إذ لم يكن المبسط يفعل سوى اختصار بعض الفقرات ومناطق الوصف .. وفقرات من تلك التي تبدو فلسفية أو فكرية .. دون التزام أو حسب خطة عمل .. أو رؤية للعمل (بعد تبسيطه ....) رغم بساطته الطبيعية !! . وكان بعض الأطفال يحتجون على ذلك ويفضلون قراءة الرواية كما هي .

- على ضوء ما سبق كله أرى أن هناك بعض الملاحظات ينبغي الالتفات إليها ووضعها في الاعتبار ، إذا ما كان هناك إصرار على أن الحاجة ملحة لتقديم أعمال عربية للكبار إلى الصغار الذين قرأوا ودرسوا بالفعل ولسنوات طويلة أعمال العقاد وطه حسين ولطفي المنفلوطي وغيرهم :

تعاظم الإنتاج الأدبي والفني للأطفال .. وتنوعه بحيث أصبح قادرا على سد الاحتياجات الملحة لثقافة الطفل .. مع بعض التركيز والتوجيه لتغطية كل الاحتياجات .. والالتفات إلى قيمة هذا الإنتاج ونقده نقدا موضوعيا لإبراز جوانب الجمال فيه (وهو أمر نادر الحدوث) ولذا تبدو حديقة أدب الأطفال الغناء فقيرة جرداء بسبب سور (السنط والزربيح) والبوص الجاف الذي يحيط بها، ويمثله عدد من محتكري التحدث للأطفال ومحترفي الكتابة لهم .. بل والتحدث باسمهم في كل مكان ومجال .

- تعاظم دور الوسائل الأخرى – السينما والتليفزيون لتقديم أعمال كبار الكتاب وإبداعات التراث بصور أكثر جماهيرية .. وأيسر وصولا بغض النظر عن أمانتها أو التزامها أو مسئوليتها حيال هذه الأعمال .

وليس من الغريب أن نقول أن (نجيب محفوظ) معروف لدى كل الأجيال في كافة أنحاء الوطن العربي .. رغم أن الواقع يقول أن نسبة كبيرة منهم لم تقرأه وتعرف اسم مؤلفاته كأفلام .. وهذا ينطبق أيضًا على (طه حسين) و (يوسف إدريس) و (إحسان عبد القدوس) وأيضا (سيد بدير) و (فريد شوقي) !!

- هناك شيء أظنه يتعلق بطبيعة اللغة العربية وبميزاتها العديدة سواء كان ذلك يتعلق بالغنى عن أساليب التعبير والصياغة .. في المترادفات وفى احتمال ألفاظ كثيرة لأكثر من معنى واستخدام ، وهو أمر يمكن أن يتحدث فيه المتخصصون .. ليقولوا كلمتهم في تبسيط المعقد وكيف ؟ ...
- ارتباط الأسلوب البلاغي والصياغة البيانية .. بصاحبه وعدم إمكان فصله عنه .. فلكل طريقة في التعبير وفى الصياغة واختيار الألفاظ .. فكيف يمكن نسبة العمل إليه بعد اللجوء إلى تعبير مغاير أو صياغة

أيسر أو ألفاظ أكثر تداولا وهو يتعمد التفرد أو استخدام المنقرض مثلا وهو أمر موروث وضارب في التاريخ بحيث يمكن معرفة المبدع من طريقة وأسلوب إبداعه ..... لذا نجد أعماله تحت دعوى التبسيط ، لم تعد تنسب إليه أو تنتمي .

- تتحكم فينا روح (الأبوة) وهو ما أطلعه على تلك الرغبة القاتلة عند الجميع في تسييد مفاهيمهم الأخلاقية وطموح كل فنة للضغوط من أجل تبنى قيمها .. والكل يفعل ذلك حيال الأطفال .. وكأنه يمتلك الحق كله .. والحقيقة كلها .. وهناك رغبة عارمة في الاعتداء على حرية المبدع تحت حجج لا حصر لها .. دينية وقيمية وأخلاقية .

ويعطى كل لنفسه الحق في شطب ما لا يعجبه أو تفيد ما لا يوافق عليه .. أخلاقيا أو دينيا أو أساسيا والأمثلة التي ظهرت عند إعادة طبع أعمال كبار الكتاب أو عيون التراث العربي ، كثيرة وفاضحة .. وتحت دعوى التبسيط سيتم ذبح الأعمال الإبداعية .. لصالح الأخلاق الحميدة والعصبية القومية والتطرف بكل ألوانه وأهدافه .

- تخلف أساليب التعليم عندنا واعتمادها على الحفظ والاستظهار وتقديس القديم .. وليس على النقد وأعمال الفكر والعقل والإبداع .
- لم يعد العالم يلجأ إلى أسلوب التبسيط هذا خارج (المؤسسة التعليمية) مكتفيا بالنماذج التي تؤدى هذه المهمة .. فلم نسمع عن تبسيط أعمال (ماركيز أو ايتماتوف أو نجيب محفظ أو ميلر أو برنارد شو) فلم تعد هناك ضرورة حاكمة لذلك ، وبعد أن تبين أنه ليست هناك فائدة حقيقية من ذلك .

ملحوظة أخيرة :

- دون تعصب ضد فكرة التبسيط .
- ودون تعصب لها أو تمييز .
- يجب أن نناقش الأمر على ضوء العائد الحقيقي .. مثل هذه العملية .. والضرورة الملحة لها أن وجدت .. وأرى أنه علينا .

في مجال التعليم والدراسة :

- علينا أن نحذو حذو أساتذتنا الحكماء أصحاب (المنتخب في أدب العرب) على أن تتسع دائرة الانتخاب لتشمل نماذج من الإبداعات الحديثة .
- ولعل من تجربة دار الفتى العرب حيث قدمت مختارات عن شعر الشعراء المحدثين الكبار للشباب جديرة بالنظر .

في مجال التربية والإبداعية والوجدانية :

ينبغي أن نجد الوسيلة لتيسير قراءة أبنائنا للأعمال الإبداعية كما هى .. لقد قرأ جيلنا هو في العاشرة والثانية عشر – روائع الأدب الإنساني العالمي وأشهر الروايات البوليسية مع ألف ليلة وليلة ..

والمنفلوطي وإبداعات المحدثين العرب .. وروايات تاريخ الإسلام .. دون مشقة ولم تظهر عندنا مشكلة أو حاجة ملحة لتبسيط الإبداعات الكبرى اللهم إلا ما يتعلق بتقديم عيون التراث الشعبي وما أجملها .

●

معرض الكتاب و 25 عاما من معارك الفعل والكلام

25 عاما ..

هى عمر كامل لإنسان يخطو نحو النضج أو نصف عمر إنسان حكيم !

25 عاما ليست كغيرها من السنين .. يكاد من عاشها ألا يصدق أنها كغيرها من الأيام مرت .. لما حفرته فى ذواكرنا ولما فعلته فى حواضرنا وما بدلته بريفنا وغيرت ربيعنا وخريفنا ..

25 عاما .. على العرب وعلى العالم .. منذ يونيو البائس وإصرارنا على الخروج من السقوط اليائس إلى العبور العظيم ، عبر معاناة الاستنزاف والخروج الكبير إلى بلاد الله ياخلق الله خلف الرزق ولقمة العيش .. والأحداث المؤسفة والإضرابات والمناهدة ثم المواجهات والمعاهدة وإعادة بناء الجيش ... واجتياح بيروت العربية وغزوات الأشاوس الهمجية فى حماية الشرعية الدولية أو فى مواجهتها وخراب البنوك والذمم ومعاناة إثبات الذات بين الأمم بعد تغير المفاهيم والقيم .. وهروب الألمان من البيت حتى سقوط وانهيار السوفيت وحروب العقائد والأديان فى كل مكان وكأن رعب الجهالة والأوهام عاد يطبق على عنق بنى الإنسان ..

25 عاما ..

منها الحامى والبارد والمر والمالح والنى والمسموم محملة بالهموم وما أكثرها وبالفرح وما أقله أمم تقوم ودول تذوب ماء بين الأصابع .. كسف تسقط وكتل تتفتت ، حروب تخمد وقتال ينفجر زلازل تكشف عورات السكون وبراكين جنون ...

فى بداية هذا الربع قرن من الزمان ..

كانت أصداء معارك القائلين بالفن للفن ، والمؤمنين بالفن للحياة ، ماتزال باقية تشعل قضية الالتزام بمعناه العام الإنسانى فتدخله قسرا فى نفق ضيق من الالتزام السياسى أو الإيديولوجى عند الطرفين .. وتلتهب معها قضية الانتماء العربى والثقافة العربية ، فتحرض عمود الشعر مسلحا بالوزن والقافية والطبول على تفاعيله وأشلاء بحوره فتدفعها لامتطاء الصواريخ والخيول .. ولم يعف هذا من غاشية يونيو الجارحة الفاضحة : فتدفع بالجميع إلى الحلم ، خروج الوطن من كبوته وتجاوز محنته .. فانطلقت الدعوات نحو

المسرح المصرى الجديد بحثا فى الجذور الشعبية عن هوية !!.. جنبا إلى جنب مع الدعوة لدق أبواب السماء لعل الله يغفر لنا خطايانا .. !

وانتشرت وراجت كتابة المذكرات لتبرئة الذمة ، إلى جوار دعوات حارة مخلصة لإعادة النظر فى التاريخ وفى السلوك .. وإعادة قراءة تصاريف الرجال وأفاعيل الملوك ...وبينما انكب شعراء وأدباء على هموم ذواتهم يكتئبون وينتحبون بل وينتحرون .. مضى آخرون يجوبون جسد مصر أرضا وبشرا وتاريخا بحثا عن مبرر للاستمرار ، بإصرار يبدو رومانسى النزعة .. وانهمك آخرون كثيرون يظهرون مهارات فى مغامرات التجاوز الشكلى والإبهار الحرفى ، باعتباره ثورة على النفس والسقوط . وكان إلى جوارهم آخرون يلعبون بطين البرك الشعبية يشكلون منها على هيئة الطير ، وينفخون فيها ليتحول يوما ما إلى حجارة فى يد الأطفال ، تقول أن تكون أو لن تكون . وتلعب دورا لتوقظ الجزء الذى مات فى القلب العام ..

25 عاما وقد فاضت مياه كثيرة ودموع ..

وركدت مياه أكثر تحت أقدام الجموع ... إلى أن ارتجت الأرض وأصبحت على الزلازل .. واستيقظ الخلق فى الحوارى على فعل الحجارة ..

ومازالت معاركنا الثقافية وكأنها هى هى !! وقد اتخذت أشكالا أخرى .. خرج المثقفون لاعنين الخنادق القديمة ليتمترسوا وراء متاريس جديدة .. يبحثون عن هوية وأساليب وأشكال جديدة . وأن ارتدت العرائس كاللاعبين .. أحيانًا نفس الملابس القديمة .. وعادت بالحداثة والبنيوية تخلط الأصالة بالمعاصرة .. والعربية بالعالمية . والبحرمتوسطية بالفرعونية ، وتنتصر للشكلانية أو تحتمى بالواقعية الرومانسية محرضة القصيدة النثرية على أسطورة العامية . والشكلانية على الإنسانية ... كرنفال يجدد الثياب والأسلحة ، وكله يكاد ينسى أن الصراع الأجدى هو البحث فى متاهة الذات عن حبل نجاة . هروبا من أسر الهزيمة باللذات ، سواء بالتاريخ أو بالواقع وصولا إلى قدرة ضرورية على اكتشاف المعايب قبل وقوع المصائب .. وضرورة قادرة على التقدم نحو الجديد نجاة من سراديب التخلف .. وتظل المعركة كما كانت عبر كل العصور .. صراع بين المبدعين والأغبياء .. بين عشاق الحرية والأوصياء ... معركة واحدة وحيدة تستحق أن تشحذ من أجلها القصائد وأن تحتشد لها أساطير الإبداع وأغنياته !!

ولهذا تكون هذه البهجة الثقافية السنوية تقام كل عام وبانتظام وكأنها تحد للزمان والأحزان والأيام . كتب وتصاوير أشعار وأساطير حواديت واكتشافات قوانين نظريات .. أفكار تؤكد أن الغد ملك المبدعين الذين هم على إيمانهم بالإنسان وبالمستقبل باقون ... يؤكدون أن الكلمة كانت البدء وستكون إلى الأبد وأن الإنسان قادر على تخطى كل هم وكيد ، وعلى انتزاع البسمة والفرحة من براثن النكد .. فقد تتهدم سراييفو فتمسح دموعها كلمات (ناظم حكمت) وتحترق البصرة ولكن (السياب) يقوم بين أيدينا ... يغنى لإبنة (الجلبى) ويصافح (خليل حاوى) (توفيق زياد) ويوصيه خيرا بالمبعدين بينما (يوسف إدريس) يفرح كطفل وهو يداعب (يحيى حقى) فى قاعة الكتب الأجنبية . و(فؤاد حداد) فى المقهى الثقافى يؤكد أن الأرض ستظل تتكلم بالعربى ... وأن الزمان مهما كان مر فلا بد أن يمر . ويعثر الإنسان فيه رغم كل حزن على ما يسر .. مادام على جبينه عرق شريف وفى صدره قلب يعشق وفى يده قلم عفيف ويملك عقل حر !!

●

ما رأيكم يا رؤساء كل الفنانين !!

هل هكذا تم المراد من رب العباد . وأصبح السباق للسفر شرقا إلى إسرائيل يجرى علنا ويثير شهية كل الراغبين فى الشهرة الإعلامية . ولعب دور أهم من إدوارهم الإبداعية . والظهور فى الصورة (وهى ليست صورة عبد الحليم وجاهين بالتأكيد) وسجل الفضل للكاتب (الذكى) على سالم وللغباء الذى قوبلت به رحلته التاريخية (على حسابه) إلى تل أبيب . ذلك الغباء الذى يدفعنا إلى البحث عن التفاصيل وتجاهل الأهم (والأهمم) فى كل عمل جليل أو عويل .

ها هو أشرف فهمى (بعد مدحت صالح) يستعد للسفر دفاعا عن حقوق السينمائيين المهضومة والتى سيسيل لاسترادادها لعاب الجميع .

فالأمر لم يعد مجرد بؤرة ضوء إعلامى تسلط على كل من " يتحليط " للنظام العالمى الجديد . ولكن الأمر يتعدى ذلك لفيض من العملة الصعبة والسهلة . ولذا وبفضل ريادة (المفكر المناضل) على سالم انفتح المستقبل يرحب بكل قافز مثله إلى الأمام . ولينكفئ الأغبياء والمتخلفون يبكون جثث الشهداء ويحرقون البخور أمام أصنام الوطن المهان !. بعد تحطم أحلامهم المراهقة والصبيانية فى العدالة والاشتراكية الوهمية منها والعلمية !!

العجيب فى الأمر أن الكل يدعى البطولة . وكأنه يفعل ذلك من نفسه ، ولنفسه وبنفسه . دون أى ضغط وليس ضمن أى خطة رسمية أو أمنية أو حتى وطنية !. إنها ميزة الريادة لفنانين نالوا حظ الإفادة بالإعادة بالتمرغ تحت كعب السادة .

قفز على سالم بفضل خبر صغير لمخبر مجهول رآه صدفة عند الحدود (!!) وكان الأمر فى ظروف أخرى سيمر ، دون التفات كما مرت اتفاقية الجات .. ولكن لأن الأمر مطلوب إشهاره لذا تسابق المحللون عن يمين (على) وعن يساره ، لكشف خططه وفضح مساره ، ليصبح حديثا على كل لسان .. وليصدر ضده أو معه البيان تلو البيان .. ويصبح الأمر جليا عادية واضحا للعيان !

ثم يأتى دور مدحت صالح .. الذى كان فى إطار مختلف فقد رفض التعليق أو التشليق أو حتى الكلام .. وإذ به فى بحر نفس الأسبوع يصبح ويكون نجم احتفال صوت العرب .. لاحظ صوت العرب وليس غيرها من الإذاعات أو الشائعات ..

ويجلجل بصوته العائد المصنفر لأمة العرب فى عيد صوتها ، وعلامة نضالها الغضنفر !! وتذيع الحفل كل الموجات من كفر الحلو حتى إيلات وهكذا .. كاتب بعد فنان .. وفنان بعد أى كان .. ولم يسأل نفسه إنسان .. ما سر صمت النقابات الفنية واتحاد الفنانين الذى يرأسه المناضل سيد راضى !! ما سر التكتيم والتعتيم على قرارات المقاطعة إياها التى كانت للفنانين المصريين بجموعهم وجمعياتهم والعقوبات الملحقة بها ماذا حدث لها ؟ أم أن الأمر لا يستأهل حتى التعليق !! نحن لم نسمع عن قرارات ناسخة لها أو لاغية على الأقل لتظل صورة الديمقراطية السليمة عليها القيمة ..

ماذا حدث يا رئيس الفنانين ؟

أم أنك مهتم بإظهار (العين الحمرا) لنا نحن ، حتى نخاف ونكش ونحط طرحه على الوش !

- **الرئيس السابق للاتحاد مشغول بأفلام الأطفال ومشاكل النينجا والغول مع أنه هو الآخر مسئول فهو رئيس (كل الفنانين العرب) ولا عجب يا رجب !**
- **ورئيس نقابة الممثلين مشغول بقضية فيفى القرن العشرين وهل تدفع عشرة واللا عشرين ؟!**
- **ورئيس الكتاب مشغول بملاحقة الشيوعيين والناصريين والإخوان المسلمين والوفديين بكرباج الشماتة والعذاب بعد أن عم الخراب .**
- **والموسيقيين بمشكلة الغازى سليم سحاب .**
- **ورئيس السينمائيين التليفزيونيين ملخوم بما لا أدرى فى الحقيقة فليس للنقابة حس ولا خبر .. حتى (شفيع شلبى) الذى كان له بعض الخطر .. لم يعد تحت النظر .. والقيمة خفت م المطر . إيه يا سادة ! لماذا هذا الهدوء المريب العجيب .. أم إنكم مشغولون جميعا بأكل الزبيب والبغاشة مع خيشة ، والمليونير والباشا والعسل والنظام متخيلين إنكم فى هذه الزيطة المسرحية الفذة ستجدون فى الصمت لذة ، لتقدموا أوراق اعتمادكم كمحاسيب للشرق الأوسط الجديد ، الذى على ما أعتقد لن يرحم التفاهة ولا البلاهة . لأنه لا يحسب حسابا إلا للأقوياء أو على الأقل للأسوياء الذين حين تذلهم وتتعقد الأمور أمامهم .. يبصرون جوهر الأشياء . ولا تلعب بهم وكالات الأمن ولا وكالات الأنباء !**

●

سوهارتو .. والمعاش المبكر

الاصل أن يولد الإنسان حرا ..

وهو يلجأ للتنازل الإرادى عن بعض هذه الحرية للجماعة التى ينشأ ويرتبط بها ، فى سبيل ما يضفيه وجوده وانتماؤه إليها على حياته من أمن ، فى مواجهة أخطار الطبيعة ومتاعب الحياة . وبقدر ما تحققه الجماعة أية جماعة من أمان وقوة وكرامة لأفرادها ، بقدر ما يصبح ما يتنازل عنه من حريته الفردية إضافة إلى تلك الحرية لا انتقاصا منها ..

وعندما تزداد هذه الجماعة عددا ، وتزداد العلاقات بين أفرادها تعقيدا ، وتتحول الجماعة الأولية إلى مجتمع ودولة ، تزداد حاجة أعضائها إلى ترتيبات وقواعد وأنظمة وقوانين لتنظيم وتيسير شئونها وللمحافظة على ترابطها ، وعلى المسافة الدقيقة بين مطالب حرية الفرد ومصلحة المجموع ، بين حاجة الإنسان الفرد

للأمان والانتماء ومتطلبات التعايش (تعاون / صراع) مع الآخرين . وهذه النظم والقوانين فى الأصل وسيلة لمنع تحول حرية الفرد المطلقة ومصالحه الذاتية إلى معول هدم فى كيان المجتمع .. وأيضًا لمنع تلاشى هذه الحرية أو سلبها باسم مصلحة الجماعة أو الدولة .. أو حتى الوطن إلا فى حالة الموت دفاعا عنه !

هذا كلام قديم قدم الوجود الإنسانى .. وأعيد طرحه بشكل يومى فى كل عصر منذ عرف الإنسان الكتابة والكلام .. واللت والعجن فى شئون المجتمعات وعوامل نموها وفنائها ..

وقد دفعت الإنسانية فى سبيل تحقيق النذر اليسير منه ، الكثير من الضحايا وقدمت الفادح من التضحيات .

فكل الأنظمة .. سواء التى سحقت الفرد وأهدرت كرامته وسلبته حريته .. أو التى تفننت وتشدقت بالحرص على هذه الفردية وتلك الحرية .. جميعها .. ارتكبت كافة أنواع الجرائم ضدها سواء تحت شعار حماية الفرد وتحقيق حريته .. أو باسم مصلحة المجتمع ومجد الشعب وتحقيق أمجاد الوطن .

كلها بلا استثناء استخدمت كل القيم والمعانى النبيلة كالعدل والدين والحرية ، غطاء لبطشها وعنفها ذلك لانها تحولت من صمام للآمان لصيانة حرية الفرد وتحقيق سعادة الإنسان ، إلى سيف لقهره .. وعصا غليظة لدحره .. انقلبت من وسائل لتنظيم حياة البشر ، إلى أدوات لسرقتهم وأساليب متنوعة ومتجددة لتقزيمهم وتغريبهم والتنكيل بهم لحساب الجماعة أو لحساب الأقوى من أفرادها أو فئاتها ..

(هتلر) قاد الملايين إلى حتفها باسمة راضية أو مجبرة مضطرة باسم مجد الوطن والمانيا فوق الجميع .

(ستالين) أباد ملايين أخرى – مقتنعة مؤمنة أو منساقة مكبلة – لا فرق – باسم العدالة وسعيا لإقامة الجنة على الأرض .

(وأوروبا) على اختلاف ألوانها أبادت ملايين أكثر تنوعا وأكبر عددا لرفع رايات التقدم والمدنية والرأسمالية الجديدة .. وما زالت .

أما سوهارتو (98) فقد سلب شعبه الفقير 16 مليار دولار عبر 22 سنة من حكمه .. أى بمعدل نصف مليار سنويا .. أى ما يقرب من مليون ونصف مليون دولار يوميا باسم التنمية وتحقيق أحلام النمور الأسيوية .. وزج إلى سراديب وأعماق السجون والمعتقلات الآلاف المؤلفة من الوطنيين

والمعارضين من اليسار واليمين ، بدعوى مكافحة التطرف . وحماية قيم الأصالة والدخول بأندونيسيا إلى عالم الحداثة عبر بوابة القرن الواحد والعشرين ..

والإنسان يشعر بإنسانيته بقوة كلما ازداد وعيا بقيمة هذه الإنسانية ، وبمغزاها وهو يعانى فى سبيل تحقيق ولو القدر الضئيل الكافى منها .

إن الطغاة بالتأكيد أقل حرية ممن يقهرونهم أو يقضون عليهم وهم يسعون لتحقيق هذه الحرية .

وهم مضطرون بسبب ذلك لارتداء أقنعتها طول الوقت ، ويبحثون دائما وأبدا عن وسائل لصق ولتثبيت هذه الأقنعة وتجميلها . وهى وسائل فى الغالب الأعم لا تفيد إلا فى تشويهها أكثر .. فتظهر الوجوه على حقيقتها فى مرآة التاريخ .. تلك المرآة العجيبة السحرية التى تواجههم صباح مساء بحقيقتهم التى لا تستطيع الأصباغ والأكاذيب تجميلها .. حتى لو صرفوا فى سبيل ذلك مكافآت نهاية الخدمة التافهة التى

يحصلون عليها مثل تلك ال 16 مليار دولار التى حصل عليها سوهارتو المسكين ، عند تسوية معاشه مبكرا بعد 22 عاما من الخدمة الشاقة والتى لم تشفع له عدم إكماله المدة القانونية .

●

حكاية فتحى غانم .. والضجة المفتعلة

حدود العلاقة بين الثقافة والسياسة

كنت أظن أن الهموم الثقافية المصرية قاصرة على سيطرة البيروقراطية وانعدام الخيال وتفضيل أهل الثقة على أهل الثقافة . وإننا كدنا أن نخرج من القوقعة الحديدية التى يفرضها السياسيون أيا كانت انتماءاتهم وتصنيفاتهم العقائدية على المثقفين والفنانين من أبناء وبنات " جلدتهم " الفكرية والتى تفضل أن يكونوا أدوات تجمّل وتبرر أو حتى تهيج وتدعو بالتزام حديدى تتطلبه كل الأفكار والنظم الشمولية والتى تبين عجزها عن استيعاب الإبداع !!

أقول هذا بمناسبة هذه الضجة المفتعلة أو المقصودة التى ثارت حول " رأى " طرحه الفنان والأديب الكبير (فتحى غانم) فى جلسات " ما يسمى بمؤتمر أدباء الأقاليم " الذى أصبح ديناصورا محكوما عليه بالانقراض لأن أهله يفضلون باستمرار إغماض أعينهم عن مرارة الحقائق والغرق فى الأوهام .. وأشد ما أفزعنى الأسلوب الذى تحدث به الصديق (فؤاد حجازى) بلدياتى وزميلى .. وهو أحد الذين اضطهدوا وكتمت أنفاس أعمالهم وأفكارهم . وجاهد جهاد الأبطال لكى يقول كلمته ، وقد قالها ودفع ثمن هذا غاليا .. فكيف بالله يرضى لنفسه أن يصدر الأحكام الباترة ويطالب بالمنع والكسر والرفض ، وهو الداعى لإفساح الطريق لكل الآراء والطبقات والأحزاب .. كيف ينزلق إلى ذلك مع رفض احتمالات الخطأ وحتى مع كل هذا اليقين كان عليه أن يتروى ليكون متوافقا مع مصداقيته الفكرية ، لندع ألف زهرة تتفتح وإذا كنا سنبدأ بأن هناك أمورا وقضايا لا تناقش ولا تقبل الاجتهاد ، فلماذا إذن تثور من أجل مفكر أغتيل أو مفكر يراد به غدر وتمزيق حياته حيا !!

أيها السادة " الملتزمون " وأنا مازلت واحدا من مريدى الالتزام وضحاياه .

ايها المبدعون " حقا " يجب أن نجد أساليب أكثر احتراما للحوار .. أكثر التصاقا بعالم الإبداع الذى هو الابن الوحيد للحرية ، ولاتساع الأفق وللإيمان بالإنسان . ويا صديقى إننى أخالفك فى الرأى ولكنى مستعد أن أموت فى سبيل أن تقول رأيك !! وأن نرتقى فى الحوار إلى مستوى كوننا أدباء . وعفوا أيها الأديب الكبير .. (فتحى غانم) .

451
فهر نـهيت

الفنان الممثل المخرج الشاعر – الزعيم حمدي غيث قرر في لحظة تجلى أخرى غير فنية وعصبية أن يحرق كتابا سئ السمعة والقصد .

فساهم من حيث لا يدرى في حملة ترويجه وانتشاره تلك الحملة التي يحمل راياتها الأعداء العلنيون والمستترون لثورة عبد الناصر واصدقاؤها الحمقى .. ونسى الكاتب حمدي غيث أن فكرة حرق الكتب هذه لم يلجأ إليها عبر التاريخ إلا التتر والغجر من فاشيين وصهاينة وعنصريين وسفاحين ونور .. ونسى أيضًا إن اسالة دم الكتب كانت دائما تتم في مهرجانات الجهالة والتعصب تمهيدا لإسالة دم المثقفين والبشر .

ولست هنا أعطى أي اهتمام لذلك الكتاب فانا لم اقرأه ولن أفعل لأن لدى دائما ما يشغلني وما أعتبره - صوابا أو خطأ - أكثر فائدة وأهم جدوى ! ولكن لأذكر الفنان الممثل المخرج الشاعر في حمدي غيث إن من يشعل عود الثقاب الأول في مثل هذه المحافل أو غيرها عادة ما تحرقه نارها لأنها كما عودنا التاريخ ما أن تشتعل حتى تستحيل نارا جاهلة جهولا .. تلتهم الأخضر واليابس وتحرق العاري واللابس لأن نيران التعصب والجهالة عمياء لا تفرق .. ولا تذر .. والدعوة لحرق الكتب قديمة منذ اكتشفت الإنسانية سلاح الكلمة وقدراتها السحرية .. وهى دعوة معاصرة أيضًا بعد أن أصبح للكلمات ذلك التراث الطويل في مواجهة البطش والجهالة مهما ازدهرت محاولات استخدامها سلاحا للتزوير والتزييف والتخلف .. ولذا كان الغريب أن يتبنى الفنان الشاعر حمدي غيث الفكرة الحمقاء .. ولكن الملاحظ أن الفنان الممثل المخرج الشاعر دأب منذ فترة على نسيان صفاته تلك التي يموت دونها الملوك والسلاطين وأصحاب السلطان ومضى يتمسك

بوهم يدفع به خارج إطار الزمان والمكان ليحارب ويقاتل في شراسة لإثبات قدراته على حمل أعباء ومصائب ومثالب ومعايب زعامة لا يغيب عن مظنته وحنكته الريقية أنها زعامة لغير معركة لأنها ضلت الهدف وتنكبت الميدان .

لقد أوقع به مستشاروه هذه المرة أيضًا مثلما أوقعوا به مرة سابقة يوم جعلوا له قراره الفردى بتأجيل الجمعية العمومية إياها وساندوه في عناده ليصبح (بطل) أطول أزمة نقابية وقانونية ومزقوا ملابسهم علنا وفى الشوارع ليفتح الباب على مصراعيه لأعداء الفن لكى يغتالوا الفن نفسه علنا وفى الشوارع .

فيا عزيزى حمدي غيث لقد كنت زعيما عندما وصلنا صوتك ونحن تحت النار الإسرائيلية في جحيم بيروت كبقعة ضوء وسط الظلام وكنت زعيما يوم تصديت في إحدى المحافل التي أقيمت تقصم عرى مصر مع أشقائها العرب لحساب ابن العم !! القادم من المجهول نعم كنت زعيما يا صديقى المخرج الممثل الشاعر ولكن فرقا كبيرا بين الزعيم وبين العمدة فالزعيم يختار معاركه والعمدة يتناول أول شومة بجوار مصطبته ليدش رأس من يعارضه أو ينصحه .. أو يعزيه .

سمير عبد الباقى

1988/9/14

الحكاية والسيرة .. وأبطال الخيال

- **للحكاية والقصة مكانة كبيرة في الوجدان المصرى فالحكاية ابتكار فلاحى .. وفن من أهم فنون الفلاحين .. ولأن الإنسان المصرى هو أول فلاح على وجه الأرض فيمكننا بضمير مستريح أن نقول الحكاية ابتكار مصرى .**

يقول الأستاذ الزيات " سكان مصر سكان قطر زراعى ملموم الرقعة متصل العمارة يجود بالخير الكثير على الجهد القليل فكان أهله لذلك قليلى الأسفار يؤمنون بكل خير ، كثيرى البطاله يميلون إلى اللهو والسمر " (مع الاعتذار لما يبدو من خلل فرضته الهجرة والأسفار) .

وقد كانت القصص أداة لهو وتزجية فراغ في المجتمع الإسلامى وانتشر القصاص في العواسم والأقطار يحدثون العامة ويحكون لهم ويشبعون رغباتهم في التزيد والتهويل والاختلاق والتطويل .. وصار القصاص يتاجرون بالقص ويجدون فيه بضاعة رابحة رائجة عند العامة حتى اصبحوا يجلسون للقص والتحدث على قارعة الطريق ، لدرجة أن الخليفة المعتمد أمر (فيما رواه الطبرى من حوادث عام 274 هـ) بأن يلزم العامة أعمالهم وترك الاجتماع والعصبية ومنع القصاص من العقود في الطرقات على جانبى بغداد .

- وامتازت مصر في ذلك بالمكان الأول .. خاصة في القرن الرابع عندما تم الحكم فيها للفاطميين الذين نشروا ذلك بناء على خطة بارعة لامتلاك قلوب العامة ونفوسهم بالقصص في كل ما يتصل بالحروب والدين وأخبار الخلافة والأساطير والخرافات وأطلقوا قصاصيهم بالأخبار والاسمار وسايرهم في ذلك القصاصون الشعبيون حتى صارت القاهرة كالسامر العامر في كل يوم مولد جديد ومهرجان سعيد وقصص تروى القديم وأحاديث تنتشر والناس في الأندية والمجالس يقبلون على ذلك في لهفة .. ويأخذون ما يقوله القصاصون سمرا شهيا ويطلبون المزيد ليرددونه ويزيدون عليه من خيالاتهم وإبداعاتهم .
- وقد ظل ذلك طابعا للمجتمع المصرى في ما بعد الفاطميين .. وما زال حتى اليوم فللقصص عند المصريين مكانة كبيرة نكاد تكون عادة يومية بل ولحظية ، وراقب شهوة الحكى عند الجميع في البيت والشارع والاوتوبيس ، لرواية حادثة أو قصة أو نكتة وانظر لمشاركة الجميع فيها حتى دون علاقة أو طلب .. ولذا كان القاص المصرى صاحب زاد وافر وما ألف ليلة أو الهلالية أو الظاهر بيبرس أو سيف ابن ذى يزن وذات الهمة وغيرها إلا فيض من براعة المصريين وقدرتهم على الإفاضة والزيادة والإعادة وما يسميه البعض اللت والعجن والابتكار والاختراع .. ومهما كانت أصول تلك القصص .. أو مصادرها .. فقد اكتسب حيويتها وغرابتها على أرض مصر وعلى أفواه قصاصيها ورواتها .

وانظر إلى الأصل التاريخى للسيرة الهلالية – القصة التي نحن بصددها ، وما حدث مع رحلة أولئك الأعراب إلى مصر ثم إلى أفريقيا وما وقع من حروب وأحداث وكيف انتقل هذا الأصل التاريخى من الواقع إلى ميدان الخيال الفسيح العجائبى الذي ظل يعيد ويزيد فيه الرواة .. ويشتقون عنه ويختلقون ويبتكرون حتى وصلت إلينا في شكل تلك القصة الطويلة المتشعبة المعقدة التي نراها مطبوعة في تلك الطبعات الشعبية الرخيصة .. والتى يستوعبها ويعرفها أكثر العامة في جميع أنحاء مصر .. وخاصة في القرى والنجوع .. والتى أحيانا ما تصبح مظهر امتياز خاص لهم .

- **ورحلة بنى هلال الثانية إلى أفريقيا كانت في القرن الحادى عشر الميلادى وهى القصة التي قامت عليها التغريب والتى أوحت إلى القصاص بكل ما اضافوه إليها من غرائب المواقع وما ابتكروه فيها من شخصيات وأحداث .. وما تغنوا به عبر قرون من أغانى وأشعار .**

والقصة كانت شائعة في صورة متقدمة حتى عهد ابن خلدون حيث كانت شبه مكتملة واشار ابن خلدون نفسه فيما ذكره عن هذه السيرة أن بطون بنى هلال كانوا شيئا يتناقلونها (خلف عن سلف) حتى أنها أصبحت دارجة على الألسن في عهده عبر أزمان طويلة وأجيال سابقة ..

وقد كان الأصل التاريخى للقصة سببا في شيوع أخبارها بين المصريين لأنه من الطبيعى وقد رحل هؤلاء من مصر وكان لهم وجود حاد أن يظل الناس يتسقطون أخبارهم ويتناقلون أخبار انتصاراتهم ويتحدث بها الرائح والغادى ، ليشبعوا شهوة الرواية والحكاية بينهم بما يصلهم من أنبائها مما يزيدون عليه ويهولون تفاصيله في مجتمع يعشق القص ويبدع في الايغال والابتكار حول الأحداث واشتط خيال القصاصين والمحدثين في الأسمار .. وأفاضوا حسب براعاتهم وإمكاناتهم في الإضافة والإختراع لتصوير المثل العليا للبطولة .. وليصوروا أهوال المعارك الصعبة وقصص الحب والمكر والشجاعة والغدر والخيانة وكان الجميع أصحاب القصة ورواتها كل من جانبه يضيف ويبتكر ويهول لتصبح السيرة ابتكارا لتصورات الجميع ولأحاسيسهم ولإشباع أحلامهم أو تعويضهم عن واقع يعيشون فيه .. ولذا فالقصة ليست إلا من ابتكار ووضع وصياغة كل هذه الأجيال .. سامت في خلقها وفى نموها ونضوجها .. واستلمها القصاص والمحترفون من أفواه الناس مسلحين بقدراتهم ومواهبهم وبراعتهم في الخلق والابتكار .. لتصل إلى ما هو باق في أيامنا هذه ..

- **هذه السيرة إذن وان كانت وضعت في مصر واستوفت سماتها وطرائقها الحية وتفاصيلها من براعة القصاص المصرى وخلق العبقرية المصرية فقد عبرت إلى أقطار عربية أخرى كثيرة وشاعت عند الكثير منها خاصة في قارة أفريقيا التي كانت مسرح الأحداث الحقيقية لها .. وهذه السيرة تروى هناك ولكن الملامح المصرية واضحة تماما فهى تحكى بصيغ تشيع فيها الألفاظ المصرية الدارجة والتعابير السائدة في العامية المصرية .**

- **والسيرة الهلالية تدور حول محور الأحداث التاريخية الفعلية ويجرى تسلسلها على غرار التاريخ كما كان ولكنها نمت بالشيوع والانتقال واغتنت بالتفاصيل ولذا لا يمكن التعرف على أصل صحيح تتفق عليه كل الروايات لا في المبوع ولا في المروى وهذا شأن الحكايات والقصص الشعبى الذي لا يتحده صيغ ثابتة وتختلف تفاصيله من مكان لآخر ، لأنه يجرى كالبحر على ألسنة الخلق ويفيض كما تفيض عواطفهم وانفعالاتهم .**
- **وتحتوى سيرة بنى هلال واخوانهم على وقائع غريبة وحوادث نادرة لا يمكن حصرها ويكون تلخيصها بالتأكيد تلخيصا مخلا .. ولكننا سنغامر لكى نعطى فكرة عن ضخامة وثراء الذي نحن بصدده .. وما**

يحتاجه من مقدرة لا على الانتقاء والاختيار ولكن على الخيال أيضًا ، الخيال الخلاق الذي يبتكر ويضيف دون اخلال او تشويه .

- وتتحدث السيرة في البداية عن بنى هلال ونسبهم وذريتهم منذ أسلم هلال بن عامر على يدى الرسول وما أسداه من خدمات للإسلام في بدايته وكيف أسكنه النبى في وادى العباس .. وتتحدث عما كان يتمتع به (هلال) من شجاعة وكرم ورزق بولد سماه (المنذر) ولما بلغ النذر مبلغ الرجال ترك والده وانطلق فارسا يقوم بأعمال النهب والسلب إلى أن تعرف على الأمير (مهذب) وتزوج ابنته (هذبا) ولما لم ينجب منها بعد عشر سنوات تزوج من (عذبا) بنت الملك الصالح ملك بلاد (السرو وعباده) وتحدث مفاجأة فقد انجبت زوجته الأولى (هذبا) ابنا هو (جابر) وانجبت (عذبا) جبير ثم دبت الغيرة بين الاثنتين وقام نزاع عنيف اضطرت (عذبا) أن ترحل مع ابنها (جبير) إلى نجد عبر أحداث ومغامرات وأهوال ومخاطرات .

ومن ذرية (جابر) و (جبير) جاء رجالات بنى هلال وبطونهم (فجابر) ولد عامر وتامر وهشام وحازم .. ومن نسلهم جاء (رزق) والد (ابى زيد) وسرحان والد حسن .

أما جبير وقد ولد له رياح وحنضل والنعمان .. ومن ذرية ريا دياب ابن غانم .. البطل الأقرب شهرة من أبو زيد وغريمه وخصيمه .

وتنتقل القصة بعد ذلك للحديث عن رزق والد (أبو زيد) وزواجه من ال (خضراء) التي رزقت منه بفتاة هى " شيحا " وبعدها حملت بابى زيد وما صاحب مولده من خرافة الغراب الأسود وطرد الخضراء (خضرة الشريفة) ورحيلها مع ابنها إلى بلاد الأمير الزحلان الذي أكرم وفادتها وتعهد ولدها بالرعاية والتربية وعهد له بمن دربه على فنون الحرب مع أولاده .. حتى صار فارسا لا يشق له غبار .. وأظهر براعة وشجاعة في حروب حملت شهرته إلى الافاق .

ثمن يحدث أن يهاجم الهلاليون بلاد الزحلان ويتصدى لهم (بركات) وياسر والده ولما يهم بقتله تطلعه أمه على حقيقة الأمر ويتعارف الأب والأبن ويتعرف عليه .

وتزوج أبو زيد من غصن البان ابنة الزحلان .. وسمى بعدها سلامة .. ثم كنى بالهلالى اعترافا بنسبه وأبو زيد لزيادته على أقرانه من الفرسان والمقالتين .

بعدها تنتقل القصة وقد تعرف رزق على ولده إلى الحديث عن سرحان والد السلطان حسن وتعرفه على (شما) وما جرى من وقوعها في أسر الافرنج ونجاتها بالحيلة في مغامرة جميلة .. وينتهى هذا الجزء من السيرة بوقائع وأحاديث وأخبار عن حروب الهلالية في اليمن وفى الهند دون أن يتقيد القصاص والرواة بحدود الجغرافيا ولا بمواقع البلدان ولا بتوافق الأزمان .. وإنما يطلقون العنان لخيالهم الباحث عن كل عجيبة وغريبة من العجائب التي تسحر الألباب ، وتأخذ بأنفاس السامعين .

- **ثم تتحدث القصة عن رحلة الهلالية من بلاد السرو وعبادة إلى نجد حيث تعيش قبيلة زغبة وذرية خيبر .. حيث الأمير غانم وابنه دياب وذلك بعد القحط الذي حل ببلاد السرو فذهبوا للعيش مع أقاربهم وخلال الرحلة قاتلوا يهود خيبر وقامت بينهم حروب طاحنة انتصر فيها الهلالية على اليهود . ولم تكن اقامتهم في نجد بأقل خطورة وعنفا من رحلتهم حيث حاربوا – العقيلى جابر والهديبى وغيرهما من الأمراء الأشداء وما جرى خلال ذلك من حوادث رهيبة وصفتها القصة وصفا رائعا .. ويتزوج السلطان حسن بنافله أخت دياب ابن غانم بعد أن وعده باخته (نور بارق) المعروفة بالجازية أو الجاز كما يطلق علها شعراء الصعيد الآن .. وأن كان السلطان حسن لم يف بوعده لدياب وزوجها من شريف مكة .. مما ملأ قلب دياب ألما وعلا وغضبا على ما هو عليه من غضب الزغابه .**
- **بعد ذلك تأتى السيرة لأكثر أجزائها شهرة وأكثرها جمالا أيضًا وهى تغريبة بنى هلال .. وهى أكثر أجزاء القصة احتشادا بالحروب والأهوال والغرائب والعجائب وأن كان مرورهم بمصر يأتى في القصة بشكل عابر وهو ما لا يتفق مع وجودهم المقلق للخلافة على أرض مصر .. بل يذكر بسبب في بطن الراوى ضمن أحداث كثيرة تمهد لرحلة الهلالية لتونس الخضراء .. ولتدبير ذلك ودراسته بارسال بعثات الريادة والتجسس لمعرفة أحوال البلاد ومدى الاستعداد للدفاع عنها .. وقصة ذهاب أبو زيد ومعه ثلاثة من خيرة وأهم أبناء الهلالية جمالا وشبابا وشجاعة وهم مرعى ويحيى ويونس .. ويلعب أبو زيد دور عبد تابع لهم ويودعهم الهلالية لمهمتهم الخطرة وداعا عاطفيا حتى أن شيحا تصاحبهم لفترة طويلة تبكى مصيرهم وتنصهم حتى يأمرها أبو زيد بالرجوع .. وتقع البعثة بعد تجوال كثير ومغامرات متنوعة في قبضة العدو .. ويأتى ذكر ما جرى من قصة سعدى مع مرعى .. ويختلط الخيال بالوقائع التاريخية المذكورة ويحتال أبو زيد للخروج من السجن بمساعدة سعدى ليعود بحجافل الهلالية وما جرى من احضار الجازية وقصتها مع شريف مكة وما تم فيما يشبه اختطافها .. وتحتشد القصة بما جرى خلال الرحلة من حروب دامية ووقائع عنيفة وحكايتهم مع الخفاجى عامر والملك الغضبان والبردويل بن راشد وغيرهم من ملوك وابطال وصناديد .. بعضهم له ذكر في الواقع**

التاريخى واغلبهم من ابتكار الواة ومن صنع خيالهم وخاصة ما جرى من وقائع بين الهلالية والزناتى (أبو سعدى) خليفة (التاريخى والمبتدع) ويفيض بذكر وقائع أبو سعدى الشداع الصنديد وأبو زيد البارع الحيلة المناور الماكر ويختلط كل ذلك بقصة حب سعدى ومرعى .. وما تذكره السيرة من صلة الزناتى بالجان أو ما تنبأ به المتنبأون أنه سيقتل على يد دياب بالذات .. وقصة موته العجيبة بخيانة سعدى العاشقة ومكر أبى زيد .

- **ويتربع الهلالية على تخوت الغرب السبعة ..**

وهو الجزء الأخير من السيرة والمعروف بقصة التخوت السبعة وسلطنة دياب وأبو زيد وتملك الأربعة عشر قلعة .. وما بها من أحداث غريبة ووقائع عجيبة والتى تزخر بأجمل الشعر والنثر وما تضج به من وقائع حروب وخيانات ونزاعات .. وتجدد الخلافات والعداوات ووقوع الحروب فيما بينهم ليفترق شملهم وليتشتت أجيالهم بين الأطار المختلفة وتسيل دماء الأهل بيد الأهل فيما عرف بديوان الأيتام .. (وسبحان من له الدوام .. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) ..

- هذا ملخص شديد ومخل للغاية بوقائع هذه السيرة الرائعة التي تعتبر من أهم وأشهر السير الشعبية المصرية والعربية .. والتى ظلت زاد المجتمع المصرى الفنى الأكثر حميمية عبر تسع قرون منذ العهد الفاطمى حتى الآن في قرى الريف وفى مقاهى المدن والقاهرة .. تستهوى قلوب الناس وتسيطر على عواطفهم وتثير في نفوسهم نوازع القوة والاعتزاز .. وأيا كان الحديث سينتهى بنا ونحن في بدايات القرن الواحد والعشرين وما يثيره هذا من أسئلة وقضايا .. يختلف في أمرها الخلق ويختصمون إلا أننا لا نستطيع أن ننكر أهميتها وقدرتها على تجديد نفسها أو العثور على مفاتيح تجددها لتكتسب أسبابا جديدة للخلود والبقاء .. اعتمادا على ما بها من عوامل ذاتية وإنسانية وتأكيد هذه الجوانب والعزف عليها .. حتى وإن بدأ لنا الراوى الذي ينشدها شبحا أو صوتا خافتا أمام ضجيج العصر .. وهجوم جحافل الأبطال الميكانيكيين الجدد من جراندايزر والنينجا وغيرهم من الوطاويط والأشباح التي لا إنسانية فيها ولا جمال ، والتى تسرق منا مستقبلنا حين تضبب وتغيب رؤية أطفالنا واعتزازهم بإبداع شعبنا وتاريخنا .
- إن ذلك البطل الذي ملا القلوب عبر القرون بإحساس البطولة ومفاخر التاريخ وكان ذكره يحيى نوازع الصحوة .. ويرضى مشاعر العزة التي حاولت أن تقبلها في نفوس البسطاء تلك العهود البائسة التي اكتنفت البلاد من جراء الحروب الصليبية .. وحكم المماليك وبغى الأتراك وغزو الفرنسيين والإنجليز .. فأفلحت أحيانا ولم تفلح في بعض الأحيان .. حين تضخ سيرته الفذة في عروقهم مرة أخرى روح الأقدام والشجاعة والاعتزاز ولن يدرك هذا إلا من اختلط بالمتحلقين حول الشاعر في الأجران والساحات والمنادر .. واعطى نفسه بصدق للحالة التي يخلقها الشاعر المبدع ورابته .

- لقد أعلنت كثير من الجهات عن مسابقات عبثية بين الفنانين والكتاب لابتكار شخصيات (بطولية) للأطفال .. وهو أمر غاية في السذاجة .. لأن مثل هذه الشخصيات لا تطرأ على الأذهان .. وإنما هى تنتزع من التاريخ ومن القصص الشعبى وما أكثر أبطالنا وشخصيات حكاياتنا التي يمكن أن تكون أبطالا للإبداع المقدم للأطفال وللشباب دون تصنع أو افتعال .

(وابو زيد الهلالى سلامة ..) واحد منها .. بل هو اهمها .. ولذا كان ما أحلم به من تقديمه من خلال إعادة قص سيرة عشيرته في صورة إنسانية واقعية بأسلوب معاصر وفى إطار قصصى عصرى يقرأها

الصبى المصرى فلا يحس باغتراب عنها .. وإنما يحسها أقرب إليه وإلى وجدانه .. كما كانت قريبة من وجدان أبائه وأجداده .. ولكن بروح وخيال واقعى ومعاصر .

وبعد ..

وإذا نحن اتفقنا على الأفكار الأساسية التي وردت فيما سبق حول السيرة الهلالية ومكانتها بين السير الشعبية المصرية والعربة وعلاقاتها بالوجدان الجمعى وقيمتها الفنية والإنسانية فلا بد أن أوضح أن عالم الهلالية الزاخر قد لا يصلح كله لاثارة خيال القارئ الشاب المعاصر .. ولكنه بالتأكيد يزخر بما يكفى لكى يعود اتبطاله إلى الحياة .. حاملين لقيم نحتاج للتركيز عليها .. ومنها قيم الانتماء والشجاعة والصدق وايضا قيم الشرف والرجولة وان بدت كلها قيما تنتمى لعصور الوطن الذهبية ولحلم الفردوس المفقود .. إلا أن هناك من القيم التي يمكن استنباطها كقيمة العقل .. والذكاء القائم على المعرفة بالواقع وبالصراع وأيضا على العلم – العلم بمعناه الحرفى وان – بدأ في السيرة نوعا من (السحر) .. فالبطل أبو زيد لم يكن مجرد بطل قوى (يضرب بسيفه ألف على اليمن والفا على اليسار) وإنما كان عقلا مفكرا يسعى للمعرفة وتأمل المشاكل والمآزق والوقائع لكى يتعامل معها بالعقل وأعمال الفكر أيضًا استنادا إلى الحقائق الموضوعية وليس اعتمادا على الصدفة وان استفاد منها .

إن التقاط المواقف الموحية والدرامية والإنسانية والتى تحدث في إطار من الخيال والعاطفة هو الذي يمكن أن يشكل عصب بناء جديد لقصص جديدة زاخرة بالمغامرة تجسدها كيانا جديدا ومعاصرا – لغة وايقاعا واطارا ومفاهيم معاصرة للسيرة الهلالية التي تبدأ بقصة هلال ابن عامر مع الرسول ومع السيدة فاطمة وتلك (الدعوة) التي احاط بمصائرها قدرها وصاحبهم كلعنة اغريقية حتى رحيلهم من بلاد السرو إلى نجد الخضراء .. ثم خلال رحلة الريادة واستكشاف الطريق إلى التغريبة الذاخرة بالمغامرات الحية .. والتى تبرز أجمل ما زخر به هذا العالم السحرى من مغامرات وبطولات وقيم إنسانية خالدة .. من خلال شخصيات نموذجية يتقبلها العصر وتحقق هذا الحلم الذي نضع فيه السيرة الهلالية – كلها بين يدى فتياتنا وفتياتنا .. في شكل عصرى جديد وجميل .

•

آخر حدود الزجل

الزجل هو ديوان العامية الحقيقى .

هو المحيط اللى منه وبتخرج عنه كل بحار العامية ، ميتة أو حية والزجل فن مصرى مية في المية .. رغم أن بعض القوالين (وأكثرهم كلامه ماسخ) قالوا إنه ابتأ في بلاد تانية ، وده كلام ساكت جابوه من اللى اتقال وانكتب ، ويا ما اكتر اللى اتسمع ولا انكتب ! مش مهم .. لأنه سواء كان أبداع ربانى من خير

الأرض دى وعبقرية هذا الشعب والا وافد عليها وعليه – فقد وافق طبعه طبعها ، واتوافق هواه مع هواها ، وما جابش غير معاها .. فتبت جدوره .. فرع بحوره وابدع يا ما مزيكة وايقاعات والوان واشكال .. معجونة بالسخرية وطولة اللسان وخفة الدمن والجرأة اللى ما يساويها ولا يقدر على بلاويها إلا الفنان حمال الهم الأدباتى الأراجوز المواولجى الحكواتى ابو ربابة ابن النكتة القرارى المصرى .. بلا قافية .. القح الصعيدى والفلح وابن البلد اللى الهوى رماه واللى شايل معاه مزقلة وشومة ، مش عنظزة ولا منظرة – لأ – عشان يدش بيها راس المفترى والخاين واللص العنترى والحكومة ، بالضحكة والمسخرة .

عشان كدة كان الزجل طول عمره المراية والوتر والقلم والنغم .. والزجل زى اى فن ، فيه وفيه ، فيه التافه والنبيل ، والعيرة والأصيل .. فيه اللى يكتفى بالتريقة على غشمية وبساطة خلق الله بقنزحة ، وفيه اللى يجرح الجتت اللى ما بتحسش ويخربش العقول اللى مابتفهمش ويلسوع الجبلات ويصفع التفوات ، وهو واقف في صف الغلابة مش في ديل المسئولين وبيحلم بالعدل وبالحرية .. مش بالنكتة والصورة بس ، لكن بالسخرية الحيانى اللى أولها بسمة وآخرها شخرة اسكندرانى .. وبالمسخرة اللى تهزأ الراجل المرة والعمدة الحرامى والأفندى المصرى اللى مريح على حجر الخواجة واللى بايع وخاين العيش والملح .

الزجل آهة الجرح ، وهقهقة قبل الدبح .. وزهزة الفرح ..

وعشان كدة أنا فخور وفرحان باللى قلته وعملته في ديوان الزجل المصرى بعد خالى بديع وعمى بيرم .. لأنه (آخر حدود الزجل) .. وان التزمت فيه – بمزاجى – بآخر حدود الأدب .

(1999)

عالم الخيال الجميل

فى بلادنا يكبر الأطفال فجأة ..

وكثير من الكبار لم يعيشوا طفولتهم لأسباب كثيرة .. مثلما يحدث للكثير من الأطفال حتى الآن . كثيرون يفتقدون صدر الأم أو الجدة أو الخالة الحنون تحكى لهم حكايات تفتح أبواب الأحلام .. وآخرون استبدلوا الحضن الدافئ ببرودة الشاشات الملونة .. وصقيع الوحدة لغياب الكبار اللاجئين وراء لقمة العيش في الداخل أو في الخارج .. الجميع لا يكتشفون ذلك إلا بعد فوات الأوان.

ولذا لم تثر دهشتى كثيرا تلك السيدة العجوز تأتى إلى المسرح كل يوم مصطحبة أطفالا جددا من الأهل والجيران لمشاهدة مسرحيتى (دبدوب الكسلان) متخذة منهم حجة لتفرح هى وتضحك وتمارس طفولتها مع الدمى بعد حرمان ..

ولأننى ممن يعتقدون – صوابا أخطأ – أن الكثيرين من الأطفال والصغار كبار بحكم الظروف أو بحكم الطبيعة والمستقبل – وأعتقد حقيقة أو مجازا – أن الكثيرين من الكبار والبالغين صغار بحكم السلوك أو أطفال بحكم الرؤى والمشاعر ، فإننى بناء على هذا الاعتقاد وخوفا منه أيضًا أقدم ما عشته على الورق

– وأنا كبير – من طفولة لم أحرم منها وأنا صغير – إلى الكبار والصغار .. في محاولة لمشاركتهم بعض الحلم ومعايشتهم بعض مواسم الزمن الجميل . مع تعاليبو ومشكاح وأبو لبدة المدهش وبو لينياب وحمار ظاظا ودبدوب وفيروز وأشرف ولينا وليلى (ويوسف وسيف فيما بعد) وبو لشناب ورماح وباسم وهشام وبسبس وتنج تنج وابو العريف .. في حشد انسانى رائع من الأرانب والسباع والحمير والتعالب والصبيان والبنات والطيور والأسماك .. الحالمين غير الواهمين ، والأذكياء العاطفين على الضعفاء – والأقوياء لانهم غير أغبياء ولا مخادعين .

فى صراع لا ينتهى مع الشر والغباء والبلاهة والعبط والضلال .

من أجل أن تصبح الحياة أجمل ..

حيث يعيش الأطفال طفولتهم في وقتها ، ويحيون صباهم في زمانه وفتوتهم في حينها ، مسلحين لرحلة المستقبل بالحب وبالخير وبالجمال دون أن يفوت الأوان .

(1999)

ملامح مصرية في ملاحم عصرية

ولد المسرح من رحم الشعر وإليه يعود ليتطهر من أدران السوقية والتزييف والانحطاط ، ولقد كنت احلم به أفقا أكثر بحابة وعمقا ، أنجو إليه بشعرها هربا من أسر القصيدة الغنائية . أنا الذي تعذبنى التساؤلات حول الشعر والمسرح .. ولقد كانت الإجابات لدى غامضة بقدر ما كانت (في حب مصر) مجرد (مونتاج) لعدد من القصائد والمواويل صاغه إحساس جاد باللحظة التاريخية (في اكتوبر) استطاع ان يفجر حالة من التوهج لخطة لقاء الشعر والموسيقى وأداء الممثل والمخرج مع الجماهير – وبعدها كانت قصائدى : كانت وعاشت مصر – غنوة للحرب غنوة للسلام – النشيد النقير – نشيد الأناشيد المصرى – ليلة أمريكية أو (ها للو أمريكا) – واحد احد من المحيط للأبد – الأسلاف والخلفة بالخلاف – رؤيا الحر الفقير لله النكدى الكفران ابن عبد الباقى ليلة موت الحلوانى اللى بنى مصر – شكاوى الفلاح الغشيم عن التمثال المحطم للزعيم السليم – ما شبعش لسة الأمريكان من دمك – الأدلة الآخرة في غرام القاهرة – والتى ضمها هذا الدفتر من دفاتر ابن عبد الباقى والتى أطلق البعض عليها (المطولات) سخرية أو تعريضا بينما كانت بالنسبة لى – نبض ووهج محاولة دؤوبة للولوج إلى قدس المسرح لاستعادة حالة التوهج المسرحى ، من خلال شكل ومضمون يعكسان معا – لا أحساس اللحظة التاريخية فحسب ولكن

معاناة وأزمة جيلى وازمتى الخاصة والعامة كشاعر مصرى عربى تقدمى عاش مصر النصف الثانى من القرن العشرين بكل أحلامها وآمالها واحباطاتها وهزائمها وقدرتها على تجديد الحياة واحتمال جراحها وعذاباتها .. ومن خلال ايمانى بمقولة درامية ثورية ترتكز على العلاقة الخالدة بين الشعر والمسرح وبين المسرح والثورة ، وبين الثورة والجماهير – تلك العلاقة التي طمستها الادعاءات الكاذبة وشوهتها محاولات التزييف الفنى والأوهام الفكرية الآثمة التي شوهت وجه المسرح المصرى بل وتطاولت على روح وملامح عبقرية مصر الأرض والإنسان .

(2000)

كان يا ما كان / من كل زمان ومكان

هذا كتاب للخيال البشرى ..

من أبداع نوع خاص من البشر ، هم أصحاب الخبرة العلمية التي تثمر الحكمة الفلسفية وتنتمى رغم تنوعها .. وتعدد منابعها واختلاف مصادرها للوجدان والروح الإنسانية الواحدة – عبر العصور والأزمان ، والأجناس والألوان ، والعقائد والأديان – الخالدة في كل مكان صافية ومكثفة وبليغة العبارة ، حية على الدوام لا تموت ولا تفقد سحرها ولا تبهت قدرتها العبقرية على الإمساك بجوهر القيمة وبهجة الحلم .

كان يا ما كان – التي هى فاتحة الطريق إلى العقل والقلب ، وبوابة الدرب إلى الغد حيث الفدوس المفقود ، المعقود فيه الأمل لسلطة العدالة والحب والحرية والجمال .

ولقد حاولت – بكل ما املك من خبرة وما استطيع من قدرة – في صياغتى لهذه الحكايات – سواء التي ترجمتها بنفسى (بتصرف) أو التي ترجمها غيرى (دون تصرف) أو تلك التي سمعتها من طفلة في إحدى قرى الشرقية ، أو التي اتحفنى بها عجوز في إحدى عزب الدقهلية وكفورها ، أو تلك التي نورت بها قلبى (الست ام يوسف) وأنا صغير أو التي قرأتها صبيا أو شابا أو كهلا في كتاب قديم شعبى أو حديث عصرى لواحد من عباقرة الحكاية العظام – لقمان ، إيسوب ، ابن المقفع ، ابن الجوزى ، الجاحظ العربى

الاسلامى أو ذلك العبقرى الشعبى المجهول الذي تغنت برواياته وتناقلت حكاياته القلوب والعقول – أقول – انى حاولت ان انفخ فيها بعضا من روحى ، وان أنمقها بقليل أو كثير من دمى وأن ألونها وأطرزها وأوشيها بكثير أو قليل من ألوان أحلامى – لمعلها تعكس شيئا من عشقى للبشر وحبى للجمال والخير البشرى ، وتصورى للعالم الجميل الذي تحن إليه قلوبهم والإيمان الذي يغمر قلبى بتلك السكينة المنعمة بمشاعر الخير وملامح الجمال وأحلام الحرية ، التي يتجلى سحرها في العبارة الخالدة – كان يا ما كان .

(2001)

الدفتر الخامس

مسرحيات الأطفال والعرائس

- فى مطلع شبابى وانا معتقل ما بين المنصورة والواحات لم تقع في يدى قصاصة من ورق الجرائد الا وقرأت فيها خبرا عن (الليلة الكبيرة) منذ نية تأليفها حتى فوزها بأهم الجوائز .. وأسرعت إلى ذلك العالم الساحر الذي شكل الأراجوز وخيال الظل مساحة عريضة من وجدان الطفل الذي كنته ورأيت بكل اللهفة مسرحية (حمار شهاب الدين) فخطفت روحى بما يجسده المسرح بالإضاءة والحركة والموسيقى والأداء العجائبى فخرجت مسحورا لأكتب (حكاية سقا)
- وفى المسرح التقيت بأم أولادى (نجلاء رأفت) فكان ابنى (أشرف) وأبنتى (فيروز) ومعهما العديد من الشقيقات والأشقاء (حسن قرن الفول) و (زغلول) و (سلامة الباذنجان) و (على الخرزان) و (حجاج دقة) و (ابو لبدة المدهش) و) تعاليبو) و (بولينباب) و (دبدوب) وعشرات من القرود والأفيال والفراشات والطيور إلى آخر قبيلتنا من أبناء وبنات الخيال الذين زحموا واقع حياتنا بالسحر وبألحان خفية لم نعد نعرف معها هل كانوا عبء عليه أم كانوا سر ما ينبض به من حلم يمنحنا القدرة على مقارعة الخطوب .
- لم تكن العلاقة مع عالم العرائس عابرة بل كانت حلما ملأ صدرى بنشارة الخشب في ورق الخرط ولون نظرتى بألوان الطيف وضمخ أنفاسى بروائح الأصباغ والأقمشة ووعدنى بحياة غير الحياة وواقع غير

الواقع فكتبت هذه المسرحيات لا لغرض سوى الدخول إلى عالم الخيال الجميل ، حيث (ست الحسن) و (شهر زاد) و (علي بابا) و (علاء الدين) و (جحا) و (ابو الحسن المغفل) و (الشاطر بلحايه) و (الشاطر حسن) .

- ولذا عرض عدد منها ، بينما لم ينل الآخر حظ التجسد في عرض لآن الشاعر لا يتحكم في ظروف الإنتاج التي سمحت بتقديم أول مسرحية لى (حكاية سقا) في عام 1966 في مسرح القاهرة للعرائس ولم تسمح بتقديم (دبدوب الكسلان) إلا عام 1986 أى بعد عشرين عاما كاملة .. بسبب ما يقتل الفن الجميل ويلوث عالم الخيال بأهواء الأغنياء . ولكن صوت قرينى المتنبى كان يأتينى ليخفف عنى وطأة المبكيات ، هامسا يعزينى : وكم ذا بمصر من المضحكات.

لولى .. يا لا للى

فى مواجهة هزيمة يونيو 1967 ورفضا لها ارتفع صوت الشعراء المصريين عاليا يستنهض الهم ويعيد للذاكرة الوطنية براءتها الأولى فغنى فؤاد حداد ملحمته الخالدة (فى نور الخيال) وانطلق يوقظ النيام والغافلين بـ (المسحراتى) وانشد الابنودى في شجن (طلع النهار) وفى اصرار أنشد مع (محمد حمام) يا (بيوت السويس) بينما هدر عاليا صوت عدلى فخرى (اصحى يا بلدى اصحى) و (سينا شراع السفينة) و (مصر غيطان الرياح) و (عيونك شموس الصباح والمسا) مسبحا صادحا بشعرى ، منشدا تراتيلى (فى حب مصر) حتى كان أكتوبر فكان العرض المسرحى الذي جسدته تلك الأغانى والذى كان افتتاحه الأول يوم وقف إطلاق النار ليجعل (د. لطيفة الزيات) تتماهى معها حتى تحتمل واقع الحياة ..

والذى قال عنه د (لويس عوض) أنه (ملك على الناس أسماعهم وإبصارهم وقلوبهم بأناشيد ملونة بدعاء العابد لمصر وبأفراح القلب المصرى وأناشيده الجنائزية في نبض واحد من الشعر والنغم مصدره ، لا لحب مصر فقط ولكن بإحساس عميق يشبه الوجد الصوفى بوحدة أمواج النيل وعرق الفلاحين وطمى الحقول وسمائها الصافية) وظلت تلك الأشعار توقظ القلوب وتقاوم الموت والهزيمة وتغنى للنصر حتى (حرتنا بالدبابات بشط ياسينا) و (الكلمة اللى ما تبقى رصاصة ملعونة وخاينة) بينما توجت (لولى يا للى) هذه السلسلة من التراتيل والمشاعر ، تحلم لمصر وبها ومعها وتبشر بالنصر القادم ، وبالخلود الذي يشكل نبض عقيدتها الراسخة .

(2007)

والا إيه ؟

هل تعود مرة أخرى نغمة تقسيم الشعراء اعتمادا على (شكل) القصيدة وبنائها ؟

وكل (شكليات) العالم تنهار ولا يبقى إلا الجوهر الإنسانى !! جوهر الإبداع الفنى هو الباقى .. جوهر (الشعر/شعر أو لا شعر) لا علاقة له بشكل ما متقولب وإلا لأتخذ المسرح شكلا واحدا منذ ارتكب البشر الفعل المسرحى .

ها هى النغمة تعود مرة أخرى وتزداد حدتها لتخرج شعر العامية هذه المرة وأهله من جنة الشعر بأمر بعض (دهاقنة) النقد ومزيفى التاريخ الأدبى وحراسه بل ومريديه أيضًا !!

ويبدو أن وفاة فؤاد حداد وصلاح داهين وانشغال كثيرين من عائلة العامية بأمور (لا شعرية !) شجعت البعض على التطاول والتعدى !!

وها هم جميعا يكتبون عن الشعر وتاريخه بسبب أو بغير سبب خلال السنوات المحتدمة الماضية (ثمانينات وستينات وسبعينات) في مصر والعالم العربى . ويجدون الشجاعة (والقلب) لتجاهل كل ما أنجزه شعر العامية على الأقل في مصر ممتدا لكل الساحة العربية والذى يعتبر أهم إنجاز له .

وله وحده .. كل هذه (المعمعه) أو (الهوجه) الشعرية التي يتقابل على المشاركة فيها .. الكلاسيون قبل المحدثين .. والفصحاء قبل أبناء بيرم وبديع خيرى !!

وكذلك جعله من الشعر غذاء يوميا مطلوبا .. ورائجا وله عوزه ! فيا أيها المنظرون رفقا .. بالقوارير .. ولنتمسك جميعا بجوهر القضية (شعر أو لا شعر) .

وإلى أى مدى كان لهذا الشعر أو ذاك عند أهل مصر .. سعر !!

والا إيه ؟

●

طب ليه .. وليه !!

○

دى بعض شكات إبرة فى جتت بعض النقاد والشعرا أولاد الكار اللى يحق عليهم المثل بتاع الفقها العميان .. ما عرفتش أخففها أو ألفلفها بأرابيز الشعر ولا بحذر العواجيز ..
قلت اهى إبرة فيها عبرة للأساتيذ .. ودرس ينفع اللى زيى من التلاميذ ..

- ليه (محمود العالم) ما كتبش كلمة ف حق (فؤاد حداد) إلا بعد ما مات وفات الوقت والموتى ما بتجوزشى عليهم إلا الرحمة ؟

أنا خايف جدا يعمل ده معايا .. لأنه قارش ملحتى مش عارف ليه؟ .. مع إنى كتبته وحسيته فى ليالى باريس الغربة .. وكان بيسقف ليه ولزملائى بحماس الوطنى أيام ولا (زى نيران الحرب تطهر قلب وعقل الناس !) ؟

- ليه السيد (غالى مع شكرى) لما اتكلم عن شعراء مصريين حضروا حصار بيروت (بالصدفة) .. أو على حسب وداد الشغل اتجاهلنى عمدا .. زى ما طول عمره بيعملها .. يا ترى فاكرنى مسيحى؟ والا عشان أنا شفته متلبس فى بلاد بره بتجارة الكلمات الصعبة المعفية من الجمرك رسميا ؟ ! والا يجوز علشان الواحد منا بيكره كل اللى تبص فى عينه فتشوف نفسك عريان ؟ !

- طيب ليه صاحبى (غزالى) لما بتيجى سيرة الشعر ويفتى زى اخوانا البعدا فى الجرانين عن أيام الحرب .. بينسى ليالى وأيام الإحساس المر بكارثة 67 مع بعض .. أيام ما كنا بنعلم كل الدنيا نغمة سويسى .. وما فيش على مدد الشوف إلا الحلم الباهت وعلى الشط ما فيش إلا عساكر من (وهران) .. والسودان !؟

وينسى سهراتنا وطوابيرنا .. وأشعارنا وخناقاتنا علشان نحفر خندق أو نطبع ع الرونيو مجلة مش للبيع .. كان أيامها ما بقاش كابتن .. كان لسه بيفك الخط وبيتهجى أحلام الناس فى أشعارى .. على قهوة محرم وقدام دكانة الجعوينى !

- ليه يزعل منى (بهاء) علشان شعرى ما جاملش مشاعر أبوه أو حسس على خطاياه الخاطية ف نظرى .. وأنا عارف أكتر منه .. لأن الشاعر عارف أكتر من غيره إيه اللى يجيب مناخيره الأرض ..

وكمان ليه يزعل منى (أمين) ويشيل .. علشان شعرى ف مرة عاتب أبوه .. وأبوه مازعلش .. لأن علاقتى بأستاذى كانت أبقى وأطول وأبعد من قبل (أمين) بزمان . بس الإنسان عيبه النسيان!
وخصوصا لما يتحير قدام السكة الشايكة والعمر قصير وصغير ! .

- ليه أفنديه زى (ابو شادى وشلاطة وكشيك وعباطة والسيد عيد والحوتى الجندى وابو العلا حناطة) ومن لف لفيفهم واتكتف فى تلافيفهم فاكرين إن أنا كان ممكن أصدقهم أو آآمن ليهم .. وأنا بعنيه شايفهم بيسلموا أوراقهم للضلمة اللى بتغشى العين المكسورة وتغيم قدام الناس الصورة بالنور بالنور

اللالى .. وبتنسى حتى العيش والملح .. تسجد لأصحاب أرباب الجاه القش .. وخدامين اليوم اللى ما يتعشّ ..

- **ليه مولانا (الراعى) وف عز بلوغ الحكمة وتمام الإلهام ، وهو بيكتب عن (بيرم) فى الأهرام .. ما ينساش عادته ف إنه ينسى (فؤاد حداد) ... وطابور م الشعرا الشعرا وينسانى .. مع إنى**

حاولت بكل الإخلاص .. إنى أخليه يقرانى يمكن ينصفنى مسرح والا رواية والا شعر وعلى مدد الشوف الرايق والصافى يلقانى فى مساحة من النور الإنسانى !

- **وليه (سامى صلاح) لما راح أمريكا ورجع دكتور ، ما سألش عليّه ولو بالتلفون أو صدفة .. وليه السيد (عدلى) كان بينسى حتى وهو بيجاملنى أنه جاى على نفسه ودايس أجمل ما غنى فى حياته من أشعارى واللى كانت خضرة فى رقة ورق التوت ... واستحلى يشيل نبوت كرتون ويضرب فى الهوا بحب وشغف قضية ما بتخصوش إلا قد ما بيخص الاوتوبيس العطلان فى القللى أسطى القطر اللى ف كوبرى الليمون .!!.**
- **وألف ليه تحير .. فاخرس يا مجنون ...**

ياجنس حمير .. هو أنت ماكفاكش اللى جرى لك يا سمير .. من أقرب أصحابك عايز يحصل لك إيه تانى ..؟!

ما كفاكش تشكشك حتى الريح !! بتجاوز حدك !!

وما حدش قاتل نفسه المسكينة دى قدك ... هوّنها وفوت حبّه وجامل !! ظلموك الخلق عشان أنت اللى بتظلم نفسك .!

●

تعليق على زمش

o

● الأستاذ (محمود السعدني) كاتب وإنسان خفيف الدم والظل أشهر من نار على علم ، فى بلاد النفط كما فى بلاد القحط .. وعند نظم العسكر ونظم الحرامية , كما أنه شهير أيضًا فى بلاد الفرس والروم وله دلال على الجميع .. على المشايخ والأمراء بنفس القدر على الضباط والشاويشية الأكابر من أهل الدولة .. وأمن الدولة.. لدى الجميع !.

كثيرا ما أضحكنا (محمود السعدنى) فى زمن الخوف فعافانا من الإحساس بالجبن ، وهو أيضًا كم أضحكنا فى زمن الأفراح والليالى الملاح فأعفانا من الوقوع فى الغفلة أو نسيان الجراح ..

وكان السعدنى على استعداد فى لحظات بعينها أن يمنح نفسه لأى سجان فى مقابل الإفراج عنه .

وعندما خرج أعلنها بما يتمتع به من صراحه وصدق أنه لن يسجن بعد اليوم . فكرس كل مواهبه ليصادق ويرفه عن وزير الداخلية نفسه .. لكنه سجن معه أو بسببه .. لسوء الحظ ..

وهنا قرر أن يتأكد بكل دقة أن لكلمته (قبل البوح) موضعها ، وصنع لنفسه سياجات وخطوطا حمراء ، مقتنعا أن فى العالم (ما عدا ما يقع ضمن حدوده) مساحات لا حدود لها للسخريه فى أمان من عباد وخلق الله الغلابة والمقهورين من كل مذهب ودين .

فى بداية تلك المرحلة الآمنة من حياته الطويلة ، أصدر كتابه الشهير عن شعب (زمش) وأهلها فأضحك البعض منهم حتى أعماهم عن أحوالهم . وأضحك الآخرين حتى أبكاهم على أحوال غيرهم .. فأنساهم أحوالهم .. لكنه ذكر الجميع أن الجميع هانوا على الجميع – وعلى أنفسهم ـ فى زمن انتشر أهل (زمش) وتكاثروا وسيطروا على كل الدكاكين والحنفيات والمنافذ . سواء فى الحزب الحاكم أو فى الأحزاب الاحتياطية ، فى الحكومة.. وفى الأهالى .. فبينما احتكر أغباهم مواقع اتخاذ القرار .. اكتفى أذكاهم بموقف (الأنا مالى) ونعمة الاستقرار .. فأصبحوا هم نبض الزمان فى كل مكان .

وكاد الرجل (الزمشى) والست الزمشية أن يصبحا المثال للنساء وللرجال من البالغين أو الأطفال ، خاصة بعد خراب مالطة وإفلاس شركات توظيف الأموال وبعد أن أصبح شرعيا وقانونيا الانهماك فى تهريب الأموال . وبالذات فور تيتّم أطفال (الاتحاد السوفيتى) بعد عز مسرح (البولشوى) و(ناتاليا ساتس) و(أبرا تسوف) . ونجاح مسرحية (جورباتشوف) والتحاق بنات (روسيا) البيض بملاهى شارع الهرم ـ من كندا إلى اليابان (والوصول ـ مع اختفاء وانتهاء الصراع الطبقى ـ حسب اعتقاده طبعا) إلى نقطة نهاية التاريخ . وشريعة أن الحكم أصبح ـ بعد الله أو قبله ـ للصواريخ ..!

لذا أصبح فى الإمكان أن يصبح السعدنى البهلوان ـ دون أن يعى أو يدعى ـ مبشرا وفيلسوفا .. يستطيع بجملة عبقرية أن يمحو ذكرى (جيفارا) وصورة (هو شى منه) وكتابات (سلامة موسى) ومقتل (شهدى) من ذاكرة وعقول الشبان . وكله يصبح عند البقر حظائر ، وكله عند العرب سجون . ما دام الوطن قد دخل فى مرحلة الفكر الزمشى العظيم تحت قيادة فيلسوفه السعدنى الكبير . حيث يستغنى الناس به عن أفكار(مالرو) وأشعار (لوركا) و (المتنبى) و (فؤاد حداد) و (النديم) ويكتفون بإبداعات (مفيد فوزى) و (سمير صبرى) وتفسيرات (رفعت) و (عبد العظيم) و (رجب) .. ليكون عصر الخزى والتفاهة والألم الأليم .

●

الطفل المتخبي تحت قناع الصمت

باحب أتكلم ويا أصحابي

لكن بكره أتكلم عنهم لا في الحفلات العامة ولا في السر مع الأغراب .. لأن الأمر ما يسلمش .. طبعي الفالت ولساني الزالف عودوني ويا أصحابي اللي بحق وحقيقي إني أقوم بالواجب وأعمل اللي عليه .. والواجب ع الصاحب ناحية صاحبه إنه يقول له في وشه ولا يغشه ، ويبقى له في الوش مراية يشوف فيها عيوبه .. وذنوبه .. قبل ما يشوف مزاياه .. الصاحب قدام صاحبه يصارحه ويعاتبه عيني عينك مش في قفاه .. ويا بخت الصاحب بصديقه اللي يبكيه ويخلي الخلق جميعًا يبكو عليه .. ومعاه ، وأعوذ بالله م الصاحب اللي يضحك صاحبه ويسليه ويوز الخلق جميعًا يضحكو في السر عليه ..

لكن الواجب أحيانًا يحكم .. وحكم وأنا مضطر أعمل دي العملة .. وأرجو أن يكون قولي له عازة ومن قلبي وما فيهوش أي مجاملة ..

تصدقوا بإيه أنا شفت عبد الحميد حواس من سنين .. ومع ذلك ما عرفتوش بجد إلا من شهر أو أكثر .. من اللحظات الأولى اللي اتقابلنا فيها حسيت إن إحنا قرايب وأصحاب وأما قريت له ف ياما مجلات وجرايد وعرفت اهتماماته ، أتأكدت إن إحنا بينا ياما حاجات مشتركة .. أحلام تشبه بعض ظروف وكأنها واحدة .. أفكار نفسها تلقى لروحها حتة ف أرض النيل وتمد جذور في الأرض وتشرب من ماء النيل وتأخذ طبعها من طبعه ، وتكون لأولاده الفلاحين والفلاحين بالذات سكة لبكرة ودليل ..

وكان ده كافي جدًا إن تقوم بيننا صداقة بدون التزامات ومحبة بدون أي مصالح .. وألفة بين اثنين على نفس الموجة بيعوموا في بحر مدينة غريبة ورهيبة يربطنا مع بعض الود وإحساس بالفهم المتبادل رغم البعد ..

وصداقة .. من صنف صداقة الناس في مدينة .. قايمة على التليفون ..تتغذى بالصدفة مع شاي على قهوة .. وأحيانًا في هوجة موقف وطني ..

أزمة كتاب أو ظرف كتابة .. أو بلوى أو مصيبة في حجم مصيبة (يونية) واللي عملته في روح جيلنا إحنا بالذات .. وعجيبة .. كنا حتى بدون أي كلام .. تلاقينا واخدين نفس الموقف وبدون ما نتقابل .. كان يحسبني تملي معاه .. وأنا أحسبه دايمًا واقف جنبي .. حتى واحنا مش مع بعض .. كنا تملي حاسبين روحنا على بعض .. مع إننا كنا عمرنا ما وقفنا في طابور واحد ولا كنا في نفس البيت .. ولا كلنا على نفس الطبلية .. وكنت تملي أسأل نفسي .. مين هوه – هذا الإنسان ؟ الصامت طول الوقت ..

الهادي .. والناس بتلوش حتى في بعض ..

المبتسم الطيب في كل الأحوال . ساكت حتى أما تغلي الكلمات أو تحتد .. المتأمل جدًا في ساعة الجد .. مين هو ؟

وعنده ليه القدرة الهايلة دي إنه يحكم نفسه بنفسه .. ويكتم ..

الخطوة الهادية المحسوبة والكل بيجري .. المتفائل .. واليأس كما النار في العش بيسري . أعداؤه .. يقولوا إيقاع واقع .. مزعج .. الجبنا اللي من تحت لتحت يقولوا دا خنيس .. ياما تحت الساهي دواهي ..

أما الظرفاء واصحاب النية الحسنة فقالوا .. خدله حبوب الصبر . والحق أنا ما أخدتش بكلام الناس .. لا الأعداء ولا الجبناء ولا الظرفاء .. أنا خدت بقلبي ..ولذلك كان عندي إحساس دايمًا .. أن ورا السطح الهادي وتحته أشياء ياما .. عالم .. هوجة وصراع .. أعماق وعواصف .. زي اللي تحت السطح الهادي للبحر ..

ولحد كدة وما كنتش أعرف أصله منين .. ريفي والا ابن مدينة .. فلاح والا ابن بلد .. أو يمكن كنت عرفت لكني نسيت لهيتني الدنيا نسيت وبقينا أصحاب أفندية من أصحاب المدن الخرس .. اللي بتوصل بينهم أسلاك التليفون .. أو اجتماعات الجمعيات العمومية .. أو قاعات الاحتفالات الدورية .. وما إلى ذلك .. من لقاءات الأخوة الأفندية .. فى مدينة رهيبة وهمجية .

وأما قريته علمني كثير .. حط أيديه على أشياء وهداني لرؤية بعض خوافي الأشياء .. أيوة رغم إننا تقريبًا من دور بعض لكن علمني كثير ... ساعدني على قراية أغنيات الناس الشغيلة اللي أنا مليان بيها من صغري ...

شرح لي الفرق ما بين الجعجعة باسم الفن وباسم الشعب وبين استخدام الإبداع الشعبي بضاعة وسلعة سياحية أو سلم للأبهة والمودة .. أو للبغبغة بالتعبيرات المعهودة .. في استعلاء .. ومابين الصلاة في محراب الكلمة الشعر والنغمة السحر .. والعفوية القادرة .. والإحساس الفطري .. وعشق القلب اللي أبدع هذا الحزن وهذا الفرح .. في إصرار غير معهود على حب الدنيا وفعل الخير والعمل الشاق المتعب اللي بيخلق سحر المواويل .. ويعطي الشجن الصوفي للتراتيل وللبكائيات ولشجر الصفصاف على شط النيل ..

والشهر الماضي اتحل اللغز .. فهمت

لما عرفت انه بلدياتي من (شرباص) اللي بتبعد عن (ميت سلسيل) فركة كعب .

بلدين من عز الدلتا .. فقريته بجد وعرفته بحق .. علشان شفته بعيون الحالة اللي عشناها بنفس الأرض ونفس الغيط والناس والليل وقضينا فيها طفولتنا وصبانا وشباب القلب ..

اتفسر لي السر اللي جمع بينا واللي شكل وجدانه .. وجعلنا مرايه لبعض ..

انكشف السطح الهادي عن الأعماق الغير محدودة .. وعن سر الحب الطاغي اللي في قلبه لمصر ولفلاح مصر .. وإبداعه من سيرة وحواديت وأغاني وأمثال وحكايات وألعاب ومظاهر فرح وحزن .. وحياة .. خلاه يوهب عمره يدور فيه ع الجوهر .. يجليه ويلمعه يشرحه وينقيه يقدمه للي ناسيه .. يمكن جايز يعرف قيمته فيعرف قيمة نفسه .. وقيمة وطنه وقيمة إبداع أهاليه ...

ولمحت الطفل ، اللي كان بيخبيه تحت قناع البصة العاقلة .. بيحشر نفسه في مقاعد النسوان .. بيجهزوا بالحنة عروسة ويغنوا لها ع الصقفة كلام مسحور وغريب يعكس أشواق الأجساد اللي بتهتز بإيقاع الرقص السخن المتداري وراء الجدران ..

يسأل نفسه كيف ستضع حبيبها في عينيها وتتكحل عليه .. وكيف ستخفيه في شعرها وتتضفر عليه .. وكيف .. وكيف .. وكيف .. رأيته يقعى مع أقرانه قدام الجامع قرب المغرب يستنى المؤذن أول ما يقول الله أكبر .. لينطلق معهم عبر الأزقة يعلن آذانهم الخاص .. المرح الزاعق ..

الله أكبر .(ياصايم افطر وكل وبحتر وخلى لي لقمة في الصحن الأخضر .)

ثم يأكل في عجلة ليلحق بهم عقب الإفطار يلعبوا مع بعض (عنكب نط واركب) . (والحمارة الطويلة) . (وركبتوا خيولها .) و (عم يا جمال سرقوا لك جمالك) . (يادمنضاح .. يحيا الملاح) أو يحاربون وطاويط الليل اللي تصحو مع المغربية وتدور في الحواري كذباب أسطوري .. يطاردونها بالعصي الطوال دون كلل أو ملل ..

إلى أن يدور المسحراتي فيجمعهم طبله يردون عليه ويرددون نداءاته .. ويحايلونه أو يرشونه كي يذكر أسماؤهم أمام بيوتهم ولا الرجال ..

ورأيت الصبي الذي يحمله تحت قناع هدوءه القاتل .. يحشر نفسه بين الرجال في المصلى الظليل على شاطئ البحر يستمع لشيخ يقرأ في كتب عجيبة تأخذ بالألباب عن سير لأبطال ومقادير وفتوحات .. عن عرائس المجالس وقصص أنبياء ورسل ..

لمحته يجري في موكب العريس يوم الحنة للحمام .. يجد لنفسه مكانًا وسط الرجال .. ويجد الجرأة لكي يعطي نصف مليم نقوطًا للحلاق لكي يشوبش باسمه كالرجال ... ثم يزاحم في مواكب العرسان المضيئة بالكلوبات الغاز مبهورًا بالكلام المنغم بالنداءات .. بالتعليقات والمواويل والمواويات ...

وحين يحل (برمهات) يجري يسابقهم للحقول ليعود بجريد النخل وغصون الصفصاف يزين باب بيتهم ودوارهم .. ومع المغرب .. يولع راكية النار قدام الدار .. يرمي فيها هو واخواته هدومهم القديمة مع الملح أو قش الشعير .. لكي يطقطق النار وتأكل براغيت الدنيا والدين أو تطردها لبيت (زينب بنت عابدين) أو أي عجوز أخرى يريدون السخرية منها ..

ويشارك بهمة في حرب الحواري التي سرعان ما تنشب طوال أيام (أربعاء أيوب) و(خميس العهد) و(سبت النور) إلى شم النسيم في محاولة للدفاع عن النار الموقدة . قدام دارهم في مواجهة هجوم أولاد الحواري الأخرى .. الذين يريدون إطفاء نارهم ..

وشاهدته بعيني رأسي يدخل إلى محل نومه .. ويضع البصل الأخضر تحت المخدة .. وينام وهو يحلم بالغد .. بكرة يروح للبحر يغطس ويرمي البصل ومعه خمول وكسل عام راح وولى ليستقبل السنة الجديدة بهمة ونشاط زي أجداده الأقدمين الذين ظلوا يفعلونها بفرح آلاف السنين أقباط ومسلمين .. ساعتها تم المراد من رب العباد ..

وعرفت سر الحزن اللي بينغم صوته .. وعرفت سر هدوئه وسكوته .. فالعالم اللي امتزجت أنغامه وكلماته وصوره وحركاته في دمه .. والإبداع اللي وهب له عقله وفكره .. ذلك العالم .. بتخف أصداؤه .. وبتبهت صورته .. وبتضيع ملامحه ..

لا الأولاد عادوا يشعلونه النار لقتل براغيت الشر ولا عادوا بينزلوا النهر للتطهر وغسل أدران وخم العام الفايت .. علشان يستقبلوا عام جديد بروح جديد .. حتى حرق (اليمبى) اللي كان بيشبع حاجة دفينة في قلوب الناس للانتقام من الاستعمار والعدوان والظلم .. يصدر قرار إداري غبي وحاسم بمنعها في آخر خطوط دفاع الناس عن تقاليد الفرح والتجدد في بور سعيد .. ويتحرم الناس من لذة تمثيل الإحساس الوطني ..

وتموت الأغاني ..

إما بأن تتحول إلى أمساخ مشوهة باسم التجديد أو الاستلهام .. وتغني فتيات القرية في الأفراح أغاني التليفزيون والأشرطة الممسوخة .. (الحداثية جدًا) .. وتختفي الأمثال والحكايات من ألسنة الناس .. من صفحات الكتب . وأحضان الجدات المتعبات ..

وتتحول كل هذه الظواهر والإبداعات إلى أشياء جامدة كجثث الموتى على طاولات المشارح . يجوز فيها الاختلاف في التفسير وفي القيمة .. ولكن في اتفاق عام على الخلاص منها والخروج من أسرها .. باعتبارها أدلة على تخلف دام لقرون ..

ويقطع علماء الفلكلور هدوم بعض بسببها .. ولكن داخل أروقة وأزقة حارة الفولكلور .. عاجزين عن حمايتها من التحول إلى بضاعة للفرجة السياحية .. أو نمر للتسلية .. اعذرني يا (عبد الحميد)

ففي سننا قد يكون الصمت قناعا للحكمة .. والهدوء غطاء للحزن النبيل الذي يؤكد الانتماء لأشياء لا تموت في هذا الشعب ولن تموت .. لأنها بتعيش على الغذاء السحري لحلم مد جذوره في أرض عمرها ما بتخيّب أبدًا رجا اللي يزرعها وهو بيحبها ,, ومؤمن من قلبه بخصوبتها الفذة اللي لا يمكن تموت .. رغم الواغش والعابر والزايف من الفنون أو من الناس .

ربنا يديك ويدينا طولة العمر .. لحد ما نشوف يوم يتعدل فيه ميزان الموال .. وميزان العدل والعقل .

●

الست الصيدلانية التي وعدتنا طفلة .. بالفرح *

الطفلة التي وعدتنا بالفرح وبأغنيات الأطفال ، بالشمس المصرية صديقة الإنسان وبالنخلة العالية والطير الطاير نحو الآباء العاملين في الحقول تحت صهد الشمس ليبشرهم بالنسمة الطرية والحصيدة الطيبة عندما تهل المواسم

.....

تلك الطفلة كبرت الآن .. الزمن هو الشيء الوحيد الذي لا يمكن استمهاله أو استعجاله ، يتسرب بين الأصابع أحيانًا كالماء ..

وأحيانًا يتبقى من آثاره الكثير الذي يمكن الإحساس به والإمساك به إلا كذكرى أو حلم أيضًا كأشياء لها القدرة على البقاء و التجسد ولو في النفوس والقلوب .. قصة ، قصيدة ، فيلم، أغنية ، أو لوحة ولحنًا ، والكثيرون لا يحسون تقدم الزمن إلا على حسرتهم على الماضي أو في قسوة الحاضر واغترابهم عنه ، والقليلون هم الذين يشعرون أنهم سيخسرون كثيرًا لو فقدوا الأمس بمجرد شروق شمس اليوم ، ولذا يحن الكثيرون منا لما لا يمكن استعادته ويستحضرون ويجسدون كل ما من طبيعته الهرب والتلاشي في وقع دخان اللحظات التي لا تتوقف ولا تلتفت إلينا رغم أننا أحيانًا ما نتوهم أننا نملكها .....

وأعتقد أن هذا هو أحد الدوافع الرئيسية للإبداع الفني والكتابة بوجه خاص ... حتى تلك التي تستشرف المستقبل ما هي إلا محاولة لاستعادة الزمن الهارب والماضي الصعب بل والمستحيل إبقائه بالقرب منا طلبًا للأمان ونزوعًا للائتناس بالمعروف من الكتابة والمألوف والمجرب... محاولة دائمًا لاستعادة العمر المتسرب من بين الأصابع وتجسيده في كلمات وخيال ، ومحاولة دائمة لإعادة تخليق البشر في الحياة والمواقف والعلاقات مهما بعدت بهم المسافة وهي أيضًا نوع من الطموح أو الطمع في استثمار مكثف للحياة وتوسيع أفق لا يحد ، وتعميق لا نهاية له لمجراها وفهم شديد ينبع من عدم الرضا عن الذات ، أو هو عدم الرضا لوجوده على ما هو عليه ،

والرغبة في استنشاق كل نسمة بعمق أكثر ، ولمس كل جسم باندماج أشد ، ورؤية كل لون بإضاءة أكثر سطوعًا لمدى أطول ، إنها أيضًا محاولة للخلود رعبًا من الفناء والتلاشي والذوبان في السديم أو التراب بكون المرء من أولئك الذين يعشقون لأنهم يحسون أو يستشعرون ، ويصبح الأمر أكثر إلحاحًا على النفس والروح عندما يبصرون أو يلمسون الوهج السحري للنار الإلهية التي تجعل من الإنسان المبدع إنسانًا مختلفًا ... تلك النار التي طردت (آدم) الرباني من الجنة وكتبت على (بروميثويس) أن يحمل صخرته صعودًا أبديًا نحو السماء وهبوطًا أزليًا إلى الأرض ، والتي تجعل القلب منشقًا على الدوام مثقلاً بالحلم ..... مشوقًا للفرح ،، مغرقًا في الحزن ، فريسة للقلق على مصير البشر ومصيره ،، مسكونًا بالقلق الدائم والشك العميق في الحياة ، معنيًا _____

* كانت مقدمة لكتابها لكنها خلت من شبهة النقد وقيل (شخصية) ولست أنفي ذلك ، لذا أنشرها بصفة شخصية .

تفهم ولا تشعر إلا بما يقتحمها أو يهزها بقسوة فجة ، في علاقة مباشرة مادية وعابرة لإشباع الغرائز وإطفاء الشهوات الحسية في بلادة واستنطاع .....

وتلك الطفلة التي وعدتنا بالفرح وبأغنيات الأطفال من زمن كبرت الآن ... كانت من أولئك الممسوسين والمختلفين ... هل كان صوتها ، ومواهبها وسط زميلاتها كورس أطفال الإذاعة والذين تفرقت بهم السبل صار بعضهم نجومًا يشار إليهم بالبنان مثل ليلى وأختها ماجدة ، ونسرين وحياة وعزة وغيرهن من الفنانات اللاتي كان من المفروض أن تكون (كريمة) واحدة منهن باعتبارها كانت تتقدمهن على الأقل بخطوة ، لكنه ذلك الجنون الذي يدفع الممسوسين والممسوسات إلى قراءة الحلم والغلو في الاختلاف ،، فتصبح حياتهم على حد السكين كما يقولون ،، طامحين إلى التأثير في العالم ،، يتملكهن ذلك التحدي الإنساني أو الغرور الذي يصورهم لأنفسهم وأنهم قادرون على تغيير مسار العالم ... أو شكله أو نظمه ...

(دون يأس ودون جدوى) ولكنه طموح وعراك يولد دائمًا الفن العظيم منذ الكلمة الأولى والرسم البدائي ، تلك الخطوة السحرية على جدران الكهوف والفكر الراقي منذ كتاب الموتى . والذي بدونه تصبح الحياة كما هي في حقيقتها مجرد فرصة للضجر والتعب في إطار من الغيب ، واللاجدوى ويدفع الطفلة التي وعدتنا بالفرح وبأغنيات الأطفال يدفعها هذا الجنون الإنساني الجميل إلى خوض معركة ضارية دفاعًا عن قناعاتها واستقلالها في سن مبكرة وتواجه كل عقد التقاليد الموروثة لتصنع حياتها المبتكرة ولتجبر أهلها على الاعتراف بها وباختياراتها وتنتصر ، وقليلاً ما تنتصر المرأة في بلادنا .

وتجد الطفلة الصغيرة التي وعدتنا ، تجد نفسها في الطريق الصعب الشائك في الجامعة التي كانت تمور بالأفكار وبالثورة ، تنحاز إلى الجانب الذي تصورت أنه سيسهل انتصار مثيلاتها في المستقبل ،، فما فعله أهلها معها كان وليد التخلف والقهر والفقر ، ولذا فقد أعلنت الحرب الشاملة على التسلط والتمييز والامتيازات والجهالة وجدت نفسها تخطب في المؤتمرات وتهتف في المظاهرات وتلقى في سجن السبعينات ، دفاعًا عن ذاتها ، و عن حلمها ، وعن حبها الوطن .

فصل زوجها من الإذاعة وفصلت من الجامعة إلى حين ،، وجاءت أيام صعبة من الجفاف والفقر والجوع ،،،، كان لديها قطة فاخرة ، قطة بلون الثلج المنفوش اسمها (آيس) لها عينان عميقتا الزرقة ،، ولم تكن تأكل (الست آيس) ، سوى اللحم أو السمك أو البيض !! قطة تليق بأميرة ، ولم يكن ممكنًا تدبير طعامها ، وكانت لحظة القرار صعبة ولكنها ضرورية .

حملتها إلى سور نادي الصيد ، حيث كانت عند مرورها تشم روائح الشواء الشهية كل ساعة وكل وقت ، كان البشر الذين يدخلون ويخرجون منه ممن يليقون بقطة (كآيس) ، وعند سور النادي الراقي أطلقوا سراحها وهي تنتفض من البكاء لفراقها ، ولم يكن أمامها إلا أن تحلم باستعادتها يومًا ما ،، عندما تتقد الثورة ،، ولكن الدموع لم تتوقف والإحساس بفداحة الخسارة والفشل ، ركز طعم المرارة في الحلق وفي الأيام ..... الطفلة التي وعدتنا ..... ظلت تدس نفسها في إطار الحلم .. تتعلق بأهداب الأمل .. تتلذذ أو تتعذب بآهات الفن ولوثاته ,,,

وتأتي الفرص بخيلة وقليلة .... لكنها تظل تمثل وتغني كهاوية وفية لشيطان الفن الجميل ..... وجاءت سنوات العمل المباشر وأصبحت طفلتنا الحالمة بالغناء والثورة تبيع الدواء في قرية من قرى الصعيد الشمالي .... (برنشت) وهي أول قرية تدخل إليها ثورة يوليو بأول محاولة لحك جلد الريف الذي تراكمت فوقه الأتربة والجهالة لآلاف السنين ببناء أول وحدة مجمعة ريفية تبشر بعلاج بسيط وتعليم أبسط وضوء باهت لإخراج المرأة الريفية من دياجير العصور الوسطى .... ولم يمهل الزمن كعادته ذلك الضوء ، فحطت البيروقراطية مدعمة بالتسلط والتسيب والجهل لتدهم الجميع ، هزيمة 67 وبعدها التداعيات التالية والحديثة – واقتحم العالم كله من خلال الشاشة الملونة زرائب وأحواش العواصف مطهرة أو مدمرة مطورة أو مغيرة .... فتنقلب قيم وتندثر عادات أو هكذا نتصور ، ويتغير الإطار أو يتلون ،، ويهتز الثابت أو يتزلزل ..... وينطلق ملايين المصريين الذين كانوا يحلقون بحسرة غربتهم لو عبروا النهر عبر الحدود إلى الصحارى ومدن النفط ! وتعود أوروبا منتصرة دون عسكر أو بهم أحيانًا وتبدو القرية مسكينة ولكنها مختلفة ... الكهرباء تجعل الناس يسهرون للصباح .... وعرفت المصطبة التليفزيون والموكيت والسيراميك .... وانتفخت المحافظ والجيوب والسيالات بالعملات الصعبة والسهلة تحت الصديري الملون بآثار الخضار أو المواشي .... وكانت هي في مربضها وراء (البنك الخشبي) الملئ بأدوات الشّعر والتخسيس والتقوية والشفاء والتسمين ، على كل لون وعلى كل مستوى ،، ترقب ما يحدث وتحسه وينشق قلبها له ويتفتح عقلها لاستيعابه فما كان هناك سبيل إلا للكتابة ..... وأمام كل ما سبق هل كان يمكن أن يكون هناك سبيل آخر سوى الكتابة .... إنها ليست كاتبة محترفة ولم تكن تقصد بكتابتها أن تصنع شكلاً فنيًا ،،،، إنما هي الحاجة ، الدافع ، الذي لايعرف سبيله أحد ..... ولا يستطيع أن يتمرد عليه أي إنسان لمس تلك النار الإلهية التي طردت (آدم) من الجنة وأجبرت (بروميثيوس) على حمل صخرته ،، وجعلت الإنسان (يختار حمل الأمانة ، التي عرضها الله على الجبال والسماوات فأبين أن يحملنها واختار الإنسان أن يحملها ،،، إنه كان فنانًا) وتقف الطفلة التي وعدتنا ..... وقد أصبحت أم لطفلتين جميلتين على قدميها طوال اليوم تتلقى همسات النسوة عجائز وعذارى يشكين لها همومهن الجسدية والنفسية وتتحول من

مجرد صيدلانية إلى كاتمة أسرار ومدلكة روحية ،، وطبيبة نفسية ومصلحة اجتماعية وصديقة . وتسعدها تلك الروح الحساسة والقلب العميق المشاعر . وعشق البشر إلى ملامسة همومهم وفهمها واستيعاب ظروفهم وتعقدات حياتهم بكل ما وهبها حلمها القديم من سعة صدر ورغبة في زراعة الأمل ... تصف الأدوية وتصرفها ،، والأكثر من ذلك تجبر الخواطر المكسورة ،، وتعيد الثقة للنفوس المنهزمة والمعذورة وتستمع أيضًا لهمسات الرجال والشبان الشاكية وتتفهم أزمة العاجز وتعين المستضعف وتكسر حدة طمع المغرور والمتسلط والجاهل ، فتكون أختًا للجميع .... وتندمج في شبكة العلاقات على كافة المستويات .... ويعطيها هذا رؤية ويكشف لها عن أسرار المناطق المظلمة والرمادية في المجتمع والنفس الإنسانية وهي تعاني وطأة الحياة المتغيرة المندفعة من حالة السكون والهدوء إلى دوامة الحركة المجنونة تحت وطأة و ضغط رياح القرن الواحد والعشـــــــرين التـــــــي

تعصف بجذور ثبات أشجار العالم الثالث ، ممثلة في قرية صغيرة لا تظهر على أي خريطة معتمدة اسمها (مزغونة أو برنشت) أو أي اسم يخطر على بال أي مصري من أصل ريفي أحس بعذاب البشر ورفض ظروفهم ، وتبني أحلامهم في حياة كريمة مستورة وآمنة ... لتكون خضرة في كل المواسم ....

●

النهر الذي هبط علينا من السماء

تستضيف صفحات الأدب الشاعر المصري الكبير سمير عبد الباقي في مقال نقدي له عن رواية فتحي إمبابي " نهر السماء " .. كمحاولة لإزاحة ظلم إعلامي أصاب الرواية وصاحبها يشارك الشاعر الكبير في تبديده . (روزاليوسف)

● لا يمكننا الحديث عن رواية (نهر السماء) لفتحي إمبابي دون أن تنغص علينا متعة تناول هذا الإبداع الفذ تلك الظاهرة المؤسفة التي تأخذ بخناق حياتنا الأدبية ظاهرة النفاق وتبادل المصالح التي تجعل من أنصاف الموهوبين نجومًا يخفي ضوؤها الزائف كثيرًا من الجواهر الأصيلة لمبدعين مصريين وعرب .. ولكننا سنتجاوز عدم معرفة كثير من النقاد الذين كتبوا كتبًا ودراسات عن الرواية المصرية والعربية بهذا العمل .. وعدم قراءة كثير من المبدعين له واعترف أنني قرأته منذ شهور صدفة رغم صدوره عام 1988 بمبادرة من صاحبه ومن دار الفكر التي أسسها الصديق عبد السلام رضوان منبرًا ثقافيًا واضطرت إلى التصفية تحت ضغط مثل تلك الظواهر المريضة التي تتحكم في الحياة الثقافية .

وفتحي إمبابي عندما تراه لا يمكن أن تصدق أن هذا الشخص البسيط النحيل الذي يصعب عليه أن يعلن عن حضوره هو مفجر وصانع تلك العاصفة الملحمية الرائعة (نهر السماء) التي (تنفجر أحداثها وشخوصها صفحة بعض صفحة أو سطرًا بعد سطر) على حد تعبير الفنان توفيق صالح لتكشف عن علاقات عالم شديد الحيوية عميق التركيب تتدفق أحداثه كنهر غاضب هادئ عاصف ساكن يخترق كيانك إيقاعه ويسحبك معه جارفًا معك ما ترسب في الأذهان البليدة من صور ممسوخة مغسولة عن تاريخ مصر .

وسيدرك من قرأ الروايات التاريخية المصرية العديدة على اختلاف كتابها ، وتنوع مصادرها ومنطلقاتها أنه مع (نهر السماء) أمام رواية مختلفة (رواية تاريخية بحق) كما يقول الناقد الكبير (إبراهيم فتحي) بحق وصدق ، وهو الذي قرأها كعادته مخطوطًا وذيلها بكلمة شديدة التركيز والدلالة يقول فيها إن فتحي إمبابي (يرسم لوحة شديدة الحيوية والكثافة لنهر الحياة التاريخية المصرية في خصوصيته الأصيلة وتدفقه المستمر وتيارات أعماقه وسط صراعات طاحنة وطواعين ومجاعات في فترة تمتد من الحكم المملوكي إلى قدوم الحملة الفرنسية) .

إن الرواية تكشف في حدة شديدة القسوة أن بقايا الماضي ومخلفاته في العلاقات والعادات الفكرية والملامح الوجدانية ليست مضمونًا للتاريخ أو ثوابت للشخصية المصرية ولكنها تحاول أن ترسم لهذه الشخصية سمات متغايرة متطورة في تفاعلها مع شبكة واسعة من علاقات القهر والاسترقاق وفي مقاومتها الهزيمة والتطلع لتجاوزها وهي علاقات تمتد إلى مراكز الغزو في أوروبا وآسيا .

وهذا يضعنا مباشرة على نقيض التناول الذي يأخذ به معظم كتاب الرواية التاريخية المصرية .. من أنهم يرسمون مسبقًا صفات وسمات الشخصيات المختلفة لدرجة أنك يمكن أن تخمن ما سيكون عليه الموقف بين الأنماط كالوالي والفلاح والمحتسب وغيرهم في نمطية فجة مستمدة من خبرات قرائية مثقفة بحثية باردة ولن أفلت من هذا التعمد والقصدية في رسم تلك الأنماط أو في تركيب الأحداث ونسج شبكة العلاقات إلا النادر من الروايات التاريخية !

نحن هنا ندرك مع القراءة الأولى لهذه الرواية (نهر السماء) زيف تصوراتنا عن ذلك التاريخ وعقم وقوفنا عند سطح صوره السردية عند (ابن إياس أو الجبرتي) فما بالك بالصورة المدرسية المغسولة التي روجت لها المناهج الدراسية وكتب التاريخ البحتة .. وستجد نفسك مطالبًا بأن تعيد قراءة كل ذلك و نقده وسبر أغواره بمجسات إنسانية جديدة زودتك بها هذه الملحمة .

كيف يمكن أن تتجاوز أو تنسى معاناة (صديقة) الفلاحة أو العبدة (الحرة) في بيت الشيخ السنهوري .. الشيخ ذو السطوة المستمدة من وضع تكون عبر قرون من السلطة الخفية للشخوص (الدينية) في ظل دولة حكمت متذرعة باسم الخلافة .. مستخدمة الوجدان الديني في إحكام سيطرتها الدنيوية وتدبير كل مصائبها ونهمها ونهبها وجرائمها .. وكيف يمكن أن يفارق خيالنا إلى الأبد ما حدث (للمنصور) أو لـ " عبد المحسن " كنموذجين ومثالين لمن يحاول أن يتسامى على وضع العبودية الفظيع الذي يعيشه الفلاحون المصريون والذي تجسد في تلك الصورة البشعة حيث (يسلق) السمين منهم ليأكله الجوعى الذين جاءوا ليسخّروا طواعية طلبًا للجراية و الحياة ..

ومحاولتهم الأسطورية ليكونوا بشرًا في نظام لا إنساني .

إنها رحلة شديدة القسوة شديدة الواقعية كرحلة (عبد المحسن) مصلوبًا بعد القبض عليه حين تكاتفت كل قوى القهر وتحالفت رغم كل تناقضاتها لتنتقم من محاولته رفع رأسه والانتقام لأهل بيته ، رحلته مصلوبًا على مقدمة المركب عبر النيل معذبًا لتشاهد معه ومثله مصر المعذبة المقهورة الحالمة والتي – عبر العصور – تتشابه وتتشابك أرضًا بشرًا لتتجسد في أناس عاديين يكدحون ويبدعون وينهزمون ويسوقهم الشوق إلى العدل ليظلوا على ظهرها خالدين رغم كل ما حملوه من هموم .

يا أيها النقاد العظام أرجو أن تقرأوا هذه الرواية بإمعان .. أو تعتذروا لها وللمبدع (فتحي إمبابي) وإلا فلا عليكم السلام .

●

عدلي فخري – في حب مصر

رحل صاحبي (عدلي فخري) في هدوء .. وصمت ..

ظل ينسحب من الحياة عامدًا وهو المتعطش لها النهم إليها ..

وينسحب من الوطن وهو الذي شرق باسمه واختنق بمأساته وأغنياته ..

انسحب عدلي فخري في صمت وهو الذي ظل يصرخ من أعماقه منبهًا الغافلين فاضحًا المتخاذلين ، لاعنًا الخونة والمتآمرين – يا مصر !!

لسنوات وسنوات ملأ قاعات الجامعة وساحات القرى والمعسكرات والبيوت والمسارح المتاحة مثل قاعة تشايكوفسكي – التي صارت مزارًا للألوف يرددون خلفه أو ينشدون معه مؤازرين صرخاته المحذرة الواثقة وآهاته المنذرة العاشقة :

_ (اصحي يا بلدي اصحي ، واتذكري واوعي تنسي جرحك يا مصر وجرحي .. سينا شراع السفينة) ..

_ (بابلو نيرودا .. الدم في طبق الرئيس الأمريكاني)

_ (صوتك على موج البحور لقلوبنا ساري .. زي ابتسامة الطفل في القلب اليساري)

_ (في قلبي نبض وفي العروق من نبض ستة وأربعين)

_ (الكلمة اللي ما تبقى رصاصة .. ملعونة وخاينة)

_ (اتذكر وانت بتقفل بابك لجل تنام متطمن كل مساء .. إن الألوفات في نفس الساعة بتموت م الجوع أو تحت نابالم الطيارات الأمريكانية)

_ (الفن لو كان أصيل زي الطعام يا ناس ..)

_ (شد العروق يا رغيف شارب عرق سيال)

_ (لولى يا لا للي يا حلوة ياللي – ع البال يا مصر وجوه قلبي تمللي)

_ باحب صوت الكنايس واعشق هديل الأدان)

(ولا زي نيران الحرب تطهر قلب وعقل الناس ولا زيه صوت الشعب يخللي الجند توج حماس) .(إيدك ع الزناد قلبك على المصانع) .. وغيرها ..

يرددها خلفه ألوف الطلبة والعمال والناس البسطاء والفلاحين .. وأيضًا المثقفين النسايين أو (المتناسين) الآن – تلك الأيام المجيدة حينما كان لكل شيء معناه (وليس بما معناه) ! وحيث لم يكن الوضوح جريمة ولم تكن البساطة والبراءة عارًا ولا التواصل سطحية وتخلفًا .. وحين كان للوطن حدود – لا على الخريطة – ولكن في القلب رغم الغرباء ، وكان الغناء فعلاً جميلاً وموقفًا والفن أملاً من لحم ودم وعشقًا ينتصر على كل هزيمة قبل أن تسفح دماء الأمل هدرًا على مذبح الوهم الجديد ..

انسحب (عدلي فخري) بعد الانسحاب (الثالث) الكبير من بيروت .

وباءت كل محاولات إعادة صوته إلى حنجرة الوطن بالفشل وخاصة بعد موت (أمه بالرحم والدم) . بعدها – قرر أن يموت وترك المرض الذي حطم قلب الوطن يحطم قلبه ، دون أن يقاومه ولو بتنشيط ذاكرته وذاكرتنا بأننا (حرتنا بالدبابات الشط يا سينا ما احنا ولاد الرجال الحراتين الغيطان ..) !

فمن يستطيع أن يعيد إليّ أغنياتي التي حملها إلى القبر معه صديق العمر (عدلي فخري) في هذا الزمان عديم الوفاء . ضحل الذاكرة ، سقيم الوجدان ؟!

●

أشـباه قصص
أشـباه مقالات

بلطى والا زرْ آّمه

- كل الأسماك مدهشة

حتى تلك الأسماك الرمادية اللون التى لا لون لها ، تلك التى لم نكن نعرف غيرها فى أيام طفولتنا الأولى وكانت تعيش فى المسرف الكبير الذى يمتد بمحازاة البحر الصغير في شمال (ميت سلسيل) .

كانت تدهشنا بحركاتها وألاعيبها الماكرة التى تجعل صيدنا لها من المستحيل .. ورغم فشلنا اليومى بالإمساك بها سواء استخدمنا (الصنانير) أو(الشباك) أو (الأقفاص الحديدية) التى نسميها (الجوابى) لم نكف عن محاولاتنا الدؤبة الفاشلة ولم نتعب من البحث عن الديدان الأرضية العجيبة التى لا تموت فى الأماكن الرطبة الظليلة عند شواطئ البرك وأطراف الجناين والبساتين لنستخدمها فى إغواء أسماك ذلك المسرف للوقوع فى أسر جوابينا وشباكنا أو اطراف صنانيرنا الحادة دون جدوى ..

وحين استسلمنا لانقطاع حبال صبرنا وانهد حيلنا تركنا الشواطئ الخضراء الظليلة التى لا نهاية لها لصيادين أكثر مهارة وارتضينا أن نكتفى بالصيد فى المسارف الصغيرة الضحلة مثل مسرف (البواليص) أو مناصل (أرض دار أحمد) التى تزرق فيها المياه وتتعطن وتسكنها الضفادع الثرثارة وصراصير الماء القاتمة اللون والجنادب الكئيبة وقواقع البلهارسيا .. ولم تكن الصنانير تصلح للصيد فى مائها الضحل فالماء القليل لا يسمح بتغطيس خيط الصنانير ولا (الجوابى) لإخفائها كى تصبح شراكًا حقيقية . كما أن تلك المسارف التى تزدحم بالحشائش والطحالب وقواقع البلهارسيا لم تكن عريضة بما يكفى لطرح الشباك ..

لذلك اقترح بعضنا ـ ممن لهم خبرة بأمور الصيد أن نلجأ إلى أكثر الطرق البدائية بإقامة سدود من الطين والحشائش على مسافات قصيرة نسميها(العقلة) ثم نقوم بنزح الماء من عقلة لأخرى حتى تقل المياه وتتعكر فيعجز ما فيها من سمك عن الحركة الحرة ويختنق لقلة الماء ويزدحم به القاع الطينى ويصبح عاجزًا عن النفاذ بجلده والنجاة بحياته إلا بدفن نفسه فى الطين فيسهل بذلك علينا انتشاله والتقاطه من الطين اللزج المخفف بالماء العكر ..

وهكذا صار الأمر ..

وبعد أن كانت متعتنا ـ بجلوسنا على شاطئ المسرف الكبير فى ظل الصفصاف والكافور ـ لا حد لها ، تعوضنا عن فشلنا الدائم فى الصيد .. فأمامنا كانت تجرى مياهه الرقراقة الصافية تكشف لنا عن أسراب الأسماك المراوغة . نحاورها ونلاعبها سعداء فرحين بها وهى تتلاعب بنا وتغلبنا لجأنا فى ميدان صيدنا الجديد لطرق أخرى . إذ شمرنا عن ملابسنا النظيفة أو خلعناها وتعرينا لنخوض فى المناصل الضحلة حيث الطين الدبق والماء الآسن المشبع بالطحلب اللزج والقواقع الغادرة .

وبأكواز وعلب الصفيح الصدئ أو بأيدينا العارية نظل ننزح الماء المعكور من عقلة لأخرى بإصرار حتى يدهمنا المغرب ونحن نأمل فى الحصول على ما يشفى غليلنا من الأسماك المراوغة ..

وحين كان الماء يفرغ تقريبا , ويكشف عن قاع المسرف . كنا نفرح بالحركة الدائبة المضطربة الناتجة عن مئات الاجساد الحية العصبية المتراكمة فى بقايا الماء المعكور , تحاول الفرار من مصيرها .. كلما تحركت أرجلنا وأذرعنا تقلب الطين وتحيل بواقى الماء إلى سائل غليظ القوام أسود اللون . تصعب فيه الحياة وتستحيل منه النجاة .

كان صراخنا منتصرين يرتفع ساعتها فرحين بالصيد الوفير الحى . نهرع معه متزاحمين للإمساك بحصيلة تعبنا المضنى .. مكافأة تحملنا وصبرنا على لسعات (سركاريا) البلهارسيا ـ التى كانت تجد فى سيقاننا وأذرعنا العارية المتعبة ملازا ومرتعا ـ سعداء سكارى بانتصارنا على الأسماك المراوغة المدهشة وفى كل مرة عندما تنكشف لنا حقيقة ما يحويه الطين المعكور كنا نجلس متعبين على شاطئ المنصل اللزج نتأمل فى يأس وخيبة ذلك الزحام الرهيب الذى لايكف عن الحركة لعشرات الألوف من الفقس ، ذلك الفقس الغبى الذى يطلق عليه العيال (ز.ر أمه) !!

●

عبادة

O

● الأم التى جن زوجها (حسين الجحش) من الجوع وقلة الشغل ، أرهقها الفزع الطاغى من نظرات العيال المستنجدة .. بعد أن مات أبوها كمدا فى حزنه موجوعا عليها .. بعثت أولادها يخدمون فى بيوت العز التى لها تراسينات , وحولها حدائق صغيرة أو كبيرة ..

حرّمت الشارع أن تراه أقدام بناتها الست ؛ أقسمت ألا تمد يديها لأخوتها المستورين ولا لجيرانها ذوى الألسنه الطويلة .

كتمت فى القلب ما يرشح فيه يوميا من أحزان , حتى انهرى كبدها وتورمت أقدامها .. ومرر طعم الفم بسبب أمراض لا تعرفها ..

كبر الأولاد الذكور فى بيوت الغير .. على لقمة الغرباء ، وكل من طلع له الريش منهم وقدر له أن يكسر طوق الهم .. كان يطير ، ليس مهما إلى أين ؟ فبلاد الله واسعة وفى أى أرض يتيسر فيها عسير القوت ، سيجد أهلا بدل الأهل ، ونومة بدل الفرن.. وهدمة ليست هلاهيل ..

والبنات اللائى .. خرطهن خراط الصبايا بفضل فرافيت وبواقى أهل الخير السرية .. وما ترميه فى حجرها الحدادى من كتاكيت بعد أن يشبع من فرائسها جوارح الطير كبرن بعيدا عن الشمس والنور وضجيج الشارع ..

وكانت لما بطونهن (تعلا وتملا) كن يختفين مثل الجنيات فى سراديب الدار .. لحد ما يحل الأوان (ويرمين من بطونهن أطفالا) من لحم ودم لا يبكون ، لكن خرس لاينطقون .

لأنهم قبل أن يلقفوا حلمة بز الأم مرة وقبل ما يرتد النفس الأول من صدرهم .. كانت الأم تقدمهم قرابين ترابية سرية لآلهة الفقر .. بطريقة غاية فى الوحشية , كانت تدفنهم وهى تبكى فى سرها انعدام الرحمة والإنسانية .

•

حمام الهنا

o

● كان الشيخ الأعمى..شيخ كتاب الجرن يصر صباح كل يوم جمعة أن (تحمّيه زوجته التى كانت فى عمر بناته) , لو كان خلف بنات .. فى الطشت عينى عينك أمام كل تلاميذ الكتاب وبمساعدتهم ..

هذا يحضر الماء من الطلمبة والثانى يدعك الليفة الخشنه بالصابونة والثالث يخلط البارد بالسخن ، ذلك يعطى نفس لوابور الجاز أو ينفخ فى حطب الموقودة تحت الطشت النحاس ..

كـان يحكمهم بتهديده الـدائم لهم .. لا بعصـاته وحـدها ولا بالفلكـة ذات الشـقوق الأربعـة والصوت الرنان ولكن .. بذلك العمود المدلدل بين فخذيه والذى كان يسميه الشيخ (فوكس) ..

البت مراته الصغيرة التى وقعت فى أرابيزه بكيلتين قمح وزمبيل عجوة شرقاوى وريال فضة لم تعد تخجل من مشاركة العيال فى طقوس الحموم الأسبوعى . وجمعة وراء جمعة صارت تتغمز معهم عليه .. وصارت بينها وبينهم لغة إشارية ، فصيحة بلا نفس ولا حركات حتى لا يقرأ حركاتهم أو يسمع أنفاسهم ، الأعمى الكهين .

وكانت تتعمد وهى تدعك عصيانه العظمية وبزابيزه اللحمية وعضلاته ، أن تغيظه فجأة وتكركع بصوت حيانى مثل العرسة التى تلد ولادة عسرة ، فيشخط فيهاالشيخ العكروت وينهرها لأن صوت المرأه عورة يا بنت الكلب . فترد عليه وهى تقرصه بقسوة (بلا هدّة إخمد وبطل تتحرك طرطشتنا ، كِن علشان تلحق تقرا لك ربع ولا اتنين قبل الصلا . محموق على إيه ؟ هو إيه اللى عورة يا ابو عورة ؟..)

كانت تشطفه لتالت فُم ، ثم تنشفه بمساعدة العيال ، وتقيفه ، وتسلمه لهم صاغ سليم ، مهندم على سنجة عشرة كى يصحبوه فى موكب مهيب إلى الجامع ..

لكنها كانت ، مستخدمة اللغة المخترعة الصامتة بينها وبين العيال العفاريت ، تخطف منهم آخر ولد .. وتحجزه لتعريه وتلقى به فى الطشت ، فى ماء جديد دافئ ، وتعطيه الفرصة ليشطفها هو وينشفها ..

وحين يتقيّـفان ويتهيآن ينطـّان فوق السرير الأسود أبو أربع عمدان ليلعبا معا لعبة طفولتها المفضلة (عروسة وعريس) !

•

ست الكل

ما عدتش العيشة فى مصر زى ما كانت .. لكن لازم ترجع .. صحيح إن كل اللى بيحصل لتشويه عنصرها وتزييف شخصيتها اللى عاشت بيها ملايين السنين أشياء ضد التاريخ .. والعقل ..

لكن الخوف والرعب أن فى النص التانى من القرن العشرين اللى ابتدا بالدعوة لاستخدام العقل .. حاجات كتير حصلت فى العالم وهنا ضد العقل والتاريخ . وما كانش حد ممكن يصدقها .. إلا إذا كان التاريخ نتهى والعقل باش ..!

لكن كل ده هبو ريح ورغاوى بحار هايجة واللى حيفضل وح يتأكد بس هو اللى ح ينفع الناس !..

وعشان كده قلبى مليان ايمان بالإنسان المصرى .. البشوش الحدق ابن البلد .. اللى الكلمة الحلوة عنده شفا .. واللى عاش فى نفس البيت ، وقعد على نفس القهوة وف نفس الفصل قسم الصندويتش فى المدرسة مع صاحبه سوا كان الصندويتش ده عملاه خالتى أم جورج لجورج ..والا عمتى فطومة لحسنين والمثل بيقول اللى محتاجه البيت يحرم ع الجامع ، والمثل ده مش اختراع قبطى أكيد لأن فيه برضه اللى بيقول اللى يحتاجه لأولاد يحرم على الكنيسة .. وده هو الصح .. لأن الدين نزل وكان لحياة الإنسان مش لموته .

وكل اللى بيبصوا لورا يختاروا اللى يخدم وجهة نظرهم .. لكن احنا ح نذكرهم ، باللى فى الإسلام والمسيحية ضد التعصب والجهل والفظاظة .

وكل اللى ف تاريخ مصر على طول التاريخ ، من عشق للحرية وللعدالة وللإيمان بأن رضا الرب من رضا الناسا الناس من رضا الرب وإن الدين المعاملة .. وإنكم أدرى بأمور دنياكم وإن الدين لله وإن الله محبة . أما مصر فهى أم الكل .. حتى لو نفر بعض الأبناء العاقين لإفساد الدنيا باسم الدين ..

لأنه كما أن مافيش هناك غير مصر واحدة فى العالم .. ومش ح يكون إلا هيه .. فاحنا مش ح نلبس غير جلابيتها هيه وأمهاتنا مش ح يرضوا بغير ملايتها وطرحتها هيه . لا الإيرانية والا الباكستانية ولا بأى نيه !!

ومش ح نغنى غير غنوتها هيه .. ست الكل ..

اللى طول عمرها ، لما كان الفقر والكدب والقهر يحط عليها ، ما يملاش قلبها الغل ، فتهبش وتخربش وتدهوس غيطها وتكسر الطبق اللى بتاكل فيه .. لا

لا .. كانت تلمنا تحت جناحها .. شمال ويمين .. قبط ومسلمين ..

علشان نعرف سر حزنها وجراحها .. ونعمل اللى يكيد أعاديها وظلامها .. ويريحها ..

على ضى الحكمة الربانية فى القرآن ، والإنجيل وكتاب النيل ، المخطوطة والمعجونة بعرق ودم فلاحها .. من ألفين جيل !

●

خرابيش

وكأن جميع الشعرا مخدات ريش .. وأنا وحدى اللى بخرابيش .. علشان خربشت عساكر ولصوص ياما بقد ما غنيت وكتبت نصوص ، وهبشت الكدبة من الكتاب الكتبة ومن السياسيين المنتفعين من كل ملة ودين .. سوا م اليسار أو م اليمن ..

لذلك باعتذر وباسامح كتاب التقارير الأدبية والشعرية ، ونقاد المقالات الأمنية اللى بينسوا يذكروا إسمى وشعرى عمدا فى كتابتهم وكتبهم العلنية أو تصريحاتهم الصحفية .. وكفاية عليه فاكرينى (بالخير) فى (مقالاتهم) السرية ! وعلى فكرة أنا أطيب من شعرى كتير .. ولذلك حبسنى عبد الناصر (الوطنى) وشعراوى (الاشتراكى) والسادات (الديموقراطى) ، وبكل غباوة المنحوس المتعوس ضيعت بكل بساطة ميزة إنى كنت فى يوم من الأيام محبوس . وما حولتش أيام سجنى فى بنوك الأنظمة والأجهزة لشيكات وفلوس!! وآهى الفرصة الظاهر ضاعت ، ولا حد عاد بيفكر يحبسنى الآن !

يمكن لجل ما عادش عندى اللى اخسره إلا حبى للوطن ، اللى حتى الآن ماكرهنيش ! ومع إنى ضلى تقيل .. لكن وحياة العيش والملح يا صاحبى أنا شعرى حنيّن على كل شريف ونبيل .. عمرى ماخربشت غير كل جبان وغبى وكداب وعويل .. صدقنى .. وحاول تسمع لحنى الطيب تحت النغم العدوانى .. لأنه ماكانش ف إمكانى بعد اللى أنا عشته وشفته من (الكانى والمانى) .. غير إنى ودفاعا عن ذات نفسى كيانى .. وعن وطنى اللى ادانى كافة ما أحيانى بيه وبلانى ، من ناس وأصحاب وأغانى – انى أتحأمى بخرابيش الشعر الإنسانى .

●

كلمات لابد عنها
ولا مفر منها
حول هوجة العامية الفصحى!

لغة والا لهجة .؟

قعدت أفكر كثير فى السر ورا اثارة هذا الموضوع بالذات اليومين دول . وما لقيتش اى علاقة بينه وبين " الإبداع" العامى ولا بالمبدعين .. ممكن يكون يهم الفلاسفة أو المنظرين .. ما حصلش أبدا أن المبدعين كان همهم الاعتراف بالعامية (كلغة) – محصلش ، لأنه كان الهم الأكبر هو إثبات حق الإبداع بالعامية فى الوجود ، والالتفات لحلاوته ولقيم الجمال فيه ، وعلاقته بوجدان الناس المصريين الغلابة والأميين .

وما كانش اعترافهم أو ايمانهم بالعامية نابع من أن اللهجة أقل شأنا من اللغة لكن بالعكس إنها (أى العامية) وبصرف النظر عن تصنيفها (الأكاديمى) أقرب واقدر وأكثر واشمل – وبالفصحى استعمل كل تخريجات أفعل التفضيل حتى أحلى – فى التعبير الجميل .

العامية المصرية بالنسبة للعربية الفصحى ليست اللغة الأذريبجانية مثلا فى مواجهة الروسية وليست الإنجليزية قصاد اللاتينية لا يا سادة .. العامية المصرية الوريث الشرعى الوحيد بمعنى "الابن"

والامتداد الحقيقى للفصحى .. والإطار الأكثر رحابه والحضن اللى محافظ ع الفصحى وبيطورها أكثر من أى عامية أخرى .. ودوروا وأنتم حتلاقوا .

والعامية المصرية لا يمكنها ولا تستطيع الخروج من رحم الفصحى وقطع الحبل السرى معاها .. لان ده يعنى الجفاف والموت وبدون زعل .. ولا عصبية .

اللغة تعنى/ قواعد وقوانين تعنى / فقه ونحو وصرف تعنى / سياق وقياس .. وتصريف أفعال .. وكل هذا لم يخترع وإنما وجد لما كانت فيه ضرورة ملحة لوجوده بالنسبة لأى لغة كانت . فظهر العباقرة اللى قعّدوه وقننوه حسب ما لا قوه فى الإبداع الموجود وفى الواقع المعاش .

وبقت القواعد دى هى الحبل اللى مضايق رقبة خناق اللغة وحاصرها ومانع تطورها .. فتفننت الروح الشعبية المتحررة الحرة الغير قابلة للقولبة .. وبحثت عن مخارج .. وحلول .. وابتكارات ، لا تكف ولن (فصحى) تكف عن التطور الدائم من يوم ليوم ويمكن من لحظة للتانية .

إذا قلنا عامية مصرية صعيدية ونوبية وبدوية زى ما بيقترح أخونا خيرى شلبى (تاج راسنا) وبس !. اشمعنى .

- ليه طيب .. والدمياطية .. والقناوية .. والدقهلاوية
- كخة .. دى فتحه ما تتسدش يا عم خيرى .

طيب واشمعنى المصرية طب والشامية والجبلية اللبنانية أو الحلبية .

ياحبايبى الأعزاء .. وبصدر وروح الثقة فى النفس نقول أن مبرر وجود "العامية" فى أى مكان ومع أى وجدان ، هى كسر المألوف والمقعد ونحت الكلمات الجديدة ، اللى ماتخرش المية ، والتعابير اللى هيه ، واللى ما يقدرش عليها قطر الفصحى الماشى على القضبان النحوية الصرفية .

ثم أن تعالوا هنا .. مين العبقرى اللى شايف كارثة وأزمة هذا الازدواج الوهمى ؟ وفين شايف أثاره وخطورته وأزمته التى لا فكاك منها ؟ أو شايف ضرورات ومبررات القضاء عليه – أى ازدواج هذا واحنا كلنا – كلنا – بنتذوق ونفهم ونتعاطى الاثنين عامى وفصيح سواء كنا أميين أو متعلمين أو أفندية .

فى الفن كما فى الحياة وفى العلم طبعا .. الظاهرة لازم بتتوجد الأول بكل أبعادها وتفرض على الناس حتى اسمها .

فيدوروا لها على حل ، يكون أصلا موجود ، وهيه اللى أوجدته . مش اختراع . على كل حال .. انتبهوا جيدا يا خال لأنه لو حدث هذا المستحيل – وأصبح للعامية صرف ونحو وقواعد وبقت لغة بأصولها وبقى فيها ..إسمية وخبرية .. وفاعل ومفعول به وتشكيل وتعليل وتصريف وتزحيف وماضى نسيناه وحاضر غايظنا وعلة ومعلول بقواعد جاهزة محبوكة ومحكومة وحدود مرسومة ومعلومة .. فعليه العوض ومنه العوض – حيدور الإبداع لحماية نفسه وحريته على "عامية" أخرى للعامية "الكلاسيكية المعقدة" عشان يحل أزمة التطبيل فى المتطبل . وللهرب من قضبان وقوالب "اللغة" أى لغة/ لا عجزا ولا فتاكة . ولكن تعبًا نحتا وبحثا وانطلاقا للأجمل . وساعتها ح تقول بصوت رزين . قول: صغير ولا تقل زغنطوط أو زغنون . وقول: أنونة ولا تقل ننه . حرام يا ولاد الحلال !

●

قصر الكلام

إحنا بنكتب بالعامية آى نعم .. ولكن .. ياترى بنفكر وبنتصرف بالعامية برضه .. يعنى بنفكر بالمحسوس والا بالمدروس .

الحاصل أن التفكير المثقف المجرد هو اللى بيشكل حدود عالمنا غصب عنا ، وبيتحكم فينا بحكم قرابتنا ودراساتنا وخبراتنا السماعية والمرئية فى صورنا وتشبيهاتنا وحتى فى أنغامنا وإيقاعاتنا ، لأن هيه دى حياتنا الفعلية . ثقافتنا المقرية المكتوبة والمسموعة والمرئية (قرائية أو تلفزياعية) غالبة على معارفنا وخبراتنا السماعية والشفاهية والحياتية .

وعلينا يا كتاب وشعراء العامية أن ننتبه لده بشدة قوى .. على شاعر العامية أن ينقى دماغه باستمرار ، زى ما فى البلد بينقوا الغلة من الغلته والحندقوقه والدنيبة .. وعليه يقاومه كل يوم وكل ساعة زى ما بيقاموا وينقوا لطع الدودة من على الورق الأخضر . عليه إنه يأمن أو على الاقل يفهم فكر العوام عن الحياة ، وتصوراتهم عن الدنيا وعلاقات الخلق ببعض ، الأب بالابن والحبيبة بالحبيب والمرة بالعيلة والرجل

والبيت وعن الوطن والسلطان .. عن معنى الجلابيه والصديرى أبو قيطان ومغزى وتاريخ البدلة والعمة والقفطان مش من باب المعرفة لكن المعايشة والحب . عليه إنه يفهم فكرة أهالينا . حتى عننا ويكتشف غرضهم الأصلى الماكر لما علمونا من أيام الفراعنة القراية والكتابة على إنها نجدة .. لان اللى بيعرف يقرأ ويكتب بيملك سر الأسرار ويمسك مفتاح الكرار ويلتحق بسلك الحكام أو الناس الفخام ، حتى ولو خدام فيرتاح من الشقاء والزرع والقلع والإهانة .. ويتشعبط فى قطر الميرى ويتمرغ على عتب السلطان .

الأب كان همه أنه يحمى ابنه بالعلام ويمنعه من الوقوع فى بير الغلب الأزلى اللى هو فيه ، بالقراية والكتابة (التعليم) وطبعا (الثقافة المقرية الرسمية) نقالة وحمالة ودرابزين للسلم الاجتماعى .

لذلك فالتمسك بجوهر ومعنى العامية الحقيقى عند اللى يفهم (معايب) هذا السر ودوره فى انفصال وانفصام المخ عن الفشة والدماغ عن القلب والقدمين .. أن يكون إبداعه محاولة دائمة لقطع المسافة والحبال للعودة ، للإياب ، للرجوع حتى الاندماج والتطهر .. مش بس للتلاقى لكن للذوبان (أن أمكن) مش الانتماء " تعالى أو دونية " ولكن للبقاء والاحتماء من شطحات الأدمغة والرياح الخواجاتى أجنبية أو محلية عديمة الأصل أو سيئة النية .

وده مش ح يكون بعوجة اللسان والرطان والعامى ، بحيرى والا صعيدى قناوى والا بورسعيدى . لا .. لكن بعشق حقيقى وإيمان بالعوام ومعرفة عميقة وتعاطف من القلب والروح مع مشاعرهم ومشاكلهم ووجهة نظرهم فى كافة شئ من الكهربا للفيديو ومن الزير لزراير العسكرى وقفطان بنت السلطان ونبوت الغفير .

ودى مش دعوة لنبذ الثقافة المكتوبة (الراقية) أو للارتداد عن منجزات التقدم .. والسير إلى الأمام .. لأ برضه دى دعوة بالعكس لطلب المزيد من الثقافة حتى ولو فى اليابان أو فى الهند (بلاش الصين) بس بشرط تكون قايمة على فهم سحر جماليات الأخلاق والفنون والأداب العامية النابعة من جماليات وشروط حياة العوام (الاجتماعية والفكرية) رغم الفقر والانحطاط الاقتصادى فى معظم الأحوال . هذه الجماليات الباقية على الدوام لأنها الجوهر الإنسانى الحقيقى فى كل الأوطان رغم غدر الأيام .. وفساد الأنام فى معظم الأحيان .

●

قول زيهم

بعض المضروبين بالعامية وسحرها ومنهم كتير موهوبين حساسين قوى لمّا نقول اللهجة العامية ، أو اللهجة المصرية ومصرين على اعتبار العامية المصرية لغة لها مقومات اللغة وإنها ليست عاجزة عن التعبير ، وليست أقل من الفصحى بحال من الأحوال .. وأحيانًا يقولوا أنها سابقة على دخول الفصحى إلى مصر .. وكلام كتير من هذا النوع ظاهره االتدله والغرام فى عشق العامية ولكن فى الحقيقة هو يخفى نوعا من التعصب الخفى والمراهقة الفكرية لأن مالوش رجلين ..

قبل دخول الفصحى إلى مصر كانت هناك لغة تانية لها لهجاتها أيضًا .. ولا يعنى بقاء بعض ألفاظها ومصطلحاتها أن العامية المصرية اللى احنا أولادها كانت هناك .. ده سر من أسرار عبقرية المصريين وعبقرية مصر ، إنها غيرت لغتها أكتر من مرة وغيرت ديانتها أيضًا ، بأكثر الطرق سهولة ورحابة ورحمة فى العالم . ولم تحدث بسبب أى تغيير منها مذابح ولا مقاتل ، زى ما جرى مثلا فى أسبانيا أو انجلترا عند التغيير من مذهب لمذهب و أوروبا تشهد والتاريخ .

دى حاجة .. الحاجة التانية ، واللى محتاجة مننا للمناقشة بهدوء ، أنه لا يضير العامية المصرية أن تكون لهجة من لهجات العربية الفصحى ذات الحضارة العريقة والتراث ، وعبقريتها الأساسية انها ما

انفصلتش عنه .. لكن هضمته واستوعبته ونوعته وطورته كمان وساعدته على إنه يعيش .. ثم أن اللغة لها قواعد ونحو وصرف وتشكيل وتصريف أفعال من ماضى وحاضر ومستقبل ، من خلال قواعد تصلح للتعميم ، إلا فيما شذ وندر وحيبقى فيها بقى المقصور والممدود والمتعدى والمعتبل .. وهلم جرا .

ناس حتقول وماله .. نقعد لها .. ونقنن ونصرف ونظرف مكان وزمان .. العامية المصرية مش أقل شأن ولها هيلمان غيرشى أنتم اللى كارهنها .

واقدر اقول للمتحمسين لذلك ياللا احنا مش كارهين ولاحاجه بس ورونا الهمة وعايزين يطلع لنا (سيبويه) والا (الخليل العامى) اللى حيطلع من يده يرتب وينظم ويقنعنا ويعلمنا ويلاقى لنا حل لذلك الغنى والتنوع الهائل الذى لا يمكن أن تستوعبه أو تقولبه أى قاعدة لغوية .. بل ولا يمكن اخضاعه لاى منطق يمكن تعميمه .. واضرب لكم مثل بصفة واحدة وبعض تنويعاتها اللى بتحمل كل واحدة منها دلالة .. وقولى كيف يمكن أن يستوعب أى قاعدة لها .. / ولد صغير .. وشوف كلمة صغير / صغيور / صغنطوط / صأنون / أنون / .. نونّا / صغنطط / صأنن / أنن / وقول كمان .. ده غير المؤنث لها والمثنى والجمع ... وخد عندك .

وهل يمكن تطبيق أى قاعدة مشتركة لهذا التنوع على صفة أخرى أم أنه سيختلف .. حتقول لى .. لأ .. ماهو القواعد حتحكم .. وتنظم .. وعلينا أن نستقر على أشكال لحروف الجر والإضافة .. والظروف .. حسب الظروف ..

وعلى بال ما تلاقى العبقرى أو العباقرة اللى ممكن يعملوها .. سننتظر أو ح نستنى .. وساعتها .. ولما تبقى لغة لها مقومات وحدود وقوالب وقواعد .. حتنخلق معاها ، وبدون عباقرة وأساتذة لهجات جديدة متجددة .. وح تتخلق فى مواجهة هذه القيود اللغوية والقواعد .. روح التمرد عليها واللى يقدر عليها فقط الشعب نفسه وحيوية اللهجة الجديدة اللى ح تخرج من جلد اللغة اللى كانت لهجة وكتفها عباقرة تشذيب وتهذيب الألسنة وحبسها فى قواعد وقيود .. لمجرد أن تطلق على السيد قشطة .. الأستاذ قشطة ..

•

اسمعونا يرحمكم الله

إبداع العامية المصرية كان وسيظل زاد الوجدان العربى ودرع الفصحى وبلمسها الشافى من الجمود والتحجر

- مازال معظم نقاد الشعر فى مصر وفى الوطن العربى وكذلك أساتذة وجهابذة النقد الأدبى يصرون على تجاهل شعر وشعراء العامية وعلى الأخص تجاهل المبدعين من شعراء العامية (المصرية) وإبداعاتها المتنوعة المبدعة بكل ما لها من زخم وحضور طاغ وفاعل ممتد عبر عصور طويلة .. متمثلا فى إبداع الفنان الشاعر القاص الحكيم الشعبى وأيضاً فى خلاصة خبرة وتوهج القريحة الشعبية مجسدة المشاعر والوجدان العام فى السير والحكايات والأراجيز وأغنيات العمل والفرح والميلاد والزواج وعديد الحزن وتحنين وداع واستقبال الراحلين لزيارة الرسول ، والأزجال والأشعار المعروفة المؤلف .. بكل ما تفيض به من جمال وعذوبة وفصاحة وما تزخر به من صور ودلالات ورموز وتراكيب ذات بلاغة خاصة وفصاحة لا تجارى وطزاجة وتلقائية وسياق فنى يختلف تمامًا عن الفصحى .
- وهذا التجاهل يتم فى كثير من الأحيان وكأن من المفروغ منه إخراج هذا الإبداع الأقل مكانة من مجال الاهتمام الفنى والجمالى للمتأدبين المتأنقين من الأكاديميين والنقاد المعتمدين .. بل إنه يتم أيضاً وللأسف الشديد من مبدعين وشعراء ، عندما يتحدثون عن أنفسهم وعن مسيراتهم الشعرية ومدارس الإبداع الشعرى وأجياله (تلك التى لا تستند على أى رؤية علمية) سواء فى الأحاديث الصحفية أو فى المقالات والتحقيقات الدورية .
- وإن كانوا جميعا يسارعون بإبداء اعترافهم وإعجابهم بهذا الإبداع ، فى كل مناسبة بل يمارس بعضهم هذا الإبداع سرا .. ولا يكفون فى المناسبات الاعلامية والثقافية عن ترديد ذلك ولكن (على الهواء) وشفاهة دون التورط فى الكتابة طبعا حتى لا يؤخذ عليهم اعترافهم دليل إدانة أو تدنى .
- وأزعم أن هذا التجاهل المتعمد والمتجنى ينبع من منطلقين : أولهما ..

ـ ذلك الرعب (الخفى) والمتوارث الذى يدفعهم إلى تجنب الإشارة لبلاغة وإفصاح أى لهجة عامية دفعا للاتهام بالانحراف عن تقديس اللغة المقدسة لغة القرآن الكريم والتى هى فى الأصل .. لهجة من لهجات اللسان العربى .. ولهذا الرعب عدة أسباب وأبعاد منها ارتباط الاهتمام باللهجات والإبداع الشعبى بصعود الطبقات الشعبية والفقيرة إلى دائرة الاهتمام العام .. وتصدرها بحكم نموها وثقلها للعمل الوطنى بكل أبعاده وارتباط هذا الصعود منذ بدايات القرن العشرين بصعود اليسار والثورة الاشتراكية ـ اليسار بمعناه الواسع ـ الذى يصر أصحاب المصلحة على حصاره فى دوائر ضيقة محدودة يتسم الإصرار عليها بالجهل والجمود الفكرى النابع من المصالح الطبقية ومن عدم القدرة على استيعاب التغيرات .. وأيضاً بسبب التخلف الفكرى المرتبط بذلك الرعب الوراثى من التجديد باعتبار كل جديد بدعة .. وكل بدعة ضلالة .

وثانى هذين المنطلقين أو السببين ..

ـ هو ذلك المأزق الذى يجد نفسه فيه كل من يريد أن يأخذ على عاتقه الخوض فى دراسة جادة للإبداع العامى .. إذ يجد نفسه مطالبا بالاجتهاد والبدء من نقطة الصفر .. فلا تراث نقدى ولا أحكام جاهزة تريح قلبه وعقله وتوفر جهده الضرورى ليكون على مستوى ذلك الإبداع الفائق الحجم الشديد الحضور ، بلا اجتهادات أو تفسيرات أو دراسات أو نظريات جمالية سابقة – اللهم إلا تلك المنتمية لعلم وميدان الدراسات

الفلكلورية . وهى لا تعطى زادًا كافيا ولا أسلحة مرضية لمن يريد أن يخوض غمار رحلة فى المجهول بحثا عن جماليات الإبداع الفنى العامى ، وخاصة الحديث المعروف المؤلف .. والذى يحتاج إلى فرضيات مختلفة ومناهج غير تقليدية تكاد تكون فطرية .. فيجد الباحث المسكين المحاصر بآليات الحياة العصرية الطاحنة نفسه عاجزا عن توفير الوقت والجهد والفراغ اللازم للتأمل والتحليل والابتكار الذى يحتاج لشحذ قدراته الخاصة .. وما أضعفها أمام ضغوط حياته ومشكلاته الآخرى .. ويجد نفسه مطالبا بالاعتماد على ذائقته الجمالية الخاصة مستقلا بها عن مؤثرات طاغية نتيجة ارتباط بمناهج ومدارس لا تتسع ولا تقدر على الاتساع لتستوعب ذلك الفضاء الهائل الممتد والغنى لإبداعات العامية .. ذات الطبيعة والمذاق والعوالم الخاصة والمختلفة .

- وهكذا بين الخوف والكسل .. يظل الإبداع العامى وسيظل خارج اهتمام النقاد . بصرف النظر عن مهرجانات الفنطزية والمجاملات الشخصية غير البريئة – واستراح النقاد والاساتذة واستناموا لذلك متدرعين بحراشيف العادة وراحة (التطبيل فى المتطبل) على رأى المثل .
- لذلك ظلوا وسيظلون يدورون فى دوائر حديدية من صنعهم يحاصرون بها أنفسهم .. ومفاهيم آمنة ومريحة حول الأجيال والمدارس الفنية .. وأحكام مصكوكة مسبوكة فى مسابك فكرية وحضارية أخرى .. ولكنها تضفى على جهودهم المرتاحة الراضية بالمألوف المطمئنة لعدم التجاوز والتى تعطى لها شرعية زائفة ومصداقية مشكوك فى حيثياتها ونتائجها لأنها فى غالبها إفراز لقرائح أخرى ونتاج ثقافات ومجتمعات سابقة أو نائية غريبة .
- وأراح ضميرهم ذلك الترويج المفترض لخرافة أن حربهم هى معركتهم المقدسة للدفاع عن اللغة الفصحى التى هى فى نظرهم درع المقدس والحلقة الرئيسية فى منظومة وحلم الوحدة العربية وملاذها الأخير .. أى (سابوا الحمار واتشطروا على البردعة) وتجاهلوا الاخطار الحقيقية التى تهدد الفصحى وتضربها فى الصميم .. تلك الأخطار النابعة من مشاكل حقيقية فادحة وفاضحة .. وواضحة .. بعضها يرجع لأسباب تخص اللغة الفصحى ذاتها وتخص نحوها وصرفها .. وبعضها الآخر يرجع إلى طرق تدريسها ومكانتها فى اهتمامات التعليم والدراسة ، خاصة فى مراحلهما المبكرة والتى تنهار يوما بعد يوم .. وأيضًا تتمثل فى مزاحمة اللغات الآخرى وغزوها المتنامى فى قصدية مريبة لمدارس الأطفال .. وأيضًا فى ذلك السيل من الألفاظ والتعبيرات الرومية والأفرنجية التى تجتاح اللسان العربى فى الدراما والإعلانات وفى الشارع والسلوك اليومى .
- ينسون كل ذلك .. ليصبوا اللعنة على العامية وعلى إبداعها الذى يزدهر يوما بعد يوم وينتشر ويؤثر رغم أنف الجميع وينتج إبداعا يعتبر امتدادا طبيعيا لإبداع العامية السابق عبر القرون .. والذى شكل مع العامية نفسها سياجا حمى اللغة (الفصحى) من أخطار الجمود والموت .. أو التحلل والفناء .
- وإذا كان الرعب والكسل الفكرى هو السبب فى تجاهل الإبداع العامى فى العربية عموما .. فإن التعصب الأعمى والعناد المكابر هما السبب وراء تلك الحرب غير المقدسة .. والهجوم الشرس واليومى على الإبداع العامى المصرى .. ذلك الإبداع الخلاق .. الذى حفظ لهذه الأمة (العربية) وحدة وجدانها فى مواجهة كل عوامل التمزق والتشتت التى فعلت وتفعل فعلها متخفية عن أنظار ذوى البصيرة خلف المصالح الضيقة .. وطبائع الأنظمة القاهرة .. والتعصب الإقليمى الأحمق .. والجهل المتحاذق والإحساس العاجز

بالدونية .. أمام زخم ما تمثله العامية المصرية من تاريخ وبشر ودور ظلت تلعبه إبداعات العامية المصرية .. للإبقاء على الحس العام المشترك لهذه الأمة .. لا عبر تراثها القديم المتمثل فى تراثها السابق الحديث عنه ولكن أيضاً بإبداعاتها الحديثة .. التى يبدعها ذلك الجيش العرمرم من مؤلفى الأغانى وكاتبى حوار الأفلام والمسلسلات والمذيعيين والممثلين .. وأيضاً الشعراء .

- **وعندما تجد أهل الشام العاديين وهم يلتفون حول المصرى مستعذبين الاستماع إلى حديثه (بالمصرى) فتتحول السهرات والجلسات إلى ما يشبه سامر أجران الصيف .. وعندما يحاصرك (كمصرى) أهل المغرب من السلوم وطالع مطالبينك بالاستمرار فى الحديث بلهجتك المصرية فى شوق فطرى وحب تلقائى غير مصنوع .. وشغف حقيقى لتصبح محور الاهتمام وأنت الضيف .. لا تملك إلا أن تقول بعيدا عن أى تعصب أن العامية المصرية كانت هى المجال الحيوى النشط والفعال الذى أتاح للفصحى أن تأخذ منها وتعطى لها .. تحميها من التجمد والموت وتهبها فرصة التجدد والحياة .. وتهبها القدرة على التطور صانعة حولها وجدانا عربيا واحدا .. يقاوم كل الأخطار التى لم ولن تكف عن تهديد اللغة الفصحى والتى لا ينتبه إليها الجميع صابين لعنتهم على العامية المصرية .. التى لم ولن تكف عن ضخ ماء ودماء الحياة وبلسم التطور ورحيق المعاصرة .. والتجدد فى شرايين الفصحى .. دون مَنّ أو ادعاء .. فارحموا العامية المصرية يرحمكم رب العباد .. وأنتبهوا قليلا لحقائق الزمن .. وانفضوا عن كواهلكم تراكمات الرعب القديم والكسل المعاصر .**

●

باكتب زى ما بافكر وإلا راح أموت

○ **ايه اللى ح يفضل من شعر العامية المصرية ؟**

السؤال ينطرح أحيانًا بحسن نية وأحيانًا بسوء نية ، وفى الحالتين هو سؤال بره الموضوع .. لأن من الممكن تقول وإيه راح يفضل من شعر الفصحى ؟ ومن المسرح ومن الفن ومن البنى آدم نفسه ؟ والرد مش فكاكة ولا فتاكة .. الرد هو إجابة الزمن نفسه .. والناس والذاكرة والتاريخ .. وبصة على تاريخ الأدب والفنون .. بتقدم الإجابة من غير لف ولا دوران .

اللى بيبقى هو بس المؤهل للبقاء .. واللى بيعيش هو اللى عنده مقومات الحياة .. من أى فن ومن أى شعر .. وكل ما عدا ذلك مناوشات ناس مش لاقية حاجة تعملها .. أو مقاوحات عقول من الحجر .. وأى منصف عادل .. لازم يعترض ويبصم بالعشرة إنه رغم إصرار الأدباء الرسميين والكتاب المعتمدين وأهل الذكر على نفى (العامى) ، وازدراء الشعبى إلا أنه عاش وما زال مؤهل للحياة .. لأنه طبيعى بأنه يعيش .. مادامت (الجماعة) عايشة أو بتحلم تعيش .

وأنه رغم التدوين والتلقين والحفظ فاللى بقى عايش من الفصحى ، وقصدى عايش/عايشة .. وله دور فى الحياة فهو (المقدس) والإلهى .. وغيره فضل طول عمره محتاج لعصيان الفقها وصولجان السلطة وتهديدات العلماء واجتهاداتهم أيضًا .. احتاج لكل ده إنسان يعيش/ تعيش وبرضه مش كله .. لكن بعضه اللى بيتمتع بمقومات خاصة تمده ذاتيا بقوى التأثير الحى والوجدان .

إذن يا اخوانا .. مالوش لزمة الهطرسة ولا الغطرسة حول هذا الموضوع .. لأن أى فن وأى شعر .. وأى حاجة تانية عليها أن تثبت مبررات وجودها .. واستمرارها .. أما قرارات الاستبعاد والتحريم وأحيانًا التجريم ما هى إلا وسائل مفروضة من خارج الفن وستظل مرهونة بقوة وفعالية تاثير ما هو خارج الفن على الفن وهذه بتزيد قوى فى عصور الانحطاط .

أنا شخصيا .. أكتب بالعامية وبالفصحى .. وحالات الصفاء الروحى هيه اللى باكتب فيها زى ما بفكر .. يعنى لما باكتب بنفس (اللغة) اللى بافكر بيها .. ولن أقاوم هذا أو أرفضه تحت أى إغراء .

وأعترف أننى عندما أكتب بالفصحى فأنا أفكر ثم أترجم ما أفكر فيه ، وغالبا ما يكون هذا عندما أكتب فى موضوعات لها سمات ومواصفات أقرب لحاكمات الذهن والعقل .. وأصول القواعد وإرث المحرمات الهائل .

أما حين ألعب وألهو وأمرح وأسرح مع الخيال .. وأمتطى رياح العواطف العاصفة .. فلا أجد الوقت للترجمة فيحملنى حمار العامية الرهوان ويسابق بى حصان عنترة وبغلة امرؤ القيس وحمار النابغة .

وأعتقد أن تلك المسافة بين التفكير بسن القلم أو باللسان مباشرة .. وبين التفكير ثم الترجمة إلى سن القلم .. موجودة بشكل أو آخر عند كل الكتبة والشعرا والمؤلفين .. حتى الذين يصرون على الحديث بالفصحى معظم الوقت .. وهى مسألة مش ح يعترف بيها حد .. بس لو كل واحد ناقش نفسه .. بينه وبين نفسه ح يتأكد انى مش باتبلّى عليه .. وعليه .. فأنا ضد الدخول فى معركة وهمية اسمها (الفصحى ضد العامية) أو العكس ، بس حبيت أكسر رتابة الكلام .. وسخفه ، فلا العامية .. ظهرت بقرار .. ولا الفصحى حافظة سر الأسرار .

الحكاية أن فيه من وجد فى نفسه شجاعة الراجل البسيط وحكمة الشعب الحويط .. مش العبيط .. فكتب زى ما فكر وكشف ولا اتستر .. المهم أن يكون اللى بيكتبه له قيمة وفايدة وعايدة زى ما بيقولوا .. ويكون فيه رمق يعيش وحلاوة يوصل بها لقلوب الناس الحلوة .. وبس .

أما بالنسبة لى شخصيا .. فالأمر جه زى شكة الإبرة .. كونى لقيت نفسى باكتب آه .. كتبت عشان أعجب مدرس العربى .. وقلدت أشعار مجلة الهلال فى أواخر الاربعينات بشكل ساذج طبعا .. لكن ما تعرفش يمكن الأزجال اللى كانت بتحفظها أمى والأمثال اللى كانت بترددها مع النسوان عمال على بطال .. يمكن سماع حكايات (عطا الشاعر) وروايات رجل حكاء كان يجمع الناس فى (مصلية) فى بلد اخوالى ويقرا لهم فى كتاب أو كتب مختلفة .

يمكن ؟.. أو يمكن لما وقع فى إيديه (كلمة سلام) جاهين فاتفتحت قدامى شبابيك الصدق بدون محاذير .. ولقيت نفسى باكتب زى ما بافكر .. وبرضه عجبت مدرس العربى فى الثانوى .. عجبت نفسى أكتر .. وبعدها قابلت (جاهين) فى صباح الخير القديمة فى النصف الأول من الخمسينات .. وهلّل (صلاح) للواد الفلاح وقصايده (الثورية) الفلاحة .. وقابلت (كامل زهيرى) فأحسن تأديبى وعلمنى أن الأمر أكبر من مجرد الإعجاب الطيب وأصعب من شك الإبر .. وفتح لى (فؤاد حداد) أفاق أعرض لما عرفت واتعرفت معاه على (ناظم حكمت) .. و (با بلونيرودا) وبالعامية .. كمان .

كانت الدنيا مغبشة بالحلم ضد الظلم ومع الفقرا والسلم .. كانت مصر بتقوم فى هوجة ممتدة طويلة بتأمم وبتتحدى وفاكرة الدنيا مش أبعد من مدة إيدها .. واحنا كنا أولاد الحلم ده بدون شك .. سنى كان 17 لما اتأممت قناة السويس .. ورقصت فوق سطح بيتنا وزعقنا أنا وأصحابى هتفنا باسم (مصر وجمال) .. المقاومة الشعبية .. والتطوع وحوش المدرسة ينقلب لمعسكر . وتتحول البلد كلها لحضن كبير صاحى ليل ونهار يستقبل (أهل بور سعيد) ويسكنهم ويأكلهم .. ويرفه عنهم .. والشعر سلاح .. فى معركة الشعب .. لازم يهتف ويواسى (جميلة بوحريد) .. ويغنى لجنود النصر .. وللإيدين السمرة وللوحدة .. وبعدين السجن .. الفردانى فى المنصورة والقلعة ثم السجن مع فرسان الاشتراكية الجاية أكيد بالتأكيد فى الواحات وغرب الفيوم .

وأغنى بالعامية .

وأبكى بالفصحى .

ما كانش انقسام فى الشخصية ، لأ ، لكن لأنى منحاز للغنا والحلم والمستقبل وفاعل .. وكالفاعل فى سبيل تحقيقه .. فكنت باكتب اللى بفكر فيه أو زى ما بافكر .. ولوحدى .. أبكى أحزانى وأترجمها إلى قصايد فصحى .. ما يقراها إلا الأصحاب الخلص .. وأحيانًا ما يقراها حد ..

بعد السجن فى 64 خرجنا .. وما لحقناش ، مات الحلم المنصاب بالحل وانتهت قصة الحب بالانتحار والفقدان .. واختلط الأمر قصص الأطفال مع قصص التعذيب .. وحكايات الشهدا بحكايات التجار وكانت الهزيمة فى 67 .. ولأنى ولدت مقاوح .. كنت ح اموت وأموت أمى فى لحظة ميلادى .. وعديت م الكوليرا فى 47 واتغرب أبويا بسبب الإخوان فى 48 .. وعشت وعاشرت 51 ، 52 ، 54 ، 56 ، 59 .. وغنيت لجاجارين فى الزنزانة 39 .. نقلت نفسى للسويس للمقاومة ، واصدرت مجلة (للمقاومة الشعبية) اتصادرت بعد العدد الثانى اللى ما شافش النور .. وأصدرت بعدها مع آخرين مجلة (السويس الثقافية) وانقفل القصر بعد عددين أو تلاتة وطردت المقاومة الشعبية أو (أممت) بمعنى أرق وأدق .. وعدت للقاهرة وحلقى ممرر مع إننا ما كناش لسه عرفنا حواديت الأسرى لكن كان اتولد لى ابنى الأولانى فغير ميلاده كتير من وجدانى وخفف من أحزانى ونزلت الشارع فى مظاهرات فبراير فى محاولة أخيرة لإنقاذ النفس مساندة للعمال فى حلوان

واحتجاجًا على أحكام الطيران .. اللى صدر بسببها بيان (30 مارس) وانا فى السجن لشهرين (شدة) ودن من الوزير السويسى الاشتراكى (شعراوى جمعة) والتنظيم الطليعى لأنى ولد فلتان .

وآدينى برضه وقعت فى فخ الأحداث .. وازاى ح افلت منها وانا فيها ومنها .. وازاى ح اتكلم عن شعرى من غير السجن أو الإضرابات .. أو موت (عبد الناصر) ومولد بنتى (فيروز) أو مأساة أحبابى فى لبنان وحصار بيروت .. كان إيه فى إيديّه اقدمه لكل اللى باحبه ، من أفكار أو ناس أو أرض إلا الشعر .. وإنى أقوله زى ما أفكر فيه من غير واسطة .. أقوله وبس بدون ما أفكر فى كونى (شاعر) ، والا مواطن محروق الزرع ملهوف منتوف الريش .. لكن مش راضى بهزيمة ولا حاسس بسنين العمر .. اللى اتبحترت أيامه قصايد وأغانى وحواديت للأطفال أيوه ما انا لسه شباب إيه يعنى 56 سنة فى عمر الشاعر .. رغم أن دى معجزة أن اعدى الخمسين بسلام .. مش عارف .

أنا قلت اللى حسيته .. ومش عارف أن كان اللى بديته نهيته .. والا اللى بنيته هديته .. لكنى كتبت اللى كتبته ، ومش ندمان ولا خجلان ومازلت كما كنت وباكتب قرفان أو فرحان أو زهقان .. لكن لو ماكتبتش حاسس إنى راح أموت .. ولذلك ح اكتب .. واكتب بالعامية زى ما طول عمرى بافكر وزى ما ح افضل أفكر وادبر حالى أحيانًا ، واكتب بالفصحى مستسلم لمسافات العجز ما بين التفكير الحر وضرورات (الترجمة) علشان اتوافق ويا التاريخ والجغرافية لحد ما يتوافقوا همه معايا . أو مع الحق اللى أنا مؤمن بيه .. لكن نفسى ما اعيطش زى ما بيحصل كل ما باسمع غنوة (فيروز) .. (لا تندهى .. ما فى حدا !!) ..

سبتمبر 95.

●

حول مسابقة (شعر العامية) المركزية
<u>للهيئة العامة لقصور وبيوت الثقافة</u>

• إن قراءة ثلاثين (ديوانا) جديدة لشعراء جدد ، مرة واحدة تجربة فريدة ومثيرة . وكان ينبغى بداية أن تتاح لى فرصة أطول لكى أتمكن من الخروج منها بما ينبغى من دروس وقضايا تلقى ضوءا بل أضواء على مسيرة ومسار شعر العامية الحديث فى مصر .

• بدا لى مع القراءة الأولى لمجموعة الدواوين (الثلاثينية) أننى أمام ظاهرة شديدة الثراء . وفرحت ورحت اصنفها فى البداية (للإسراع فى التحكيم) تمشيا مع الوقت المحدد إلى مجموعتين .. الأولى للدواوين التى يمكن اعتبارها تستحق لأكثر من 60 درجة من المائة درجة . والآخرى يمكن اعتبار مستواها يقل عن ال 40 درجة .

• ولكن على أى أساس يمكن الحكم بهذه الطريقة المجردة الصماء ، باعتبار أن قصيدة ال (100) درجة حلما بل وأسطورة ، لا يمكن التأكد من إمكاننا الحصول عليها حتى مع قصائد الشعراء المجيدين ، فما بالك وأنت تتعامل مع دواوين ستتراوح بالتأكيد قيمة القصائد فيها ولا يمكن بحال اعتبار قيمتها هى محصلة متوسط قيمتها منفردة ففى ذلك تجريد مخل .

• مع القراءة الثانية لكل مجموعة تبدلت النظرة الأولى بشدة للعديد من الدواوين . فتبادل كثير منها المراكز فيما بين المستوى الأول والثانى .. وجعلنى هذا أشك فى انطباعى الأول الذى أعطانى شعورا خاطئا أننى أمام ظاهرة مفرحة متنوعة ومطمئنة على حاضر وثراء منتج الشعراء الحالى أو القادم لقصيدة العامية بتنوعاتها المختلفة .. إذ سرعان ما بهتت مشاعر الفرح وحل محلها شعور بإحباط شديد .. ونحن فى مسابقة ، ولسنا فى ندوة لنترك لمشاعر الانطباع الأول العنان فنظلم كثيرين أمام الخضوع لشعور بدائى عاطفى ، وتعطى دهشة بدائية أو غرابة مفتعلة أو انبهار ساذج أولويّة على جوهر الشعر وحقيقة الموهبة وعمق التجربة فما الحل ؟

• أمام هذه الحيرة آثرت مع القراءة الثالثة أن أرصد عددا من الظواهر التى لاحظت تفشيها فى الأعمال التى تبلغ فيما أعتقد ما يقرب من 500 قصيدة باعتبار أن الدواوين يتراوح عدد القصائد فيها فيما بين عشر قصائد وخمس وعشرين قصيدة . ووصلت إلى رصد هذه الظواهر التى وجدتها تتفشى فى معظم القصائد والتى يمكن من خلالها (من وجهة نظرى) تكوين قواعد للحكم السلبى أو الإيجابى على مستوى هذه الأعمال فى تجرد ودون انحياز ـ لشكل ما ـ أو لأسلوب ما أو لوجهة نظر ما فى القصائد المختلفة .

• وقد لاحظت بعض هذه الظواهر التى أرجو أن أكون موفقا فى عرضها .

• ينتابك شعور لا تستطيع مدافعته أو دفع تاثيره السلبى بأن عدد كتاب هذه الدواوين الثلاثين لا يتعدى عدة شعراء فقط لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة .. هذا التشابه فى المنطلقات والمسارات وذلك التطابق فى الرؤية قد يكون ميزة لأنهم من جيل واحد أو ذوو طبيعة متقاربة شربوا من نهر واحد .. إلخ . ولكنه بالتأكيد يعطى شعورا سلبيا لعدم عمق التجربة الفردية .. وحدة الاختلاف الضرورى لاختلاف الذوات المبدعة .

• وينتابك شعور أكثر قلقا عند قراءة الديوان – الديوان المنفرد – فلا تجد دلالة لعنوانه تنعكس فى قصائده أو تبرر جمعها فى حزمة واحدة .. ويخيل إليك أن عدد القصائد أقل بكثير من عددها المثبت فى فهرسها .. فلا دلالة للتوقف ولا مبررا للاكتفاء وكأنما الموقف الشعرى يتكرر وفى الغالب تجد شعرا متناثرا ولكنك فى الغالب لا تمسك بقصيدة .

• الشاعر ينهل من بحر ألفاظه وكلماته ومفرداته الذى هو فى الواجب والضرورى متسع وعميق وثرى .. إلى الدرجة التى تعطيه القدرة على التكثيف والاختيار والانتقاء .. ولكن الأفاق الفكرية محدودة للغاية والحصيلة اللغوية فقيرة .. وفى بعض الدواوين تتردد كلمات بعينها لعشرات المرات وكثيرا ما تدفعه المفارقة اللفظية السطحية وتغريه لدرجة يتجاهل معها تعارض الصور الشعرية وتناقضها مع الدلالة الأساسية التى يرمح

وراءها وتبتغيها القصيدة ولا يكتشف الشاعر ذلك فهو غارق فى سحر الصور التى تشكلها الكلمات فيسترسل دون ضبط ودون تحكم لابد منه للشاعر ولو فى حده الادنى .

• ليس من المبالغة أن نطالب الشاعر بالتكثيف والاقتصاد وانتقاء الكلمات الأكثر ايحاء وايماء ولكن هذا لا يتاح فى وجهه المؤثر الا لمن كانت لديه حصيلة لغوية (قد يظنها شاعر العامية شيئا طبيعيا أو خلقيا لا يتطلب جهدا أو دراسة كما فى الفصحى) وهذا خطأ شائع جدا .. لكن الأصل فى الموضوع يتوقف أساسا على مدى الوشائج والعلاقات بينه وبين لغة الشعب أعنى لغة تراثه الغنى المتمثل فى حكاياته وأمثاله وعدوداته وأغانيه وشعره وخاصة مواويله وأراجيزه علاوة على حصيلة الشاعر من تراث (العامية) القديم والحديث من شعر وزجل .. هنا يصبح أكثر حرية فى الاختيار وأكثر قدرة على الاستبعاد ، وشطب كل ما هو ليس ضروريا .. فتتخلص قصيدته من الزوائد الطفيلية التى يفرضها ضيق أفق حصيلته اللغوية وفقر منابع نهر لغته وضحالته فيظل أسير اللفظ العادى والدارج والمتاح .

• وغنى الحصيلة التى لدى الشاعر من تراثه فى مفهومه الجمالى والأسطورى والسحرى يجنبه الوقوع فى أسر الثرثرة المجانية التى تتوالى به السطور والصور دون أى منطق سوى منطق التداعى اللفظى أو الإغراء الحروفى حتى لو انعكس المعنى أو تضاربت الصور مدفوعة تحت وطأة تداعى لفظى لا يلقى بالا لبناء أو تصاعد درامى أو شاعرية يخلقها تدفق المشاعر لا سيلان اللغة .. والألاعيب الرنانة وجرس الحروف والكلمات التى تبدو مشحونة ولكنها مع تأمل أو مراجعة بسيطة فإننا لا نجد إلا بعض الزبد سرعان ما يتبدد مع السطور التالية .

• قد يغرى التباهى البعض بالقول أن القصيدة هى التى تكتبهم (كذا) أكثر مما هم يكتبونها ولكن الحقيقة الفنية البسيطة أن الشاعر والمشاعر هى الأصل وباستبعاد التعمد والافتعال – هو الشاعر صاحب الكلمة فى الكتابة أما ترك الأمور للتداعى وعلى علاتها تحكى وتتوالد وتمضى على راحتها ليس له علاقة بكتابة القصيدة للشاعر .

• للشعر المنثور أو الإبداع الشعرى النثرى طبيعة مختلفة عن النثر الفنى ولا بد للانتباه لهذه الحقيقة التى يتجاهلها معظم الذين مارسوا شعر النثر فى هذه الدواوين .. مهما حدث فنحن فى ساحة الشعر حتى السرد له طبيعة مختلفة هنا عن السرد هناك .. وإذا كنا نحتفى بالتفاصيل ونعتز بتأكيدها ولكن ليس بالجملة ولا تحت تاثير غرابة الصورة العامة متجاهلين أن الدخول فى التفاصيل بوهم تقمص حالة السرد التى يحاول بها الشاعر أن يوهمنا بتماهى القصيدة مع الواقع فهو منزلق لتجاهل ضرورات الشعر وترك القلوع على الغارب .. لكن الإبحار فى بحار الشعر العريضة الفسيحة يتطلب قليلا من التحكم الإرادى حتى ولو أنه بالضرورة يبدو فوضويا وهو فى الحقيقة تحكما/حرا.

• لعنوان الديوان دلالة لا بد . وتقسيمه إلى أجزاء له دلالة – مفروض .! وبدايات القصيدة كذلك وهى التى تقودك خلال دروبها بل وتقودك قارئا بنوع من التحكم القدرى كما هو مفترض أنها قادت مبدعها من قبل ، أن اللحظة الشعرية الخاصة جدا يجب أن تعنى شيئا لدى الشاعر .. فهى يمكن أن تكون بداية لاستيقاظ وعيه باللحظة وبالعالم .. أو تفجر فيه رغبة حارقة فى إعادة صياغة الواقع والعالم شعوريا .. أو هى توهج وعى يحاول اكتشاف الشعرية فى العلاقات وفى الأشياء .. محاولة اكتشاف إنسانية الوقائع والأشياء وتفاصيل الحياة أو لا إنسانيتها .. وهى تخلق علاقة جلية بين الشاعر والواقع – بين الذاتى والعام .. فى صيرورة لا

نهائية .. واللغة هنا هى وسيلة المشاعر الوحيدة لكن موهبته وقدراته هى التى تفصح عن العلاقة بين الدال والمدلول بل وخلق دلالات جديدة ترتبط باللحظة الشعرية ، التى تنبئ عن علاقات الذات الشاعرة بالواقع والعالم وهى أيضاً التى تعطى الدلالات للعنوان سواء للديوان أو للقصيدة ، وكذلك لكل التفاصيل التقنية .. وهذا للاسف كان غائبا عن أغلب شعراء المجموعة .. وهنا أستطيع أن أعطى مبررا قويا يغفر لقصائد البدايات قصورها .. أو يعذر شطحاتها .. ولكن لابد من الانتباه والمقاومة التى يكتسبها الشاعر مع تقدم خطواته على الطريق الصعب .

• ونأتى فى النهاية إلى بعض الظواهر التى لم ينج منها عمل واحد فى هذه المجموعة – صحيح أن هناك من تجاوزها ولكنها كانت من اكتساب قوة العادة أو التمكن من أن تتسلل إلى معظم الأعمال حتى الجيد منها ... كتابة كثير من الكلمات دون الانتباه إلى الفارق الكبير بين الشفاهى والكتابى مثلا (مدانة تكتب/مدانا مع أن قراءتها ستعنى بالضرورة شيئا آخر) وينطبق هذا على (ضلاية/ضلايا) والبكا (البكى) و (لقا) لؤى مثلا .

• وصل فاء الجر بالمجرور بلا أى تحكم ولا روية .

فلسعة . فأعز . فروحى . فهلة . فحكاوينا . فغناوينا . فوسط . كيف نفهمها ؟

وأيضاً – فيوم . فقلب . فعتمة . فسكتى . فغروبها .. لابد أن تخمن أن الفاء حرف جر منفصل حتى تفهم المعنى .

• كتابة ألفاظ (غلط) وضد اللغة فتفقد معناها فى السياق مثل (بحة شجن) تكتب بحت (كيف ؟)

يخنى وهى يخوننى – ضمن المعنى الأول وماذا يفعله بسياق القصيدة .

• وصل كلمات هى فى الأصل موصولة أو العكس .

مثل (يطلبله) اى يطلب له .. علاوة على إلغاء الف المد فى كلمات ينقلب معناها .

وهى كلها ظواهر لانعدام الصلة الحميمة بين تراث العامية الحديث والمكتوب وكأنهم /إما لم يقرأوه جيدا .. أو يتعالون عليه .. أو على أسوء الفروض يتجاهلونه .. وهى ظاهرة تحتاج لمزيد من الدراسة .

• لقد وضعت هذه الظواهر ومدى انتشارها فى الأعمال نصب عينى وأنا أرتبها بين (الصفر والمائة) المفترضة وحاولت ألا يكون للدرجة قيمة/قيمية أو علامة جودة .. فجميعهم قادرون على التقدم والدخول إلى عالم الشعر بل بعضهم خطى خطوات ملحوظة .. , أرجو أن أكون قد فعلت الصواب .

وأتمنى أن أعود لقراءة هذه الدواوين الثلاثين فى فسحة أخرى أستطيع معها تأملا أكثر ودراسة أعرض للخروج بدروس مثل هذه التجربة ولكم شكرى لإتاحة هذه الفرصة للتواصل .

اليسار وشعر العامية

(من إرهاصات التخلق إلى أفاق التحقق)

تمهيد :

بالكلمة والغنوة والموال يدفوا القلب
يهون علينا التعب يا ناس يهون الصعب
والفن لو كان جميل زى الطعام يا ناس
ولا أصيل إلا فن جميل يفيد الشعب

ونقول يا ليـل ويا عيـــن
على كلمة ليها معنى !!

مقدمة

لا فن عكس المسار ولا شعر ضد الزمن
كل الكتابة يسار .. مادام فى حب الوطن
كل الفنون حلمها تبقى الحياة أرقى ..
وح تبقى حر . إن دفعت بكل حب . التمن
.. من أجل فرحة ببكره .. مش بكا ع الزمن !!

إهداء

إلى روح /

بديع خيرى وبيرم التونسى وفؤاد حداد وصلاح جاهين ومحمود المستكاوى ومحمد كراع وعبد الرحمن الخميسى ومحمد عبد النبى ومحمد على عامر ومحسن الخياط وعمر نجم ومصطفى كمال وحامد البلاشى وعبد الصبور منير وعطية عليان ونجيب سرور وعبد الرحيم منصور وحجاج الباى ومصطفى زكى وفنجرى التايه وزكى عمر وخالد عبد المنعم وجوده الديب وحامد الأطمس ومجدى الجابرى وعبد الدايم الشاذلى والآخرين .

• ارتبطت ظاهرة قصيدة العامية الحديثة باليسار .. ارتباطا عضويا ومصيريا . فى نضالات الشوارع وعذابات السجون ووهج الحلم بالوطن هذه حقيقة لم يصنعها أحد .. ولكنها كانت نتيجة ظروف تاريخية واجتماعية وسياسية يصعب فصل بعضها عن البعض .

فصعود الحركة الوطنية المصرية فى بدايات هذا القرن وارتباط ذلك بنمو الحركة الشعبية .. وتزايد دور النقابات الوليدة فى الثورة مع ظهور إرهاصات الفكر الاشتراكى وأفكار الاستنارة من كتابات (عبد الله النديم) إلى خطب (مصطفى كامل) وحركة (محمد فريد) وكتاب (المنصورى) وأفكار (محمد عبده) و (سلامة موسى) ونمو دور النقابات لا فى مواجهة الاستعمار فقط ولكن من أجل تحسين الأوضاع المعيشية أعطى

عمقا شعبيا لحركة الأفندية فنشطت وتنوعت الكتابات وتبدلت الشعارات المطروحة .. ثم كانت الحرب الأولى فعمقت الجرح الوطنى حين أنتزع جيل كامل من الشباب ليلقى به فى أتون معركة لا ناقة له فيها ولا جمل فى الوقت الذى زاد فيه ارتباط الطبقات العميلة بالاستعمار .. واتضحت خارطة الاستقلال وتعمقت خطوط الفصل حادة بين المصالح .. وارتبطت كل الآمال فى الحياة الكريمة والكلمة الحرة والوطنية المصرية بالاستقلال .. وانعكس هذا فى ظواهر عديدة أثرت فى الفنون والآداب فصار للأغنية أغراضا أخرى غير التعبير عن مشاعر الوجد أو الإحباط فى الحب أو الغزل بالمرأة .. وتغيرت أغراض الزجل وتصدر حال الوطن ونقد الأحوال الاجتماعية والاحتلال قائمة الأغراض الجديدة .. وأصبح إلقاء القصائد بين فصول المسرحيات مدعاة لمداهمة الإنجليز للمسارح .

وأعطت الانتفاضة الشعبية فى سنة 19 زخما جديدا انعكس فى إبداع جديد من الزجل والغناء .. وظهر (سيد درويش وبديع خيرى ويونس القاضى) فى مجال وطنى وفكرى جديد مع إعلان (حزب 24) وما صاحب ذلك من صعود دور الطبقات الشعبية إلى حد إثارة القلق الذى انعكس فى تشريعات المنع والرقابة لنضال الغناء والكتابة .

انضم (بديع خيرى) إلى (حزب 24) إلى أن حل أو ضرب الحزب وأجبرته القوى الباغية والمتسلطة كما أجبرت غيره على ترك السياسة .. ولكن شيئا جديدا كان قد ولد .. وصارت هناك إرهاصات لدور جديد للقصيدة وللأغنية العامية مثل غيرها .. إذ امتدت أغراضها إلى مدى أكبر من مجرد وصف الحال إلى نقده .. وأكثر من التعليق على المواقف والظواهر إلى السخرية المريرة منها .. ونفى (بيرم) بسبب عدة أبيات كانت كرؤوس حراب مسددة إلى فساد الملكية وارتباطها بالإنجليز .

ولما عدمنا فى مصر الملوك
جابوك لانجليز يا فؤاد قعدوك
تمثل على العرش دور الملوك
وفين يلقوا مجرم نظيرك ودون

وكذلك قصيدة – (القرع السلطانى)

ولسنا هنا فى مجال تتبع الملامح التى ولدت ولا فى ملاحقة مسارها .. عبر توالى السنين .. ولكن الباحث سوف يجد هنا أو هناك فى مختلف الصحف والمجالات والدوريات ما يؤكد أن شيئا جديدا قد ولد .

ومع تصاعد وتنامى دور الطبقة العاملة والطلبة فى انتفاضات 36 و 46 وظهور الفكر الاشتراكى الحديث .. بدا أن للإبداع العامى مسارا فارقا حتى من خلال الأغنية وقصيدة الزجل فلم يعد الأمر قاصرا على الوصف والتعليق .. ولكنه اكتسب أبعادا جمالية وأغراضا وطنية واجتماعية جديدة .. توجت بديوان (أحرار وراء القضبان) لفؤاد حداد .

وقبلها كان (لويس عوض) قد عبر حائط التحريم بإصدار كتابه (بلوتو لاند) بالعامية مما أثار ثائرة المحافظين والتقليديين إلى حد إتهامه بمحاولة ضرب لغة القرآن .. رغم أن العامية لم تكن غائبة طوال السنوات السابقة بل على العكس كانت منشرة انتشارا كبيرا فى أعمال زجالين كبار وصحف شعبية لها جماهيرية بل وكتب بها أمير الشعر (شوقى) غنائيات شاعرة ولكن الأمر كان هذه المرة مختلفا .. إذ لم

يقتصر الأمر على تخطى عمود الزجل ولا اختلاف أغراضه ولكن الأمر تعلق هذه المرة بجماليات جديدة وفهم أكبر للقضية الوطنية .. ولمفهوم الحرية .. وهو ما أزعج المحافظين فى الحقيقة .

كان ديوان (أحرار وراء القضبان) نقطة فارقة وعلامة على ميلاد قصيدة جديدة بالعامية المصرية تثبت قدرتها على التعبير الشعرى الأكثر جمالا وعمقا .. من خلال صورة ومجاز ومفارقة أكثر درامية وأعمق إنسانية وحرية .

إن الطبقات الشعبية تصعد إلى مقاومة الصورة .. وعلى وسيلتها فى التعبير أن تثبت قدرتها على حمل المعانى والمشاعر والقضايا وأنها ليست فقط للتسلية وللفكاهة .. أو للسخرية من تدنى الأحوال دون طموح لتغييرها .

وفى السجون والمعتقلات أخذ الإبداع الشعرى يتقدم فى المنحنى الصاعد الذى شقه (فؤاد حداد) .. وظهرت أصوات جديدة تتسلح بفهم ومعرفة وبرغبة شديدة فى الغوص فى أعماق الإبداع الشعبى الذى طال إهماله والذى كشف عن بعض جواهره (رشدى صالح) بكتابه الفذ (الأدب الشعبى) ثم (فنون الأدب الشعبى) .. الذى قدم فيه بعدا استراتيجيا .. عميقا وزخما لا يقارن ولا يبارى .. وأزاح الستار به عن جذور أشد تغلغلا فى الوجدان الشعبى – فزاد الشغف بالمواويل والأمثال .. والعديد والأغانى الشعبية .. وزاد الاهتمام بالسير والملاحم لا لإزجاء الفراغ والتسلية والاستمتاع بالحكى والسماع .. ولكن بالبحث والدرس واكتشاف الأبعاد الفلسفية والإنسانية لإبداع هذا الشعب .

وظهرت كتابات جديدة تحاول شق مجرى جديد وراء زحف الأحرار الذين كانوا خلف القضبان .

وكتب بالعامية آخرون غير (فؤاد) مثل (الخميسى) و (متولى عبد اللطيف) و (المستكاوى) وغيرهم.

ومع تصاعد المد الوطنى الذى تنامى إلى مواجهة العدوان الثلاثى والانعطاف الشديد للارتباط بحركة التحرر العالمى والمواجهة السافرة مع الاستعمار البريطانى والأمريكى الجديد وفى خضم هذا المد ظهر ديوان (كلمة سلام) (لصلاح جاهين) ليحدث نقلة أخرى هائلة فى مجرى القصيدة الجديدة مثلما كانت ملحمة (الشهيد الإيرانى) التى سبقت ذلك و(موال عشان القنال) الذى واكبها و(حنبنى السد) .

ثم ظهرت صباح الخير والمساء (التقدمية) وصار للقصيدة العامية الجديدة مساحة وفرصة للتواجد على الساحة .. وعلى الصفحة الأخيرة للمساء ظهرت أسماء جديدة مثل (حامد الأطمس) و (نجيب سرور) و (محسن الخياط) و (فؤاد قاعود) و (سمير عبد الباقى) .

وكان البعض لا يزال مرتبطا بالقوالب القديمة لعمود الزجل مستندا إلى تراث من إبداعات (بيرم) و (عبد السلام هارون) وغيرهما ممن أعطوا للزجل أغراضا وأسلحة وزودوه بروح الشعر وإنسانيته .

وفى معتقلات (أبو زعبل) و (الخارجة) و (القلعة) ومختلف سجون مصر التى غصت مع بداية عام 59 بالآلاف من المبدعين والفاعلين اليساريين والوطنيين كان للإبداع الشعرى المرتبط بأحلام وآمال الشعب فى حياة حرة وديمقراطية وعدالة اجتماعية – أن يتبلور فى محرقة (الانقسام الوطنى) وعلى وهج جمر الجرح الذى ظل ينزف حتى الآن .. فكان للقصيدة العامية الحديثة أن تتبلور فى شكلها الجديد بل أن تتصدر ساحة الإبداع .

وبينما فى الخارج كان (صلاح جاهين) يواصل النشر فى (صباح الخير) ثم فى (الأهرام) وتجمع حوله عدد من الشعراء الجدد من إفراز الحالة الحرجة التى أشاعها تغيب كل هذا العدد من الكتاب والشعراء والمبدعين خلف جدران السجون وفى المنافى الصحراوية البعيدة تحت وطأة التعذيب والتكدير بل والقتل وفى غمرة التناقض بين هذا وبين إرهاصات ما سمى بالاشتراكية العربية .

فصدرت لهم عدة دواوين عن (دار النديم) وبإشراف (صلاح جاهين) و (سيد خميس) ظهر ديوان (الأرض والعيال) للأبنودى .. (صياد وجنيه) لسيد حجاب .. (عن القمر والطين) لصلاح جاهين .

بينما فى الداخل .. كانت القصيدة العامية تنصهر فى بوتقة الصراع من أجل البقاء والصمود للحفاظ على ما اكتسبته الحركة الوطنية المصرية من تقاليد وإن لم تكن منبتة الصلة بما يمور فى الوطن من صراعات .

كان (فؤاد حداد) يؤسس للقصيدة العامية صرحا يمجد فى الإنسان صموده وصلابته ويحفظ للوطن عزته وكرامته وتاريخه ، وإلى جانبه ومعه ارتفعت أصوات تشكل ملامح القصيدة الحديثة العامية التى تمزج بين العام والخاص .. بين الوطن والذات بين الجمال والحلم بين العمق والبساطة إذ رغم ظلام السجن وعذابات التكدير وآلام الغربة وفراق الأهل وقتل الأحبة .. ظل الحلم الذى لا يموت غير قابل للتبدد أو للبهتان .

ولعب (فؤاد حداد) حينها دور المعلم الذى يقصد ساحته المريدون وكانت أعماله تتوالى بشكل لا يمكن إلا أن يستضئ بها التلاميذ .. كانت (ليالى) العذب تضئ بقصيدة كل ليلة ومن عز النوم يوقظه قائد الهجانة ليستمع إلى جديده الذى انتقل من عنبر إلى عنبر يشد أزر المتعبين ويرسم للحالمين طريق الخلاص .. ويملأ القلوب بإيمان سحرى بأن الفجر لا بد قادم وكان الرجل الحامل لحكمة الزمن والأجيال يقول بلهجته النوبية الدالة :

" تستطيع هذه الحكومة أن تطلق سراح كل من معك .. لكنها لن تكون من العبط لتلطق سراح شاعر مثلك قادر على تفجير الحياة فى صخر الجبل .. دأنتى مصيبة ! "

ثم كانت قصيدة (البرج) الخالدة التى مازالت مفقودة حتى الآن والتى تبلغ أكثر من ثلاثة آلاف بيت تحكى قصة أبو زعبل وتنعى لتخلد الضحايا من (فريد حداد) إلى (شهدى) .. وتقدم لوحة درامية رائعة وشديدة الإنسانية للعشرات الذين مروا على صراط الجلادين وكل يقدم جسده قربانا للشعب تحت سياط وعصى وبنادق الخسة المسلحة التى تمعن فى قهر العزل .. قدم (فؤاد) روحه أبياتا تسجل صورا من بساطة البطولة والاحتمال لشخصيات كانت تجرحها النسمة الشاردة فإذ بها تعصى على الهزيمة منهم برق (محمد حسن جاد) و (أحمد سليم) و (عادل حسين) و (عريان نصيف) وعشرات ، منهم العامل والفلاح والمثقف (أفرادا / لكن معا) تعجز آلامه الجهنمية أن تنال منهم .. كانت قصيدة (البرج) بمثابة روح المقاومة الخالدة التى مرت على كل زنازين مصر لتشد أزر الجميع بعد اغتيال (شهدى) .. ليواصلوا الصمود ويصدوا رياح الهزيمة التى كان يأمل السفاحون أن تعصف بأجمل ما فى الشعب المصرى .

واتسع المجال ليبدع العشرات من الشعراء قصائد وأغانى فكان هنا : (مصطفى كمال حسن فؤاد) و (محمد كراع) و (مجدى نجيب) و (محسن الخياط) و (جودة الديب) و (رؤوف نظمى) و (المستكاوى) و (المناويشى) و (طه سعد عثمان) و (عبد العظيم أنيس) و (محمد حمام) وليرتفع صوت (محمد على عامر) النقابى العجوز .

بأغانى حديثة على إيقاع ونمط الأغنية الصعيدية الجماعية فى محاولة لقهر السجن : يا حلوه ضمى الغلة / خضرنا المحاريق / إحنا اللى معانا الصواريخ وجاجارين .

كذلك انطلق (متولى عبد اللطيف) فى صحبته الدائمة (لفؤاد حداد) يجدد وينشد ويغنى .

وتوالت أمسيات الشعر مع الرقصات وأغنيات الأراجوز لتعلن أن فى إمكاننا أن نتأمل ونسخر ونتحمل آلامنا .. ثم كتب (فؤاد) مع (متولى عبد اللطيف) (حدوتة الشاطر حسن) ثم وحده كتب (حدوتة أول مايو) وغنى الجميع أغانيهما وراء (شكرى عبد الوهاب ومحمد حمام ومحمد عبد الغفار) .

(الشاطر لابس يا اولاد جلابية فؤاد حداد) .

ثم كانت تلك الليلة التى فجرها الشعر ولا أحد يدرى ما الذى فعله (فؤاد) فينا بعد ليلة أشبعنا فيها شعرا وأدفأنا فى عز قر ليل الصحراء .. انطلق الجميع فى حالة وجدانية صوفية أو قل حالة هستيرية يهتفون من أعماقهم ببيته اللامعقول .

أنا عندى طاقية شقية شقية من شقاوتها بقت طرطور .. أعرض العرض وطال الطول .

صانعين حالة فريدة تحتاج لمحللين محايدين جادين ليفسروا لماذا وكيف ارتجت أرض المعتقل لتتجاوب معها سماؤه فى نغمة موحدة مجنونة تحت تأثير خمر مجهول عتقها الوجد وأطلقها الشعر فى جنون وهم حاملون (فؤاد) محتفلون به أو محتمون به لست أعرف ولكنها كانت ليلة تجسد فيها تلخيص لكل عذابات السنوات الخمس .

ثم أصدرت (دار النشر) التى أسسها الفنان (حسن فؤاد) إلى جانب ما أصدرته من كتب سياسية واقتصادية . العديد من الكتب والدواوين الشعرية منها :

- **حدوتة الشاطر حسن بخط فؤاد حداد ورسوم حسن فؤاد .**
- **حدوتة أول مايو لفؤاد حداد .**
- **أغنيات للإيدين السمرا لسمير عبد الباقى ورسوم حسن فؤاد .**
- **ديوان لمحمد كراع .**

إلى جانب روايات (الرحلة) و (الشمندورة) و (يوم المسرح العالمى) وغيرها .. كانت كتبا بجد تجاوزت مرحلة (ورق البقرة) إلى كتب بأغلفة صلبة .. منسقة ومرسومة وحقيقية .

ولكن ذلك لم يكن سهلا أبدا فقد تحقق عبر رحلة طويلة من المعاناة والمقاومة تمكنت فيها إرادتنا أن تحقق انتصارها الخاص تحولت ليالى (أبو زعبل) الطويلة إلى ساحات للغناء المناضل المتواسل : وكسر صمت ليالى (العزب) الكئيبة بأناشيد وتراتيل (فؤاد حداد) فى ليالى العزب .. وتحول ليل الواحات الموحش إلى سهرات عامرة بالشعر وحب الوطن .. تجسد العلم وتدمر الأسوار وتنفيها لتحمى روح المعتقلين والمساجين من السقوط فى براثن اليأس وصارت ليالى رمضان 63 فى الخارجة ميدانا يصول ويجول فيها (الشاطر حسن) ليحضر (لبن اللبوة) من عرين الأسد وليؤكد لست الحسن أن :

(حبيبها جاب الشفا تسلم لها إيده والكرم طاب يا حسن أفرط عناقيده !!) .

ولكن الثعالب والذئاب كانت تتربص بحبيبها وبساتينه .. غدرت به وقطعت الطريق عليه إلى حين .. لكن القصيدة لم يخمد لهيبها فى قلوب الشعراء وإن أصبح جمرها يكوى الجنوب والقلوب حين سمحت الهزيمة بنمو الحسك والأعشاب فى كرم العنب الذى لم يكف عن إنضاج العناقيد .

ويجوز لنا أن نؤكد على عدة نقاط يغيب بعضها عن أذهان البعض لسبب أو لآخر .. لكنها أشياء ليست للبيع ولا للمساومة ولا للمزايدة .. ولا ينبغى أن تكون :

• قصيدة العامية الحديثة ولدت فى رحم اليسار المصرى (وهو فخر لها) نعم وكان معظم شعرائها من اليساريين الذين ذاقوا مرارة السجن والنفى والإبعاد ولكن هذا لم يكن إلا انعكاسا لفاعلية اليسار المصرى فى قلب الحركة الوطنية والشعبية .. ولتبنيه خلال تلك الفترة الأمانى الوطنية والاجتماعية والتحررية للطبقات الشعبية المصرية .. وعانى معها مصاعب النصر وآلام الهزيمة .

• إن ما عانته الطبقات الشعبية المصرية من اضطهاد واستبعاد ، تحمل اليسار المصرى طرفا أكبر منه سجنا واعتقالا وتعذيبا واستبعادا بما فيهم شعراء عبروا بصدق وانعكس هذا فى تبلور وتطور إبداعهم خاصة بالعامية فنيا وشعريا مما جعل لها ملامح وسمات لم تتيسر لغيرها .

• لا يمكن رصد بداية ظاهرة من الظواهر خاصة فى مجال الأدب والفن (بتاريخ أو حدث معين) فالظواهر الأدبية تتشكل خلال تراكم وتتدرج تعجل به وتؤكده مواهب بارزة هى بدورها لا بد أن تكون نتاج العوامل التى تخلق الظاهرة . تتأثر بها وتؤثر فيها . حسب درجة نضجها وقدراتها الذاتية .

• نزع صفة الشعر عن (الزجل) لمجرد احتفائه وتمسكه بالأنساق الموسيقية والإيقاعات اللحنية أو بعمود الزجل التقليدى من أوزان وقوافى وأنماط .. تعسف لا مبرر له .. فالعبرة يجب أن تكون بقدرة الشاعر على النفاذ لعالم الشعر واستخدام أدواته من تصوير ومفارقة ودلالة ونفاذ إلى الجوهر حتى فى إطار الزجل التقليدى الفنى . وإلا لكان كل تراث الشعر العمودى (الفصيح) مجرد نَظم ولاستبعدنا بسبب ذلك الكثير من إبداعات الغناء المصرى الذى قدم نماذج رائعة شكلت ملامح وجدان أجيال بكاملها .

يستطيع كل شاعر أن يدعى الريادة .. أو النمو المنعزل كنباتات الصحراء المنبتة ليضفى على نفسه تفردا لا أحد ينكره ولا يحرمه منه ولكن حقائق التاريخ وطبيعة الأشياء لا يمكن تجاهلها وهى لا تعترف بنزوات الذات ولا بلى عنق الحقائق أو الالتفاف عليها فمصفاة التاريخ والنقد والذاكرة الحرة للشعب لا تحفل ولا تحتفى إلا بما هو واقعى وجذرى وفاعل فى أرض الواقع . خاصة فيما يتعلق بالشعر !

• واجهت قصيدة العامية الحديثة بتجلياتها العديدة كل أنواع الهجوم نتيجة أنها ولدت وعاشت ونضجت فى حضن اليسار وتغذت بنسغ أشجاره ودم أبنائه .. فقمعت ونفيت وأبعدت واتهمت بكل ما اتهم به وقمعت ونفيت وأبعدت معه .. لكنها مثله ظلت فى قلب معاركه التى كانت معارك الوطن والعدل والحرية والإنسان .

• البعض قد تتوهج مشاعره فى ظروف وملابسات بعينها فيبدع الشعر ثم يتوقف ولكن ما أبدعه بصدق حتى ولو كان قليلا يسهم بشكل أو بآخر فى تقدم وتطور وتبلور الاتجاه العام لإنجاز القصيدة التى أبدعها الشعراء جميعا .

• لا شك أن كثير من الظواهر الشعرية السلبية التى تحظى بالاحتفاء الآن هى نتيجة مؤكدة لتراجع دور اليسار عن لعب دور (المولد لطاقة الحركة الوطنية) وبسبب سيادة مفاهيم لا جذور لها . وانفصال الشعراء الحداثيون الجدد أنفسهم عن استيعاب وفهم ودراسة بل حتى وتذوق تراث الإبداع الشعبى فى تجلياته المختلفة ومن منابعه الحقيقية وعلى أرضه وذلك بسبب الهزيمة .. وما أفرزته ثقافتها من فساد وفردية وإحباط وخواء .. وانحسار موجة الصعود الوطنى وانكفاء عالم بكامله على لعق جراحه وتجميع أشلائه فى انتظار صحوة جديدة لصياغة صفحة جديدة غير بعيدة ولا هى مستحيلة .

نحو أخلاق اشتراكية

- **ليس الاشتراكى مدعوا للتضحية .. لا .. ولا هو ينتظر أن يدعوه أحد أو شئ ما أو ظرف ما ، إليها ، أو يقنعه بها .. إنما هو مخلوق لها .. لا يسأل نفسه حين تحل لحظة وجوبها ولا يقف ليتساءل عن ضرورتها .. أو مغزاها .. أو ويا للخجل – أن يبحث عما سيناله بسببها .**

لذلك فالقدرة على التضحية التلقائية بالمصالح الشخصية وكبت شهوات النفس الأمارة بالاستحواز وقتل التطلعات الذاتية والنفعية هى عمليا أنبل وأهم من إتقان الشقشقة النظرية والتباهى بالقدرة على التشدق العالى النبرة بالعبارات الثورية والتحليلات الفكرية وإعلائها بمناسبة وبدون مناسبة .. فى فصاحة ميكانيكية .. أو فجاجة متعالية ..

- **عفة اليد ركيزة أساسية لبنية الخلق الاشتراكى .. ويموت الاشتراكى جوعا ولا يمد اليد إلى حق غيره أو حقوق الناس أو المال العام بكل صوره .. ولذا هو فى حرب دائمة مع ذلك النهم المرضى الذى يبرر الرغبة الخفية للإغتنام والفرح بالغنائم مهما قلت قيمتها .. وهى معركة رهيبة لا رقيب عليها سوى قلب المناضل نفسه ووعيه .. ولا يمكن أن يخفى الهزيمة فيها ذلك التظاهر الحنبلى بالطهارة الثورية أو التبرير (العلمى !!) للسرقة الذى يتقنه دون خجل بعض مدمنى المغانم الخفية .**
- **من يقبل الحوار والمناقشة فى سبيل العمل المشترك لابد أن يتحلى بالمرونة والاستعداد لتطوير مفاهيمه من أجل الفهم المشترك .. دون التفريط فى الأساسى .. أو التخلى عن الجوهرى .. أو على الأقل تأجيله ، وكبت حدته المؤذية أحيانـًا استنادا إلى نسبية الحقائق واحتمالات بل وحتمية التغير الدائم للواقع وللشروط الموضوعية فى المجتمع وعلاقات القوى وظروف الإنتاج وتطورات الظروف الذاتية .**
- **فكرة الإنسان عن نفسه غالبا ما تتسم بالمغالاة استنادا لما يتوهمه من اكتشافات أو ما يتصور أنها تجليات اتيحت له دون غيره ! تلك المعرفة والاستنارة التى ينبغى (أن وجدت فعلا) أن تكسبه نعمة التواضع والخجل (الرجولى !!) الضرورى لاكتشافه الإنسانى المستمر لمحدوديته وعيه ، التى هى حقيقة مرتبطة بمحدودية قدراته ونسبية ما أتاحه الوقت للاطلاع عليه . فيطامن من غرور وغطرسة ذلك (الجاهل) الدائم القابع بداخله !**
- **لا يجب أن يثير لديك تصورك أنك تمتلك حقيقة ما – مهما كانت صحتها أو قيمتها ، تلك الرغبة الشريرة لتسفيه جهل أو عدم معرفة الآخرين بها أو عدم تمكنهم من الوصول إليها ، أو أن يغريك ذلك بالتعالى على قدراتهم التى هيأت لهم الوصول إلى مفاهيم مغايرة أو تصورات مختلفة . أن الكبْر أولى بالمتعصبين !! .**
- **(فى أعماق كل منا أميبا فاشية .. تعطل أحاسيسك وتنخور فى عقلك أول ما يتركب أى منصه .. وتمسك ميكريفون .. لذا لازم قبل ما تتكلم (تقتلها) علشان تثبت أنك – لما ملكت الفرصة تقول والكل بيسمع لك – يعنى بقت فى إيديك بعض السلطة – ح تقدر بارادتك تعلن لنا وتأكد إنك مش أكتر مننا حرية وقادر تحكم نفسك وتشكم رغباتك الخفية وشطحاتك العلنية) .**
- **حاذر .. لا تنس للحظة إنك (زيك زينا) ، وإن كنت بتفهم فى حاجات أكتر .. فياما حاجات برضه بتعرف عنها أقل كتير من بعضينا ...**
  وإن إحنا قاعدين نسمع لك بإرادتنا الحرة علشان حلمنا – أن نكون أحرار
  وبإرادتنا الحرة لو حكمت ح نخوض النار ، ونواجه أعتى الأخطار فاحذر حاذر .. لأن الميكريفون غدار (والنفس الإنسانية أمارة ..
  إكسرها قبل ما تتنمر أو تغدر بيك .
  وعن الصدق الأبسط من ضحكه .. تعميك ..
  أو تغريك تنفش فى وشنا ريش الديك)
- **لا تتعجل تصديق الاتهامات .. فمن يحكى لك اليوم قد يحكى عنك غدا .. فتمهل لأن أمراض العمل السرى لم تكتشف كل فيروساتها الخبيثة بعد .. ولم يتأكد وجود جيناتها الطيبة . لأنها متغيرة ومتقلبة ..**

ولا وقاية منها .. إلا بالتجربة والصدق مع النفس أولا والصدق مع الآخرين .. والخبرة الإنسانية النادرة ..

- **المرض يعدى بكل بساطة لكن الصحة تكتسب بجهد كبير – والنوافذ المفتوحة المشمسة تقتل الجراثيم الخفية وحضن الجماهير كحضن الأم بل أكثر أمانا لمن بلغوا الرشد وعشقوا النور ونفضوا عن كواهلهم عباءات الظلمة والأنانية والنرجسية والنهم ، وكانوا من الصادقين الموهوبين والمبدعين . لا من المدعين والأغبياء العاجزين .**
- **ليس الشيوعى بالشطارة والفتاكة والفصاحة الفهلوية – لكن الشيوعى من تأمل فى كل لحظة وتفحص أعماقه ونشرها فى الشمس والنور أمام عينيه – هو نفسه أولا .. وطهرها كل صباح ومساء مما يكون قد علق بها من أمراض الأنانية والذاتية والنرجسية (وهى ليست مترادفات) ولكنها وجوه مختلفة وصور متعددة لأمراض البرجوازية .. التى ترى عيوب ونقائص الآخرين وتعجز عن مواجهة صورتها التى هى من صنعها .. بل وتخشى مواجهة النفس بنقائصها – حتى المفضوحة منها – والخفية .**
- **تأكد أنه كلما قرأت أكثر ، وكلما فهمت ما قرأته أعمق ولم تكتشف معه وبفضله أن جهلك بالحياة والواقع يزداد إتساعا يدفعك لمزيد من القراءة والفهم .. فلا قيمة حقيقية لما لديك مهما كانت قدرتك على تسويقه وتجميله .**
- **لا تتسرع ولا تغالى فى اتهام الآخرين من أمثالك ، أو حتى مخالفيك ، مهما اشتدت وزادت الخلافات أو تباعدت التصورات .. فشجرتين من أشجار الجوافة (!) متجاورتين تحت نفس الظروف وبنفس التربة وفى نفس المناخ تثمران فى أوقات مختلفة . ولثمارهما دائما طعم مختلف . وهذه إحدى إبدعات الطبيعة ، بل أكثر من ذلك . لا توجد ثمرة أو ورقة على نفس الشجرة الواحدة ، تماثل أو تطابق غيرها من الثمار والأوراق .. تصور ! ؟**
- **من الصعب بل ومن المستحيل أن نظل نرتدى نفس الجلود القديمة . فكل الكائنات الحية نباتية وحيوانية تتغير وتتبدل طول الوقت وتنمو وتنضج وتتحول على الدوام فلماذا نحن – لا ؟**

ولماذا نظل وسط أزمتنا الطارئة المستحدثة الطاحنة – نصرخ نفس الصرخات ، بنفس الإيقاع والشكل والكلمات مع أن الآلام المعاصرة الآن غير تلك التى عانيناها فيما مضى ..

<u>(التغير شيمة الواقع وصفته التى لا تتغير)</u> .. <u>للأسوء</u> ؟ . <u>للأفضل</u> ؟ . لم نعرف بعد أو عرفنا ونكابر أو نتعأمى . ولكن ما لا يمكن أن نكابر فيه أو نتعأمى عنه ، هو أن التغير يحدث كل لحظة ولا يتوقف . فإذا كنا نؤمن فعلا بأن الوجود الاجتماعى هو الذى يشكل الوعى الاجتماعى .. فما بالنا نستخدم نفس المقولات القديمة التى أبدعها الماضى ! بل ونفس الموأقف .. خير لنا أن نعترف بجهلنا أو قصورنا عن فهم حقيقة ما حدث من تغير أو نعترف بعجزنا عن فهمه .. أو أننا نجتهد فى محاولة اكتشاف قوانينه ونرصد مساره لنبتدع مقولات جديدة – ليرتفع ثانية (صراخنا) بأحلام جديدة أو على الأقل بآهات تليق بجراحنا الجديدة ! .

- **كثيرون منا يتقنون أساليب (المدرسين) الذين تدربوا كثيرا على تلقين التلاميذ ما لا يعرفون أو تذكيرهم الممل بما يعرفون . وما أندر أن تجد فينا من يلعب دور المعلم الذى يدرك إلى من يتحدث وكيف ؟ . أن ما قل دائما هو ما دل .. وأن التكرار لا يجوز إلا مع الحمار . وما أندر (الأجدر) الذى يرفض مهنة**

التدريس . بل ولا يلعب دور المعلم عندما يتحدث إلى نظرائه من الأحرار أو قرنائه من الثوار .. حديث العارفين المدركين إلى المتشوقين المحبين دون استعلاء وكبرياء ، لأنهما أشد أعداء الإقناع والايحاء والرغبة فى التواصل والانتماء . ولذا يظل (معظمنا) يكرر نفسه فى كل منتدى .. ويعيد ما أمّلنا بالأمس غدا . بل ويذهب فى عماه إلى آخر مدى .. فيظن نظرات الضيق تودا .. وآهات الغيظ وزفرات والملل فى عيون الساخطين لعبقرية مقولاته (!) إنعكاسا وصدى .. فيزداد إحساسه الكاذب بنفسه عن نفسه رضا .. فيتمادى حتى ينفض عنه الأقربون . إلى أن ينفرد متوحدا .. ويعود ويشكو غباء وجهالة الدهماء ، حتى ولو كان جمهوره من الصفوة والعلماء .. أو من الثوار البسطاء أو حتى من فلول العدا !

- **ينسى البعض منا ، ويحب البعض أن يتناسى .. بل ويتعمد البعض – تجاهل أن الدعوة للثورة والموقف الثورى ليس هدفا فى حد ذاته ولكنه وسيلة لتحقيق السعادة على الأرض وإقامة العدالة والحرية بتحرير البشر ومحو استغلال الإنسان للإنسان .**

وأن التفكير الثورى ظهر أصلا لمواجهة الظلم والتعصب والاستغلال .. وليس لاكتساب المكانة أو تحقيق الذات أو كما هو بالنسبة للكثيرين لشغل أوقات الفراغ ..

- **أن أى موقف أو عمل يشعل التعصب الآخرق ، ويجذر الظلم والتمييز ويجلب التعاسة للبشر لا يمكن أن يكون موقفا ثوريا ولا عملا من أعمال الثورة . لأن أسلوب الحياة الذى يمارسه الثورى ، كل لحظة ، يجب أن يكون مثالا ونموذجا يحبب الآخرين ويقربهم من الثورة وللموقف الثورى – بصدقه وبساطته– بشرط ، أن يكون سلوكا حقيقيا وطبيعيا .. لا قناعا للحياة العامة ، أو وسيلة لاكتساب المكانة أو الغنائم ..**

(فالقلب عمره ماكانش من بره) كما قال فؤاد حداد .

●

محاضرة في الفلسفة

كلمة (فلسفة) كلمة سيئة السمعة عند معظم الناس .. وليها معانى مش قد كده ... مثلا .. لما ولد يتلامض أو يظهر بعض الذكاوة أو الشقاوة .. ما أسهل أن ابوه يقول له (بطل فلسفة) ..

ولما واحد يلاقى نفسه حيتغلب فى مناقشة .. أو يكتشف أن الموضوع أكبر من فهمه .. أسهل حاجة يقولها .. (احنا حنتفلسف) ..

ولو واحد على قد حاله حاول يتمسك بحقه .. واتسبب له موقفه ده فى أذية .. من حد أكبر .. اترفد مثلا .. أو انضرب من ضابط النقطة .. أو اتخصم له يومين من رئيسه .. أى واحد ممكن يفسر الموقف كله بإنه (اتفلسف فودى نفسه فى داهية) ويمكن السخرية تزيد مه فيتقال (اتفلفس) !!

ويبقى حسب الكلام ده كله .. البعد عن (الفلفسة) غنيمة ومكسب ما دام الفلسفة أو التفلسف فى عرف الناس تفلفس أو بوابه لوجع الدماغ .. زد على ذلك أن البنى آدم بطبعه عدو ما يجهل وما دامت الفلسفة حاجة ما نعرفهاش .. وراحة دماغنا فى البعد عنها .. يبقى نقفل عليها (بالضبة والمفتاح) ونرتاح ..

وأول ناس عايزة (الضبة) دى تفضل مسوجرة .. همه أنصاف المثقفين اللى قروا كلمتين من هنا وكلمتين من هناك .. وحفظوا بعض اقوال (متساوية) من هنا أو من هنا .. أفضل لهم طبعا نفضل كارهين الفلسفة خايفين منها عشان يتمنظروا بالكلمتين دول .. على رأى المثل لأن الأعور فى وسط العمى مفتح .. ويبقى الأحسن أن يفضل الناس عمى أو مغمضين .. وتفضل الفلسفة كلمة غامضة ومجهولة .. مفاتيحها فى إيدين دول وبس .. وطبعا زيهم أصحاب المصلحة فى أن الناس تفضل مغمضة .. مش فاهمة حاجة .. لأن دول عارفين كويس أن تفتيح المخ يفهم ، يفتح العينين تشوف ويعلم اللسان ينطق .. والعاجز يتحرك .. وده كله يحصل لما تفهم أحوالك والأحوال اللى حواليك .. وتعرف الدنيا ماشية ازاى ! .. وتسأل ليه ماشية كده .. وليه ماتمشيش كده .. يعنى يبقى لك رأى .. وجهة نظر .. يعنى يبقى لك فلسفة ! .

والفلسفة نوعين .. زى أى شئ فى الدنيا ..

فيه كلام رغى ولت وثرثرة .. وفيه كلام مفيد .

فيه أكل .. حشو بطن ومصارين .. وفيه أكل مغذى مليان فيتامين وبروتين ..

والفن .. فيه فن تضييع وقت ولهو يلهى الناس عن حالها أو يلهيها فى حالها .. يغيب وعيها لا تسأل مالها .. ولا إيه اللى جرى للدنيا أو جرى لها ..

وفن يحضر وعيك .. يمتعك ويرقق مشاعرك .. أو يقوى إحساسك بإنسانيتك ويعرفك حقك ودورك .. وينورك ..

الفلسفة كده هيه كمان .. نوعين .. صنفين .. مدرستين :

- **فلسفة لعب بالالفاظ .. وجمل غامضة .. وسفسطة .. يشتغل بها ناس هايمين فى ملكوت خاص بيهم .. خارج الدنيا .. غايبين عن الدنيا .. حتى ولو ملوا الدنيا دوشة وغلوشة ..**
- **و فلسفة .. تبص حواليها بعنين مفتحين .. طالعة من الطين .. أو قول من الأرض .. من الواقع .. تدرس الطبيعة وتمحص فيها .. تساعد الإنسان على السيطرة عليها .. وجعلها فى خدمته .. وتخليه يكشف أسرارها .. عشان يقدر يغيرها ..**

ومن قديم الزمن ...

قالوا على الفلسفة أنها حب المعرفة .. حب الإنسان للمعرفة .. اللى خلت الإنسان من يوم ما اتوجد على الأرض .. يتقدم بسرعة .. ويتطور .. من جحر فى الجبل يسكن فيه .. لكوخ .. لعش .. لبيت .. لمدن .. لناطحات سحاب ..

من جذع شجرة يعوم عليه .. لقارب .. لمركب .. لسفينة .. لغواصة .. من حجرين يولع بيهم النار فى الخشب .. للفحم .. للجاز للذرة والكهربا .. فبص حواليك تلاقى ألف ألف حاجة .. كلها من ابتكار الإنسان .. ومن قدرته على معرفة سر الريح والنار والذرة .. أسرار الطبيعة اللى اكتشفها وسيطر عليها .. وخلاها تخدمه ..

ميزة خاصة بالإنسان .. عن الحيوان ..

الحيوان اللى بيعيش فى الميه .. ما يقدرش يعيش على الأرض .. لكن الإنسان يقدر يعيش هنا وهنا .. وفى الفضا كما ..

الحيوان اللى بيعيش فى البلاد الحارة .. ما يقدرش يعيش فى القطب والجليد والثلج .. لكن الإنسان قدر يعيش هنا وهنا .. طبعا .. بعد ما عرف وقدر يتغلب على الطبيعة .. يعنى قدر يكتشف أسرارها يعنى .. عرفها .. ويا ما لسه حيعرف .. عنها ومنها ..

ومن قديم الزمن خدت الفلسفة (يعنى حب المعرفة ده ..) خدت معانى كثيرة حسب كل فيلسوف ووجهة نظره .. لكن عند الجميع فضل معناها وجهة نظر الإنسان فى العالم .. فى الطبيعة وفى المجتمع..

وجهة نظر تحدد قواعد سلوكه أو تصرفاته تجاه المجتمع .. وتجاه الطبيعة تجاه العالم ..

ناس قالت أن العالم .. (الطبيعة والإنسان) شئ ممكن نعرفه ونفهمه ونكتشف أسراره وان المجتمع ممكن ندرسه ونفهم علاقات الناس مع بعضيها .. وان كل أسرار الطبيعة ممكن اكتشافها .. وان باكتشافها ممكن السيطرة عليها وعلى المجتمع وتحويل الاثنين لمصلحة الناس ولخدمة الإنسانية ..

وناس تانية قالوا .. إن الإنسان على حاله من يوم ما كان .. هو كده بخيره وبشره .. والمجتمع كده بغناه وفقره .. والطبيعة كده حتفضل فيها أسرار لا يمكن الوصول لها .. وبالتالى الحياة كده .. وحتبقى كده ولا يمكن تغييرها ..

(يا عم .. هو أنت حتغير الكون .. دى سنة الحياة ... خليك فى نفسك !) يعنى باختصار كان فيه دايما فلسفتين .. نظرتين للعالم .. وطبعا .. لكل فلسفة منهم فايدة .. ولها نتايج .. ووراكل واحدة منهم مصلحة !!

اللى له مصلحة فى تغيير الأوضاع وتحسينها .. حيؤمن ويتبنى النظرة اللى بتقول أن ممكن التغيير .. فلسفته تبقى الفلسفة اللى بتقول أن ممكن تغيير العالم ..

واللى من مصلحته تفضل أحوال الدنيا والعالم زى ماهيه .. ويفضل المجتمع كده .. والاحوال كده .. حتبقى فلسفته أكيد هى الفلسفة اللى بتقول أن العالم مش ممكن نفهمه وان هو كده من الأزل للأبد .. ومش ممكن نغير حاجة منه لأننا مجرد بشر .. يعنى فلسفته يا إما بتدعو أن العالم لا يمكن تغييره أو بتنشر اليأس من تغييره .. وتقولها على بلاطة ..

اللى مستفيد من الأوضاع زى ما هى كده .. واللى متمتع بخيرات العالم زى ما هو كده .. واللى عنده السلطة والحكم لأن الدنيا كده .. واللى واكل تسع أعشار خير المجتمع فى بطنه .. والحل والربط فى إيده .. بياكل أحسن أكل وبيسكن أريح سكن ويتعالج أحسن علاج .. ومتمتع .. حيغير ده ليه يبقى لازم يقنعنا أن الأوضاع طول عمرها كده .. وحتفضل كده .. وإن ربنا له حكمة لا نفهمها ، لأنه خلق العالم كده .. حتى لو آمن جوه نفسه بأن الكلام ده كده وكده ويقول لك ..

لما أنت أمير وانا أمير مين اللى حيسوق الحمير .. العين ماتعلاش على الحاجب .. والناس درجات والميه مابتطلعش فى العالى .. ده قانون أزلى ولا مفر منه .. فلسفة .. تؤكد أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان .. ليه بقى نحرق فى قلوبنا ونهد فى حيلنا فى شئ ضد طبيعة الأشياء .. فلسفة تقنعك إنك تهتم بنفسك

.. واللى ما لوش خير فى نفسه حيبقى فيه خير لمين .... فلسفة تؤكد لك .. أن الإنسان ناقص وبعيد عن الكمال .. ولذلك كله شر ومن أعمالكم سلط عليكم .. والدنيا فانية .. فلاسفة يبرروا الظلم أو يشرعوه ..

يبرروا العجز ويلاقوا له أسباب لا حكم عليها ..

علشان يفضل الراكب راكب .. والعالى عالى .. وانا مالى .. لكن طول عمرها كانت جنبها فلسفة تانية .. تقول أن العالم ممكن نغيره .. وإن العدل ممكن .. والظروف اللى بتخلق الشر ممكن تغييرها .. وإن الإنسان قادر على كل صعب .. وعقله يساعى الكون بحاله ..

وكده الأفكار والفلسفة زى كل شئ .. كان مقسوم ..

لأن المجتمع كان طول عمره مقسوم ..

مصالح للحكام وللمالكين والأقوياء المسيطرين ... والمستغلين ...

وبتخدم عليها فلسفة وأفكار تحميهم ولو بالقوة ...

وقصادها مصالح أو قول معاناة وأحلام المحكومين والمقهورين والمستغلين ، تنور طريقهم فلسفة وأفكار تقويهم وتديهم الأمل والقدرة على تحقيق العالم العادل السعيد ...

فلسفة لدول ...

وفلسفة لدول .... والفلاسفة من يومهم وهمه عارفين كده ... فلاسفة بيخدموا مصالح وفلاسفة بيبحثوا عن الصالح ... فلاسفة يقنعوا المالكين بحقهم فى التملك والتحكم والسيطرة .. ويقنعوا المحكومين والشغالين بالرضا باللى كاين .. لأنه قدر .. ويسلموا بالأمر الواقع لأنه حكمة أزلية للحياة ..

وفلاسفة بيحاولوا يقنعوا المظلومين بإمكانية القضاء على الظلم وأن العدل ممكن .. لو فهمنا القوانين اللى بيمشى عليها العالم .. والقوانين اللى بتحرك المجتمع .. وإن الشر صنعته ظروف شريرة .. وإن الخير ممكن يسود لما الظروف تبقى ظروف غير شريرة ....

وطبعا اللى عايزين الأوضاع تفضل على ما هى عليه .. المستفيدين منها والمتمتعين بالعالم زى ما هو كده .. بيروجوا لفلسفتهم .. وبيدرسوها فى المدارس لولادهم ولولادنا .. وبيقدموها على طبق فضة فى وسائل الإعلام .. زى السم اللى بيتقدم فى العسل .. بيأكدوا إنها الحقيقة الخالدة والوحيدة .. فنونهم بتقول كده .. أغانيهم .. مواعظهم علشان إحنا من أول ما نصحى لحد ما نتخمد ويمكن كمان نحلم بأن الدنيا كده .. وحتفضل كده .. وربنا يعوض علينا فى الآخرة ...

يبقى علينا أن نسأل .. طب مصلحتهم كده .. احنا مصلحتنا فين ؟ ..

ودول ناس معاهم كل شئ .. الحكم والمال والبنوك والجيش والبوليس .. وكافة متع فى الدنيا ..

واحنا ناس .. بنتحشر فى الأوتوبيسات .. بنموت بالبلهارسيا .. أو من سوء التغذية .. ونفضل نلهد ونجرى .. يادوب علشان تفضل مستورة وما نتكلمش إلا لما يسمح لنا .. وإن سمح لنا يبقى علشان نقول اللى همه عايزينا نقوله ...

ناس مصلحتها أن الأمور تمشى زى ما هى ماشية .. مهمتها منع أى ثورة وأى تفكير ثورى .. وتشويه أى فكر يخالفها .. وترويج الفكر اللى يمد فى عمرها .. ويطول عمر أنظمتها ومصالحها ...

يبقى على غيرهم .. علينا احنا إننا نعرف أن مصلحتنا فى أن الأوضاع ما تستمرش على ما هى عليه .. ونؤمن أن لا يمكن أن تستمر على ما هى عليه .. وإنها لازم تتغير .. لازم تتطور .. تتبدل .. تتعدل ..

مش بإيد حد تانى .. لأ بإيدنا إحنا .. دى مصلحتنا .. وده الفكر اللى يورينا مصلحتنا .. الفكر اللى بينادى بالثورة ... والواجب الأول لنا .. إننا نفهمه ونتعلمه .. ونتعلم نستخدمه علشان يساعدنا على تغيير الأوضاع السيئة اللى ما بيكتويش بنارها إلا إحنا .. وعشان ما تدوخش عشان لقمة شريفة نضيفة .

علشان نلاقى مية نقية .. وكهربا .. ومواصلات وسكن علشان مكان فى المدرسة لولادنا .. وعشان المدرسة تبقى مدرسة بصحيح .. ونقرا كتب ونشوف فن ينورنا ونشوف الدنيا .. ونلاقى وقت نستريح .. يبقى لازم نغيرها ..

همه يغيروها ليه .. لا بياكلوا عيش بترابه ولا بتنقطع المية عن بيوتهم .. ولا الكهربا عن ثلاجاتهم العمرانة ... ولا بيعانوا من المواصلات ولا بيدوخوا على الجمعيات .. والصحة بمب ... والسهر ليلاتى .. رقص ومغنى وشرب .. وادى احنا بنسمع عن الحفلات والجوازات والذى منّه .. فى الشتا بيشتوا وفى الصيف يصيفوا منين ما كان ...

ولا عايزين كستور ولا دبلان .. ولا دمور .. ولا بيهتموا بارتفاع الأسعار ... بل بالعكس .. همه اللى بيرفعوها ..

ولا مهتمين بتدهور الأحوال .. لانهم همه اللى بيدهوروها ... وكل ما تدهورت أحوالنا زهزهت أحوالهم ...

وكل ما زاد الفساد .. وانتشرت الرشوة والمحسوبية ... كل ما زادت الأرباح .. تهريب اكسب .. تهليب تكسب ...

وتوكيلات الشركات الاجنبية اربح من الصناعة ووجع القلب ، التجارة هى اربح .. اكسب واهرب ...

ازاى بقى يبقى هدف سياساتهم أو محور تفكيرهم تحسين الاوضاع .. إلا إذا كان تحسينها عشان يستغلونا أكتر وينهبونا أكتر .. يعنى تحسين أوضاع استغلالنا ....

ولو تحب أمثلة .. عندك ألف مثال ... تلاقيه فى الإجابة على أى سؤال ... من الأسئلة دى ...

- **ليه واحنا بلد لها شواطئ طولها كذا وبحيرات مساحتها كذا .. وبحيرة سد توحش فيها السمك ... ولحد دلوقتى مش قادرين أوقول مش راضيين .. نغرق السوق بالبروتين ده ... مين المستفيد .. جاوب تلاقى الحقيقة ؟**
- **ليه وكل الباحثين قالوا وعادوا فى مسألة خريطة غير الخريطة القديمة لمصر .. وقال (جمال حمدان) فى كتابه اننا بنسكن فى أسوأ أماكن فى بلدنا .. الدلتا والوادى .. ليه لحد دلوقتى .. ما بنبصش للوادى الجديد .. للبحر الأحمر .. لمطروح ... لسينا ... إلا بصه سياحية أو دعائية ... جاوب يمكن توصل للحقيقة ؟**
- **ليه فجأة ... صبح السفر لبرة حمى ... فنيين وخبراء ومعلمين وحتى عمال زراعة .. اشحن على برة .. رسمى وغير رسمى .. والعملة الصعبة راحت فين .. ومواكب للهوجة دى ... تصدر قوانين الاستيراد بدون تحويل عملة ... جاوب .. تعرف ؟**
- **ليه بنشكى أن ما فيش سكن ... وناس ساكنة المقابر ... وأكتر ... من 30 ألف شقة مقفولة فى القاهرة لوحدها .... ليه ؟**
- **ليه تتدهور زراعة أرض أقدم فلاح فى العالم ؟**

وبنستورد أكلنا من برة ؟

- **ليه خابت المدارس وباظت وأصبح على كل أب أنه يفتح مدرسة خصوصى لابنه ؟ وإلا يعلمه صنعة ... يا يبعته يتعلم فى أمريكا ؟**
- **ليه اتدهور حال الجنيه ... وصبحنا سوق لحثالة تجار الأرض من هونج كونج وسنغافورة ... وكوريا الجنوبية ..**

اسأل مين المستفيد من استمرار الاوضاع دى ... وازاى بيبرروها ... وبيتباكوا عليها ... ويمكن يشتموها كمان ... لكن الحقيقة بتقول انهم عملوها ومستمرين فيها لأن مصلحتهم كده ... فلسفتهم وسياستهم كده ؟ اللى مفروض فلسفتنا وسياستنا تكون عكسها ... لأن مصلحتنا مش فى الأوضاع دى ولكن فى عكسها .

دى الفلسفة اللى احنا محتاجينها واللى لازم نتعلمها ...
فلسفة تخلينا نقدر نجاوب على الاسئلة اللى فاتت ...
تعرفنا سر كل الأوضاع المتدهورة دى ... والأسباب اللى وراها ... والمصالح اللى بتحافظ عليها ..
فلسفة تعرفنا ازاى نغير الأوضاع دى .. وندرس الواقع اللى خلقها ...
فلسفة تأكد لنا وتملانا إيمان إننا ممكن نفهم الواقع .. وممكن نغيره ... ونقدر نغيره ...
فلسفة تدعو للنضال مش لليأس ...

والفلسفة دى مش منجهة ولا أبهه .. ولا منظرة ... لأ .... دى مسألة حياة أو موت ... لأننا مش ممكن نوقف الاضطهاد والاستغلال والنهب والظلم ... إلا إذا عرفنا أسبابه ... والأوضاع اللى سببته وخلقته ... مش ممكن تسوق عربية من غير ما تعرف بتشتغل ازاى ... ايش حال بقى وأنت عايز تصلح العربية مش بس تسوقها بعبلها .. لا يمكن نغير العالم إلا إذا فهمناه ...

لا يمكن نوقف تدهور أحوال الوطن إلا إذا عرفنا أسباب التدهور ...
ولا يمكن نقضى على الظلم إلا إذا عرفنا سببه ايه ...
من هنا تبقى قد ايه أهمية دراسة الفلسفة بالنسبة للعمال وللفلاحين وللمضطهدين ...
لأن بدونها لا يمكن نفهم العالم ... ولا يمكن نغيره ...
الفلسفة اللى بتشرح لغز الواقع ... وتفسره ... علشان العامل والفلاح والثورى يقدر يغيره !! .

<u>فما هى هذه الفلسفة وما هى أصولها ؟</u>
هو ده السؤال اللى حنبدأ بيه ... كلامنا المرة الجاية !!

●

ملاحظات أولية
حول الخطة الشاملة للثقافة العربية

وضع هذه الخطة نخبة من أساطين الفكر والثقافة العرب وناقشها خبراء مشهود لهم من كافة الأقطار العربية ولذا لم تترك شاردة ولا واردة إلا وذكرتها ، سواء فى جانبها التنظيرى الفلسفى أو فى جانبها المنشغل بالبرامج والخطط التنفيذية ، والتى اكتظت بكل ما تعرضت له المؤتمرات والندوات الفرعية والمتخصصة من توصيات ، حتى تلك التى يصعب تنفيذها فى الواقع والتى ظلت أحلاما تراود المثقفين العرب على اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم وولاءاتهم .. وقد أقرت الخطة بالفعل وصار العمل بها وتنفيذها مسئولية كل الأجهزة الثقافية فى كل الأقطار العربية ومن هنا يصبح قناعة واقعية ذلك الفهم للمدى المحدود لأثر أية ملاحظات هامة أو شكلية عليها .. إلا فى حدود ضيقة وغير مؤثرة .. ومن هنا نورد بعض الملاحظات التى نعرف مدى

تأثيرها مقدما ، ولكن يمليها أملنا أن توضع فى الاعتبار لدى من له علاقة بوضع هذه الخطة موضع التنفيذ :

(1) الملاحظة الأولى تتعلق بموقف الخطة النظرى والعملى من الثقافات الجزئية والفرعية للجماعات غير العربية أو ما يطلق عليه الأقليات من كرد وبربر وقبط ونوبيين وطوائف أخرى كثيرة تنتشر على مساحات وبقع كثيرة جغرافية وتاريخية وبشرية ، ولها ـ مهما تجاهلنا ذلك تحت ضغط مفاهيم أو قوى مؤثرة دائمة أو عابرة ـ لها سمات وإنتاج ثقافى مميز وفى عصر يسعى إلى الديمقراطية والتعدد وقبول الآخر كما تؤكد الخطة كان لا بد من وضع تصور حضارى ديمقراطى للتعامل مع هذه الثقافات باعتبارها كما أشارت الخطة نفسها بشكل عابر ملمح غنى للثقافة العربية .

(2) اكتفت الخطة ـ تاريخيا ـ بالتركيز على السمة الإسلامية للثقافة العربية وهى ملمح هام وأساسى ولا شك يكاد يكون عضويا فى تكوين الثقافة العربية ولكن الأمر يبدو خاضعا فى مجمله إلى تعمد تجاهل المؤثرات الثقافية التاريخية والحضارية التى سبقت الإسلام تاريخيا ودورها فى تشكيل مجمل الثقافة العربية الحديثة من عادات وتقاليد وميراث فنى وتشكيلى .. أساطيرى ودينى .. إلخ من موروث الحضارات الفرعونية والفينيقية والبدوية والآشورية والبربرية والزنجية .. وهو أمر يغنى ويثرى الثقافة العربية ولا ينال منها و يصحح فهمنا لماضينا وحاضرنا ولا يشوش عليه .

(3) كان للهجات المحلية إبداعاتها الشفاهية والمكتوبة وما يزال .. وتجاهل هذا أو التغاضى عن عمقه ودلالاته لا يخدم مستقبل الثقافة العربية وإنما يضع العقبات أمام روافد هامة أثرت الوجدان عبر العصور .

وأن الاكتفاء باعتبار الاهتمام بهذا الإبداع العامى والمحلى جزء من مؤامرة موهومة للنيل من اللغة العربية باعتبارها المحور المركزى للوحدة العربية اتهام مرفوض وعفى عليه الزمن .

فاللهجات العامية وفنونها كانت وما زالت رافدا هاما حفظ للغة العربية حيويتها وأمدها بماء الحياة النابع من حياة الواقع وقد ساير هذا الإبداع وواكب الفصحى حتى قبل أن تكتسب قدسيتها ومركزيتها ، وقبل الاستعمار نفسه . واعتبار العامية خطرا يهدد الفصحى أمر يبعد الأنظار عن الأخطار الحقيقية والمباشرة التى تهدد الفصحى والتى أشار التقرير نفسه إليها .. ومنها ضعف المناهج وصعوبة تدريس النحو ، وانتشار المصطلحات الأجنبية لا فى العلوم فقط وإنما فى الحياة اليومية وهى الأمور التى تطعن الفصحى فى مقتل بينما تلعب فنون العامية دور الرافد الصحى الوحيد الذى يرفد جسم اللغة القديمة بكل مقومات الحياة والاستمرار والتجدد .

(4) غلب التفلسف والتعبير النظرى والفكرى على الخطة بشكل عام رغم إنها خطة للعمل المستقبلى (وهذا أمر طبيعى لأن الأسماء التى عكفت على وضعها كما قلت نخبة من أساطين الفكر والتخطيط الكبار) ولم تضع الخطة يدها فى الماء الساخن كما يقولون . ولذا عندما تعرضت لخطط نوعية وتنفيذية اكتفت بكل ما خرجت به الندوات المتخصصة من توصيات وأحلام تكررت وتوالدت حتى أصبح تنفيذها ـ دون ردها إلى معطيات الواقع فى كل بلد ـ من المستحيلات .

(5) فى مجال التراث الشعبى ـ وقد حصرت الخطة مادة الفنون الشعبية على تفرعها وغناها فى أربعة مجالات وهى :

- **الأدب الشعبى : وتدخل ضمنه فنون القول الشفاهية .**
- **العادات والتقاليد : وتدخل فيها الممارسات الشعبية .**
- **فنون الموسيقى والغناء والرقص الجماعى : (وهى حسب الخطة – من أوسع مجالات الفنون الشعبية)**
- **الحرف والصناعات الشعبية .**

وهى رغم ذلك لم توص خارج إطار التسجيل والجمع والحفظ والدراسة وما شابه .. إلا بتوصيتين تتعلقان بإعادة الإنتاج أو الإحياء والتطوير جاءا كآخر بندين (11) ، (12) ص 208 بإقامة مهرجانات وأفلام متخصصة وتكوين فرق متخصصة فى إحياء الفنون الشعبية .

وهو أمر يحسب على عموميته للخطة .. ولكنها تمشيا مع فلسفتها الرافضة للعامية وللجماعات العرقية (الأقليات) والمتجاهلة لها .. لم تشر بأى وسيلة إلى سبل إحياء أو رعاية أو الاهتمام بما أوردته من عناصر أربعة للفنون الشعبية وخاصة (الأدب الشعبى والعادات والتقاليد) وهما أمران على درجة عالية من الأهمية لارتباطهما بالممارسة الثقافية اليومية للجماعات الشعبية .

(6) فى مجال ثقافة الطفل والاهتمام بها : على الرغم من أن الخطة بشكل عام أعطت لذلك الأمر أهمية بالغة سواء فى جانبها النظرى التنظيرى أو الخططى التنفيذى ، كما أعطت نفس الأهمية لمسألة الهوية والحفاظ عليها وضرورة التمسك بها خاصة فى مجال ثقافة الأطفال (لأن الانتماء هو البديل الوحيد لصد الغزو الخارجى بكل أخطاره ... الخ) إلا أنها لم تعط أهمية تذكر لأمر فى غاية الأهمية .. وهو تقديم ذلك التراث الضخم ـ المأثورات والحكايات .. والحواديت والسير وما تزخر به من إمكانيات درامية وملحمية هائلة وما تتسم به من تنوع وغنى .. لم تعطه أى مساحة تتواءم مع أهميته .. لإعادة تقديم هذا التراث الفنى كزاد ثقافى لتأكيد هوية أطفالنا ومدهم بالقيم الأصيلة والمبادئ والشخصيات فى قالب من أهم الأوعية التى استخدمتها الثقافة العربية بكل روافدها للاستمرار وهو (الحكى) وأيضًا فى إطار حديث مؤثر وغلاب وهو (الدراما) واللذين بدونهما يصبح الحديث عن زرع القيم وإحياء الموروث والانتماء لدى الأطفال .. ضربا من الحديث المرسل إن لم يول من الاهتمام ما يستحقه ..

هذه بعض الملاحظات على الخطة قد لا يكون لذكرها أهمية الآن بعد إقرار الخطة ، ولكنها قد تنير بعض مناطق الخلاف ليهتدى بها من يجد لها أهمية عند التطبيق .

●

سمير عبد الباقى المستشار الثقافى والفنى لقطاع الفنون الشعبية
يناير 1997

عريان وسط ذئاب السياسة

الرئيس و سرحان ,, و أنا .!

اتسمت علاقتي بالدكتور / سمير سرحان بكثير من التحفظ و أيضًا بكثير من الاحترام المشوب بالود ..

كان الفنان حسن فؤاد قد رشحني للزواج بالآنسة نهاد جاد ، طبعًا قبل أن يتعرف عليها سمير سرحان في أمريكا ويتزوجها .

كنت أساعد حسن فؤاد لفترة طويلة في إصدار حكايات صباح الخير ومراجعتها والرد على خطابات قرائها وأيضًا خطابات نادي الرسامين الذي يشرف عليه ، أملاً في أن ينتهي هذا بتعييني في المجلة (وكان حلمًا) ، ولم يتحقق ذلك في تحليلي لسبب من اثنين إما أن الأمر عرض في حينها على المسئول الأمني (التقدمي) الذي كان مسئولاً في حينها عن علاقات النظام بالشيوعيين من فنانين وصحفيين وهو اللواء منير حافظ فرفض اسمي ، أو لأن حسن فؤاد نفسه لم يعرض أمر تعييني أبدًا على (فتحي غانم) كما أكد لي الأخير أثناء زيارة وفد التضامن المصري لليبيا فيما بعد . وكنا في لحظة شجن وطني مصري أثناء غناء عدلي فخري لنا في سهرة حميمة في الفندق الكبير .

كانت (نهاد جاد) ابنة أخت رفيقنا الصيدلي الراحل د. سعد بهجت وكان أحد أعمدة (الفُن فُن) وهي حجرة أو زنزانة (6) التي يقيم فيها أعضاء فرقة الدراما (حدتو) . وكنا – نهاد وأنا – نساعد حسن فؤاد في

صباح الخير وهو يعتبرنا من أهم تلاميذه وكثيرًا ما كان في ساعات التجلي يحكي عن (معجزاتي) في (الفُن فُن) وخاصة عندما ساعدته في إخراج مسرحية (عائلة الدوغري) وقمت بتصنيع كل اكسسواراتها .. وكنا نقضي أوقاتًا جميلة باسمة بل وضاحكة في أمسيات صباح الخير .. حتى سألني رايي في موضوع ارتباطي بها وهي بنت أخت صديقنا .. ولم يكن ذلك يخطر ببالي فقد كنت ما أزال يا مولاي كما خلقتني وأضع موضوع إنهاء دراستي ، لأجبر خاطر والدي الذي كسره اعتقالي وكان ردي حاسمًا في إنهاء هذا الموضوع وصرف النظر عنه ، حيث قلت له ببساطة ريفية :

ـ دانا كان يشرفني لكن ياعم حسن عشان أنت طويل تقوم ما تلاحظش إزاي هي طويلة قوي عليّه .. ما ينفعش وضحكنا ـ وفرقت بنا السبل .

وعندما عاد سمير سرحان دكتورًا من أمريكا ومتزوجًا من نهاد جاد جمعتنا بضع جلسات صدفة وجلسات أصدقاء مشتركين فعادت علاقة الزمالة الحميمة بيني وبينها وبالتالي بيني وبين (سمير) خاصة وقد جاء يحاضرنا نحن (تلاميذ) الدراسات العليا بالمعهد العالي للفنون المسرحية حين تولى عمادته (رشاد رشدي) الذي وأد تلك الدراسات العليا رسميًا هو والدكتور مصطفى سويف باعتبارها إحدى مخلفات ثروت عكاشة !!.

لكن العلاقة مع د. سمير وزوجته لم تنفرط تمامًا ولكن على البعد حتى تول (سمير) رئاسة الثقافة الجماهيرية .وعندما عدت من حصار بيروت وقطعت إجازتي ، ألحقني بإدارة المسرح وساعدته بكل إخلاص مع زملاء مسرح الثقافة الجماهيرية في إدارة ونجاح مهرجان المائة ليلة الذي أعطاه دفعة كبيرة على سلم طموحه الإداري وربط بيننا بعلاقة زمالة تتسم بكثير من التحفظ ولكن بقليل من الود أيضًا ..

كان عندما تجمعني الصدفة به وبزوجته في مكتبه ـ بعد أن تولى العديد من المناصب صعودًا ومنها رئاسة هيئة الكتاب ـ ويرانا نتبادل الحديث الودي (بين زملاء قدامى) يقول مناكفًا ضاحكًا :

ـ مالكم ياشيوعيين بتتودودوا على إيه ؟ أكيد فيه مصيبة بتدبروها ؟

وكنت أجيبه على نفس درجة المناكفة :

ـ أكيد .. مش أقل من قلب نظام الحكم !

ونضحك من القلب .. وإن كان أحيانًا يعلق تعليقًا صادقًا عندما أعرض عليه كتابًا جديدًا لي وسط مشاغله الكثيرة ليوافق على نشره :

ـ يا عم احمد ربنا إنك قادر تكتب .. دي نعمة تتحسد عليها ..

وأبتسم وأنا أفكر فيما وصل إليه من نفوذ سرق منه نعمة الكتابة ..

وعندما ذهبت إليه مرة وكانت (نهاد) قد اختارها الله إلى جواره تاركة له مسئولية ينوء بها (جمل) وهي تربية ولديه .. وكان فقدانها صدمة أعرف مدى كارثيتها ، لكنها لم تمنعه من شق طريقه بحذقه وشطارته المعهودة فاستطاع أن يجعل من معرض الكتاب أهم معرض في العالم العربي وأن يقترب أكثر وأكثر من قمة السلطة وأصحابها وأن يتزوج مرة ثانية ومرة ثالثة .. وتباعدت بيننا المسافات وإن ظلت لقاءاتنا في عمل أو من أجل عمل تتسم بالاحترام المشوب ببعض الفتور الذي لم يصل أبدًا لدرجة النفور ، بل كان كلانا حريصًا على بقاء ذلك الخيط المغزول من بعض ذكريات حميمة وكثير من الوضوح القائم على فهم كل منا لحدود الآخر ومعرفة بشخصيته وأفكاره ومعتقداته ودوائر علاقاته .

ولكنه كان دائمًا بقصد أو بدون يحاول أن يجذبني لشبكة تلك العلاقات وكنت أنا بوعي أو ببراءة أبتعد أكثر .. عرض علي عملاً في السعودية وكنت أمر بأزمة مادية حادة لتحسين أحوالي المالية وحرص على أن يبين لي أنه عمل فوق (كل الشبهات) وليس له أي هدف عقيدي أو سياسي ، فأحد أصدقائه طلب منه مثقفًا مصريًا ليقوم بصياغة تقارير (علمية) وأبحاث تجريها شركته لدراسة طبيعة مناطق جغرافية معينة من الناحية الطبيعية والجيولوجية والاثنية والجغرافية .. ولأن الخبراء الذين يقومون بالبحث لا يعرفون العربية جيدًا فهو في حاجة لشخص ذكي ومثقف ليقوم بصياغة صحيحة لتلك الأبحاث وقد رشحني لذلك فأنا أولى بالراتب الضخم الذي قد يحل كل مشاكلي المادية دون أي تثريب !!

وارتعش داخلي واعتذرت برقة على الفور متحججًا بأن العمل سيكون (بالرياض) ولو كان في جدة لقبلت (!) وهو يعرف أنني لا أواظب على الصلاة مما سيضعني تحت قبضة الناهين عن المنكر بما يؤكد

حدوث ما لا تحمد عقباه ـ ولم أصرح بحقيقة ما فكرت فيه !! وعندما فكر في إقامة مؤتمر أدباء الأقاليم الذي عقدت دورته الأولى في المنيا .. دعاني إلى مكتبه واستشارني في كثير من الأمور والتزم ببعض ما وددت تحقيقه من مثل هذا المؤتمر ، وبالطبع كان له مستشارون آخرون ينتمون لجهات عديدة ذوو آراء (سديدة) . ومع ذلك استنار ببعض ما أشرت به عليه وهو قليل . وحدثت أثناء المؤتمر وبعد إلقاء الوزير لخطابه الذي أخطأ فيه أخطاءً إملائية فاضحة ، لأنه لم يراجع الخطاب قبل إلقائه فأثار ضحك وسخرية المؤتمرين ، وقلل من هيبة المنصة ، التي اهتزت وعجزت عن السيطرة على الجلسة عندما طالب البعض بإنشاء اتحاد كتاب مستقل غير اتحاد ثروت أباظة والذي كانت معركة انتخاباته وما جرى فيها من مفاسد ووقائع وفضائح ما زالت عالقة بالأذهان .. وساد الجلسة هرج ومرج وصياح لم يهدأ إلا عندما أعطاني الكلمة ..

وساد هدوء شامل عندما ألهمت أن أحتفظ بهدوئي في عرض رأيي في تلك القضية ، وكان رأيًا يلتزم بما توصل إليه الأدباء والكتاب اليساريون واتفقنا عليه بصرف النظر عن قيمته ـ(المعروف أن انتخابات اتحاد الكتاب هذه وما جرى فيها وفيما قبلها وبعدها وما تمخض عنه الموقف منها من كوارث مثل انقسام شهير في صفوف الحزب الشيوعي المصري وبين قوى جبهة وطنية كانت في طور التشكيل وهو أمر لابد من دراسته جيدًا)ـ وكان رأيي يتلخص في أن ما يمكن أن يتمخض عنه المؤتمر الحالي هو إنشاء جمعية للأدباء في الأقاليم ومن يرغب من غيرهم ولا يمكن بل يستحيل إنشاء اتحاد آخر فهذا يقتضي تغييرًا في الدستور وموافقة من مجلس الشعب وقرارًا جمهوريًا لا نملك الحلم به .. وأن علينا وعلى كل الكتاب المستقلين الشرفاء النضال من إجل إعادة اتحاد الكتاب إلى الكتاب وانتزاعه من براثن أباظة وقوى الظلام .. وأنهى التصفيق الحاد لكلمتي تلك الأزمة التي كادت أن تودي بالمؤتمر .

ولم يكن ذلك التصفيق الحاد هو الوحيد الذي حصلت عليه في ذلك المؤتمر بل حظيت قصيدتي (الأوله الآخرة في غرام القاهرة) بمثله بل وأشد مما جعل سمير سرحان يقيم لي مأدبة عشاء في بيته يدعو إليها خلصاءه المقربين من اليساريين ليسمعوها كتحفة شعرية خالدة وكان منهم محمد عودة وفيليب جلاب وآخرون ..

بعدها قرر إدماج اسمي في كشف الدعوات السنوي لمن يحضرون لقاء الرئيس في افتتاح معرض الكتاب .. ولما جاءتني الدعوة فكرت في عدم الذهاب عملاً بالمثل القائل (ابعد عن الشر وغني له) ولكن حب الاستطلاع لمعرفة ما يجري في هذه المؤتمرات التي تحاط بالكثير من الغموض الإعلامي والإيحاء بالأهمية ..أيضًا إحساسي بأنني لست أقل أهمية (أدبية) في هذا الوطن من كثيرين يُدعون بشكل دائم وإن كنت أعرف جيدًا أبعاد ذلك .. قبلت أن أذهب . وكان البروتوكول يقتضي ذهابنا إلى المعرض قبل وصول السيد الرئيس بساعة على الأقل .. ثم ننتظر في القاعة المعينة حتى يُتم هو والمسئولون معه جولتهم في المعرض ، ثم يحضر ليبدأ الحوار ، الذي اكتشفت أنه حوار مدبر ليجيب الرئيس على أسئلة سابقة التجهيز لأشخاص بعينهم يدعوهم سمير سرحان للكلام وكأنهم طلبوا ذلك بملء إرادتهم .. وإن كان عليهم قبلها الاتفاق على ذلك !

وحضرت لقاءين كانا كافيين بإقناعي بفساد هذه التمثيلية التي تقدم للناس على أنها نتاج رائع من نتائج الديمقراطية الذهبية التي تتيح مثل هذا اللقاء بين خلاصة عقول الوطن ومفكريه وبين (عاهله) واسع الصدر رحب الأفق المتسامح المتواضع المثقف الذي يضمن المستقبل المشرق لهذا البلد ويرعاه ، بسماحة لخيرة عقول رعاياه بالتنفس في حرية بلغ الأمل فيها منتهاه ..

والحقيقة أنني ترددت في المرة الثالثة في الذهاب لأن الوضع بدا هزليًا بل ومهينًا.. فكتاب مصر ومفكروها وأدباؤها وشعراؤها وقصاصوها يحبسون في قاعة كالحظيرة اللامعة النظيفة لعدة ساعات كدجاجات شقيات يُخشى عبثهن في الحديقة دون ماء أو فك حصر ، حتى يحضر موكب السلطان والأمراء من رؤساء تحرير ووزراء . فينقطع كل أمل في الخروج ، وكل رجاء .

هلَّ الموكب المهيب وبدت بشائره في صرخات الضباط وهمهمات الموظفين وتدافعهم وشهقات النسوة .. ودخل السيد الرئيس من حيث يكون آمنًا .. ولم يدخل الجميع من باب واحد .. فلبعض المرافقين درجات تتيح له ألا يدخل إلا من حيث الجمهور العادي من أمثالنا .

وتوسط السيد الرئيس المنصة ، عن يمينه الوزير الجديد فاروق حسني الذي كان لا يزال (بشوكه) وعن يساره سمير سرحان واحتل المقاعد الأولى المحجوزة (عاطف صدقي) كبير الوزراء و(عاطف عبيد) وزير التنمية الإدارية وحولهما بقية الوزراء ، لم يكن بينهم (العادلي) لأن (الألفي) كان لا يزال حيًا .. ووسط كوكبة الوزراء كان بعض (المهمين) مثل أنيس منصور وإبراهيم نافع وثروت أباظة (!!) ووراءهم تزاحم الكتاب والشعراء دون ترتيب أو تبويب . وبدأت التمثيلية بمونولوج افتتاحي تبادله رئيس الهيئة والوزير ثم السيد الرئيس ومنهم(تأكدنا) حسب وعودهم أن مصر بخير وأن الثقافة هي سيدة الموقف وأن الحرية هي حارس طريقنا وعمد استقرارنا .. وهذا الاجتماع يؤكد تجلي شمسها على الأرض المصرية لتزدهر ثمارها المتمثلة في عقولها ومبدعيها ..

وتوالى المتحدثون أو السائلون وكل ذلك يصب بحذق ومهارة في نهر الإيمان العميق بمسئولية (العاهل) عن سعادتنا فطرحت رجاءات من أول بناء محطة الصعيد وعمل كوبري للسكة الحديد وقدمت اقتراحات من بينها إعدام تجار الحشيش في ميدان عابدين ليعترض الرئيس مفضلاً حكم القوانين وليبدو هو أكثر إنسانية ووعيًا من بعض الصحفيين والمؤلفين .. ما علينا ..

انتهى عبد الستار الطويلة من قصيدة المدح التي تعب من تكرارها منذ أيام السادات فأشار الرئيس وطلب محمد سيد أحمد بالاسم وأثار ذلك الأستاذ محمد عبد المنعم مراد فخرج عن وقاره صائحًا :

ـ ما ينفعش يا ريس .. هو كل اللي ح يتكلموا من اليسار ؟!..

وتضاحك الرئيس وقال في سماحة :

ـ وهو عاد فيه يسار يا أستاذ مراد ؟ ..

وضحكت الصالة على النكتة إعجابًا بحضور ذهن الرئيس بينما على الدم في عروقي غيظًا .. تقدم محمد سيد أحمد وقال :

ـ أنا أود أن أسأل سيادتكم وأتكلم في موضوعين هامين وهما موضوع اليسار الإسرائيلي والضرورات التي تحتم علينا فتح جسور معه للحوار .. والموضوع الثاني هو موضوع الجزائر ..

[كانت المرحلة الأولى لانتخابات الجزائر قد بشرت بفوز ساحق للجبهة الإسلامية وهزيمة مؤكدة لحزب جبهة التحرير ، وكان الوضع متأزمًا وكل الأنظمة العربية تجلس على جمر الأزمة المشتعل]

وأسهب محمد سيد أحمد وأطنب في موضوع اليسار الإسرائيلي ودخل في جدل لا لزوم له مع الريس فنسى كعادته الموضوع الثاني وأوصل الأمر إلى ضرورة إنهاء حديثه زهقًا ..

وأشار الرئيس إلى محمد عبد المنعم مراد كي يقوم ليتكلم وليحدث التوازن الذي طالب به . وابتعد الحديث عن الأزمة المتفجرة . مما جعلني أرفع يدي على طول ذراعي طالبًا الكلمة من سمير سرحان الذي غمز وأشار بالرفض القاطع فاتجهت إلى مبارك نفسه في الوقت الذي تعالت فيه أصوات تلفت نظر الرئيس ليدي المرفوعة ، خاصة بعد أن انتهى مراد من كلامه وبدأ الرئيس البحث عن متحدث جديد ، صاح عبد العال الحمامصي وعبد الفتاح رزق مشيرين إليّ :

ـ أبو كاسكيتة يا ريس .. أبو كاسكيتة يا ريس .. ـ مؤيدين لطلبي الكلام ـ

ونظر الريس نحوي في ريبة إذ رأى وجهًا لا يعرفه فاختار شخصًا آخر ، ولكن الصيحات المرحة تعالت تلفت النظر إلى ذراعي المرفوع حتى السقف ولم يجد الرجل سوى أن يوافق فقال :

ـ بعد اللي ح يتكلم .. بعده

وتحدث المتكلم قبلي الذي لا أذكر من هو ولا ماذا قال لأنني كنت منشغلاً بالتقدم نحو الميكروفون خشية أن ينساني صاحب الأمر فيطلب شخصًا آخر وساعتها يصبح إلحاحي أو طلبي خارج الموضوع ..

وقفت أمام الميكروفون الموجود في وسط الوزراء قريبًا من المنصة في انتظار الأذن .. وانتهى المتحدث وبدأ الرئيس في البحث عن آخر فاصطدمت عيناه بي أمام الميكروفون ، نظر لي متوجسًا وقال :

ـ نعم يا سيد ، عايز تسأل عن إيه ؟..

ساد الصمت ، فقمت بتقديم نفسي :

ـ سمير عبد الباقي شاعر سياسي ..

وانفجرت الصالة ضحكًا فقد تنبهوا لغرضي من ذلك .
قال الرئيس متضاحكًا محتجًا :
ـ هو لسه فيه يسار ؟!.
وضحكت الجموع مرة أخرى . أجبت في بساطة حسدت نفسي عليها :
ـ هي الدنيا تمشي من غير يسار ...
وزاد صخب الضحك تلاه صمت استطلاع .. قال الرئيس :
ـ دا انت بقى يساري معدل ؟ .
وعاد الضحك يصخب إعجابًا بالنكتة وسرعة البديهة .. لكنني قلت في هدوء أجبرهم على الصمت :
ـ لا أدري أنتم عادة من تطلقون علينا هذه الأوصاف ، لكنني متأكد أن الدنيا لا تسير دون يسار ..
وقبل أن تسري أية همهمة قال بسرعة وحزم :
ـ أيوه ما الذي تريد السؤال عنه ؟..
بلعت ريقي متأملاً الصمت الذي ساد القاعة بعد صيحته الحازمة :
ـ سيادة الرئيس .. الشعوب يحبطها اتساع المسافة بين الأحلام ووعود الحكام وبين الواقع المتدني .. وكان هذا لسبب بالذات هو الأول في سقوط الاتحاد السوفيتي السابق بهذه الطريقة المأساوية المفاجئة وهو نفس السبب الذي جعل اللبنانيين يتمنون بسبب طيش تصرفات بعض التنظيمات و المنظمات أن يتمنوا مجيء الشيطان ليحكمهم .. ولهذا السبب نفسه اختار الجزائريون الذين عانوا من حكم الحزب الواحد ومن انعدام الديمقراطية وتسلط العسكر وهيمنة أصحاب المصالح فاختاروا البحث عن أمل آخر .. مادام الأمر منوط بالديمقراطية ..
قاطعني في زهق :
ـ السؤال .. عن إيه بتسأل ؟
ـ أسأل سيادتكم في هذا الصدد هل أنتم مطمئنون لسلامة المسار الديمقراطي في مصر في ظل الأحزاب الورقية القائمة وفي ظل الأداء الكفء لحكومة د. عطف صدقي والذي تجلى بشدة في طريقة إدارة أزمة العبارة سالم إكسبريس ومأساة سيدي عبد القادر ؟!.*
ساد صمت لم أتوقعه .. وصمت الرئيس ، ولمحت سمير سرحان عرقه مرقه .. وعندما بدأت همهمة خافتة تعلو حتى علا صوت مبارك :
ـ الديمقراطية مسئولية الديمقراطيين وحمايتها مسئوليتكم أنتم ، أما بالنسبة للجزائر فقد سألتموني من قبل عن السودان فقلت لكم لننتظر وسنرى ، والآن بالنسبة للجزائر أقول فلننتظر وسنرى ..

وكان ثروت أباظة قد رفع يده يطلب الكلمة فدعاه ،
بينما استقبلتني همسات رزق وجمال الغيطاني : (ح يشتمك ، ثروت ح يشتمك) ،
وكانت حركة ثروت الثقيلة ناحية الميكروفون ونظراته المهددة لكل الحاضرين كفيلة بكسر حائط عدم الفهم أو الدهشة التي أعقبت تعليق الرئيس .. قال ثروت مقدمًا نفسه في عنجهية :
ـ محمد ثروت أباظة .. كاتب يميني مؤمن ..
وانفجرت القاعة ضاحكة فأكمل :
ـ يا سيدي الرئيس لا تستمع للشيوعيين إنهم يريدون الصيد في الماء العكر .. الشعب الجزائري جدير وقد هزمهم واختار الإسلام لجدير أيضًا أن يكسر شوكة الإسلاميين إذا ما انحرفوا عن جادة الصواب .
وعلت همهمة ساخرة وأخرى معترضة مما هدد بزوبعة حرص سمير سرحان ساخرًا أن ينهيها مثنيًا على كلام الباشا معطيًا الكلمة لشخص آخر ليدخل في موضوع آخر .

كان هذا هو المشهد الأخير الذي أسدل ستارة على حضوري لقاء الرئيس بالكتاب وأخرجني من كشف البركة إلى الأبد وحتى الآن وفيما بعد ..

بالرغم من أن صفوت الشريف علق لأخبار القناة الأولى مستشهدًا بكلامي على سماحة الرئيس وعبقرية الديمقراطية المصرية ومدى تمتع كتابنا بالحرية (!) لدرجة أن شاعرًا يصف علنً نفسه بالشاعر اليساري ، ولا يُغضب هذا أحدًا حتى الرئيس نفسه ..
تصوروا !!!!!

●

---

* كانت (سالم إكسبريس) بروفة مبكرة لمأساة العبارة الأخير كما نرجو من الله ، وخرج المسئولون عنها كما الشعرة من العجين لتؤكد عمق المأساة التي تشكلها الأوضاع السائدة .. كما كانت كارثة سيدي عبد القادر حيث فاضت مياه الصرف والصرف الصحي في طوفان لتغرق بيوت الفقراء وتدفنهم بالضبط كما حدث في الدويقة .. الفرق هو تغير المسئولين ومرور السنوات ولكن الضحايا هم الضحايا .. وأن الطوفان تسلل هذه المرة من بين طبقات المقطم ليؤكد أن الموت يأتيكم من حيث لا تحسبون ، وليفلت المجرمون !!

سطور سقطت من مضبطة الحوار مع ياسر عرفات

● تلقت (الشعب) من الشاعر المصري سمير عبد الباقي رسالة مفادها أنه اشترك في جلستين من جلسات الحوار بين المثقفين والأكاديميين المصريين مع المناضل الفلسطيني ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ونشرته جريدة الشعب نقلاً عن مجلة فكر . وفيما يلي نص الرسالة :

الأستاذ الفاضل حامد زيدان رئيس تحرير جريدة الشعب .
تحية من القلب ، وبعد ،

نشرت جريدتكم – التي أحترمها كثيرًا – حديثًا مطولاً للسيد ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية في لقاء له مع عدد من " الأكاديميين وأساتذة الجامعة المصريين " – منقولاً عن مجلة (فكر) التي تصدر في باريس .. ونشركم للحديث هو الذي يدفعني للكتابة إليكم فيما يمسني ويتصل بي من الموضوع كله .. لأن الحديث بذلك وجد طريقه إلى من يهمهم أمري ، ويهمني أن تتضح أمامهم مواقفي ، ولو لم ينشر في جريدتكم لما كان للأمر أهمية – فمجلة فكر – مجلة من عشرات المجلات شبه السرية والمعزولة التي ابتليت بها حياتنا الثقافية والسياسية العربية ، منذ سرى النفط من العروق ، وهي كأمثالها تطبع بضع مئات من النسخ يرسل معظمها لمكاتب من يهمهم الأمر ويطرح الباقي في بعض المكتبات هنا أو هناك لسبب أو لآخر .

ولقد تجاهل رئيس تحرير (فكر) حضوري ذلك اللقاء ومشاركتي في الحوار مؤكدًا بذلك الشكوك التي انتابت كل المشتركين في مدى أمانة النشر بعد اللقاء مباشرة ورجائهم الدكتور دويدار أن يراجع عملية التفريغ والاختصار عند وجوده في باريس حتى لا يُمسخ دور المصريين في اللقاء أو يفرغ من مضمونه ، والحق أن الرجل كان واقعيًا وأبدى تحفظًا حول إمكانه متابعة ذلك .. على كل حال .. لقد كنت حاضرًا ذلك اللقاء الذي لم يكن بمبادرة من المدعوين كما ادعت المجلة .. وإنما كان مرتبًا له أن يحدث أو على الأقل كان محتملاً أن يحدث .. حيث كانت الدعوة مقصورة على المشاركة في ندوة حول الثقافة والتنمية في العالم العربي ..!

وحين وجهت إلي الدعوة ، استأذنت الحزب الذي أنتمي إليه في المشاركة وسمح لي وحين عدت قدمت للحزب تقريرًا عما قمت به وعرضت كل ما فعلته على لجنة الدفاع عن الثقافة القومية التي أشرف بالانتماء إليها .. ولكنني فوجئت بأن ما نشر عندكم عن المجلة المذكورة لا يعبر تعبيرًا دقيقًا عما دار ، وتجاهلت المجلة

حضوري .. وهو ما أعزوه لما طرحته من أفكار وما طلبت مناقشته من قضايا على رئيس منظمة التحرير الفلسطينية في ظرف عصيب يتحتم على الجميع فيه الالتزام بالصدق مع النفس ومع الآخرين رفقًا بالوطن ووفاءً لكل ما قدمته شعوبنا من تضحيات .. وهو ما يدفعني للكتابة إليكم لعل طرحه على من أحبهم يغفر لي عندهم استجابتي لدعوة تلك المجلة .

قلت لياسر عرفات :

- إذا كنا متفقين على أن كافة الأنظمة العربية ما بين متآلفة ومتحالفة ومتآمرة ومتواطئة مع الإمبريالية الأمريكية ، وإذا كنا متفقين على أن آفة كافة هذه الأنظمة هي انعدام الديمقراطية الحقيقية والحكم الفردي وغياب الجماهير .. أليس هذا أدعى للثورة وللثورة الفلسطينية بالذات أن تصر على تسييد القيم الديمقراطية في التعامل مع الخلافات وفي العلاقات بين الفصائل المختلفة وألا تترك الجماهير للبلبلة حول اتفاقات أو لقاءات وخطط ومشاريع يجري ترتيبها مع هذا النظام أو ذاك ..؟

قلت لياسر عرفات :

- لا تكن لفتح وحدها .. فدورك يحتم عليك أن تكون للثورة الفلسطينية كلها ولكل فصائلها واتجاهاتها فلست رئيسًا لنظام عربي أو حزب حاكم فتفعل مثلما يفعلون إذ ينحازون لأحزابهم ويضعونها فوق رأس الجميع ويتظاهرون بالعمل للوطن كله وللشعب كله .

قلت لياسر عرفات :

- وإذا اتفقنا على أن (مؤتمر الشعب العربي) تلخيص مخل وناقص ولا يتناسب مع نضالات القوى الشعبية العربية ولا يشبع طموحها في جبهة تعبر عن نضالاتها تلك .. أفلا ينبغي الاتفاق على أن أي تكوين مماثل إن تم تحت نفس الظروف والضغوط والمحاور لن يكون سوى تكرار لنفس النموذج .. مادام كل ذلك يتم بعيدًا عن القوى الشعبية الحقيقية وبعيدًا عن أرض النضال الواقعي بين الجماهير .

قلت لياسر عرفات :

- نحن الحاضرين هنا وإن كنا نستطيع أن نعكس لكم تصور وأفكار الشارع المصري حول صورة الثورة الفلسطينية إلا أن الحقيقة تقول أننا لا نمثل سوى أنفسنا برغم تعدد انتماءاتنا .. ولذلك فالتنسيق والتعاون مع القوى الوطنية المصرية ينبغي أن يتم مع القوى الوطنية المصرية ممثلة في أحزابها وفي تنظيماتها السياسية والنقابية والمهنية ومعها فقط .. و إلا فنحن نكرر نفس الأخطاء بشكل أكثر فداحة .

قلت لياسر عرفات :

- تخطئ الثورة الفلسطينية كثيرًا إن لم تستفد من أخطاء سابقة في التعامل مع جماهير الشعوب العربية ومن درس لبنان بالذات .. وإن كان من الضروري أن تصحح صورة المنظمة والثورة أمام الإنسان المصري .. فيجب الحذر وتجنب مثل تلك الأخطاء التي حدثت من رجال المنظمة في مصر عقب معرض الكتاب الماضي في مجال دفاعهم عن اشتراك فلسطين في المعرض .. وكما صرحوا في جرائد الخليج إذ زعموا أن اشتراك فلسطين كان قد تقر بالتنسيق مع القوى الوطنية المصرية وهو ما لم يحدث إذ كان القرار فلسطينيًا وغير قابل للمناقشة .. وإن كان هذا حقكم فليس من حق أحد أن يهين الشعب المصري فيدعي أن اشتراك دار الفن العربي في المعرض هو الذي حرك الجماهير المصرية ضد الوجود الصهيوني !! متجاهلاً أن حركة الجماهير ضد اشتراك إسرائيل بدأ منذ اشتراكها الأول .. وامتد إلى معارض أخرى ومناسبات كثيرة غيرها .

سيدي رئيس التحرير المحترم :

كان هذا تلخيصًا وصياغة تكاد تكون حرفية بقدر ما سمحت به الذاكرة – للأفكار التي طرحتها في ذلك الاجتماع الذي تم في تونس على مدى جلستين حضرتهما ضمن وفد الأكاديميين والأساتذة وما كنت إلا وسأظل تلميذًا بسيطًا في مدرسة الشعب ، والتساؤل الذي أطرحه والذي دفعني للكتابة إليكم هو : لماذا تعمد رئيس تحرير تلك المجلة إسقاط كلامي من المضبطة متحديًا بذلك رغبة كل الأساتذة الأفاضل في ضرورة التزام الأمانة على الأقل فيما يتعلق بكلام الضيوف ورغم أن الأخ ياسر عرفات نفسه لم يبد غضبًا منه واستمع إليه بكل رحابة صدر .. صحيح أنه ركز إجابته حول موضوع اشتراك الفتى العربي في معرض الكتاب ولكنه لم

يغضب و إلا كان شطبني من الجلسة .. كما غضب (رئيس التحرير) فشطب كلماتي من المضبطة .. رغم أنني لم أكن متسللاً أو متطفلاً على الاجتماع ، فقد دعيت إليه رسميًا واستشرت من زملائي فيما نطرح من قضايا ، ووافقت معهم على ما طرحه الدكتور دويدار في بدايته من قضايا لم يجب عليها هي الأخرى .

الحقيقة يا سيدي .. أنني أبديت قبل قبول الدعوة بعض التشكك في ارتياح رئيس تحرير (فكر) لوجودي ضمن المدعوين لندوة الثقافة والتنمية ولكن الصديق الدكتور علي فهمي والذي كان يدعو للندوة بدد شكوكي و أصر على سفري .. وألزمني به .. لكنه للأسف لم يستطع إلزام (رئيس التحرير) بالأمانة الصحفية على الأقل .. ولم يستطع أن يلقنه درس الشعب المصري في احترام الضيف .. ولكن يبدو أن البعض ممن أكلتهم الغربة حتى ولو كانوا مصريين ينسون حكمة أكل العيش القديد والمش (في دوامة فنادق النجوم الخمسة الباريسية !!) والتي تقول أن الرجل يتمسك من كلامه ..! هذا إذا كان حريصًا على احترام نفسه واحترام تاريخ قديم تناثر في بالوعات الجغرافيا بين بغداد وبيروت وباريس وتونس .

الشاعر والكاتب المصري

سمير عبد الباقي

جزيرة بدران

سبتمبر 1985

صفعة (رفعت السعيد)

طالعت في جريدة العربى المحترمة عرضا لبعض ما ورد بكتاب الدكتور رفعت السعيد (مجرد ذكريات) الجزء الثالث ، واعتقد أن الكثيرين غيرى سيقومون بالرد على ما ورد فيه حول ما يخصهم .

ولكنى فوجئت بالعديد من الأصدقاء يحدثوننى عن ورود اسمى في واقعة بعينها يحاول فيها النيل منى والتقليل من شأنى بما لا يليق ولا يمكن أن يحدث . ودفعنى هذا الشراء الكتاب المطبوع خارج مصر للإطلاع عليه . وقد ورد بالنص ما يلى في صفحتى (226 ، 227) بعد مقدمة وافية عن اتفاقه مع رجال الأمن – يقول بالنص : وفيما اتهيأ لإنهاء المؤتمر ، قفز سمير عبد الباقى ، والذى كان يعتقد أن المؤتمرات لا تكتمل دون قصيدة منه " ثمة أناس يفترضون فرض أنفسهم على مؤتمراتنا حق لهم " وأمسك بالميكروفون وقال (بقيت كلمة الشعر) . وفيما أصفعه وانتزع الميكروفون منه كان الضابط يصرخ (اضرب) وانهالت العصى لتفريق المؤتمر وانتهى المؤتمر ولكن خطأ فرد كلفنا عدة سيارات ، وكلفنا أكثر من ذلك أن المؤتمر لم ينته بطريقة لائقة (!!!) (إنتهى كلامه) .

والحقيقة اننى صدمت للوهلة الأولى عند قراءة ذلك وفوجئت .. فكيف يمكن لأمين عام أهم حزب يسارى في مصر .. ومؤرخ لحركة النضال اليسارى منذ مطلع القرن وروائى وأديب .. ومناضل .. ! أن يكون على هذه الدرجة من افتعال الأحداث ليسمح لنفسه ويتفاخر بتخيل نفسه في وضع يستطيع فيه أن يهين إنسانا

بصفعه أمام الجماهير من أهله وبين عشيرته ، وإذا أردنا أن نعرف حجم السخرية في الأمر أن الجميع يعرفون ذلك الإنسان الشاعر ويعرفون طبعه الحامى خاصة فيما يتصل بكرامته !!

أضف إلى ذلك ان ذلك الإنسان المصفوع بيد السيد الأستاذ الدكتور الروائى المؤرخ مدير مكتب الزعيم ، الحاصل على الدكتوراة من ألمانيا الشرقية لأنه ضليع في قواعد اللغة الألمانية – (وكان الأستاذ/خالد محيى الدين عضوا مناقشا للرسالة) . هذا الإنسان الغلبان الخاضع لصفعة مدير مكتب الزعيم ، هو عضو من مؤسسى حزب التجمع وأن التزم بالوضع القاعدى وفق قواعد الازدواجية التي تكلم عنها الدكتور كثيرا !! وانه غادر التجمع بعد سنوات طويلة جرت فيها قى ومدن مصر للتبشير والدعوة لذلك الحزب إلى أن غادره آسفا ! باستقالة مسببة معلنة وهو عضو بالامانة العامة للحزب رغم أنف الدكتور (الذى اخفى وثائق أحقيته في التصعيد إلى الامانة العامة بالانتخاب من اللجنة المركزية لمدة عام كامل !!) .

واعتقد أن وثائق الامانة العامة موجودة (وبالمناسبة ما زالت الإستقالة مرفوضة "!!" حتى الآن .

ومن هنا فأنا أعتبر كل ما حكاه وادعاه حول تلك الواقعة وحولى بمثابة خطأ بسيط فادح من أخطاء الابطال الكوميديين في الملهاة الشعبية حين يعى البطل المهرج التعثر ليثير الضحك أو حين يدعى العمى المفاجئ ليفجر سلسلة من سوء الفهم تثير عواصف الضحك .. أو يتظاهر بفقدان ذاكرة عشوائى لتلتهب الأكف بالتصفيق الساخر إعجابا بالسقوط الأخير .

ولأنشط ذاكرة الدكتور الأستاذ الأمين الروائى الأديب والمدير السابق لمكتب الزعيم والقائم حاليا بأعمال مدير الإدارة المركزية لتصفية اليسار – أنه في التوقيت الذي عقد فيه مؤتمر (قرية النزل) (بالزاى) كنا عدلى فخرى وأنا وكتيبة من شعراء وفنانين آخرين قاسما مشتركا وسمة مميزة ومطلوبة بإلحاح في جميع مؤتمرات التجمع والحركة الجماهيرية كلها ندعى إليها بكل الاحترام وتنقلنا عربات الحزب المستأجرة والخاصة وأحيانا عربة زعيم الحزب نفسه (على سبيل المثال لا الحصر) مؤتمرات كفر شكر واسمنت حلوان ، كفر الدوار ، المحمودية ، كمشيش ، السويس ، الإسماعيلية ، ميت سلسيل ، الإسكندرية ، المنصورة ، المحلة الكبرى ، المنزلة ، دمنهور ، وطنطا وغيرها – وطبعا مؤتمر (النزل) الذي دعا إليه أهلى وأصدقائى أبناء الدقهلية .

وباعترافه – كان التخاذل أمام طلب الأمن فض المؤتمر بعد الكلمات السياسية ضد إرادة جموع اعضاء الحزب – بل وكشف الكتاب أنه كان أكثر من مجرد ضعف وتخاذل تحت ستار الادعاء بالمحافظة على حياة الناس وكرامة المؤتمر . وإنما كان تواطؤ لأنه تجاهل الجهود الجبارة التي بذلها اعضاء لجنة دكرنس وعلى رأسهم المناضل الراحل محمد طه في احتراق حصار الأمن لتهريب ماكينة النور وأعضاء التجمع من القرى المجاورة وكذلك الضيوف من الشعراء والفنانين من المنصورة إلى داخل القرية .

كنت مكلفا لا بمجرد القاء قصيدة ولكن بتقديم الحفل الفنى الذي كان سيشارك فيه الشيخ إمام وعدلى فخرى ومحمد حمام والشعراء زكى عمر وعبد الرحمن السبع وآخرون .

بعد انتهاء كلمة الزميل رأفت سيف سلمنى الميكروفون (كان أمين الدقهلية) لكى أبدأ تقديم فقرات الحفل الفنى وكانت قد سرت شائعة انهاء المؤتمر ورفضها المنضمون من أبناء الدقهلية فقدمت زكى عمر بالفعل وألقى قصيدة ألهبت حماس الجماهير ، مما زاد غيظ السيد الدكتور المتواطئ مع الأمن والحريص على تنفيذ تعليماتهم .. فقطع الميكروفون وكنت قد قدمت الشيخ إمام الذي بدأ بالغناء بالفعل فقطعت الكهرباء " وعلق أحدهم ساخرا إن الشيخ إمام لا تعنيه الكهربا فنوره سيملأ فضاء الجرن وضحك الجميع وتجاوبت الجماهير مع الشيخ (لاحظوا الوصف العصبى الذي دبجه السيد المؤلف للواقعة !!) .

وخضوعا لطلب الزميلين رأفت سيف وأحمد فتيح وبناء على طلب السيد خالد محيى الدين نفسه غادرنا المنصة .

ورغم صيحات العسكر التهويشية انفض المؤتمر بسلام ودون أى خسائر ولم تكون مغادرتنا المسرح بناء على أوامر من السيد المؤرخ لأنه لم يكن قد وصل بعد لامتلاك القدرة على فض المؤتمرات أو على المواجهة ، وهو الذي يقود العمل خلف كبير أو زعيم متمرسا في العمل (تحت الترابيزة) كما يقولون بعيدا عن الجماهير وبما له من علاقات وثيقة مع المسئولين كما يؤكد هو في كتابه وبنفسه .

وأخيرا .. أشير إلى المشهد المضحك الأخير الذي صوره له خياله بقوله (أنا بينما يصفعنى – انتزع الميكرفون من يدى) فمن يعرفونه ويعرفوننى خاصة منذ 25 عاما ستصورون على الفور ما كان يمكن أن يحدث لو فعلها فعلا .

لكن على ما يبدو هناك رغبة تراوده أو حلم يقظة يطارده ، أو كابوسا يضغط عليه ، حلما دفينا يصفع فيه المبدعين الذين يكرههم في شخصى بالذات لأسباب هو أدرى بها تحتاج لمحلل نفسى ليفسر لنا دوافع طبيعة المؤرخ العتيد والأديب الحاصل على الدكتوراة الألمانية مكافأة له لتبحره في اللغة والعادات والتقاليد الألمانية .

وفى النهاية .. ما زال شهود كثيرون على تلك الواقعة أحياء وأكثرهم يؤكدون لى " انهم يتمنون لو كان قد فعلها " فقد كان ذلك كفيلا بأن ينسب لى فضل تخليصهم وتخليص الحركة الوطنية المصرية في وقت مبكر من القائم بأعمال الإدارة المركزية لتصفية اليسار وكانت أمور كثيرة قد اختلفت ربما للأفضل !

ولكن الامر لم ينته فلنا بالتأكيد عودة (نثرا أو شعرا) ولو أرادها بعد أن نلتقى أمام القضاء أو أمام الجماهير فاختيار السلاح من حق بطلنا الكوميدى المثير للكثير من الجدل !!

●

طب وبعدين

ملحق ضرورى لفهم حيل الزمان
فى بحر عشرين سنة مختلة الألوان

ملعون أبو الشعر
مهما انكتب واتقال ..
ماشفت زى الشعرا ناس أندال ..
نلبس الكركوبه توب موال
ونبدل الأقوال ..
ونوصف الحاله بغير الحال ..
نولد البغلة حمير .. وعيال
ونغنى للعمال وللحرية ..
وإحنا كتبه عند رأس المال .. !
ملعون أبو الشعر صنعه ان كان وطبيعه
حرفه عصيه اما تحزن فى الخلا وتئن ..
أو تكن مطيعه ..
تعودك تسمع وما تميزش

بين حسك المبتلى المستغنى بوجيعة
وصوتك المعتلى المستعفى بوديعه
تضمن دوام الحال ..
حسبه ف اخرها ليه مافرقتش الشروه م البيعة .. ؟
سهله الإجابه – قطيعه – ما احتاجتش سؤال ..
مادمت عايم على الميه كبقعة زيت
أول ماغرقت مركب العمال
إنت نجيت عديت بحور الخوف وما اتبلتش
إذ كلمتك بالحرف موزونة ..
وغنوتك صالحه لجميع لاحوال ..
مين اللى قال انك انت كبرت على مهلك
وإن القدر استخار الشعر فندهلك
نسيت دما صاحبك وسقت ف جهلك
حققت كافة ما كنت بتشتهى وتريد ..
نسوان وفته وضمان م البنك بالتجديد
كفرت يابعيد
أصبحت تنسى فى صباح العيد – بعيد أهلك
.....
هو احنا كنا ضراير ؟ والا كنا عبيد ؟
إسأل سمير ..
عمره زمانا ما كانش ف (ايزافيتش) ضرير
ولا القليل اللى جمعنا على القهوة فرقنا وانت كبير
.....
عفوك ياصاحبى ..
كان الرغيف الفول يهنينا
بنقسمه لاربعه ونشبع يكفينا
لاشكينا قولون ولاف بولينا شكينا
ونبات بنحلم سوا نشبع برز وطير

حلم الجعان العيش بين (البرابره) و (ريش)
العدل كان فى الحر ضلتنا
عينينا كانت لبعضينا مراسينا
وعمرنا مشاوير ..
من (العجوزه) (لامبابه) لدير (مينا)
ما كانتش أمك عندها فريجيدير
نعطش فنغرف بالحفان م الزير – يامتخلف
– ما ورد حرير
الفقر مش نعمة .. لأ
لكننا استغنينا فاستعفينا
بالشمس والخضره وضل التوت وبالدساتير
بالضحكه لجلن تأمنا لدخول البيت
بالبرتقان والمشمشة ف فبراير
بالبحر ع الألوان
بالفلسفة .. بالشاى فى خمسينه وبالمزامير ..
بديوان (نيرودا) يزلزل المعتاد
قصة (لمحمد جاد) حدوته (فؤاد حداد) ..
تجوز الشاعر الهربان لست الحسن
يملك ححصانه من البرارى بلاد
بقصص غرامنا اللى كانت نيه مابتكملش
رصفان براح ووسيعه ورغى ما بيفرغش
فى ليالى من غير بنات أطول من الأحزان
وأضيق من الزنزانة ..
نفتل لها من هموم الناس حبال الصبر
فى غيطان رجوعه
وسنين كما كعوب الفلاحات جربوعة ..
لكنها بالرضا بتخفف الموجوعة
يحلم زى العسل يشبع الجوعه

تسمع الطرشه (بجانينى)
تصحى جوه القلب مجانينى ..
أحب قبطيه نزور لازهر ..
نعرف الخواجات بشيخ (درويش)
تزيح ليالى تباريحى ف زنازينى
وبالسماح تحيينى وتخلينى ..
أغفر ذنوب السجن للعسكرى ..
واضرب سلام للفرانين فى الجيش
واشكى غرامى وسرى للمخبر
وافرح لأنه نسى من مدة ما أخدنيش
وسمح لى ابدل قميصى النص كم بخيش
كانت السياسة فصاحه
والفن زوق وسماحه ..
والإنسانية بكل بساطة كما هيه نحب بعض بصراحة ..
- كانت عباطة ؟ ..
- بلاش .. ما تجرحنيش
ما كنتش أعرف تهمة الشاعر ولا حيرة الإنسان -
إزاى يكون المستحيل غلطان ؟
ولا كنت احس الجهل حين يحكمك
على مزاج الإلتزام يخرسنى أو يشكمك
ولا مين كتير وقليل
مين فينا حين يخشى يخشع
ويخضع العشاق لظلم الليل .. ؟
ويسلم الخايف إلى التهاويل ..
لكدبه كانت ع الحلال قادرة ..
حصل المحال واتحقق الموعود ، عرب ويهود ..
وهم التجنى يسود انفرطت المواويل ..
العود يجن ويكره الترتيل

والنيل نسى الشعر واستكفى بخيال محدود
لاتوت ولا (غيط نصارى) ولا نخيل ولاتيل
رغيف فقارى الوطن أخضعنا للتدويل !
•••

رسالة إلى الحزب

كان النشيد فرحة ميلاد
. من حمل كاذب . أكيد
لذا الرسالة مش رثاء لشهيد

يوم رجعت أحلامك تعقد فى غيطان القمح
سنابل للشهداء .. ويلابل ..
يوم ما فقست كلماتك فى عشاش الطير ع النيل ..
زغاليل وقصايد للعشاق ..
إتوهج لحن الأوراق بنشيدك فى أفران الصلب
غضب ورجال ..
غنيت لك من قلبى ملاحم ..
ورحلت مع الطمى أدور لإيزيس عن ماء المحاياه
وأوصل
بعروقى الحيه الإِلاء المرهونه بقيام الأموات ..
وهبتك كافة ما ملكت ايمانى
على قد الحال ..

أيام السجن الفردانى فى المنصورة ..
توتة عم زيدان الحبشيه
شقاوة الطفل المجنون بطيور الخضير
حواديت خالتى السيدة وضفاير أم الخير ..
صنانيرى الغاب وصوابع الطباشير
طيارتى الورق الكالحة أم الخيط متعقد والألوان الجير
العجله السلك ام كازوز
النحله الخشب أم حزوز
البلى الألوان الكورة
دموع البنت نجاة بنت حمادة المصرى
والخرسا بتاع دقادوس ..
أحلام أختى المهجوره فى العيشة تبات ونبات ..
مجلات الحيط فى زراعة القبه
حلبة تانت سعاد ونوادر عمى
دروس الأستاذ شلبى وحنا فانوس ..
قصايد نبش المسامير على حيط الزنزان الأخرس ..
علامات خرزانة شاكر أفندى دغيدى ..
على كفى وكفوف زميلاتى ف مدرسة الشيخة بنات
صوتى المسرسع تحت المسرح
بيهز قلوب نسوان السوق حوالين الصارى
بريئة يا عادل ، لازم تاخد تارى ..!
حكايات مأمون وصلاح وعزيزة ومديحة ونرجس
نصريه السمره بكرية عمك دعبس ..
سكر ومنيره وأوطان ..
أنعام ملكه وزينب جوزفين ..
نجلاء أم عيالى حبابى العين
كل اللى عشقته وكل اللى ملكنى
واللى ملكته وضاع

كل اللى غصبن عنى اتبقى ف أرابيزى ..
قصايدى الخايبين والفالحين
اللى اتدهسوا علشانك فى طين الميادين
واللى انحبسوا على لسانك فى حلق الملايين
ما استخسرتش فيك يا عزيزى
حتى رغباتى السرية وآهاتى المخفية
الحلم الموؤود اللى مقطع فيه
وهبتك فرط أيام العمر شويه بعد شويه ..
قلب حبيبى وصاحبى وأبويا واخويا
وراجع من جمرالغربه
وحاسس أشواك الصحبه
أكيد راجع متطهر طاهر مولود ..
وأنا الموعود الأصغر ..
لازما ح يكون لى بوجوده على قد عذاب الغيبه وجود ..
ح يخف معاه الجرح المكران بالدود
فارتدى لصدورهم ياكل الأكاديب السود
ياللى انطلقت فى غيابك من جحر الديب
يوم ما رجعت اتونست بحسك .. وبأنفاسك ..
اتأكدت بأنه ماحدش مات من ناسك ..
لا شهدى ولا لويس
ولا فتحى مجاهد
ولا جودة الديب ..
دقى يا أجراس الحرية .. لمحامى الشعب
للآتى أكيد .. وقريب .. وونيس
من تانى ح تلالى أنوار الاشتراكية ..
الخونه مؤكد ح يخشوا السراديب ..
وحترجع أيام العز اللى بتتباهى على الفقر
بأفرول الفقرا وبالجلاليب ..

.....

وأتاريها الهله عليله

والقله قليله ..

والحنضل متدارى وضارب فى حلق العيله

والهم قرارى

ولا انت ولا همه .. ولا حتى أنا دارى

ياللى مزع وش بلدنا حوارى

الدنيا اتخلفت أحوالها

وهجمت دهست دارى

رهنت أطفال لى لديون رسمالها ..

قتلت أحلام المتعب من عمالها ..

حتى الأوطان ..

صبحت زى خيالها ..

سهل استبدالها

عادى استهبالها من أجل رضاءها عن إستغلالها

وانت .. انت ..

يا للى كنت ربابة الصعب

الراضع من لبن الشعب

يا راية استقلالها

قدرت على استسهالها .. واستحلالها ..

اخترت من الأيام والآلام أسهلها ..

غفرت لمن باعوا ف أسواق التاريخ أبطالها ..

حاولت انك تقنعنى بإن اللى يجيبها مش حبايبها

ولا حتى رجالها ..

رجعة كإنها شقة غريبة

ما كانتش برسمالها

ليلة القدر ماهيش بهلالها ..

كسرت بخاطرى يا صاحبى

لما لقيتك حالق أشنابك
ومزوق ومزين ومعطر فرحان بصغارك
مش بشبابك
زى ما كنت ف ايام العثمانليه واولاد الناس
انت معانا والا معاك ..
وياك كارت التوصيه / تفوت / إكسر نابك
طاطى لتموت ..
وافق لتجوع .. اتوافق نعلا بك ..
اللى يعاندك فى الواضح عله
واللى يحاسبك ع الفاضح ذله ..
كل اللى ف وسطك حله ..
ما فى أشرف ولا أظرف من لبلاب السلطه
ولا أطيب من ضله
خساره يا راجل ..
يطلع حبل الصبر ده كله دوباره ..
ودموع المظلومه خساره ..
بقت القعدة على البهلى مباسطه ..
الصبيان لعبوا على الأسطى ونزلوا السوق
اتزحلقوا من كيس الطبقة العامله الوسطى
على فوق .. على فوق
وازاى ح يطيق – اللى اتعود إنه يشترى بالمكسب
انه يبيع اللقمه البايتة ولو بخساره ..
.....
رجع لى اللى اخدته يا صاحبى
قلبى .. صبايا وشبابى
ملاعب ميت سلسيل فى طفولتى ..
ضحكة أختى
رقصتى فوق السطح القش نهار التأميم

أيام وليالى الزنزانه تسعه وتلاتين المنصوره
وحدى مستفرده بيه حيطان التاريخ
وآهات اللاجئين من كل الأمم المقهورة ..
ويرفرف على شط الدنيا مع جاجارين ..
رجع لى تفاصيل الألوان فى الصورة ..
البهتانه على قبر لينين ..
أجبر خاطرى ف مره وراضى نفسى المكسوره ..
إغسل لو تقدر بدموعك ذنبى ..
لأنى ما فرقتش معايا إن طابت أو عوره ..
غرقنى فى البحر اللى ما هواش بحر
إلا ف حلم الشعراء الأولانيين ..
بقصايد بابلو وحكمت بالعاميه المصريه
ورحلة عبد الناصر وجيفارا لشبين ..
رجع لى الأشواق اللى غدرت بهي أيام عيلة الدوغرى
حكايات صباح الخير و (الفن فن)
المزرعه والمتولى وشربين ..
المشتل والمهره فردوس الأبنوس ..
رجع لى فؤاد حداد
من خزنة مكتب إبنه أمين .. !
.....
باين أنه مش باين .. إيه .. ولا مين ؟
مش ممكن – القول مش هاين ..
شكلك عاجز مقطوع الحيل ..
متباين ..
ما رضعتش من بز – النيل – النيل
ما طاوعتش سلطان الشعر ف مملكة الليل ..
بتماين
ما شكمتش فى برارى الحزن جمح الخيل ..

ولا رعشت قلبك عند غروب الشمس المواويل ..
القمح عويل ..
والتوت خاين
وكريم الدولهخ مش التبين
الملح قليل والعيش ماخمرش
قلبك مسروق منك ع العرش ..
شجرى وقمرى ونهرى وطولة صبرى ..
تمرى طرحى البدرى والوخرى ..
فكرى المجنون الغجرى والحجرى ..
زهرى وجمرى وعمرى وشعرى .. فيك ماطمرش
حتى لو عزت ترجعهم لى ..
ما ح تقدرش ..
الدايره اكتملت سبحانه الدايم ..
مش عايم فوق وش الميه غير الريم والقش ..
ولذلك ح اغطس فى النيل ..
إياك .. عنى ما تدورش ..
لغاية ما اطهر قلبى من ذنبك واتعزى بذنبى ..
استنى الفيضان المتكتف
فى طرحة إيزيس المنهانه
وجرانيت الجهل الشعبى
يمكن أشوفك تانى ..
طالع ويا الطمى ومتطهر بعرق ايزوريس
من خطوة ست وألاعيب المنفعين ..
عريان من هلاهيل الكدب ..
وحر مقطع كل خيوط الماريونيت ..
دايس كل دفاتر الحوانيت الزفره ..
متحرر من كل جمايل ضباط التنظيمات السرية ..
رسميه وشعبيه ..

من تحليلات الأساتيذ رهبان التعاويذ السحريه ..
كهن الأكر الرسميه وكهان الديمقراطيه
سماسرة بورص السوق الحره
ساعتها .. يمكن قلبى يسامحك فى كل مهالك عمرى ..
أفتح صدرى ..
أفشى لك سرى ..
أكحل عينى بتراب رجليك
أضفر شعرى وقصايد شعرى عليك ..
أتباهى بآخرة صبرى ..
اهتف باسمك على كل محطات المترو والسكك الحديدية
واستادات العالم ..
ونواصى الحارات الشعبية فى النور ..
واتفاخر انى عشت أغنى لك من صغرى ..
واتباشر بيك طول عمرى !!

الاستقالة

باودّعك ..
وأنا مش مساوم علة المهزوم
ولا مزايد عليك ..
دانا عمرى عشته من ضيا عنيّه وحَب القلب
أفرط وازرعك ..
فى ضلة الحيطان .. وفى الزنزان وع الرصفان
فى عز الصيف
وفى الأجران وفى .. طين الغيطان ..
كنت المسافر فى الزمان شايل همومك من
شتات الغربه فى الوطن الممزع .. أجمعك ..
وألم شمل الفلاحين والمتعبين فى ضل
غنيوتى الحنونه تسمعك ..
حتى ف مواسم حزن يونيه وسدة التحاريق
بدمعى ودمى كنت اسقيك وأرقيك من خيال
الخوف .. واشفيك من جراح الغمة لما بتوجعك .
فى النيل إذا ما يصدق الفيضان أطمّك
وانقعك .. !
كان أملى تتعطر بحبأ البر والريحان

فتتطهر من الأوهام وتخابيل الشيطان اللى
رماك ع المر بعد ما قطعك .. !
وعلى بيبان القصر من توب البكارة قلّعك ..
وبحجة العصر وموازين الحضارة طوعك ..
باودعك ..
لا قلبى طايق جنس خاطى بيخدعك ..
ولا صنف واطى يحط قدرك فى قلوب
الناس كإنه بيرفعك
باودعك ..
وأنا مش حزين ع اللى مضى ..
ولا قلبى خايف م اللى جاى
وبكل ما فى القلب من حنية الزمن الجميل
ومهابة الحلم القتيل ..
باكتم آهات جرحى وهموم الشعر والسجن الطويل
أحسن ما إيدى يمدها خوفى من العجز
الذليل وانشلّ بعد ما أضيعك ..
باودعك ..
يمكن وأنا والشر لو بره وبعيد ..
عاشق سوايا ينوّرك ويرجعك
ومن قرار بير التجنى والأنانية العنيد
شاعر جديد
لشط بر الإنسانية يطلعك ..
وعشان كده والحزن بيقطع فى قلبى ..
باعتذر للماضى اللى زى الشمس ولبكره
المخبّى ..
وباودعك .. !

●

الـفـاكـس الـمـضـاد

ملحق لتأكيد الإستقالة لا يصلح حزنه لبرودة أجهزة الفاكس

أبكى عليكم والا على نفسى
ياللى أنتو يومكم من جراح أمسى
النار تخلف رماد
إيه المدى اللى أنتو ارتجفتم فيه ؟
وأنا عارى زى الشمس كيف ح اخفيه
سقطت جميع البلاد
كل الرايات ماوقفتش النزيف
كل البنات اتحججت بالرغيف ..
والسوق شحيح الزاد
مين فينا يملك صك حريته .. ؟
يقدر يعرى ع الملأ علته
يكسر بخاطر الولاد
الغدر واحد . صدّق والا شكوك
خزنة رصاص تحميها خزنة بنوك
حبل النجاه صياد ..
فى خمسة يونية الدبح له وقفة

نبض الحياة أرخص من الشقفة
الشعر صار جلاد ..
الحزن كان له وقت فى المواويل
صبح الصحاب والذاكرة والنيل
الحلم مش قواد
عشرين سنة خمسين سنة يونية
ماعدتش تفرق سينا من سونيا
قفلوا بيبان لاجتهاد
ادى لحمى خبز ودمى فى شعرى
يا من حِبيتوا العمر فوق حجرى ..
حلت سنين الجراد .
يا مفطومين ع النىّ هيا انهشوا
من مدة ماتوا اللى ارتشوا واختشوا
زعيمكو بدأ المزاد .

فاختاروا ما شئتم من الأيام
واتمرغوا فى الوحل .. بالأحلام
راجعة الهزيمة بميعاد ..
كان خمسة يونيه وكنا عز الضهر
والعهر سايق الملعنة ع الطهر
والخسة طعم الوداد ..
فاكفى ماجور يا شعر ع السيرة
يكفى رغاوى المر فى البيرة
والحسرة فى الأكباد . !
ما تنتظرش العدل من معووج
ولا صياح الفجر من فروج
أمره بإيد لاسياد ..

●

الـهـلـوسة م الـعـيـا الأخـيـر . !!

يا طبيب ..أنا قلبى مش مُتعَب ..
أنا مدبوح ..
بير الكراهة طفح طالب دمى المسفوح ..
وح يعمل ايه قلب فَرَكه العصر فى كفوفه
وشمَت فى خيبة هواه اللى عماه خوفه
فاستسهل الغدر واستهبل على قلبى
قلبى اللى ساكنه البشر بالحب
حوش وسطوح !

موالى باكى وانا لا شاكى .. ولا مكسور
أنا اللى ما ذلنى منفى كريه ولا سور
عطيت ما خدتش . عبيط وبعبطى باتباهى
داريت عيوب العويل والواطى والعاهة
علشان رباية الأصول أيام ما كانت أصول
يشهد لى (باب توما) بوصول الأمانة
لـ (صور) !

أنا الرسول اللى كان قرآنه عشق الوطن

فى حب مصر اللى لسه لم نساه الزمن
سينا شراع السفينة – قريبة يا أحلام
حبيت رنين الكنايس والأدان والعرق
نجم الأمانى برق .. عمر الأغانى انسرق .
غاب الأمل وانطفأ
على إيد رفاق المحن !!

فأمانة يا قاتلى .. لا تمشى فى جنازتى ..
هون عليك حسرتك أنا ذنبى فى رقبتى
هانت عليّه حياتى .. هُنت ع الأندال
عملت م اللى قليل الأصل عم وخال ..
أول ما فتحوا مزاد البيع نهش لحمى ..
حىّ ودبحنى .. فدا .. للناكرين آيتى ..

يا حسرة الأنبيا فى متاهة التفكير
تقطع لسانك وتنطق باسمى تبقى أمير
حبيبك اللى تحبّه ده وهم م الماضى
إذ كل مهزوم بحزنه قاضى مش فاضى
وكل مأزوم فهم ما تفرضه اللعبه ..
مخبى ما أزّمه فى مرايته واتخبّى ..
لحد ما أن تَملّك رقبة الحسبه ..
ورمت جروح الحقيقة فى سكة التفكير ..
فاخرس وموت يا سمير
باب الجحيم مفتوح .. !

●

الـعـبـرة

منين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلوه ..
يا للى قريتوا سلافة شعرى ما فهمتوه

أنا كتبت إستقالتى منّكو بدمى ...
عبرت عما ضنانى حسرتى وهمى ..
لا جرحت حد ف إيمانه ولا غدرت بحد
وكان كلامى احترامى للسنين الجد ..
ساويتو بينه وبين اللى ف غباوه باعوه ..
منين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلوه

عايزين قتيل الهوى يغفر لمن قتلوه !!

يشهد عليه صحابكو ف سوريا وف لبنان
لا كنت بياع هوا ولا صبى فى دكان ..
كان حزبكم يستريح فى الغربه على فنى
انا اللى تحت الحصار كان باسمكو يغنى
وتقولوا (شخصية) لأده رغيفكو وخبزتوه ..

ومنين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلوه ..

تاريخ وبالدم كاتبُه ، بالخبَل تساووه ..
فلا عيش ولا ملح . مادام التاريخ نسيتوه !!

●

رسالة لتفسير أسباب الإستقالة

" أم على قلوب أقفالها "

الى من يهمه الأمر من
الزملاء أعضاء الأمانة العامة لحزب التجمع
والأصدقاء من كل أبناء حركة اليسار المصرى المجيدة والوطنين الشرفاء ..

*** أعرف أننى لست مؤهلا (بما يكفى من استيعاب للأساليب الميكيافيلية) للدخول فى معركة مع (جهابذة ودهاقين وكهنة) اللعبة السياسية الذين طفوا على سطح الحياة وطفحوا على وجه اليسار المصرى فى هذه المرحلة المتردية من تاريخ الحركة الوطنية المصرية .. وخاصة مع أولئك الذين يملكون سلطة القرار مدعمة بالتحكم فى منافذ النشر الحزبى ومتسلحة بسطوة المال والنفوذ المعتمد على تدهور المشاركة الشعبية والجماهيرية ، وعلى خواء ساحة العمل اليومى من العناصر المتحررة من وطأة الحاجة وذل الضياع ، النابع من عدم القدرة على استيعاب دروس التاريخ واستشراف المستقبل .**

*** ولكنى أحس أننى مدين لكم بحكم تاريخ طويل من العمل المشترك ومسيرة مليئة بالمعارك والمعاناة والانتصارات الصغيرة والإحباطات الكبيرة والهزائم . دفع فيها المخلصون من أبناء اليسار أزهى أيام حياتهم بل ودمائهم ، التى لن تستطيع كل قوى الشر نسيانها أو تجاهلها أو تشويهها بالأكاذيب أو السخرية أو نشر روح الهزيمة .. !**

*** نعم مدين لكم (بحكم كل هذا) بتوضيح لابد منه انطلاقا من إيمانى بأن المستقبل ما زال يحمل بالتأكيد إمكانيات أخرى للخروج من مستنقع اليأس والتردى ، الذى يحيط بحركة اليسار . وتخطى ذلك النفق المظلم الذى دفعتها إليه الممارسات الخاطئة ، والرؤى المنحازة ، والتسلط الجهول ، والأنانية وفقدان الطهارة الثورية ، والتعصب الفكرى ، الذى مارسته الأنظمة وقيادات الأحزاب على المستوى العالمى والمحلى .. !**

*** ولست أطمع فى أن ألعب دورا (أدينه) ولست مؤهلا له . ولا أريد إثارة الغبار فى وجه أحد بعينه ولا أحب الخوض فى صراع شخصى .. ولكن ما صاحب واقعة استقالتى من ضجة مفتعلة وبذاءة غير محتملة هو الذى يدفعنى لأن أتجاوز هذه الصغائر (المدفوعة الأجر معنويا أو ماديا) .. لكى أشرح لكم أن استقالتى كانت لما فاض به القلب من أحزان ، وما اختنقت به الروح من ممارسات تزيد كثافة الظلام وتحجب الرؤية الصحيحة لإمكانيات الخروج من الأزمة – التى لا يجب أن يتجاهلها أمين مخلص أو محب نقى القلب .. أى يسارى حقيقى !!**

*** وأضع بين أيديكم بشكل مختصر جدا تلك الهموم التى دفعتنى دفعا لذلك الموقف :**

أولا : فى دورة اللجنة المركزية قبل السابقة .. أثرت موضوع (التمويل والمالية حزبية) وطلبت أن يكون هناك التزام بدفع الاشتراك ومحاسبة عليه .. لأن هذا الاشتراك ولو كان بسيطا هو الذى يمكن العضو من الإحساس بأنه صاحب الحزب وربه ! وليس أصحابه هم أولئك الذين يمولونه تبرعا أو تطوعا أو تطويعا له كلما عن لهم ذلك أو شكل مأزقا أو مصلحة ..

إن الشفافية فى هذا الموضوع بالذات مطلوبة وضرورية فى ظل ما يثار من أقاويل وما يمارس من أفاعيل تجعل لذوى الغرض السيطرة والنفوذ على مسار العمل اليومى والمنطلقات الفكرية والمواقف .

لقد كان اليسار دائما عملا تطوعيا .. لا عملا مدفوع الأجر .. ولقطع دابر كل هذه الإشاعات والشبهات وما تلقيه من غيام فكرى ، خاصة على بسطاء الأعضاء ، والجماهير . ينبغى أن يكون هناك ما يجعل العضو يحس أن هذا الأمر لا أسرار فيه وأن الحزب بيته هو لا بيتا يسكنه بالإيجار إن لم يطرد منه قسرا أو تآمرا فهناك من يملك تقييد حركته وإجباره على إغلاق النوافذ حين يريد.. !!

ثانيا : قدمت مذكرة للأمانة العامة فى موسم انتخاب (سابق على السابق الأسبق) عندما تجاهل البرنامج الانتخابى كالعادة – مشاكل الثقافة ورؤية الحزب اليسارى (للثقافة) وإن كان البعض يظن أن الأمر يتعلق بالفنون والأدب ويحصر مطلبى فى ذلك الفهم الضيق – فهذا ليس ذنبى – وإنما هو ذنب الحزب اليسارى الذى لا يملك رؤية ثقافية للماضى والحاضر والمستقبل يتبلور حولها وينبع منها تشخيص (للحالة) المصرية ، وللمواقف الشعبية ، وللتعامل مع الوطن والمواطن .. ! تستوعب حضارة هذا البلد وأساليبه فى مواجهة متطلبات الصراع مع الآخر ومع النفس .. وما يحيط بها من خرافات وأساطير وعقائد . وما ندعو إليه من رؤية علمية للواقع وللعلاقات .. ! ولا بأس حينئذ أن يتطرق الأمر إلى الأدب والفنون باعتبارهما المرآة التى تعكس روح كل ذلك .. وكم قوبلت هذه الدعوة بالسخرية حتى من أولئك الذين يدعون الثقافة اليسارية والشعبية ولا حياة لم تنادى . لأن حركتنا الأسيرة لردود الفعل تكبل عقولنا وقلوبنا .. !

ثالثا : فى العلاقة مع الأدباء والفنانين .. توجب الدعوة لتصحيح هذه العلاقة ذات يوم منذ سنوات عديدة .. بعقد اجتماع مع الأمين العام للحزب (رئيسه حاليا) الأستاذ خالد محيى الدين .. وحضره أكثر من ثلاثين فنانا وأديبا معظمهم ممن كانوا أعضاء فى مكتب الكتاب والفنانين (المأسوف عليه) وبعضهم كان من الفنانين الكبار المتعاطفين مع اليسار ..

وكان لقاء رائعا – ولم يتبين الحزبيون العقائديون يومها أن هذا اللقاء مفتاح لحل اللغز (لغز العلاقة بين الفنانين والحزب) ولقد استمع الأمين لهموم الفنانين والأدباء ولآرائهم فى مشاكل الفن والمجتمع وخرجوا منه بقناعة يحسون معها أنهم جزء من هذا الكيان دون عقد الارتباط التنظيمى الجامد والمعوق – علاقة تتناسب مع حجمهم ودورهم – وتحتفظ بالاحترام لهم .. !

ويومها طلبت بالحاح أن يتكرر هذا اللقاء وأن يعد له بشكل جيد وهى المهمة الوحيدة التى يمكن أن يقوم بها مكتب الكتاب و الفنانين (المأسوف عليه) .. ليكون وسيلة ارتباط جيدة ومتحررة من روتين وقيود التنظيم التقليدى .. وفى نفس الوقت يشعر الفنانون والأدباء أنهم جزء من الكيان وعلى أعلى مستوى ولا يظلون عمال تراحيل أو زهورا نعلقها فى (العراوى) فى المناسبات الحزبية والجماهيرية بشكل انتهازى .. !

ولكن (لأننى) صاحب الاقتراح ولم يأت من ذوى الحظوة والنفوذ فقد قبر ولم يتكرر . وظلت العلاقة مع الفنانين والأدباء علاقة منفردة وعرجاء .. ولكم أن تخمنوا أسرار ذلك ..

رابعا : حين توقفت مجلة اليسار أعلنت رأيى الذى أغضب الكثيرين بأن هذا (موت طبيعى) !! فمجلة بلا قراء عليها أن تختفى وهو أمر تاريخى وصحفى ومنطقى فالكتاب الذين يكتبون لأنفسهم ، عليهم أن يتبادلوا مقالاتهم حتى يجدوا من يقرأ لهم مثلما نفعل نحن (الشعراء المساكين) صحيح أننا ضحايا الضحالة الفكرية والثقافية والأمية ولكن ما المبرر الذى يعوق (جهابذة المفكرين وأرباب الرؤى الجبارة) عن الوصول إلى قراء يحلمون بمجلة لليسار تتفاعل مع همومهم المعاصرة وتستشرف المستقبل معهم .. !!

لم يؤخذ الأمر على حقيقته – بل دعوا لتكوين (جمعية خيرية اجتماعية) لعمل (حبل سرى) زائف بمدها بدم صناعى لأن هناك من يعيشون على هذا الأمر معنويا على الأقل أو أبهة يسارية للترويح لأشخاصهم محليا وعربيا وعالميا لأنهم ذوى حس (تاريخى بحثى) يعرفون أن يوما ما بعد مئات أو عشرات السنين سيأتى (أمثالهم) من باحثى التاريخ فلا يجدون يسارا فى مصر سواهم . إنها قضية للخلود على الورق . ولو على حساب الحقيقة البسيطة التى تقول (مجلة بلا قراء لا تستحق حتى الرثاء) . ودفعنى هذا الأمر لكتابة مذكرة حول (الخطاب الجماهيرى) لمطبوعات الحزب .. وطلبت مناقشة ذلك .. مع مناقشة سياسة (أدب ونقد .. والأهالى) فى الأمانة العامة .. فدعيت بحكم الروتين لعرض الأمر على الأمانة المركزية .. وهناك تبين لى أن البعض يود من قلبه مناقشة الأمر وفضحه ولكنه يريد أحدا آخر ليلعب دور (حصان طرواده) لأنه يخشى مواجهة أولئك الذين يكتبون التاريخ وهو فى حاجة إليه ، وحول البعض الأمر إلى موضوع شخصى (لأننى غاضب لموقف الأهالى وأدب ونقد منى ومن أعمالى) وحين بينت سخف ذلك – ألحقت المذكرة بمذكرة أخرى غاية فى (الشخصية والذاتية) فضحت فيها ممارسات أولئك المتحكمين فى هذه المنابر ودورانهم حول ذواتهم فماذا كانت النتيجة ؟ قبر الأمر فى أدراج الأمانة المركزية بكافة الحجج المفهومة وغير المفهومة .. حتى مرت دورة اللجنة المركزية .. ودخل الموضوع فى (الطناش السياسى والتنظيمى) واضرب رأسك فى الحيط يا زعيط !!

خامسا: إن استمرار احتكار قلة معينة للمسئوليات العليا والهامة والمؤثرة فى إدارة العمل اليومى وآليات الحركة الحزبية ومنافذ التعبير الجماهيرى حولت هذه المسئوليات إلى (سلطات) ذات نفوذ يفرض على من يريد التنفس والحركة تقديم الولاء لها بما يرتبه هذا من خطايا فتحولت تلك السلطات لشبيهاتها فى الإدارات الحكومية والبيروقراطية ترتبت عليها (مصالح) بكل ما تعنيه الكلمة . وحولت العلاقات الحزبية من علاقات رفاقية إلى علاقات أصحاب نفوذ (ورعايا) بما يخلقه هذا الوضع من شللية وصراعات خفية فإذا ما ارتبط هذا (بانتماءات خفية أخرى) تولدت تلك الحالة العبثية من تبديد قوى الحزب ، لا فى صراعه من أجل التقدم والتحرر واكتساب ثقة الجماهير والتأثير فى المجتمع ولكن فى صراع لكسب (الأنصار) ونفى الآخرين المختلفين وتمهيد التربة لبذور الميليشيات الخاضعة بالولاء الأعمى لتلك المصالح وأصحابها ، ذوى النفوذ والسلطة الحزبية والذين تمرسوا تحت وطأة تضخم الذات والأنانية والخوف من فقدان النفوذ فى استخدام أساليب العرقلة والتجاهل والاضطهاد ، وهو ما يدفع الكثيرين ممن يحتفظون ببعض الاعتزاز بالنفس أو بالفهم المخالف لطبيعة العمل الحزبى أو المؤمنين (سذاجة) بصورة أخرى للحزب وللعمل السياسى ، إلى الهروب والنأى بأنفسهم عن الاستمرار فى خوض معارك يفرضها ضيق الأفق والتسلط المبنى على (الكراسى والمناصب) وكأننا فى ظل سلطة دولة غاشمة – وهبوا عمرهم لمنازلتها والقضاء عليها .

سادسا : إن تفشى هذه الظاهرة جعل إشاعة الديمقراطية فى الحياة الحزبية أمرًا مستحيلا .. وأفرز ظواهر سلبية وقاتلة من الاتفاقات الجانبية والتوافقات الانتهازية .. وحول كثيرًا من الأمور والقضايا إلى (الساحة الخلفية للحزب) وصار الخوف من تجنيد الأعضاء إلى (آراء) أخرى أو إقناعهم (بأفكار) مخالفة خطرا على تلك المراكز ، وذلك النفوذ ، وهذه الأساليب ، إذا ما فشلت سياسات الاحتواء أو الإغراء أو التطويع .. وهذا يضع العقبات ويعرقل وسيظل ، تطوير الشكل الحزبى إلى شكل مصرى جديد يمكن معه استيعاب الاختلافات الفكرية الحالية وتحويلها لقوة دفع وسيعوق أى اتجاه ديمقراطى فى حياة الحزب الداخلية .. وسيكون كما كان قوة طرد لكل العناصر الحريصة على استقلالها الفكرى وللعناصر المبدعة ، لحساب البيروقراطية وذوى النفوذ المدعوم !

سابعا : وهو الأمر الشديد الأهمية والذى يشكل – فهمه ووضعه فى موضعه الصحيح والتعامل معه بكل قيم الضمير الوطنى والثورى – الأساس لتصحيح كل الأوضاع الخاطئة والخروج من هاوية العجز والتشرذم والتردى والانعزال الجماهيرى – فبعد الانهيار الكبير للأنظمة الاشتراكية والذى كشف عن الأخطاء القاتلة فى التجربة الاشتراكية فى القرن العشرين والتى يمكن تلخيصها بكل بساطة فى (نفى وتحريم الرأى الآخر !!) والخضوع الانتهازى للسلطة ! (قارن ذلك بما يتم على مستوى الصراع الداخلى والعمل الحزبى) بكل صورهما الحزبية والحكومية (والأمنية) .. وقتل ملكة التفكير الحر بتجريم الاختلاف مع القيادة السياسية – وتفضيل الاعتماد على الموثوق فيهم والمطيعين (والانتهازيون هم الأقدر دائما على اتفاق اكتساب الثقة نفاقا وغباء وطموحا) بدلا من الاعتماد على الموهوبين والقادرين على الإبداع – وتسييد فكرة الحزب الواحد الوحيد باعتباره المعبر عن الطبقة (تلك الطبقة التى لم تعد ذات سمات وقدرات وملامح واحدة) وقفل باب الاجتهاد ، وعدم القدرة على استيعاب التغيرات الجذرية فى التطور العلمى والتكنولوجى الذى كان يحتم (مع الإيمان بقوانين

الجدل .. والتطور الاجتماعى) اكتشاف العلاقات الجديدة بين قوى الإنتاج والعلاقات الاجتماعية مع نقد حقيقى وعلمى لما كان – كل هذه الاكتشافات التى لم تهز شعره – عند معظم الزملاء الجهابذة .. الذين يفضلون إيمانا ميتافيزيقيا بمعجزات قد تحدث فى المستقبل لتؤكد صحة تمسكهم بالأساليب التنظيمية العتيقة واحتكار العمل السياسى .. والكهنوت الفكرى .. والوصاية .. وكل ما يتنافى مع (صحيح الاشتراكية) !!

أيها الزملاء ..

أيها الأصدقاء ..

*** لو كنت رأيت قبسا من نور يهدى خطاى مرتبطا بحزب التجمع بصرف النظر عما هناك من اختلاف حول البرامج والتوجهات الفكرية والنظرية ..**

ولو كنت أحسست لحظة واحدة عبر عدة سنوات ، بالأمل فى قدرة ما ، على التغيير من أجل ديمقراطية داخلية تستوعب كل إمكانيات اليسار ، ونحن أسرى هذا الأسلوب العتيق القاصر فى الممارسة ، لما استقلت ، وبالنفس كل هذا الأسى ، ولكن آليات اجتماع اللجنة المركزية الأخير والذى قيل على لسان أمين اللجنة المركزية (أنه عقد لتبنى خالد محيى الدين لوجهة نظرى فى الأمانة العامة حول ضرورة الخروج من أسر الأزمة بفتح العقول والأذهان لدراسة التطورات العميقة والجارفة التى حدثت فى العالم ولنا !!) هذا الاجتماع وما سبقه من تحضير وما لحق به من قرارات ! أسدل ستارا كثيفا من (عدم الجدوى) أمامى اكتملت به قناعاتى بكل ما ذكرت . فأقدمت على الاستقالة ، التى كانت إضاءة كشفت بشكل وحشى عن مدى الكراهية والبذاءة التى يخفيها البعض والذى لم تشفع كل سنوات التاريخ الحى المضمخ بالدم والمعاناة أن تخفف منها .. وهو أمر (مقبول) فكم دقت على الرأس طبول كما الشعب يقول – (فى النهاية) أنا أضع الأمر بين أيديكم تفسيرا لا تبريرا لعلكم تتفهمون الموقف وتعذرون !

قد تساهمون فى فعل ما عجزت عنه وعجز عنه شعرى وإبداعى وسنوات عمرى خلال عشرين عاما .. من عمر حزبكم الطويل ..

لكم كل الحب والأمنيات بالتوفيق ،

سمير عبد الباقى

*** أرسلت خطابا ملخصا بهذه الأفكار للسيد الأمين العام للحزب ردا على خطابه برفض استقالتى .. وقلت فيه أن حصر الأمر فى حكاية القصايد سيخفى ضرورة مناقشة أسباب الاستقالة واعتبرت رسالتى له رسالة إلى الأمانة المركزية .. عسى أن يكون قد أطلعكم عليها !!**

1996/9/1 – جزيرة بدران

الزملاء الأعزاء
أعضاء الأمانة المركزية
تحية واحتراما وبعد ..

○ طلبت أن يدرج موضوع المطبوعات الجماهيرية الحزبية للمناقشة بعد تردد طويل ولكن الأمر صار غير قابل للتأجيل بعد توقف اليسار عن الصدور وعودتها بنفس طريقة الرضاعة الصناعية التى تعودنا بها الهروب من المشاكل الحقيقية التى تكمن فى انصراف الجمهور عن مطبوعاتها .. وعدم اهتمامنا بذلك .. وترك الأمور حتى تتفاقم وتصبح مشكلاتها كوارث !!

○ وعندما طلبتم منى أن أحضر للأمانة المركزية لشرح وجهة نظرى أحسست أننى لست وحدى الذى يريد مناقشة هذا الأمر .. بل وأحسست أنه (دمل وأنا فجرته) دون أن أقصد .. ووجدت لدى الأمانة المركزية رغبة وأسبابا ونوايا لمناقشة الموضوع وكأن البعض كان ينتظر أن يغامر (أحمق) بارتياد المنطقة الملغمة قبله ، حتى لا يلحق به لوم أو عتاب !! وجعلنى هذا أحس بالندم لأننى ارتكبت هذه الحماقة .. فلم أكن يوما ولن أكون (حصان طروادة) لأحد .. واحسست بإحباط شديد لأن ما حدث فى العالم من كوارث دمرت أحلام البشر فى التقدم وأصابت أشد – ما أصابتنا ، فتشابكت الدروب واختلطت المفاهيم ، وشلت خطى الثوار وتراجعت آمالهم وصغرت !

أحسست أنه بالرغم من كل هذا – وهو ما يتطلب من المخلصين وأصحاب الأحلام الكبرى فى العدالة والديمقراطية والحرية والإشتراكية أن يراجعوا أساليبهم وأفكارهم إن كانوا حقا حريصين على ما يؤمنون به – أقول أحسست أننا لم ولن نتغير .. بل سيقاوم بعضنا الاعتراف بالهزيمة ، التى أعتبرها مؤقتة بكل المعانى لو استوعبنا دروسها التى ينكرها ، هذا البعض منا .. لأسباب كثيرة أهمها تلك السلطات والمصالح التى ترتبت لهم فى إطار الماضى وتحت وطأة علاقاته المريضة !

○ وأنا على كل حال – وإن أحسست أن ما أقدمت عليه سيجهض ويحبط – لأن المستفيدين من الأوضاع الحالية يتقنون فنون (بيع أنفسهم) إعلاميا وحزبيا بمواهب فى التبرير والتفسير – وأنا أضعف كثيرا فى هذا المجال – فلست بباحث قدير ولا سياسى (عويص) – فما أنا إلا شاعر رفضوا الاعتراف

بموهبته لسنوات طويلة وتجاهلوه بسبب طول لسانه وتمرده وعدم إمكان ترويضه – بالضبط كما تطلب منه السلطات الأخرى – على كل حال ! ها أنا أرتكب نفس الخطأ .. فينزلق بنا الأمر إلى الذاتى – ذلك لأن الموضوعى غائب عن الجميع ، وإلا لناقشت الأمانة المركزية أمرا تجده بهذه الخطورة – منذ أمد بعيد دون حاجة لى !

○ ننزلق إلى الذاتى لأن الأمر فى جوهره غير موضوعى .. لأن الموضوعية كانت تقتضى أن تستشعر القيادة العليا للحزب خطر ما جره أولئك المسئولين بالوراثة عن (لسان الحزب) إلى الجماهير والمثقفين – من مصائب تتلخص فى الآتى :

1- انصراف وهروب أو ابتعاد كل من يتمتع بموهبة أدبية أو فكرية أو فنية من عضوية الحزب .. لافتقادهم لأداة أو لأدوات علاقتهم مع جمهورهم عمدا أو جهلا .. فالنتيجة واحدة – وهى تسر البعض تماما ..

2- الخطاب الذى تتبناه هذه المنابر .. إما خطاب (سلفى متطرف أحادى النظرة يتجاهل حقائق ما حدث للعالم ولنا) إصرارا على أننا نملك كل الحقيقة وآراءنا وحدها هى الصحيحة كما تفعل اليسار (راجعوا رأيهم فى الشيخ أمام وفى حزب الوسط) !!

3- التخبط فى إدارة هذه المنابر واختيار متعمد لمساعدين من النماذج الشللية والذاتية أو التى لا علاقة لها بالأمر (كان ناصر عبد المنعم مخرجا وفنان مسرح وليس كاتبا – حكاية (إ . د) وما يثار حول شخصه وسلوكياته – واخيرا حلمى سالم وذاتيته وتعصبه لمجموعة محدودة من الأصدقاء) واسألوا أعضاء الحزب من الأدباء والكتاب وخاصة فى الأقاليم لتتضح لكم الصورة أكثر . أو اطلبوا منهم أن يكتبوا آراءهم لتستنيروا بها .. وكل هذا استمرارا لنفس السياسة التى تتبنى السلطة الأدبية الحكومية اختياراتها عليها – أن يكون (من معنا – لنا) .. بكل ما تعنيه الكلمة .. وكل من يخالفنا عدو وإن لم يكن ذى خطر . وتظهر غلاوة المنبوذين بعد موتهم عادة لأنهم خرجوا من المنافسة .

4- النرجسية العظمى التى يتمتع بها المسئولون عن هذه المنابر وتحويلها إلى أبواق دعاية شخصية أو وسيلة للحضور العام ، إذ بدونها وبدون سلطتها تتغير الأمور كثيرا .. مثلا (انظروا موضوع انتفاضة الصحفيين – الذى كتبته (فريدة النقاش) لليسار – وكم مرة ذكر اسم (حسين عبد الرازق) مقارنة بالآخرين إلى درجة حولت الموضوع إلى انتفاضة (حسين عبد الرازق)) والأمثلة كثيرة .. !

○ وليس الأمر قاصرا على هذا الموضوع .. فأنا لم أر فى حياتى رئيس تحرير سوى (سمير رجب) يذكر اسمه فى مجلته عشرات المرات وتوضع صورته فى كل مناسبة ممكنة (هذا طبعا ما عدا الافتتاحيات – لهيكل ونافع ..... الخ) وآسف لهذا (التدنى) ولكن ما باليد حيلة .. ألم أقل لكم إن الأمر (ذاتى حتى النخاع !) فالموضوعى مات من زمن ودفن عمدا وقصدا .. !

الزملاء أعضاء الأمانة المركزية ..

لست فارس المشاكل المزمنة .. ولن أزيد سوى أن أقول .. إن هذه أوضاع ترتبت على علاقات سياسية (غير موضوعية) !! وعلاقات شخصية (تاريخية !!) وترتبت على أوضاع حزبية (مأزومة !) فصارت مرضا عضالا .. حاولت أن ألفت أنظاركم إليه وأن اتحمل الجانب الذاتى فيه بكل ما سيجلبه على هذا

من (بلاوى) أكثر مما جلبه الوضع التاريخى السابق ولكن فلتكونوا أنتم الموضوعيين القادرين على التفرقة بين الذاتى والشخصى والعام .. كونوا أنتم أصحاب المسئولية .. وادرسوا الأمر (علميا وفنيا وفكريا واقتصاديا) .. ولكن لا تنسوا ما سببه الوضع القائم من إبعاد لكل الموهوبين فى شتى المجالات عن أن يكون لهم مكان إلى جانب ورثة الحقيقة التاريخية وأصحاب المواهب (الشرعية) (والموروثة!!) .

ولكم منى كل احترام ، يفرضه علو المكانة والمقام ، ودام (حزبنا) ألف عام !!

سمير عبد الباقى

فبراير 1996

[لأن الأمور على ما هي عليه
لا يمكن أن تبقى على ما هي عليه]

—

برتولد بريخت

من المحال دوام الحال ...

خبرة شعبية

بكرة أجمل من النهاردة

" مع الاعتذار لصلاح جاهين "

الشمس صَبحت بليدة
صار القمر أرزل من الوردة ..
شجر الكافور إنهطل ..
والريف بقى أهبل وساق العَوَج ..
هجر غيطانه لأخيب ما رأيت ألوان ..
وأغبى ما نطق إنسان
إنجن طعم البلح حزنا على النخلة ..
النخل هايف مخوخ فاقد الإتزان ..
النيل صبح منظرُه بيقلب الأحزان ..
شى الله يا سيد يا بدوى – طعنى فى مقتل ..
ما تت سعاد حسنى ..
وصلاح جاهين أنتحر ..
وعيون أبويا سليم كَلّ فيها الضى ..
ومال شراع السفينة فى رياح العدو ..
الشعر صار أهطل ..
بوّخ ورنّخ فى الكتب والبوح ..
متلخلخ الأوزان
عديم الروح ومتقلقل ..
عايز لسان أتقل وعملة صعبة
من أجل يمدح سيادته ..

يشكر مسار التاريخ اللى وصّلنا لفريد وقته ..
عصر الأمان الكامل الأشمل
عصر السكون الزؤام
وحده على القبه واضح متزن .. أعقَل ..
بيحكّم العقل لما ساعات يزنّ عليه ..
يوزّه ع الأكمل
وع الأصعب من الأسهل ..
راخى حبال الهلضمة بإيديه
صبح أطول
عريض بقد الوطن ..
لا يكل ولا بيمل ولا يتعب
عفى صحيح البدن صاحب نظر واعى ..
كل الخيوط فى إيديه بلا داعى ..
الكل أعمى يا أعور هو وحده بصير ..
لكن لحكمه يبان للحاقدين أحول ..
راقم كصقر الفلا كل البلا الأسف
فاقبل قدر ربنا إنك كئيب جاهل ..
قبيح طباع زيىّ متخلف .. ولا تخجل
ما دام سعادته سعيد
فرحان بعمره المديد
اللى عشان الأحبه يعيده م الأول ..
وثِق فى رأيه السديد .. بأن بكرة أكيد ..
.. ح يكون معاه أجمل .. ويا عجبى !!!

●

خاتمة

مازال صوتك عالي ..
ولسانك زي المبرد .. برَبند
محموق على إيه ؟ يا مهبول
اهمد ..
العمر اتبعزق ، قشرة في رحاية الفول ..
واتنسف الفعل الثوري بوزّة محمول ..
الحلم اتعقد واتفرد الحمص على شاشات الانترنيت
العالم كله أصبح (أورنس) .. اتمسخ القول
والملك الغول ع الشبكة الواقعة ..
سهران بيتدفى بقلوب الأطفال ع المنقد

ليه من أصله كتبت الشعر ..
وظنيت أن ح يبقى لك أيها سعر
لا كنت مريض ولا كنت جعر
ولا كنت معقد ولا أصلك مجهول ..
معقول ؟.. ما عرفتش لسه إنك محقوق
ولحد الوقتي وما فهمتش .. إن مالكش عليهم أي حقوق
باين إنك راح تفضل نكدي على طول ..
حتى على نفسك وح تصبح أنكد وأنكد ..
ليوم ما يحول الحول ويحل الهول ..
صوتك عالى ، لسانك مبرد ، مخك مقفول
همه يصبوا على دماغك محلول الغل المغلول ..
وانت نارك مش راح تبرد
وح تفضل حتى قبرك .. متوهوجة على طول .!

●